

أُعْلَمُ الْمُسَاجِنِينَ

٧٩

شَيْخُ الْإِسْلَامِ
الْحَدَّادُ بْنُ تَمِيمٍ
رَجُلُ الْإِصْلَاحِ وَالدَّعْوَةِ

٦٦١ - ٩٧٩٨

تألِيفُ
دَنْدَاهِيمْ مُحَمَّدُ الرَّعَيَّى

كِتابُ الْقِيلَاءِ
دِمْشَقُ



شَيْخُ الْإِسْلَامِ
الْحَمَدُ بْنُ تَمِيمَةَ
رَجُلُ الْإِصْلَاحِ وَالنَّفْعَةِ

الطبعة الأولى

١٤٦١ م - ٢٠٠١

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا مت

دار القلم - دمشق: ص ٤٥٣ - ت: ٤٥٣٧٧ - ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ - ٦٥٣٦٦٦

ص ٦٥١ / ١١٣

توزيع جميع كتبنا في السعودية عملاً طريقة

دار البشائر - جدة: ١٤٦١ - ص ٤٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هذا الرَّجُل

● الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، بركة الإسلام، حجة الأعلام، برهان المتكلمين، قامع المبتدعين، محييي السنة، ومن عَظُمت به لله علينا الْمِنَّةُ، وقامت به على أعدائه الحجة، واستبانت ببركته وهديه المحجة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، أعلى الله مناره، وشيد به من الدين أركانه..»

«الحافظ كمال الدين ابن الزمل堪اني»

● لما اجتمعنا بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد.
وقال: ما كنت أظن أنَّ الله بقى يخلق مثلك.

«الحافظ ابن دقيق العيد»

● ما رأيْتُ مثله، ولا رأيْ مثل نفسه، وما رأيْتُ أحداً أعلم
بكتاب الله وسُنة رسوله، ولا أتبع لهما منه.

«الحافظ المزي»

● لو حُلِقتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أني ما رأيْتُ بعيني
مثله، ولا والله ما رأيْ مثل نفسه في العلم.
إنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له.

شيخنا الإمام العالم العلامة الأوحد شيخ الإسلام، مفتى
الفرق، قدوة الأمة، أُعجوبة الزمان، بحر العلوم، حبر القرآن،
تقي الدين سيد العباد، أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن
عبد السلام ابن تيمية الحراني.

«الحافظ الذهبي»

● .. فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارفة بحره، وتوسيعه في
العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلغه في كلٍّ
من ذلك المبلغ الذي يتتجاوز الوصف،.. وقدره في نفسي أعظم
من ذلك وأجل، مع ما جمع الله له من الزهادة والورع والديانة
ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سنن
السلف، وأخذه من ذلك بالأخذ الأولي، وغرابة مثله في هذا
الزمان بل من أزمان.

«الحافظ تقي الدين السبكي»

- ألهيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والأثار حفظاً.. برب في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رأه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.
- الشيخ الإمام حامل راية العلوم، ومدرك غاية المفهوم، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رحمة الله. **«الحافظ بن سيد الناس»**
- وشهرة إمامية الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس، وتلقى بشيخ الإسلام في عصره باقي إلى الآن على الألسن الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو تجنب الإنفاق، فما أغلط من تعاطى ذلك وأكثر عثاره.. وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتميز في المنطوق والمفهوم، أئمة عصره من الشافعية وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة. **«الحافظ ابن حجر العسقلاني»**
- ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتى شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام... وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد، والأفراد. **«الحافظ جلال الدين السيوطي»**

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ.
وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ
يَهْدِي اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّلْ فَلَا هَادِي لَهُ.
وَأَشَهُدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.
وَأَشَهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحُ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا.

وبعد:

لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ كَالْمَاءُ لِلْحَيَاةِ، يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ يَعْمَلُ
بِهِ، وَيَهْلِكُ مَنْ يَهْلِكُ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى فِي
كِتَابِهِ الْعَظِيمِ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ حِيثُ قَالَ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى:

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

[المجادلة: ١١] وَذَكْرُ عَلَوْ مَكَانَتِهِمْ حِينَ قَرِنَهَا مَعَ ذَاتِهِ الْعُلِيَّةِ،
وَمَعَ مَلَائِكَتِهِ الْمُقْرَبِينَ حِينَ قَالَ: ﴿شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوْتُوا الْعِلْمَ قَلِيلًا يَأْتِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَكِيرُ﴾
[آل عمران: ١٨]، وَمِيزَهُمْ عَنْ سُوَاهِمِ النَّاسِ فَقَالَ: ﴿قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وَحِينَ ذَكَرَ آيَاتِهِ فِي
الْكَوْنِ، وَآيَاتِهِ الْمَنْزَلَةُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، ذَكَرَ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يَعْقِلُهَا
وَيَفْهَمُهَا عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحُ أَهْلُ الْعِلْمِ فَقَالَ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا
إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ
تَعَالَى.

وَأَمَّا ثَنَاءُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمْ فِي سُنْتِهِ الْعَطْرَةِ الصَّحِيحةِ فَهُوَ
أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَحْصِى، وَحَسِبَنَا مِنْهُ زَهْرَةُ فَوَاحَةٍ مِنْ بَسْتَانِ النَّبِيِّ
الْطَّاهِرِ فِيمَا جَاءَ عَنْ أَبْيِ الدَّرَدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى

الجنة، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتها رضاءً لطالبِ العلمِ، وإنَّ العالمَ ليستغفرَ لهُ مَنْ في السمواتِ وَمَنْ في الأرضِ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ.

وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لِيَلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ.

وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَبُّهُ الْأَنْبِيَاءُ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورثُوا دِيناراً وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظِّ وَافِرٍ^(١).

وَمِنْ أَعْلَى رَتَبَةِ مَنْ تَشْتَغِلُ الْمَلَائِكَةُ وَغَيْرُهُمْ بِالْاسْتِغْفَارِ وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَتَضَعُ لَهُ أَجْنَحَتَهَا، وَإِنَّهُ لَيُنَافِقُ فِي دُعَاءِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ أَوْ مَنْ يَظْنُ صَلَاحَهُ، فَكَيْفَ بِدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ.

وَقَالَ أَبُو مُسْلِمُ الْخَوَلَانِيَّ رَحْمَهُ اللَّهُ: «الْعُلَمَاءُ فِي الْأَرْضِ مُثَلُ النَّجُومِ فِي السَّمَاوَاتِ؛ إِذَا بَدَتْ لِلنَّاسِ اهْتِدَوْا بِهَا، وَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِمْ تَحِيرُوا»^(٢).

وَقَالَ سَفِيَّانُ بْنُ عَيْنَةَ رَحْمَهُ اللَّهُ: «أَرْفِعُ النَّاسَ عَنْهُمْ مِنْ زَلَّةٍ مِنْ كَانَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عَبَادِهِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ»^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ التَّرْمِذِيُّ بِرَقْمِ: ٢٦٨٢، وَأَبُو دَاوُدُ بِرَقْمِ: ٣٦٤١، وَابْنُ مَاجَةَ: ٢٢٣، وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ.

(٢) تَذَكْرَةُ السَّامِعِ وَالْمُتَكَلِّمِ لَابْنِ جَمَاعَةِ الْكَنَانِيِّ: صِ: ٣٤، ٣٥.

والحديث عن فضل العلم، وما يصل إليه طالبه من مكانة ومنزلة، حديث لا يكشف عن مجهول من الأمور، ولا يطرق سمع الناس بشيء جديد، ولكن هي الذكرى التي تنفع المؤمنين.

○ وسائل أوصلتهم إلى هذه المكانة:

كان العلماء رحمة الله تعالى يصلون الليل بالنهار، ويقطعون القيافي والقفاري في تحصيل العلم، والاجتهاد في تدوينه، يرتحلون المسافات الطويلة ليتحققوا من لفظة حديث، يعتمدون في ذلك على الله تعالى، ويستلهمون منه السداد والرشاد، حيث كانوا يتطلبون العلم للعمل، مخلصين الله قلوبهم، ولسان حالهم ما كان يوصي به الخطيب البغدادي رحمة الله طلبة العلم حيث يقول:

«إني موصيتك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاض النفس على العمل بمحاجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يُعد عالماً من لم يكن بعلمه عاماً»^(١).

ويعلمون أن العلم لا ينال بالتمني والراحة، وإنما ينال بالجد والاجتهاد، وتفريغ القلب والطلب المستمر، والمذاكرة المتواصلة، لا يشغلهم عنه شاغل مهما بلغت أهميته، لأنهم يعلمون أن العلم إن لم تعطه كلك، لا يعطيك بعضاً، ورائدهم

(١) معجم شيوخ الذهبي: ص ٥٠٥.

في ذلك ما قاله ابن أبي حاتم الرازي رحمه الله حين قال: «لا يستطيع العلم براحة الجسد»^(١).

ويعلمون أن العلم ليس وسيلة للتكتسب من أبواب السلاطين، أو نيل العطايا منهم، ولذلك كانوا يربأون بأنفسهم عن إذلال العلم على أبوابهم، ويزهدون بما في أيديهم، ولذلك أحبوهم الحكام وخافوهم، وأجلّوهم واحترموهم، وكان لكلمات العلماء مكانتها في قلوب الناس، يهزون بها عروش الحكام، ويزلزلون الأرض تحت أقدامهم، لا يأخذهم في قول الحق والجهر به لومة لائم، ولا سطوة سلطان، أو جبروت حاكم ولسان حالهم ما كان يحدّر منه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يقول: «لن يخاف الرجلُ غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلاً شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صحت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك»^(٢).

لأجل هذا كله وغيره احتل العلماء هذه المكانة المرموقة، فكانوا نجوم هداية لأمتهم، ومعقد الرجاء للإصلاح من شعوبهم، فكانوا بأقوالهم وأفعالهم المحرّكين للهمم، والمغيّرين للتاريخ، وعليهم كانت تتعقد الآمال، وبجهادهم الموصول كان يبني المجد الأثيل، وتنزّاح عن صدور أبناء أمة الإسلام عوامل اليأس

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٦٦/١٣.

(٢) الإعلام العلية: ص ٧٢.

والإحباط، والضعف والاستسلام، ويحل الرجاء والأمل بمستقبل مشرق باسم، ويأتي في مقدمة هذا الركب المبارك في القرنين السابع والثامن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي شغل كاناً كبيراً في عصره علماً، وعملاً، وزهداً، وورعاً، وجهاداً، وجرأة في الحق.

○ لماذا شيخ الإسلام ابن تيمية:

لأنه البحر من أي النواحي جئته، والبدرُ من أي الضواحي رأيتهُ، رَضَعَ ثدي العلم منذ فطم، وطلع وَجْهُ الصباح ليحاكيه فَلَطَمَ، وقطع الليل والنهر ردائين، واتَّخذ العلم والعمل صاحبين، إلى أنَّ أنسى السَّلْفَ بِهُدَاهُ، وأنَّاَلَ الخلف عن بلوغ مداه، على أنه من بيت نشأت منه علماء في سالف الدهور، ونشأت منه عظماء على المشاهير الشهور، فَأَحْيَا مِعَالِمَ بَيْتِ الْقَدِيمِ إِذْ دَرَسَ، وَجَنِيَّ مِنْ فَتَنِهِ الرطيب ما غرس، وأصبح في فضله آية، إِلَّا أَنَّه آية الحرس، عرضت له الكدى فزحها، وعارضته البحار فضحضها.

ثم كان أُمَّةً وحده، وَفَرْدًا حتى نزل لَحْدَهُ، أَخْمَلَ من القرناء كلَّ عظيم، وأَخْمَدَ من أَهْلِ الْبَدْعِ كُلَّ حَدِيثٍ وَقَدِيمٍ، جاءَ في عَصْرٍ مَأْهُولٍ بِالْعُلَمَاءِ، مَشْحُونٍ بِنَجْوَمِ السَّمَاوَاتِ، تَمَوَّجُ فِي جَوَانِبِهِ بِحُورِ خَضَارٍ^(*)، وَتَطْيِيرُ بَيْنِ خَافِقِيَّهِ نَسُورٍ

(*) خضار: الكثير الماء.

قشاعم^(*) وتشرق في أندیته بدور وضيئه، إلا أن شمسه طمس تلک النجوم، وبحره طم^(*) على تلك الغیوم، وابتلىع غدیره المطمئن جداولها..^(۱).

ولأنه كان عظيماً في ذات نفسه، اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، فهو الذكي الألمعي، وهو الكاتب العبقرى، وهو الخطيب المقصع، وهو لباحث المنقب، وهو العالم المطلع الذي درس أقوال السابقين، وقد أنسجهها الزمان، وصقلتها التجارب، ومحضتها الاختبارات، فنفت بصيرته إلى لبها، وتغلغل في أعماقها، وتعرف أسرارها، وفحص الروايات، ووازن بين الآراء المختلفة، وطبقها على الزمان، مع إدراك لقوانين الجامعة، وربط للجزئيات، وجمع للاشتات المترفرقة، ووضعها في قرن واحد^(۲).

ولأنه الفقيه الذي شهد له أقرانه بأنه بلغ درجة الاجتهاد، فكانت مصنفاته شاهدة على براعته، وغزاره علومه و المعارف، وأحكامه من كل فن أصوله وفروعه فإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا

(*) قشاعم: جمع قشم: المسن من الرجال والنسور.

(*) طم: غطى.

(۱) ابن فضل الله العمري: الشهادة الزكية: ص ۵۵.

(۲) ابن تيمية محمد أبو زهرة: ص ۵.

واستغنى وأفلسوا.. فإنه كان ربانِي الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين»^(١).

ـ ولأنه صاحب المواقف المشهورة الجريئة، الذي كان يقدم حين يحجم الشجعان، وينطق حين تخرس ألسن الفصحاء، فقد جلس إلى السلطان قازان حيث تجم الأسد في آجامها، وتسقط القلوب دوافع أجسامها، وتتجدد النار فتوراً في ضرائمها، والسيوف فرقاً في قرمها، خوفاً من ذلك السبع المختال، والتمرود المحتال، والأجل الذي لا يدفع بعحيلة محتال، فجلس إليه وأومأ بيده إلى صدره، وواجهه ودرأ في نحره، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ودعا دعاء منصف أكثره عليه، وغازان يؤمن على دعائه، وكتب ابن الزملکاني على بعض تصانيف ابن تيمية هذه الأبيات:

ما زالوا يُوصِّلُونَ لِهِ

وَصَفَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْحَضْرِ

هُوَ حَجَّةُ اللَّهِ قَاهِرٌ

هُوَ بَيْنَنَا أَعْجَبُ الْدَّهْرِ

هُوَ آيَةٌ فِي الْخَلْقِ ظَاهِرٌ

أَنْوَارُهَا أَرَبَّتْ عَلَى الْفَجْرِ^(٢)

(١) الذهبي: العقود الدرية لابن عبد الهادي: ص ٢٤-٢٥.

(٢) ابن فضل الله العمري: عن تاريخ ابن الوردي: منجد ص ٢١.

- ولأنه انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والإنابة، والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والأمانة، والغفوة والصيانة، وحسن القصد والإخلاص، والابتهاج إلى الله، وكثرة الخوف منه، والمراقبة له، وشدة التمسك بالأثر، والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق، والإحسان إليهم والصبر على من آذاه، والصفح عنه، والدعاء له، وسائر أنواع الخير.

وكان رحمة الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجاعاً في خلُوق أهل الأهواء من المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق، ونصرة الدين.

وكان بحراً لا تكدره الدلاء، وحبراً يقتدي به الرجال الألباء، وطننت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار، واشتغل بالعلوم، وكان ذكياً، كثير المحفوظ، إماماً في التفسير، وما يتعلق به، عارفاً بالفقه واختلاف العلماء والأصلين، والنحو، واللغة، وغير ذلك من العلوم التقلية والعقلية.

وما تكلم معه فاضل في فن إلا ظن: أن ذلك الفن فنه، ورأه عارفاً به، متقدناً له⁽¹⁾ وكان يدافع عن الكتاب والستة وينصرهما، ويتحمل الأذى في سبيل دفاعه عنهما، وجهره بالحق الذي هداه

(1) العقود الدرية: 6-7.

إليه الدليل منهما، وقف نفسه لله تعالى ولنصرة دينه، حين عز الرجال «وتعرضت الأمة للمحن والابتلاءات التي كادت تعصف بأركانها، فقام لنصرة دين الله باذلاً لسانه وقلمه ويده وماله ونفسه في سبيل نصرة الحق، وحتى يعيش عزيزاً كريماً يستظل بحماه، وكأنه يتمثل قول سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمة الله وهو يقول:

«ينبغي لكل عالم إذا أذلَ الحقُّ، وأخْمِلَ الصوابُ أن يبذل جهْدَه في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذلِّ والخُمول أولى منهما، وإن عزَ الحقُّ فظُهر الصوابُ أن يستظل بظلِّهما، وأن يكتفي باليسِير من رشاشِ غيرهما»^(١).

- لأجل هذا كله كانت شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله جديرة بالبحث والاهتمام.

لذا رغب صاحب دار القلم الغراء بتقديم شخصية هذا الإمام لقارئها الأكارم، فأكرمني برغبته في الكتابة عن هذا الإمام العظيم، وتقديم شخصيته إلى الأحبة القراء.

وكم من مصنف صنف عن حياته، وبيان عظمة شخصيته في شتى جوانب المعرفة، مما جعلني أقف حائراً أمام تزاحم المعلومات وكثرتها حاراً ماذا اختار وماذا أدع وأترك، ولكنني استعنت بالله تعالى، وبذلت جهدي في التعريف بشخصية هذا

(١) طبقات الشافعية الكبرى: () .

الإمام رحمة الله تعالى وتقديمها إلى القراء الأكارم، في صورة حرصت أن تحببه إلى قلوبهم، وتأثير في سلوكهم وأعمالهم، وذلك على النحو التالي:

تمهيد: عصر ابن تيمية.

الفصل الأول: مولده وأسرته.

الفصل الثاني: نشأته وطلبه للعلم.

الفصل الثالث: شيوخه وتلاميذه.

الفصل الرابع: ابن تيمية أخلاق وسجايا.

الفصل الخامس: منهجه في الدعوة والإصلاح بين النظرية والتطبيق.

الفصل السادس: مرضه ووفاته.

الفصل السابع: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

الفصل الثامن: مؤلفاته.

الفصل التاسع: ابن تيمية فقيهاً.

الفصل العاشر: ابن تيمية محدثاً.

الفصل الحادي عشر: ابن تيمية مفسراً.

الفصل الثاني عشر: ابن تيمية وعلوم المنطق والعقيدة والكلام.

الفصل الثالث عشر: ابن تيمية والعلوم الأخرى.

الفصل الرابع عشر: كيف تعامل مع أهل العلم.

وختاماً فهذا الجهد الذي بذلته، هو جهد المقل، أفشلت فيه مأثر وفضائل هذا الإمام الجليل، ودفعت عنه ما استطعت شبهات المفترين، فإن أحسنت فللها وحده الفضل في الأولى والآخرة، وإن أخطأت فذلك من عوامل الضعف الكامنة في النفس البشرية، فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يغفر لي زللي، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان أعمالي يوم القيمة، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يحشرنا في زمرة النبي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يسقينا من يده الشريفة شربة لا نظماً بعدها أبداً، إنه أعظم مسؤول، وأكرم مجيب، وأآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

اللَّهُمَّ إِنِّي مُحَمَّدٌ لِّلْعَالَمِينَ

عصر ابن تيمية

إن البيئة التي ينشأ فيها الداعية تعد من أهم العوامل التي تؤثر في تكوين شخصية العالم، ولعوامل الوراثة والأسرة دور آخر في التكوين، وكم تحكمت البيئة في حياة كثير من الناس ومصائرهم.

وللبيئة دور كبير في تحديد مواقف العالم، وطريقه تعامله مع ذلك الجو الذي يعيش فيه، ولقد شهد العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام حوادث خطيرة، وقلائل كثيرة، نتيجة لاجتياح التatars للبلاد الإسلامية، وسقوط الخلافة، وقتل الخليفة أسوأ قتلة.

وشهد أيضاً اضطراباً وانحرافاً في مختلف جوانب الحياة، فعاش شيخ الإسلام في عصر حalk أسود متلاطم بأمواج الضعف، والفساد، والانحراف في النواحي العلمية والسياسية والاجتماعية.

ولقد كان العصر الذي عاشه شيخ الإسلام بحاجة إلى مصلح داعية، يجدد من معالم الدين ما درس في شتى مجالات الحياة، ويعيد الطمأنينة والسكينة إلى النفوس المضطربة، لا يركز جهوده على جانب واحد وينسى أو يتناسى الجوانب الأخرى،

فكان شيخ الإسلام رحمة الله ذلك الرجل الذي هيأه الله تعالى ليقوم بذلك الدور، ولا شك أنه كان دوراً عظيماً وشاقاً في رد الناس في عصره إلى منهج الحق، والتمسك بكتاب الله تعالى وستة رسوله ﷺ، وسنحاول إلقاء نظرة موجزة على الأحوال العامة في النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية.

٥. الحالة السياسية:

اتسمت الحالة السياسية في عصر شيخ الإسلام بالاضطراب والتفكك، فقد انقسمت بلاد المسلمين إلى دويلات، وممالك صغيرة، تنظر كل مملكة أو دويلة إلى الأخرى نظرة العداء، والحكام يعاملون رعاياهم بسلط وظلم شديدين، ويسومونهم الخسف والهوان، مما أدى إلى ضعف المسلمين، وأفقدتهم الثقة بأنفسهم، فطمع فيهم أعداؤهم، وهم أعجز من أن يدفعوا عن أنفسهم الأخطار الداهمة، وقد أشار ابن الأثير رحمة الله تعالى إلى الأخطار التي كانت تهدد المسلمين في تلك الأزمان فقال:

«لقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم»

منها: ظهور التتار بقبحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها.

ومنها: خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام،

وقصدهم ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكونها، لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم.

ومنها: أن السيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة»^(١).

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى خروج الصليبيين والأسباب التي أدت إلى الحروب التي أشعلوها في بلاد المسلمين بقوله:

«فلمما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدین الرسول، سلطت عليهم الأعداء، فخرجت الروم والنصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة، وأخذوا التغور الشامية شيئاً فشيئاً إلى أن أخذوا بيت المقدس... وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة»^(٢).

فأما الخطر الصليبي فقد كان يلفظ أنفاسه الأخيرة حين ولد شيخ الإسلام وكان في بوادي شبابه، حيث تم القضاء عليه على يد الملك الأشرف خليل بن المنصور، الذي أنهى هذا الوجود الصليبي من آخر الحصون حين فتح عكا وبقية التغور الساحية التي كانت بأيديهم، وذلك في سنة تسعين وستمائة للهجرة^(٣).

(١) الكامل في التاريخ: ٩/٣٣.

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى: ١/١٣٣ - ١٣٤.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/٣٣٨ وما بعدها.

وأما الخطر التترى فقد عاين شيخ الإسلام وعائلته وأهل بلدته حران منه الأمرىن، حيث اضطروا للهجرة من بلدتهم بسبب هجوم التتار المتكرر عليها، وتخريبيهم لها، فهم قد انسابوا من المشرق، فما مروا على بلدة إلا جعلوها كالرميم، لا يبقون من معالم الحضارة في البلاد التي مروا عليها شيء، وكأنها لم تغرن بالأنس، وقد وصف ابن الأثير رحمة الله هذا البلاء الذي أخذ ببلاد المسلمين بقوله:

«لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا و كنت نسيًا منسياً!».

إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً.

فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام واللليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم - مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن - لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاريها ولا ما يدانيها. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا إلا يأجوج

ومأجوج.. هؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنحة، فإنما الله وإنما إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح.

إن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان.. ومنها إلى بلاد ما وراء النهر، فملكوها.. ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخرباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزوها إلى الري وهمدان.. إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان ويخربونها ويقتلون أهلها، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.. ثم قصدوا بلاد قفجان، وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقيون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم.. واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان، ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير، ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد هذا مما لم يطرق الأسماع مثله... وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة.. ثم أنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فأنهم معهم الأغنام والبقر والخيول وغير ذلك

من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها، فإنها تحفر الأرض بحوارتها، وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلًا لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

«وأما دياتهم فأنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، يأكلون جميع الدواب، حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف»^(١).

واستفحل خطر هؤلاء التتار حتى سقطت حاضرة الخلافة الإسلامية بغداد في أيديهم، ففعلوا فيها الأعاجيب، حتى أباحوها قتلاً وسلباً ونهباً أربعين يوماً، فأصبحت وهي خاوية على عروشها ليس بها أحد، إلا الشاذ من الناس، والقتل في الطرقات أنتنت جيفهم، وانتشرت رائحتهم، وحصل فيها وباء شديد. وسرى في الجو إلى البلاد المجاورة فمات خلق كثير، فاجتمع على الناس الغلاء، والوباء، والفناء، والطعن والطاعون كما قال ابن كثير رحمة الله^(٢).

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله مشاركات جدية في حرب هؤلاء التتار بلسانه وسناته، فهم قد اضطروا أسرته

(١) الكامل في التاريخ: ٩/٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/٥١٦.

للهجرة من بلدتهم حران إلى دمشق، فكان يعقد مجالسه العلمية في المسجد ويحضر الناس على الجهاد ويدل النفقه في سبيل الله.

وحين حاصر التتار دمشق، خرج شيخ الإسلام في جماعة من العلماء وأعيان البلد، لمقابلة ملوكهم قازان، فأخذ الأمان لدمشق وأهلها، وخطب قازان فأغلوظ له القول، وكلمه كلاماً شديداً فيه مصلحة، وقد عاد نفعها على المسلمين، فقد أكرم قازان شيخ الإسلام لإنصافه وقوته وإيمانه، فانصاع له وأعطاه ما يطلب، وقد خشي عليه القضاة والعلماء من أن يقتله السلطان ولكن الله هو الذي نجاه^(١).

ومن ذلك أنه رحمه الله خرج إلى مصر ليستحث السلطان الناصر على الخروج لمواجهة التتار، وكلمه كلاماً فيه شدة، وما زال به حتى خرج إلى الشام لمجابهة التتار^(٢).

ومن ذلك مشاركته الفعلية الميدانية في مجابهة التتار، حين شارك في قتالهم في معركة شقحب التي أزالت خطرهم عن بلاد الشام^(٣).

(١) البداية والنهاية: ١٤/٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/١٧.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/٢٤-٢٨.

ومن ذلك مشاركته في قتال أهل الجبل من النصيرية والباطنية والإسماعيلية الذين تحالفوا مع التتار والصلبيين واستتابتهم^(١).

ومن هذا تبين لنا أن الحالة السياسية في ذلك العصر كانت مليئة بالمحن والبلاء والمصائب الكبيرة، وحالة المسلمين في تفرق ومزق، وبعد عن التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٥. الحالة الاجتماعية:

وأعكاساً للحالة السياسية فإن الحالة الاجتماعية كانت مضطربة وغير مستقرة، فقد أدت الأخطار المحدقة ببلاد المسلمين، وكثرة غارات التتار والصلبيين إلى فقدان الأمن، واضطراب النظام، وانتشار الفزع والخوف في قلوب المسلمين، بحيث أصبح أحدهم لا يطمئن على نفسه وماله، وأدى ذلك إلى نقص في الأموال والثمار نتيجة لعدم اهتمام الناس بالزراعة والعمل، مما أدى إلى سوء وكساد في الحالة الاقتصادية، وانتشار الفقر والغلاء، واحتياط السلع لبيعها بأسعار باهظة، ثم نزول الجراد الذي قضى على البقية الباقي من الزروع والثمار.

وقد أدى اختلاط أهل البلاد بعضهم بالبعض الآخر إلى تفكك في الروابط الاجتماعية والأسرية، وانتشار عادات وتقالييد

(١) العقود الدرية: ١٧٩، البداية والنهاية: ١٤/١٣.

وأفكار جديدة في أوساط الناس، وفي مثل هذه الأجواء عمد الناس إلى الغش في البيع، وتطفيق المكاييل والموازين، مما اضطر شيخ الإسلام لأن يضع كتابه «الحسبة في الإسلام» يحضر فيه ولاة أمر المسلمين والمحاسبين على متابعة أمور ومصالح عامة الناس، وإنزال العقوبات الرادعة بالمفسدين في الأرض، وفرض ما يجب من تسعيرات تحفظ للناس أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم.

وبالجملة فقد كانت الحياة الاجتماعية للمسلمين في ذلك العصر قد امتلأت بالفساد إلى حد كبير، وبحاجة إلى إصلاح شامل يقوم به مصلح مخلص جريء يعيد الأمور إلى نصابها، ويصلح ما فسد منها.

وقد مارس شيخ الإسلام رحمة الله جهد الإصلاح، وبذل قصارى جهده في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها، ومن ذلك ما قام به بنفسه من ضبط للأمن، وتحديد للأسعار، وإزالة للمنكرات والفواحش، وإراقة للخمور وإغلاق للحانات، حين اضطربت الأحوال بقدوم التتار، وخرج من دمشق نائب السلطنة والأمراء وأعيان البلد، مستمدًا منهجه الإصلاحي من الكتاب والسنّة وما كان عليه سلف الأمة.

٥. الحالة العلمية:

شهد العصر الذي عاشه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله

نهضة علمية كبيرة - رغم المصائب والأحداث التي نزلت بالناس في ذلك الزمان، فقد كان في ذلك العصر إيمان وكفر، وتفوى وزندقة، وأمن واضطراب، وسلم وحرب. وقد وجد في ذلك العصر أئمة كبار أصبحوا مرجعاً لمن جاء بعدهم بما ألفوه من كتب ومصنفات في مختلف العلوم مثل: - عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، ومحب الدين النووي، وأبي الحجاج المزي، إلا أنه وبالرغم من وجود مثل هؤلاء الأفذاذ فقد غلت نزعة الجمود والتقليد على الحركة العلمية، فكان قصارى جهد العالم أن يفهم ما قيل من غير بحث ولا مناقشة، وقد عمد العلماء إلى جمع المعلومات المتعلقة بكل فن، فنظموها في سلك واحد، وألفوا فيها كتاباً مطولة أحياناً، ومحضرة أحياناً، وسلكوا في ذلك منهجاً حسناً في التأليف ولكن لا أثر للابتكار والتتجدد فيه.

ورغم غلبة الجمود والتقليد على الكثير من العلماء في ذلك العصر، فقد كان انتشار العلم والتوسع فيه في حركة تقدم مطرد، ولامتحن الخير موجودة، فقد بذل الملوك والأمراء والأعيان من ذوي الثراء والغنى أقصى الجهد في إنشاء المدارس التي تهتم بعلوم الدين من الفقه والحديث وغيرهما والتي كان يؤمنها الطلاب من أنحاء العالم لتلقي العلوم الدينية، وكانوا يلتحقون بها مكتبات كبيرة، ومساكن للطلاب، ويتكفلون بالإنفاق عليهم أثناء فترة التحصيل والطلب.

وقد جاء ابن تيمية رحمه الله فوجد عصره ويلده مملوءين بتلك المدارس والمكتبات فاستفاد منها أعظم ما تكون الاستفادة، إضافة إلى المساجد التي كانت حتى ذلك الزمان لا تزال مراكز للعلم والوعظ ولتأثير المصلحين في جمهور الناس.

ولكن الذي كان يقلقشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من أهل الخير أكثر من أي شيء آخر هو كثرة الفرق الإسلامية ونشاط اتباعها ضد الإسلام وأهله، فأصلاحهم حالاً من كان يقف موقف المتفرج (الصوفية) أو كان يمد يد المساعدة للستار والفرنجة الصليبيين ضد المسلمين (الإسماعيلية الباطنية، والرافضة النصيرية).

فقد كانت هذه الفرق حرباً على الإسلام والمسلمين معلنة ذلك بالسلاح والكلام كالباطنية، أو مفسدة لعائد الناس في ذلك الزمان المضطرب مثل أفكار المعتزلة والفلسفه.

وقد عاصرشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى نخبة ممتازة من أئمة العلم الكبار من المحدثين والمفسرين والفقهاء، واللغويين والأدباء، وأهل العلم بالتاريخ وغيرهم أذكر فيما يلي أسماء جماعة منهم:

أبو عبد الله القرطبي صاحب التفسير المتوفى (٦٧١هـ)، ومحبي الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، وابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ)، وأبو حيان الغرناطي الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) والسمين الحلبي

(٧٥٦) وابن رشيد الفهري الأندلسي (ت ٧٢١ هـ) وابن سيد الناس
اليعمري (ت ٧٣٢ هـ) وأبو الحجاج المزي (ت ٧٤٢ هـ)
وشمس الدين الحنفي (ت ٧٠٩ هـ) وأبو البركات النسفي (ت
٧١٠ هـ) وابن جماعة الكتاني (٧٣٣ هـ) وابن كثير الدمشقي (ت
٧٧٤ هـ)، وابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ)، وتقي الدين السبكي
الشافعي (٧٥٦ هـ).

وجمال الدين ابن منظور (٧١١ هـ) صاحب لسان العرب،
وابن آجر و الصنهاجي صاحب الأجرمية في النحو (٧٢٣ هـ)،
وابن هشام النحوي (ت ٧٦١ هـ) وصدر الدين بن الوكيل المرحل
(٧١٦ هـ) وشهاب الدين النويiri صاحب (نهاية الأرب)
(٧٣٢ هـ)، وجمال الدين بن نباته المصري (٧٦٨ هـ)
وابن الطقطقي الموصلي (٧٠٩ هـ)، وابن أبي زرع المغربي
(٧٢٦ هـ)، وعلم الدين البرزالي الدمشقي (٧٣٩ هـ)
وشمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) والصفدي (٧٣٤ هـ)
وابن شاكر الكتببي (٧٦٤ هـ)، وقطب الدين الشيرازي (ت
٧١٠ هـ) وابن الفراكح الفزاري الدمشقي (٧٢٩ هـ) والرحالة
ابن فضلان (٧٤٩ هـ). وغيرهم كثير.

ومن أجل هذا كله نستطيع القول أن هذا العصر كان عصرًا
زاهراً بالحركة العلمية في مختلف علوم الدين واللغة والتاريخ
وعلوم الحياة، ولكنه لم يكن فيه من أصالة الفكر والتجديد

والابتكار في الآراء حظ كبير يتميز به ويتناسب ولو إلى حد ما مع
كثرة ما جمع فيه من علوم ومعارف.

في مثل هذا العصر عاش شيخ الإسلام، مما كان له أثره
على حياته العلمية، ويلحظ ذلك من خلال كتبه ورسائله التي
أجاد فيها وأفاد.



الفصل الأول

«مولده وأسرته»

- اسمه ونسبة:

هو الإمام الفقيه، المجتهد، المحدث، الحافظ، المفسر، الأصولي، الزاهد، شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، تقى الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد ابن تيمية، النميري، الحراني، ثم الدمشقي الحنبلـي^(١).

- سبب تسميته «بابن تيمية»:

وأما سبب هذه التسمية، فقد جاء فيها عدة أقوال، نوردها فيما يلي:

الأول: أن جده محمد بن الخضر حج وكانت امرأته حاملة، فلما كان بتيماء رأى جُوبيـة قد خرجت من خباء، فلما رجع إلى

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٨٧، السلوك للمقرizi: ٢/٣٠٤، الدرر الكامنة: ١/١٥٤)، العقود الدرية: ص ٢ وغيرها من المصادر التاريخية.

حران وجد امرأته قد وضعت جارية، فلما رفعوها إليه قال: يا تيمية، يا تيمية، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء، فسمى بها^(١).

الثاني: إن جده «محمدًا» كانت أمه تسمى «تيمية» وكانت واعظة، فنسب إليها وعرف بها^(٢).

- وأما نسبته «النميري»:

فنسبة إلى قبيلة «بني نمير» فهو عربي الأصل، على خلاف ما قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: بأن شيخ الإسلام لم يكن عربياً، وأنه كان كردياً، بدليل أن المؤرخين لم يذكروا قبيلته^(٣).

فقد أثبت هذا النسب الإمام القاضي نور الدين محمود العدوي الصالحي المعروف «بالزوكاوي» المتوفى سنة ١٠٣٢هـ في كتابه الزيارات، وابن ناصر الدين الدمشقي المتوفى سنة ٨٤٢هـ في كتابه «البيان لبديعة البيان»^(٤)، وهذا ما يدفع قول الشيخ أبي زهرة رحمه الله تعالى.

(١) الشهادة الزكية: ص ٢٣-٢٤، العقود الدرية: ص ٢، تاريخ إربل: ص ٦٧.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٢٤، العقود الدرية: ص ٢.

(٣) ابن تيمية لمحمد أبو زهرة: ص ١٨.

(٤) الزيارات: ص ٩٤ رقم ٩، البيان لبديعة البيان: الطبقة الحادية والعشرين وهو مخطوط في جامعة أم القرى برقم: ١٧٦.

٥ مكان وتاريخ ولادته:

ولد الإمام ابن تيمية رحمه الله في حران، وهي بلدة قديمة كانت من أهم مراكز الديانات القديمة، وهي تقع شمالي شرقي الجمهورية التركية، قرب أورفة، وهي بلدة عامرة الآن، وقد أصابها الخراب عند احتلال التتار لها أيام رحيل آل تيمية وغيرهم عنها^(١).

وأما تاريخ ولادته فقد اتفق جمهور من ترجم له على الشهر الذي ولد فيه والسنة التي ولد فيها، لكن جاء الاختلاف في تحديد تاريخ اليوم الذي ولد فيه.

فقد كان مولده رحمه الله في عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة^(٢).

وقد جاء أنه ولد يوم الإثنين عاشر أو ثاني عشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة^(٣).

والراجح أنه ولد في العاشر من ربيع الأول في السنة المذكورة والله أعلم.

(١) الإعلام العلية: ص ١٦ تعليق رقم (١)، وقد ذكر كثير من المؤرخين أنه ولد بحران.

(٢) ثلاث ترافق نفيسة: ص ٢٢، الإعلام العلية: ص ١٦، تاريخ ابن الوردي: ٢/٤٠٧، تذكرة الحفاظ: ص (١٤٩٦)، البداية والنهاية (١٣/٢٤١) الدرر الكامنة: ١/١٥٤، الذي على طبقات الحتابة: ٢/٣٨٧، السلوك للمقرئي: ٢/٣٠٤.

(٣) العقود الدرية ص ٢.

٥ حلية وصفاته الخلقية:

وقد وصفه معاصروه الذين ترجموه وصفاً دقيقاً أعطانا صورة واضحة عن حلية وسمته وهيئته رحمة الله تعالى، فقد جاء في وصفه:

أنه كان أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنية، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيح اللسان، أبيض، أعين، كأن عينيه لسانان ناطقان، سريع القراءة، تعرية حدة ثم يقهرها بحمل وصفح.

كان ملبيه رحمة الله تعالى كأحاديث الفقهاء، فرجية ودلت، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً، ومدادس ضعيف الثمن، وشعره مقصوص، ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة، ربما قام لمن يجيء من سفر أو غاب عنه، وإذا جاء فربما يقومون له، الكل عنده سواء، وكأنه فارغ من هذه الرسوم، ولم ينحرن لأحد قط، وإنما يُسلم ويصافح ويُتسم، وقد يعظم جليسه مرة، وييهنه في المحاورة مرات. يضاف إلى هذا جميعاً ذكاءً خارقاً، وحافظة واعية لا تكاد تنسى شيئاً مما تقرأ، وشدة توجهه إلى الله في الابتهاج والاستعانتة لم يُرَ مثله في ذلك رحمة الله تعالى^(١).

(١) تاريخ ابن الوردي: ٤١٣/٢، الراوی بالوفیات: ١٧/٧ منجد، الدرر الكامنة ١/١٥٤، الذیل على طبقات الحنابلة: ٣٩٦/٢، فوات الوفیات: ١/٧٥، العلامة العزاب: ص ١٧١.

○ آثار حلية على تصرفاته:

تلك صفات جسمية ونفسية فوق ما له من مزايا عقلية، تجعله ذا هيبة خاصة، وقوة تأثير، ونفوذ في قلب من يتحدث إليه، ومن يلقي سمعه إليه، لا يلبث أن يلقي قلبه ومشاعره بين يديه.

تقدّم أَحْمَدْ بهذه الصفات الشخصية، وهذه الموهاب، وتلك المدارس، وذلك العلم الغزير، فألقى دروسه في الجامع الكبير بـلسان عَرَبِي مُبِين، فاتجهت إليه الأنظار، واستمعت إليه أَفْتَدَة سامعيه، وانتقل كثيرون من المستمعين إلى تلاميذ مريديه متّحمسين معجّين، وبصَارَ له من بينهم مخلصون إخلاص الحواريين الصديقين، وجمعت دروسه بين الموافق والمخالف، والبدعي والسنّي، فكثُر تلاميذه وسامعوه رحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(١).

○ تلقّيه «شيخ الإسلام»:

أَشْنَى على الإمام ابن تيمية رحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَدْدٌ كَبِيرٌ من العلماء، وأشادوا بعلمه وجهاده وإمامته، وهم من الذين عاصروه، أو جاؤوا بعده، وأطلقوا عليه لقب «شيخ الإسلام»، وسأذكر تاليًا ما جاء في معنى هذا اللقب:

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٢٩.

قال الحافظ الإمام العالم العلامة ابن ناصر الدين الدمشقي الشافعي ما نصه تحت عنوان «معنى شيخ الإسلام»:
منها: أنه شيخ في الإسلام قد شاب، وانفرد بذلك عمن مضى من الأتراك، وحصل على الوعد المبشر بالسلامة: أنه «من شاب شيبة في الإسلام فهي له نور يوم القيمة».
ومنها: ما هو في عرف العوام: أنه العدة، ومفزعهم إليه في كل شدة.

ومنها: أنه شيخ الإسلام بسلوكه طريقة أهله، قد سلم من شر الشباب وجهله، فهو على السنة في فرضه ونفله.
ومنها: شيخ الإسلام بالنسبة إلى درجة الولاية، وتبرك الناس بحياته، فوجوده فيهم الغاية.

ومنها: أن معناه المعروف عند الجهابذة النقاد، المعلوم عن أئمة الإسناد: أن مشايخ الإسلام والأئمة الأعلام هم المتبعون لكتاب الله عز وجل، المقتدون لسنت النبي ﷺ، الذين تقدموا بمعرفة أحكام القرآن ووجوه قراءاته، وأسباب نزوله، وناسخه ونسخه، والأخذ بالأيات المحكمات، والإيمان بالمتشابهات، قد أحكموا من لغة العرب ما أعنفهم على علم ما تقدم، وعلموا من السنة نقلًا وإسنادًا وعملاً بما يجب العمل به اعتماداً، وإيماناً بما يلزم من ذلك اعتقاداً، واستبطاطاً لوصول الفروع من الكتاب والسنة، قائمين بما فرض الله عليهم، متمسكون بما ساقه الله من

ذلك إليهم، متواضعين لله العظيم الشأن، خائفين من عثرة اللسان، لا يدّعون العصمة ولا يفرحون بالتبجيل، عالمين أن الذي أوتوا من العلم قليل.

فمن كان بهذه المنزلة حكم بأنه إمام، واستحق أن يقال له: **شيخ الإسلام**^(١).

ثم ذكر رحمه الله طبقات من العلماء استحقوا مثل هذا اللقب وأطلق عليهم، من زمن التابعين، وحتى زمن **شيخ الإسلام** ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وفي معنى «شيخ الإسلام» يقول الإمام الحافظ إمام الحنفية في زمانه بدر الدين العيني رحمه الله تعالى:

«وقد عُلِّمَ أن لفظة الشيخ لها معانٰ، لغوي، واصطلاحي.

فمعناه اللغوي: **الشيخ** من استبان فيه الكبر.

ومعناه الاصطلاحي: **الشيخ** الذي يصلح أن يتلذذ له.

وكلا المعنين موجود في الإمام المذكور، ولا ريب أنه كان **شيخاً** لجماعة من علماء الإسلام، ولتلاميذه من فقهاء الأنام، فإذا كان كذلك، كيف لا يطلق عليه «شيخ الإسلام» لأن من كان **شيخ المسلمين**، يكون **شيخاً للإسلام**، وقد صرّح بإطلاق ذلك عليه قضاة القضاة الأعلام، والعلماء الأفاضل أركان الإسلام وهم

(١) الرد الوافر: ص ٥٢-٥١

الذين ذكرهم مؤلف كتاب الرد الواقف في رسالته التي أبدع فيها
بالوجه الظاهر»^(١).

ويقول أستاذنا وشيخنا العالم الأديب الفقيه عبد الفتاح أبو
غده رحمه الله تعالى في كتابه النافع «العلماء العزاب»:

«لُفْظُ «شِيْخُ الْإِسْلَام» لَقْبٌ أَطْلَقَ فِي عَهْدِ الْخَلَفَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ،
عَلَى مَنْ قَامَ بِوُظُوفِيَّةِ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَكَانَ أَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ مَقَامًا
لِدِي سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى لَقْبٌ وَظِيفَيٌّ.

وأطلقه العلماء السابقون على كل من حاز درجة كبيرة
عالية في العلم بالكتاب والسنّة، وفي الفضل والصلاح والقدوة،
وكان مرجع المسلمين في العلم وشؤون الدين، وهو بهذا
المعنى، وارد في كتب المحدثين والمؤرخين والرجال والترجم،
فاعرفه»^(٢).

وقد أورد الإمام ابن ناصر الدين في كتابه «الرد الواقف»
بضعة وثمانين ترجمة لأكابر العلماء وأعيان الزمان، في عصر
ابن تيمية رحمه الله وبعد عصره ممن أطلقوا هذا اللقب على
الإمام ابن تيمية رحمه الله ووصفوه به، ولم يشترط استيعاب من
وصفه بهذا اللقب، بل ذكر من حضره ذكره.

(١) الشهادة الزكية: ص ٢٦٤-٧٧-٧٨، الرد الواقف: ص ٢٦٤.

(٢) العلماء العزاب: ص ٤٦.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى:

«ولقد افتخر قاضي القضاة تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى في ترجمة أبيه الشيخ تقى الدين السبكي في ثناء الأئمة عليه، بأن الحافظ المزي - رحمه الله - لم يكتب بخطه لفظة شيخ الإسلام إلا لأبيه، وللشيخ تقى الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر^(١)».

فولولا أن ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل، ما قرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً أو زنديقاً ما رضي أن يكون أباه قريناً له»^(٢).

· أسرته ومن اشتهر منهم بالعلم:

إن التعرف على أسرة عالم ما، يلقي الضوء على شخصيته ونشأته، وذلك لما للأسرة والبيت من أثر عجيب في تكوين شخصية هذا العالم، وابن تيمية رحمه الله سليل أسرة عريقة، وبيت مشهور بالعلم والمكارم والفضائل، قد ورث العلم والمجد والأخلاق لأبنائه، جيلاً عن جيل، وكابرًا عن كابر، وكان أبناء هذه الأسرة حملة لراية العلم بما لهم من قدم راسخة فيه.

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٦٦٨/٦.

(٢) الرد الواfir: ص ٢٥٠.

وقد تفتحت علينا ابن تيمية رحمة الله على مجد عريق،
وعلم غزير، فوالده الإمام الجليل العلامة المفتى شهاب الدين أبي
المحاسن عبد الحليم، الذي اشتهر في عصره بغزاره علمة، وقوته
حافظته، ومكانته العالية بين علماء عصره، فحمل الراية بعده،
وتابع طريق العلم مسجلاً لأسرة تيمية سبقاً عظيماً في العلم
والفضل، ومكانته لا تدانيها مكانة عبر الأزمان المتعاقبة ولقد عبر
عن هذه المكانة العالية لهذه الأسرة الإمام نجم الدين سليمان بن

عبد القوي رحمة الله تعالى حيث قال:

يَا أَهْلَ تِيمَيَّةَ الْعَالِيَّنِ مَرْتَبَةَ

وَمَنْصَبَأَ فَرْعَ الْأَفْلَاكَ تِبْيَانَ

جَوَاهِرُ الْكَوْنِ أَنْتُمْ، عَيْرَ أَنْكُمْ

فِي مَعْشِرِ أَشْرِبُوا فِي الْعَقْلِ نَقْصَانَ

لَا يَعْرِفُونَ لَكُمْ فَضْلًا، وَلَنُوَعْقِلُوا

لَصِيرَوْا لَكُمُ الْأَجْفَانَ أَوْطَانَ

يَا مَنْ حَوَى مِنْ عِلْمِ الْخَلْقِ مَا قَصْرَثُ

عَنْهُ الْأَوَّاَلُ مُذْ كَانُوا إِلَى الْآَنَّ

إِنْ تُبَتَّلَى بِلِئَامِ النَّاسِ يَرْفَعُهُمْ

دَهْرُ عَلِيَّكَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ قَدْ خَانَا

إِنِّي لِأَقْسُمُ، وَالْإِسْلَامُ مَعْتَقْدِي،

وَإِنِّي مِنْ ذُوِّي الْإِيمَانِ: أَيْمَانًا

لَمْ أَلْقَ قَبْلَكَ إِنْسَانًا أُسْرِبَهُ

فَلَا بَرِحَتْ لَعِينَ الْمَحْدِ إِنْسَانًا^(١)

وقد ساعدت ظروف هذه الأسرة العريقة في مجال العلم، والتي لم يكن زادها وعتادها في حياتها حتى وفي مراحل الخطر والهجرة إلا كتب العلم، ساعدت هذه الظروف في تكوين شخصية إمامنا ابن تيمية رحمه الله، مع وجود الاستعدادات الفطرية التي كانت فيه، مما ساعد على تفوقه العلمي، وبروزه بين أقرانه في مرحلة مبكرة من حياته، وتأهله للتدريس والفتوى وهو في صدر شبابه.

وأسأذكر ترجمة موجزة لأبناء هذه الأسرة المباركة ممن اشتهروا في ميدان العلم، وعرف لهم أهل عصرهم هذه المكانة:

- والده:

هو شهاب الدين، أبو المحسن، عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني، الإمام العلامة المفتى، والد شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية رحمة الله تعالى.

ولد بحران سنة سبع وعشرين وستمائة، تلقى العلم على والده وغيره من أهل العلم، ورحل في صغره إلى حلب وسمع

(١) العقود الدرية: ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

من شيوخها وأهل العلم فيها، حتى إذا أتقن العلوم درس وأفتقى
وصار شيخ حران وخطيبها.

قال الذهبي رحمه الله: «قرأ المذهب حتى أتقنه على
والده، ودرس وأفتقى وصنف وصار شيخ البلد بعد أبيه، وخطيبه
وحاكمه، وكان إماماً محققاً كثير الفنون له يد طولى في الفرائض
والحساب والهيئة، ديناً متواضعاً، حسن الأخلاق جواداً، من
حسنات العصر، تفقه عليه ولداه أبو العباس وأبو محمد، وان
قدومه إلى دمشق بأهله وأقاربه مهاجراً سنة سبع وستين، وكان
من أنجم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر، وضوء الشمس،
يشير إلى أبيه وابنه.

وقال البرزالي رحمه الله عنه: كان من أعيان الحنابلة، باشر
بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية، وكان له كرسى بالجامع
يتكلم عليه أيام الجمع من حفظه.

وكان يسكن دار الحديث السكرية بالقصاعين، له تعاليق
وفوائد ومصنف في علوم متعددة، توفي رحمه الله ليلة الأحد
أواخر شهر ذي الحجة سنة ٦٨٢ هـ ودفن بمقابر الصوفية^(١).

(١) البداية والنهاية: ٣٠٣/١٣، الذيل على طبقات الحنابلة: ١٦٧/٣، ترجم
العليمي: ٤٧٣/٢، شذرات الذهب، ٣٧٦/٥، جلاء العينين لابن الألوسي:
ص ١٩.

- والدته:

هي الشيخة الصالحة ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحراني، والددة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، عمرت فوق السبعين سنة، ولم ترزق بنتاً فقط.

كان لها المكانة العظيمة في نفس شيخ الإسلام رحمه الله، يدل على هذه المكانة تلك الرسالة التي أرسلها إليها من سجنه في القاهرة، والتي امتلأت بالمشاعر والعواطف الجياشة، والمحبة العظيمة التي كان يكنها لها رحمهما الله تعالى.

وكانت رحمها الله تعالى على قيد الحياة يوم عاد شيخ الإسلام من مصر سنة ٧١٢هـ.

توفيت يوم الأربعاء العشرين من شوال سنة ٧١٦هـ، ودفنت بالصوفية، وحضر جنازتها خلق كثير، وجمع غفير، رحمها الله تعالى^(١).

- جده:

هو الفقيه الإمام المقرئ المحدث المفسر، الأصولي، شيخ الإسلام وفقيه الوقت وأحد الأعلام مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنفي، جد شيخ الإسلام تقي الدين.

(١) البداية والنهاية: ٧٩/١٤، والدرر الكامنة: ١٥٩.

ولد بحران سنة تسعين وخمسمائة. وحفظ القرآن بها، وسمع من عمه الخطيب فخر الدين ومن غيره من أهل العلم، ورحل في طلب العلم إلى بغداد وأقام بها ست سنين يشتغل في الفقه والخلاف وسائر العلوم، ثم رجع إليها مرة أخرى بعد عودته إلى حران، ومكث فيها - يعني ببغداد - بضع عشرة سنة فزاداد فيها علمًا وفقها.

قال عنه شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله: كان جدنا عجباً في حفظ الأحاديث وسردها، وحفظ مذاهب الناس وابراها بلا كلفة.

قال الذهبي: قال لي شيخنا أبو العباس: كان الشيخ جمال الدين بن مالك يقول: ألين للشيخ المجد الفقه كما ألين لداود الحديد.

وقال الذهبي: كان الشيخ مجد الدين معدوم النظير في زمانه، رأساً في الفقه وأصوله، بارعاً في الحديث ومعانيه، له اليد الطولى في معرفة القرآن والتفسير، صنف التصانيف، واشتهر وبعد صيته، كان فريد زمانه في معرفة المذهب، مفرط الذكاء، متين الديانة، كبير الشأن.

قال الحافظ الشريف عز الدين: حدث بالحجاز، والشام، والعراق، وبلدته حران، وصنف ودرس، وكان من أعيان العلماء، وأكابر الفضلاء ببلده، وبيته مشهور بالعلم والدين والحديث.

أخذ عنه العلم جماعة من العلماء أشهرهم ابن شهاب الدين عبد الحليم، والحافظ عبد المؤمن الدمياطي وأخرون.

له من المصنفات كتاب الأحكام الكبرى، وكتاب المنتقى من أحاديث الأحكام والذي يعد أصل كتاب نيل الأوطار للشوکانی الذي قام بشرح كتاب المنتقى، وله المسودة في الأصول، والتي زاد فيه ولده شهاب الدين، ثم حفيده أبو العباس تقى الدين. توفي رحمه الله تعالى يوم عيد الفطر بعد صلاة الجمعة من سنة اثنتين وخمسين وست مئة بحران، ودفن بظاهرها^(١).

- عم جد شيخ الإسلام:

الواعظ الفقيه الخطيب فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله المعروف بابن تيمية الحراني الحنبلي.

كان عالماً فاضلاً، تفرد في بلده بالعلم، وكان المشار إليه في الدين، لقى جماعة من العلماء. وقدم بغداد وتفقه بها على أبي-

(١) لمزيد من التفاصيل انظر ترجمته في الكتب التالية: شذرات الذهب: ٥/٢٥٧-٢٥٨، الذيل على الطبقات: ٣/٢٩-٢٥٤، العبر: ٥/٥٢١-٥٢٠، سير إعلام النبلاء: ٢٢٣/٢٩١، معرفة القراء الكبار: ٢/٢٧٨، البداية والنهاية: ١٣/١٨٥، فوات الوفيات: ٢/٣٢٣-٣٢٤، ترجمة: جلاء العينين: ص ١٨-١٩.

الفتح ابن المنى، وسمع الحديث بها، وصنف في مذهب الإمام أحمد مختصرًا أجاد فيه.

كان يدرس التفسير في كل يوم بحران حين عاد إليها، وقد فسر القرآن خمس مرات في مسجد حران الكبير، كانت المرة الأولى في عام ٥٥٨هـ والمرة الأخيرة عام ٦١٠هـ.

وقد اشتهر بالورع وعيّن إماماً وخطيباً لمسجد حران الكبير، وعهد إليه بالتدريس في المدرسة التورية بها، ولم يزل أمره على السداد وصلاح الحال، وله القبول التام عند الخاص والعام. ذكره أبو يوسف محسن بن سلامة بن خليفة الحراني في «تاريخ حران» وأثنى عليه.

وكان مولده بحران في أواخر شعبان سنة اثنين وأربعين وخمس مئة، وتوفي بها في حادي عشر صفر، سنة إحدى وعشرين وستمائة، رحمة الله تعالى^(١).

- ابن عم جد شيخ الإسلام:

هو الشيخ الإمام العالم الفاضل سيف الدين عبد الغني بن الشيخ فخر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحنبلية أبو محمد الحراني رحمة الله تعالى.

(١) وفيات الأعيان: ٤/٣٨٦-٣٨٨، مختصر الشطي: ص ٤٨، شذرات الذهب /٥٥، تاريخ إربل: ص ٦٧، طبقات الحنابلة: ٢/١٥١، الوافي بالوفيات: ٣/٣٧، النجوم الزاهرة: ٥/١٠٢، سير إعلام النبلاء: ٢٢٨/٢٢٨.

ولد في الثاني من صفر سنة إحدى وثمانين وخمسين
بمدينة حران، وسمع بها من والده وغيره، ثم رحل إلى بغداد في
سنة ثلاثة وستمائة فسمع بها من جماعة من العلماء منهم الفخر
إسماعيل غلام بن المنبي وغيره.

قال ابن حمدان: الشيخ الإمام العالم الفاضل سيف الدين،
قام مقام والده في التدريس والفتوى، والوعظ والخطابة، فكان
خطيباً خصيماً، رئيساً ثابتاً، رزين العقل^(١).

كان يلقي التفسير في الجامع على الكرسي، له تصنيف
على «الزوائد على تفسير الوالد» و«إهداء العرب إلى مساكن
الرب»، ومن لقيه وسمع منه الحافظ المنذري رحمة الله توفي
في السابع عشر من محرم سنة تسع وثلاثين وستمائة بحران
رحمه الله تعالى.

● ومن ذرية الشيخ سيف الدين: ابنه أبو الفرج فخر الدين
عبد القاهر بن أبي محمد بن أبي القاسم بن تيمية الحراني
الحنبي، ولد بحران سنة اثنين عشرة وستمائة، وسمع من جده
وابن النبي، وحدث بدمشق، وخطب بجامع حران، وتوفي في
حادي عشر شوال - يعني سنة ٦٧١هـ - بدمشق، ودفن من الغد

(١) مختصر الشطبي: ص ٤٨، الإعلان للسخاوي: ص ١٢٥، طبقات المفسرين
للداودي: ١/ ٣٣٢-٣٣١، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٢٢٢، التكميلة لوفيات
القلة: ٣/ ٥٧٠.

بمقابر الصوفية^(١).

- ومن ذريته حفيده: أبو البركات شرف الدين عبد الأَحد ابن أبي القاسم بن عبد الغني ابن خطيب حران فخر الدين بن تيمية الحراني الحنبلي التاجر، روى عن ابن اللتي حضوراً، وعن ابن رواحة وابن شقير وجماعة، وكان صالحًا عدلاً، تقياً، توفي بدمشق في شعبان - يعني سنة ٧١٢هـ - عن اثنين وثمانين سنة^(٢).

- إخوة شيخ الإسلام:

- منهم الفقيه الإمام المتقن، المفتى الزاهد القدوة شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم ابن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، أبو محمد أخو الشيخ تقي الدين رحمهم الله تعالى.

ولد في الحادي عشر من شهر محرم سنة ست وستين وستمائة بحران، وقدم مع أهله إلى دمشق وهو صغير، فحضر بها على ابن أبي اليسر وغيره، ثم سمع ابن علان وابن الصيرفي. وخلقاً، وسمع المسند والصححين وكتب السنن، وتفقه في

(١) شذرات الذهب: ٥/٣٣٤، ذيل طبقات الحنابلة: ٢٨٢/٢.

(٢) شذرات الذهب: ٦/٣٠، معجم شيوخ الذهبي: ١/٣٤٦، ذيل العبر: ٤/٣٤، لدرر الكامنة: ٢/٣١٤.

المذهب حتى أفتى، وبرع أيضاً في الفرائض والحساب وعلم الهيئة، وفي الأصولين والعربية، وله مشاركة قوية في الحديث، ودرس بالحنبلية مدة.

كان صاحب صدق وإخلاص، قانعاً باليسير، شريف النفس شجاعاً مقداماً زاهداً، عابداً، ورعاً يخرج من بيته ليلاً ويأوي إليه نهاراً، ولا يجلس في مكان معين بعثث يقصد فيه، وكان كثير العبادة والتائه والمراقبة والخوف من الله تعالى، كثير الصدقات، وقد حج مرات عديدة.

كان له يد طولى في معرفة تراجم السلف ووفياتهم في التوارييخ المتقدمة والمتاخرة، وقد سجن مع أخيه بالديار المصرية، وقد استدعي غير مرة للمناظرة، فناظر وأفحم الخصوم.

سئل عنه الشيخ كمال الدين بن الزملکاني، فقال: هو بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو والأصول، ملازم لأنواع الخير، وتعليم العلم، حسن العبارة قوي في دينه، مليح البحث، صحيح الذهن، قوي الفهم، رحمه الله، قاله ابن رجب، وذكره الذهبي في المعجم وغيره، وأثنى عليه خيراً.

توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء رابع عشر جمادي الأولى - يعني سنة ٧٢٧هـ - وصلى عليه الظهر بالجامع، وحمل إلى القلعة فصلى عليه أخواه تقي الدين وعبد الرحمن وغيرهما، صلى عليه أخواه في السجن لأن التكبير عليه كان يبلغهم، وكان

وقتاً مشهوداً، ثم صلي عليه مرة ثالثة ورابعة، وحمل على الرؤوس والأصابع ودفن بمقابر الصوفية^(١).

● ومنهم: العالم الفاضل زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أخو الشيخ تقي الدين.

ولد سنة ثلاثة وستين وستمائة بحران، وحضر على أحمد بن عبد الدايم وهو في الخامسة جزء ابن عرفة، وسمع من ابن أبي اليسر والقاسم الإربيلي، وغيرهم من العلماء، وجمع له منهم البرزالي ستة وثمانين شيخاً.

وكان يتعاطى التجارة، وهو خير دين حبس نفسه مع أخيه بالإسكندرية ودمشق محبة له وإيثاراً لخدمته، ولم يزل عنده ملازمًا معه للتلاوة والعبادة إلى أن مات الشيخ، وخرج هو، وكان مشهوراً بالديانة والأمانة، وحسن السيرة، وله فضيلة ومعرفة.

كان شديد التعظيم لأخيهشيخ الإسلام، وكان يجلس بحضورته كأن على رأسه الطير، وكان يهابه كما يهاب سلطاناً، فإذا سئل عن هذا قال: إنني أرى منه أشياء لا يراها غيري، أوجبت عليّ أن أكون معه كما ترون.

(١) شذرات الذهب: ٢/٧٦-٧٧، مختصر الشطبي: ص ٥٣، الرد الواfir: ص ٩٦ الدرر الكامنة: ٢/٣٧٠، معجم الشيخ للذهبي: ١/٣٢٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٨٢.

ومات في ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٧ هـ رحمه الله تعالى^(١).

- ومنهم أخو الشيخ لأمه: الفقيه الحنبلي التاجر بدر الدين أبو القاسم محمد بن خالد بن إبراهيم الحراني.

ولد سنة خمسين وستمائة تقربياً بحران، وسمع بدمشق من ابن عبد الدايم وابن أبي اليسير وابن الصيرفي وابن أبي عمر وغيرهم، وتفقهه ولازم الاشتغال على الشيخ وأفتى بالمدرسة الجوزية، وبمسجد الرماحين بسوق جقمق، ودرس بالمدرسة الحنبلية نيابة عن أخيه الشيخ تقي الدين مدة.

قال الذهبي: كان فقيهاً عالماً إماماً بالجوزية، وله رأس مال يتجر به، وكان قد تفقه على أبي زكريا ابن الصيرفي وابن المنجاش وغيرهما، سمعنا منه أجزاءً وكان خيراً متواضعاً.

وقال البرزالي: كان فقيهاً مباركاً كثير الخير، قليل الشر، حسن الخلق، منقطعاً عن الناس، وكان يتجر ويتكسب وترك لأولاده تركية، وروى جزء ابن عرفة مراراً عديدة. توفي يوم

(١) الدرر الكامنة: ٢/٤٣٧، البداية والنهاية: ١٤/٢٢٠، شذرات الذهبي: ٦/١٥٢، الإعلام العلية: ٥٥-٥٤، معجم شيوخ الذهبي: ١/٣٦١، الوفيات لابن رافع: ٢/٣٧.

الأربعاء ثامن جمادى الآخرة سنة ٧١٧هـ ودفن بمقابر الصوفية عند والدته^(١).

- بنت أخ شيخ الإسلام: زينب بنت عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية الحنبلية.

قال ابن حجر: سمعت من الحجار وغيره وحدثت وأجازت لبي.

من شيوخ ابن ناصر الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي القيسى^(٢).

في مثل هذا الجو العلمي، والأسرة الكريمة، ذات الأمجاد العريقة في حمل راية العلم والفقه والدين، نشأ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى يتقلب في أعطاف العلم، تعلماً وتعلماً، مع ما قد جباه الله تعالى من ذاكرة حادة، وعقلٍ مستنير، وفکر صحيح لا عوج فيه، واطلاع مدهش جعل له من الأثر الكبير في نبوغه وتفوقه مبكراً، فقد تفوق قبل سنّه حتى أصبح موضوع اهتمام وحديث أهل عصره.

لقد نبغ شيخ الإسلام رحمه الله نبوغاً لا نظير له، ووصل إلى أبواب من العلوم وصنف فيها لم يسبقه إليها أحد، ولم يلحق

(١) شذرات الذهب: ٦/٤٥-٤٦.

(٢) ذيل طبقات الحفاظ: ص ٣١٧، شذرات الذهب: ٦/٣٥٨، أعلام النساء: ٢/٧٤.

به فيها أحد، وأصبح ذكر سيرته على الألسنة فيسائر البلدان، وامتلأت بترجمته الكتب والمؤلفات، وأثنى عليه أهل العلم في عصره وبعد عصره ثناءً جميلاً، وخلف وراءه من المصنفات والمؤلفات مئات المجلدات ازدانت بها المكتبة الإسلامية، فكلما ذكر المصلحون والمجددون، أو علوم الكلام والمنطق ومناقشة أهل الفرق، أو الفقه وأصوله، أو التفسير والمفسرون، أو الحفاظ الذين لا يشق لهم غبار، أو أي فن يضرب الناس المثل بالإكثار من تعلمه وحياته، ففاز إلى الذاكرة علم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه الفنون، الذي أدهش أهل عصره بما حباه الله من العلم، وما ناله من الفضل والمكانة العالية، وهذا الفضل كله من الله تعالى الذي يؤتى من يشاء من عباده.

الفصل الثاني

نشاته وطلبه للعلم

- مرحلة الرهبة والاستقرار
- مرحلة طلب العلم والتلقي
- مرحلة بداية العطاء

نشأته وطلبه للعلم

نشأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في عائلة متدينة. قد اشتهرت بالعلم، وورثه الآباء والأجداد، للأبناء والأحفاد. وكان للكثير من أبنائها نصيب وافر وحظ كبير من العلم، وقد ذكرنا بعض من اشتهر به منهم فيما مضى، ومن الطبيعي أن تعتني هذه العائلة بأبنائها ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتربى وتشتت على الأخلاق الفاضلة، والأداب العالية، وتبتعد به عن كل خلق سيء يشينه وينزل به.

وقد تأدب شيخ الإسلام بآداب من حوله، واقتدى بسيرة أبيه وأجداده الكرام، فكان نعم الوراث لتلك الأمجاد العربية، والأخلاق الفاضلة.

وقد أثرت هذه العائلة الكريمة في تكوين شخصيته العلمية، وتوجيهه إلى طلب العلم، وتشجيعه على الازدياد منه، والنهل من منابعه الصافية، منذ حداة سنه وإلى أن تأهل للتدريس والإفتاء، وأصبح مركزاً للإشعاع العلمي، وسيوضح هذا الفصل الذي سنعقده هذا الإجمال الذي ذكرناه آنفأ.

١- مرحلة الهجرة والاستقرار:

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية في عصر امتلاً بالفتن والاضطرابات، وكانت حياة المسلمين مليئة بالمصائب والأحداث الجسام، وقد ابتلوا بلاء عظيم وهو غزو التتار لبلاد المسلمين، وكثرة غاراتهم على مدنه وحواضره، وتخريبهم كل ما تصل إليه أيديهم من معالم الحضارة والعمارة، وإسرافهم في قتل المسلمين ونبي نسائهم، وسلب أموالهم.

وقد شهد شيخ الإسلام من فظائعهم الشيء الكثير من بداية حياته، ونعيمة أظفاره، حتى بلغ مرتبة الإمامة في الدين، وشارك في دحرهم وهزيمتهم في معركة شقحب على أرض الشام.

ولذلك ما إن بلغ الإمام رحمة الله السادسة من عمره حتى أغار التتار على بلده حران، وأعملوا فيها السيف والتدمير والتخريب، فما كان من والده الإمام شهاب الدين عبد الحليم رحمة الله إلا أن فر بأسرته هارباً من حران باتجاه دمشق، يصاحبهم في طريقهم الكثير من العائلات والأسر الكريمة التي تعرضت بلادها للاعتداء والسلب والنهب، وهي تحمل معها تراثها وكنوزها من كتب العلم وعراقة الأمجاد.

وقد صعب على الشيخ شهاب الدين عبد الحليم رحمة الله أن يترك ثروته الكبيرة من كتب العلم، وذخائر التراث الإسلامي، ليعيث فيها التتار حرقاً وتدميراً وفساداً، فما كان منه إلا أن وضع

كتبه التي يمتلكها على عجلة يجرها، ويعينه في جرها أبناء بلدته الذين خرجن معه، فهو إمامهم وعالم بلدتهم وخطيبها، رغم طول المسافة، وتزايد الخوف من التتار الذين كانوا يطاردونهم، واستناد المشقة عليهم في جرها بأيديهم لعدم توفر الدواب.

وكاد التتار أن يلحقوا بهم في أثناء الطريق لتوقف العجلة عن السير، فما كان من هذه الأسرة الكريمة، ومن معهم من الأصحاب؛ إلا أن رفعوا أيديهم يتضرعون إلى الله تعالى، ويستعينون به، حتى أنجاهم الله عزّ وجلّ من هذا الخطر الماحق الذي أحاط بهم، وسلموا، وساروا حتى وصلوا إلى دمشق المحروسة، فاستقرروا بها^(١).

- الاستقرار في دمشق:

وما أن وصلت هذه الأسرة الكريمة إلى دمشق، واستقرت بها، حتى باشر الشيخ شهاب الدين عبد الحليم رحمة الله التدريس والوعظ في المسجد الأموي. وفي مدرسة الحديث السكرية، فقد كان صاحب قدم راسخة في الفقه والحديث وسائر العلوم، وقد سبقته شهرته من حران إلى دمشق وغيرها من بلاد العالم الإسلامي، حيث كان مقصدًا لطلاب العلم والراغبين في التعلم.

(١) البداية والنهاية: ٣٢٥/١٣، تاريخ ابن الوردي: ٤٠٨/٢، الإعلام العلية: ص ١٦، العقود الدرية: ص ٣.

يقول الإمام الذهبي رحمه الله:

وكان قدومه إلى دمشق بأهله وأقاربه مهاجراً سنة سبع وستين، وكان من أنجم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر، وضوء الشمس يشير إلى أبيه وابنه.

ويقول البرزالي رحمه الله:

كان من أعيان الحنابلة باشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين وبها سكن وكان له كرسي بدمشق يتكلم عليه أيام الجمع من حفظه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

كان له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة. كان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه، وولي مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان سكنه، ثم درس ولده الشيخ تقي الدين بها بعده^(١).

٢- مرحلة طلب العلم والتلقي:

يكاد المؤرخون أن يجمعوا على أن ابن تيمية نشأ في عفاف وتقى وصلاح وتصون، وقد عود نفسه على الاقتصاد في الملبس والمأكل، وكان برأً بوالديه، ورعاً، عابداً، ناسكاً، صواماً، قواماً، وقافاً عند حدود الله أمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، راغباً في

(١) البداية والنهاية: ١٣ / ٣٢٠.

العلم نهماً في طلبه، لا يمل من المطالعة ولا يكل من البحث^(١). كلما دخل باباً من أبواب العلم فتحه الله عليه على مصراعيه، ويتفوق فيه على حذاق ذلك الفن وأئمته، فقد كان يحضر المجالس والمحافل العلمية من صغره، فيتكلم وينظر ويفحص الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان ذلك العلم. وكان فصيح اللسان، سريع القراءة، قوي الذاكرة، بل نادرة في الحفظ، وقف حياته للعلم والدعوة إلى كتاب الله وسنته رسوله، والجهاد في سبيل أعلاه كلمة الله.

وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:

«نشأ - يعني الشيخ تقى الدين - رحمه الله في تصوف تام، وعفاف وتآله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، وينظر ويفحص الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتقى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده - وكان من كبار الحنابلة وأئمته - فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره، وبعد صيته في العالم»^(٢).

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٠، المقصد الأرشد: ١/١٣٦.

(٢) العقود الدرية: ص (٥)، تاريخ ابن الوردي: ٢/٤٠٦-٤٠٧، فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى.

○ حفظه البارع، والعلوم التي تعلمها:

أ- اشتهره بالحفظ:

كان ابن تيمية رحمه الله تعالى من أكابر حفاظ عصره، فقد رزقه الله تعالى حافظة قوية، وذاكرة حادة واعية، بحيث كان من الأفذاذ الذين يضرب المثل بقوة حفظهم، وفي ذلك يقول الشيخ محمد صادق عرجون رحمه الله:

«... نشأ الإمام ابن تيمية - رحمه الله - يزينه عقل جمع الله له في المعارف قوى الفكر الإنساني، حفظاً وإدراكاً، ووعياً، فالتأريخ يضعه مع طليعة الأفذاذ الذين يضرب بهم المثل في الألمعية والذكاء المتفوق، وفي الحفظ الضابط، والذاكرة الوعاعية، الذين لا تغلوط لهم الأغالط، ويقول عنه معاصره: أنه ما حفظ شيئاً ونسقه، ولا نظر في مكتوب قل أو كثر إلا وحفظه، ولا سمع من العلم والمعارف شيئاً غاب عنه بعد أن علمه، فإذا قرأنا عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة أنه كان يسمع من شيخه إمام المحدثين ابن شهاب الزهرى من الثلاثين إلى الأربعين حديثاً في مجلس واحد فيحفظها لا يخرم منها حرفاً إذا تلاها، وقد ذكر الرواة أنه سمع مرة هذا القدر وفيه حديث السقيفة على إتساعه وطوله وتنوع الكلام فيه، فأعادها كلها لم تند عنده كلمة، وإذا قرأنا عن الإمام أبي عبد الله الشافعى أنه سمع من شيخه مالك بن أنس بسبعة عشر حديثاً في مجلس واحد، فأعادها حفظاً بأسانيدها لم

يختلف فيها عن سماعه من الإمام في كلمة أو حرف، إلى كثير من أتوا في الإسلام حواضطه، ومدارك واعية - فإنَّ ما أثرَ عن ابن تيمية منذ طفولته - وهو الرجل المخاصم الذي يتربص به خصومه ليأخذوا عليه شيئاً يعيبونه به - ليضعه في الذروة مع أولئك الغر البهاليل من أئمة الإسلام دون نكير»^(١).

ومن ذلك الوصف الذي وصفه به معاصره، بأنَّ له من الحافظة الضابطة ما لم يتوفَّر لغيره في عصره ما قاله الحافظ الذهبي رحمه الله ونقله عنه ابن الوردي، وابن شاكر الكتببي رحمة الله:

«انهُر الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوَّة حافظته وسرعة إدراكه»^(٢).

ومن ذلك ما قاله الحافظ عمر بن علي البزار رحمه الله تعالى:

«كانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة، ودلائل العناية فيه واضحة.

... كان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء التسيان، لم يكن يقف على شيء، أو يستمع لشيء غالباً إلا ويبقى على خاطره، إما

(١) مجلة الوعي الإسلامي السنة الثامنة - عدد ٨٨ - ربيع الآخر / ٩٢: ص ٦٩.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢٨٦/٢، والعقود الدرية: ص ٣، فوات الوفيات عن المنجد ص (٥٧).

بلغفظه أو معناه، وكان العلم كأنه اختلط بلحمه ودمه وسائره، فإنه لم يكن له مستعاراً، بل كان له شعاراً ودثاراً، لم يزل آباءه أهل الدرية التامة، والقدم الراسخة في الفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة، ووفقه في جميع أمره لاعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة»^(١).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

«قال جمال الدين السرمري في أماليه:

ومن عجائب ما وقع في الحفظ من أهل زماننا، أن ابن تيمية كان يمر بالكتاب مطالعة مرة، فينتقش في ذهنه، وينقله في مصنفاته بلغفظه ومعناه»^(٢).

وما قاله الإمام الحافظ الصلاح الصفدي رحمه الله تعالى في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فما رأيت - ولا أرى - مثله في اطلاعه وحافظته، ولقد صدق ما سمعنا به عن الحفاظ الأول، وكانت همته عالية إلى الغاية»^(٣).

(١) الأعلام العلية: ص ١٦، ١٨.

(٢) الدرر الكامنة: ١/١٦٣. الرد الواfir: ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) الوافي بالوفيات: ٧/١٩.

وما قاله الإمام الذهبي رحمه الله حين عده من الحفاظ الكبار وذكره في كتابه الشهير الذي أعده لترجمة الحفاظ من أعيان الزمان «تذكرة الحفاظ».

فقال في ترجمته:

«كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين»^(١) وكذلك قال الحافظ السيوطي في ترجمته له في كتابه طبقات الحفاظ^(٢).

ويقول الشيخ الندوی: عرفت أسرة ابن تيمية بقوة الذاكرة وكثرة الحفظ وسرعته، فقد كان أبوه وجده قويي الذاكرة، ولكن تقى الدين بن تيمية سبق أسرته كلها في هذه النعمة، فقد أدهش العلماء وأساتذته بذكراه القوية النادرة، وسرعة حفظه واشتهر بذلك في دمشق»^(٣).

ويكاد كل الذين أرخوا لعصره وترجموا له يجمعون على وصفه بالحفظ، وقوة الذاكرة، واستحضار ما يحفظ.

ومن النماذج المذكورة في سرعة حفظه رحمه الله تعالى: أنه حفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة من عمره، وأن الله تعالى أكرمه فاستبقى له هذه النعمة حتى توفاه الله تعالى، فلم

(١) تذكرة الحفاظ: ١٤٩٦/٤.

(٢) طبقات الحفاظ: ص ٥٢١.

(٣) ابن تيمية للندوی: ص ٣٧.

يكن شيء أيسر عليه في حاجاته وفتاويمه وكتبه من سوق الآيات
القرآنية لمواقعها من الاستدلال بها في مناسباتها^(١).

ومن تلك النماذج أيضاً ما أورده ابن عبد الهادي رحمه الله

بقوله:

«.. واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق،
وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع
الحفظ. وقد جئت قاصداً لعلّي أراه.

فقال له خياط: هذه طريق كُتابه وهو إلى الآن ما جاء فاقعد
عندنا، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتاب.

فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر صبيان، فقال الخياط

للحلبي:

ذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية.

فناداه الشيخ، فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه ثم

قال: يا ولدي امسح هذا حتى أ ملي عليك شيئاً تكتبه.

ففعل، فأ ملي عليه من متون الأحاديث أحد عشر، أو ثلاثة

عشر، حديثاً.

وقال له: إقرأ هذا فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه،

ثم دفعه إليه وقال:

اسمعه على، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع.

(١) الإعلام العلية: ص ١٧ ، تاريخ ابن الوردي: ٢٨٦ / ٢ ، العقود الدرية: ص ٣.

فقال له: يا ولدي امسح هذا، ففعل.

فأتملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال:

اقرأ هذا، فنظر فيه، كما فعل أول مرة.

فقام الشيخ، وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكون له شأن عظيم، فإن هذا لم يُرِ مثله، أو كما قال^(١).

ومن تلك النماذج العجيبة المذكورة في حفظه رحمة الله تعالى ما ذكره الإمام أبو المظفر السمرمي رحمة الله تعالى في المجلس السابع والستين من أماليه في الذكر والحفظ:

«ومن عجائب ما وقع في الحفظ في أهل زماننا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، فإنه كان يمر بالكتاب فيطالعه مرة فينتقص في ذهنه فيذاكر به، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه، ومن أعجب ما سمعته عنه ما حدثني به بعض أصحابه:

أنه لما كان صبياً في بداية أمره، أراد والده أن يخرج بأولاده يوماً إلى البستان على سبيل الترفة.

فقال له: يا أحمد تخرج مع إخوتك تستريح، فاعتله عليه، فألح عليه ولده، فامتنع أشد الامتناع.

فقال: اشتهي أن تعفيني من الخروج.

(١) العقود الدرية: ص ٤.

فتركه وخرج بأخوته، فظلوا يومهم في البستان، ورجعوا آخر النهار، فقال: يا أحمد أوحشت إخوتك اليوم، وتذكر عليهم، بسبب غيتك عنهم فما هذا؟.

قال يا سيدى ! إنني اليوم حفظت هذا الكتاب، لكتاب معه.
قال: حفظته !! كالمنكر المتعجب من قوله.

قال له: استعرضه علي، فاستعرضه، فإذا به قد حفظه جميعه، فأخذه وقبّله بين عينيه، وقال:
يا بنى لا تخبر أحدا بما قد فعلت، خوفا عليه من العين، أو
كما قال^(١).

وقد ذكر الصلاح الصفدي رحمة الله هذه القصة، وذكر معها اسم الكتاب الذي حفظه وهو كتاب «جنة المناظر، وجنة المناظر» وهو مجلد صغير وأمره شهير^(٢).

ومما يذكر من قوة حفظه وسرعة بديهته، وقوه علميته:
أنه كان جالساً في إحدى المرات في حلقته، إذ جاءه سؤال على لسان ذمي ينكر صاحبه القدر، وكان السؤال عبارة عن أبيات من الشعر، ومطلعها:

أيا علماء الدين ذمي دينكم
تحير دلوه بأعظم حجتي

(١) الرد الوافر: ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) أعيان العصر عن كتاب ابن تيمية عند المؤرخين للمنجد ص ٥١.

إذا ما قضى ربى بكفري يزعمكم
ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

وأبيات أخرى غير هذين البيتين.

فلماقرأ الشيخ الأبيات فكر قليلاً، ثم أنشأ يكتب في الحال
جواباً لهذا الاعتراض، وكان الطلاب يظنون أنه يكتب ثراً، ولما
فرغ وقرأه من حضر من أصحابه وإذا هو نظم من الشعر، من
نفس البحر والقافية الذي ورد به السؤال، يزيد على مائة بيت،
وقد ذكر أنه أبرز فيها من العلوم ما لو شرح ل جاء شرحه في
مجلدين كبيرين، يقول في مطلعها:
سؤالك يا هذا سؤال معاند

يخاصم رب العرش، باري البرية
وهذا سؤال خاصم الملا العلا
قديماً به إبليس أصل البلية
ومن يك خصماً للمهيمن يرجعون
على أم رأس هاوية في الحفيرة
إلى آخر الأبيات^(١).

ومن ذلك ما جاء في سبب تأليفه لكتابه «الفتوى الحموية
الكبرى» في أول شهر ربيع الأول لسنة ثمان وتسعين وستمائة:

(١) الإعلام العلية ص ٢٨، العقود الدرية ص: ٣٩٣ - ٣٨٣، الكواكب الدرية
ص ٧٩ - ٨٠، الدرر الكامنة: ١/١٩٦.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«كنت قد سُئلْتُ من مدة طويلة بعيد سنة تسعين وستمائة عن الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله في فتيا قدمت من حماة، فأحلت السائل على غيري، فذكر أنهم يريدون الجواب مني فكتبت الجواب في قعدة بين الظهر والعصر..»^(١).

فألف الرسالة بين الظهر والعصر في جلسة واحدة، كما أشار الشيخ رحمه الله، وقد أشار إلى ذلك كل من ابن القيم وابن عبد الهادي رحمهما الله تعالى^(٢).

هذه الأمثلة وغيرها كثير لها دلالة واضحة على ما كان يتمتع به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من ذاكرة واعية ضابطة، وعلى قوة حفظ لم تيسر لغيره لفترة طويلة من الزمن، ومما يؤكد ما ذهبت إليه ما جاء عن علامه عصره القاضي ابن الزمل堪اني رحمه الله تعالى:

فقد أورد الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: بلغني من طريق صحيح عن ابن الزمل堪اني: أنه سُئل عن الشيخ - يعني ابن تيمية - فقال:

(١) نقض التأسيس - مخطوط - (١/٣).

(٢) العقود الدرية: ٦٧، البداية والنهاية: ٤/١٤، الدرر الكامنة: ١/١٥٥ الكواكب الدرية ص ١٠٢، ١١٢.

لم يُرَ من خمسة مائة سنة - أو قال أربعين مائة سنة - الشك من الناقل وغالب ظنه أنه قال: من خمسة مائة سنة أحفظ منه»^(١).

ب - العلوم التي تعلمها:

إن أعلم الناس بالعالم تلاميذه ومعاصريه، والحق أنه ما من عالم نال من الثناء على علومه وعارفه، وغزاره معلوماته، وطول باعه في العلم كما ناله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وها هو أحد كبار تلاميذه العلامة الحافظ الإمام ابن عبد الهادي رحمه الله تعالى يحدث عن بداية أمر ابن تيمية رحمه الله وعن غزارة علومه فيقول:

«وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا - وقد ذكر نبذة من سيرته: -

أما مبدأ أمره ونشأته، فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء، راشفاً من كؤوس الفهم، راتعاً في رياض التفقه ودودحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوى إلى غير المطالعة والإشتغال والأخذ بمعالي الأمور، خصوصاً علم الكتاب العزيز والسنّة النبوية ولوازمها، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحًا سلفياً متألهاً عن الدنيا صَيْنَا تقياً، برأً بامه، ورعاً عفيفاً، عابداً ناسكاً صواباً قواماً، ذاكراً الله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجاعاً

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٩٣/٢

إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقفًا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه. أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل من البحث، وقلًّا أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حُدَّاق أهله، مقصوده الكتاب والستة.

ولقد سمعته في مبادئ أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليّ فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكّل، قال: وأكون إذ ذاك، في السوق أو المسجد أو الدرس أو المدرسة، ولا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أتال مطلوبـي ..»^(١).

لقد تبحر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في علوم الإسلام والعربية بما لم يعرفه التاريخ العلمي في الإسلام لأحد سواه، فقد أتقن جميع فنون المعارف التي كانت معروفة في عصره، حيث كانت هذه المعارف قد بلغت ذروتها في نضج مبادئها وأصولها، فقرأها وهضمها، ونقدّها وكشف زيف الباطل منها، وانتفع بما فيها من حق وخير.

(١) العقود الدرية: ٥-٦.

وقد اعترف بفضله وقوته في العلوم والمعارف الفطاحل من معاصريه الذين كان له في مجال الفكر والعلوم الإسلامية القدح المعلى، والذين تعتبر شهادتهم مفخرة في حياة هذالإمام الداعية المجاهد، وسأسوق بعضاً من هذه الشهادات:

● يقول الإمام العلامة شيخ عصره في الحديث وعلومه ابن دقيق العيد رحمه الله وقد اجتمع به وسئل عنه: رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريده^(١).

● وقال الإمام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث جمال الدين المزي رحمه الله: «ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله ولا أتبع لهما منه»^(٢).

● وقال الحافظ المؤرخ العلامة ابن سيد الناس رحمه الله: «كاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه ودرايته، أو حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من نحلته في ذلك، ولا أرفع من دلالته، برب في كل علم على أبناء جنسه، ولم تر عين من رأه مثله، ولا رأت عينيه مثل نفسه»^(٣).

(١) الرد الواfir: ص ١٠٧، تاريخ ابن الوردي: ٤٨/٢، شذرات الذهب: ٦/٨٣.

(٢) شذرات الذهب: ٦/٨٤.

(٣) العقود الدرية: ص ١٠، الرد الواfir: ٥٨-٥٩، الشهادة الزكية ٢٦-٢٧.

● وفيه يقول عصريه الشيخ الإمام العلامة، قاضي القضاة،
كمال الدين بن الزملکاني رحمه الله تعالى:

«قد ألان الله له العلوم، كما ألان لداود الحديـد، كان إذا
سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع: أنه لا يعرف غير ذلك
الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر
الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا
عرفوه من قبل، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم
في علم من لعلوم - سواء كان من علوم الشرع، أم من غيرها، إلا
فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكان له اليد الطولى في حسن
التصنيف، وجودة العبارة والتربية، والتقطيع والتبيين»^(١).

والقاريء المتجرد لهذه النصوص وغيرها يدرك جيداً أن
ابن تيمية رحمه الله قد تعلم العلوم التي كانت منتشرة في عصره،
ولم يترك باباً من أبواب العلم إلا أتقنه، فاعترف فضلاء عصره
بفضله وبلغه العلمي.

ومن هذه العلوم التي تعلمها ما ذكره مترجموه رحمهم الله
تعالى حيث يقول الحافظ ابن رجب:

(١) الرد الواfir: ص ١٠٥، العقود الدرية: ٨-٧، فوات الوفيات عن المنجد ص ٥٩، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٢، المختصر في أخبار البشر لابن الوردي: ٤٠٦/٢.

«عني بالحديث وسمع المسند مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير وما لا يحصى من الكتب والأجزاء، وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء، وأقبل على العلوم في صغره، فأخذ الفقه والأصول عن والده، وعن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والشيخ زين الدين بن المنجا، وبرع في ذلك وناظر، وقرأ في العربية أياماً على سليمان بن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه، فتأمله ففهمه، وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه، وأحکم أصول الفقه والفرائض، والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وأكابرهم، ومهر في هذه الفضائل، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وأفتى من قبل العشرين أيضاً، وأمده الله بكثرة الكتب وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: أنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه»^(١).

وقال ابن عبد الهادي رحمة الله:

«وشيشه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ ونسخ، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن،

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٨٧.

وأقبل على الفقه، وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً، حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك، وهذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة، فانهerà الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته وإدراكه»^(١).

وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله بعد أن ذكر قراءاته في الحديث:

«أول كتاب حفظه في الحديث (الجامع بين الصحيحين) للإمام الحميدي، وقلَّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء، أو يستمع لشيء - غالباً - إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه»^(٢).

وها هو الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى يذكر العلوم التي أنقناها ابن تيمية رحمه الله تعالى فيقول:

«كان آية في الذكاء، وفي سرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنَّة والاختلاف، بحراً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علمأً وزهداً وشجاعة وسخاءً وأمراً بالمعروف ونهياً عن

(١) العقود الدرية: ص ٣، تاريخ ابن الوردي: ٤٠٦/٢، فوات الوفيات عن المنتجد: ٥٨، ١٨

(٢) الإعلام العلية: ص ١٨

المنكر وكثرة تصانيف» إلى أن قال:

«إِنْ ذَكْرَ التَّفْسِيرِ فَهُوَ حَامِلُ لَوَائِهِ، وَإِنْ عَدَ الْفُقَهَاءِ فَهُوَ
مَجْتَهِدُهُمُ الْمُطْلَقُ، وَإِنْ حَضَرَ الْحَفَاظُ نُطْقُ وَخَرْسُوا، وَسَرَّدَ
وَأَبْلَسُوا، وَاسْتَغْنَى وَأَفْلَسُوا، وَإِنْ سُمِيَ الْمُتَكَلِّمُونَ فَهُوَ فَرَدُّهُمْ
وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ، وَإِنْ لَاحَ أَبْنَ سِينَا يَقْدُمُ الْفَلَاسِفَةَ فَلَهُمْ وَيَخْسِهُمْ،
وَهُنَّكَ أَسْتَارُهُمْ، وَكَشَفَ عَوَارِهِمْ، وَلَهُ يَدُ طَوْلِي فِي مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَالصَّرْفِ وَاللُّغَةِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَنْ أَنْ يَصِفَهُ كَلْمَيِّ، أَوْ يَنْبَهَ عَلَى
شَأْنِهِ قَلْمَيِّ، إِنْ سِيرَتَهُ وَعِلْمُهُ وَمَعْرِفَهُ، وَمَحْنَهُ وَتَنَقْلَاتَهُ يَحْتَمِلُ
أَنْ تَوْضِعَ فِي مَجْلِدَتَيْنِ»^(١).

○ اتقانه لغات أخرى:

كان ابن تيمية رحمه الله تعالى يتقن لغات أخرى غير العربية، فقد أتقن اللغة العبرية مما جعله يحسن دراسة العهدين القديم والجديد، ويرد على ما جاء فيهما من تحريف.

يقول رحمه الله:

«وَقَدْ سَمِعْتُ أَلْفَاظَ التُّورَةِ بِالْعِبْرِيَّةِ مِنْ مُسْلِمَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ،
فَوُجِدَتِ الْلُّغَتَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ غَايَةَ التَّقَارِبِ، حَتَّى صَرَتْ أَفْهَمُ كَثِيرًا
مِنْ كَلَامِهِمُ الْعَبْرِيِّ بِمَجْرِدِ الْمَعْرِفَةِ بِالْعِبْرِيَّةِ»^(٢).

(١) العقود الدرية: ص ٢٣-٢٤، فوات الوفيات عن المنجد: ٦٢.

(٢) نقض المنطق: ص ٩٢، ٩٣، مجموع الفتاوى: ٤/١١٠.

وقد كان يعرف كلاً من اللغة التركية، واللغة اللاتينية، كما دل على ذلك نص ورد في مجموع الرسائل الكبرى^(١).

وإذا كان شيخ الإسلام رحمه الله يصرح عن نفسه بأنه كان يعرف هذه اللغات، فلا أجد وجهاً أو مساغاً لما قاله هنري لاوست حين قال:

«كانت ثقافته قبل كل شيء ثقافة عربية خالصة، فلم يكن ابن تيمية يعلم أي لغة أخرى، كما أجمع على ذلك مترجموه، ويعضد ذلك حذره من دراسة آية لغة أخرى غير العربية وبالتالي أي ثقافة أجنبية»^(٢).

من كل هذا نعلم أن ابن تيمية رحمه الله تعالى قد اطلع على فنون الثقافة في عصره من تفسير، وحديث، وتوحيد، وفقه، وأصول، وتاريخ، ونحو وصرف، وبلاغة، ولغة، وجبر، ومقابلة، وحساب، ومنطق، وفلسفة وغير ذلك من العلوم التي كانت في عصره، وكان واقفاً على أصول الديانات كاليهودية والنصرانية، وكذا الفرق الضالة القديمة، والتي كانت في عصره كالفرق الباطنية وغيرها، حتى صار يضرب المثل بزخاره علمه في هذه الأبواب، وسعة الاطلاع، وكان أول ثلاثة قال فيهم الشاعر:

(١) مجموع الرسائل الكبرى ١/١٢٤، مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٩٦٦.

(٢) شرائع الإسلام: ١/٨١.

ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهُمْ رَابِعٌ
فِي الْعِلْمِ وَالْتَّحْقِيقِ وَالثُّسُكِ
وَهُمْ إِذْ شِئْتَ ابْنُ تِيمِيَّةَ

وَابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ وَالسُّبْكِيِّ

وَقَدْ أَعْجَبَ السِّيَوْطِيَّ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَدِيْعَةِ ابْنِ تِيمِيَّةَ
رَحْمَهُ اللَّهُ بِالْفَلْسَفَةِ وَالْمَنْطَقَ، فَضَرَبَ الْمَثَلَ بِزَخَارَةِ عِلْمِهِ، فَقَالَ:
«إِنْ بَرَعْتَ فِي الْأَصْوَلِ وَتَوَابِعِهَا مِنَ الْمَنْطَقِ وَالْحِكْمَةِ
وَالْفَلْسَفَةِ وَآرَاءِ الْأَوَّلِيَّاتِ وَمَجَارَةِ الْعُقُولِ، وَاعْتَصَمْتَ مِنْ ذَلِكَ
بِالْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ وَأَصْوَلِ السَّلْفِ، وَلَفِقْتَ بَيْنَ الْعُقْلِ وَالنَّقْلِ، فَمَا
أَظْنَكَ فِي ذَلِكَ تَبَلُّغُ رَتْبَةِ ابْنِ تِيمِيَّةَ وَلَا تَقَارِبَهَا»^(١).

وَحَتَّى بَلَغَ بِالْحَافِظِ الْذَّهَبِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ فِيهِ:
«لَوْ حُلِفَتْ بَيْنَ الرَّكْنِ وَالْمَقَامِ، لَحَلِفْتُ أَنِّي مَا رَأَيْتُ بِعِينِي
مِثْلَهِ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَى هُوَ مِثْلُ نَفْسِهِ فِي الْعِلْمِ»^(٢).

ج - عدم شبعه من العلم والمطالعة:

كَانَ لَابْنِ تِيمِيَّةَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - بَصَرٌ نَافِذٌ وَنَفْسٌ طَلْعَةٌ لَا تَكَادُ
تَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا تَكُلُّ مِنَ الْبَحْثِ، وَلَا تَرُوِي مِنَ الْمَطَالِعَةِ، مَعَ
الْتَوْفِرِ عَلَى ذَلِكَ وَقْطَعَ النَّفْسِ لَهُ وَصَرْفَ الْهَمَةِ نَحْوَهُ، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١١٦.

(٢) الذيل على طبقات الحتابلة: ٢ / ٣٩٠ - ٣٨٩، شذرات الذهب: ٦ / ٨١ - ٨٢.

ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أو في مصر، في السجن أو في البيت، بل إنه كان يتوجع ألمًا وحسرة حينما أخرجوه الكتب والأوراق من عنده في آخريات أيامه عندما كان سجينًا في قلعة دمشق.. وكان يعد ذلك من أعظم النكبات.

ولقد كانت لذة العلم وتحصيله عنده من أعظم اللذات التي لا يعادلها عنده شيء ولذلك كان يقول:

«لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، ولذة التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان بالله»^(١).

وقد وصفه مترجموه في هذا الباب بما يدهش الألباب، ويثير العقول، فلنسمع إلى أقوالهم وهي تصف حالته، واندماجه مع العلم، ونهمته في طلبه وتحصيله.

○ يقول الصفدي رحمه الله تعالى:

«كان من صغره حريصاً على الطلب، مُجداً على التحصيل والدأب، لا يؤثر على الاشتغال - أي تحصيل العلم - لذة، ولا يؤثر أن يضيع منه لحظة في البطالة فذلة، يذهب عن الطعام، ويغيب في لذة العلم عن حسه، لا يطلب أكلًا إلا إذا حضر لديه،

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/١٦٢.

ولا يرتاح إلى طعام أو شراب في أبوديه - أي في الغداة والعشي «^(١)».

○ ويقول الذهبي رحمه الله:

«.... لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل من البحث، وقل أن يدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه، إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله»^(٢).

ويقول أيضاً:

«كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحسن، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم، وتدوينه والعمل بمقتضاه»^(٣).

○ وأما الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزار رحمه الله فيقول:

«وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره، فإنه لم يكن له مستعاراً، بل كان له شعاراً ودثاراً، لم يزل آباءه أهل الدرية التامة، والنقد، والقدم الراسخة في الفضل، لكن الله جمع

(١) الوافي بالوفيات: (٧/١٩-٢٢)، أعيان العصر عن المنجد: ص ٥١.

(٢) الوافي بالوفيات: (٧/١٦)، فوات الوفيات عن المنجد: ٥٧-٥٨.

(٣) المعجم المختص بالمحاذين: ص ٢٥.

له ما خرق بمثله العادة، ووفقه من جميع أمره لأعلام السعادة،
وجعل مآثره لإمامته من أكبر بشهادة^(١).

○ وهذا هو الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى يقول فيه:
«قد بدا فيه منذ صغره ثلاث من مزاياه التي نمت وظهرت

ثمراتها في كبره:
أولاها: الجد والاجتهد، والانصراف إلى المجدى من
العلوم، والدراسات، لا يلهمو لهو الصبيان، ولا يبعث عبئهم.
وثانيها: تفتح نفسه وقلبه لكل ما حوله يدركه ويعيه، فلم
يكن الغلام المنقطع عن الأحياء والحياة، إلى الحفظ والاستذكار
فقط.

والثالثة: الذاكرة الحادة، والعقل المستيقظ والذكر المستقيم،
والنبوغ المبكر^(٢).

وبعد هذا الوصف له في شدة إقباله على العلم وتحصيله،
نسمعه رحمه الله تعالى وهو يقول:
«حصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم،
فالجسم يحس بالطعام والشراب، وكذلك القلوب تحس بما ينزل
إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابها»^(٣).

(١) الإعلام العلية: ص ١٨.

(٢) ابن تيمية: محمد أبو زهرة: ص ٢٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٤١ / ٤.

فهو رحمه الله تعالى لا مكان للدنيا في قلبه، وإنما نفسه
توفاة لا ترضى إلا بجوار ربها، فشداً مؤزر، وحمل عصاه على
عاتقه، فلم يضعها حتى أتاه اليقين.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية يقول - وقد عرض له
بعض الألم، فقال له الطيب: أضر ما عليك الكلام في العلم
والفكر فيه والتوجه والذكر.

فقال:

الستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحتها
له قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها، فإذا قويت
عليه قهرته؟.

فقال الطيب: بلى.

فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم،
وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع
العارض»^(١).

فكأن العلم وضع بين عينيه رحمه الله، أو اختلط بلحمه
ودمه، فقد أحرقت شهواته، فطعame الكفاف، وشرابه دفع الظماء،
ولباسه التقوى، لم تشغله عن طلب العلم وتحصيله صاحبة ولا
ولد.

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/١٧٠-١٧١.

ويقول الحافظ البزار رحمه الله:

وأخبرني غير واحد أنه ما رأه، ولا سمع أنه طلب طعاماً
قط، ولا غداء ولا عشاء، ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو
فيه من العلم والعمل، بل كان يؤتى بالطعام، وربما يترك عنده
زماناً حتى يلتفت إليه، وإذا أكل، أكل شيئاً يسيراً^(١).

وبعد هذا كله فالحق أن ابن تيمية رحمه الله قد أتقن كل
تراث الفكر في عصره، وألمَّ بجميع ألوان الثقافة العقلية من
كلامية وفلسفية، ثم اعمل فيها عقله الجبار، وذكاءه الخارق،
فأخرج لنا منه تراثاً غاية في القوة والخصوصية والعدوّية، حتى
صدق فيه قول الحافظ الذهبي رحمه الله وهو يصفه، ويصف
علومه بقوله:

«.. ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث
ورجاله، وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ومذاهب
الصحابة والتابعين - فضلاً عن المذاهب الأربعة - فليس له فيه
نظير، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له
فيه نظيراً، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً،
ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده
وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف، ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد

(١) الإعلام العلية: ص ٥٥-٥٦.

الأسخاء الذين يضرب المثل بهم، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس^(١).

٣ - مرحلة بداية العطاء:

لقد تعلم ابن تيمية رحمه الله سائر العلوم التي كانت معروفة ورائجة في عصره، فلم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه، وحق على من وصل إلى هذا المستوى من العلم أن ينتقل وهو في سن مبكرة إلى العطاء فيصبح مقصداً للطلاب ينهلون من علومه، ويستفيدون من معارفه، وقد هيأ الله تعالى له الظروف التي مهدت له الطريق إلى العطاء والإنتاج العلمي المبكر.

فقد أثني عليه العلماء بغزاره علمه، وواسع اطلاعه، ونوع معارفه، واتفق على هذا الموافق له والمخالف.

فقال الذهبي رحمه الله:.

«برع في الرجال وعمل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك، وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثني عليه الموافق والمخالف»^(٢).

(١) العقود الدرية: ص ٢٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦ ترجمة رقم: ١١٧٥.

- وقال ابن الزملکانی رحمه الله:

«... ولا تكلم في علم من العلوم، سواءً أكان من علوم
الشرع أم من غيرها، إلا فاق فيه أهله والمنسوبيين إليه..»^(١).

- وقال ابن سید الناس رحمه الله:

«... بَرَزَ فِي كُلِّ فَنٍ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ، وَلَمْ تُرَ عَيْنٌ مِّنْ رَأَءِ
مِثْلِهِ، وَلَا رَأَتْ عَيْنَهُ مِثْلَ نَفْسِهِ..»^(٢).

- وقال الصفدي رحمه الله:

«... وَرَأَيْتُهُ مَرَاتٍ بِمَدْرَسَةِ الْقَصَّاعِينَ وَبِالْحَنْبَلِيَّةِ، وَكَانَ إِذَا
تَكَلَّمَ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَازْدَحَمَتِ الْعَبَارَةُ عَلَى لِسَانِهِ، فَرَأَيْتَ الْعَجَبَ
الْعَجِيبَ، وَالْحَبْرَ الَّذِي مَا لَهُ مُشَاكِلٌ فِي فَنَّهُ وَلَا ضَرِيبَ، وَالْعَالِمَ
الَّذِي أَخَذَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِنَصِيبٍ، سَهْمُهُ لِلأَغْرَاضِ مُصِيبٍ،
وَالْمُنَاطِرَ الَّذِي إِذَا جَالَ فِي حُوْمَةِ الْجَدَالِ رَمَى الْخَصُومَ مِنْ
مِبَاحَثِهِ بِالْيَوْمِ الْعَصِيبِ.

وَعَايَنْتَ بَذْرًا لَا يَرَى الْبَدْرُ مِثْلَهُ

وَخَاطَبَتْ بَحْرًا لَا يَرَى الْعَبْرُ عَائِمَّهُ^(٣)

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٢، الرد الواffer: ص ٥٨، العقود الدرية: ص ٣٨٩.

(٢) العقود الدرية: ص ١٠.

(٣) العبر: الشاطئ.

(٤) الواffer بالوفيات: ٧/١٩.

٥ الإذن له بالفتوى:

لقد تشربت نفس ابن تيمية بالعلوم والمعارف التي تعلمها، ومع هذه العلوم والمعارف فقد رزق نبوغاً وذكاءً حاداً، أهله للتدريس والفتوى وهو في صدر شبابه قبل أن يتم العشرين من عمره، ثم قام بوظائف أبيه العلمية بعد وفاته وله حينئذ عشرون سنة أو تزيد قليلاً.

وقد ذكر مترجموه سن تأهله للفتوى والتدريس بأنه كان دون العشرين.

قال الذهبي رحمه الله:

«تأهل للتدريس والفتوى، وهو ابن سبع عشرة سنة»^(١).

وقال أيضاً:

«... فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكَّب على الاشتغال»^(٢).

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في ترجمة الشيخ الإمام أحمد بن نعمة المقدسي رحمه الله أنه من أذن لابن تيمية رحمه الله بالفتوى، فقال في وفيات ٦٩٢هـ.

«توفي الشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتى شرف الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة المقدسي،

(١) العقود الدرية: ص ٢٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٤.

ولي القضاء نيابة، والتدرис والخطابة بدمشق... وأذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول: أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء^(١).

○ وفاة والده وقيامه بالتدرис مكانه:

وبعد فترة قصيرة من الإذن له بالفتوى، توفي والده العلامة الشهير الشيخ شهاب الدين، فناب في التدرис عنه ابنه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمهما الله تعالى، وله إحدى وعشرون سنة.

قال الذهبي رحمه الله:

«مات والده، وكان من كبار الحنابلة وأئمته، فدرس بعده بوظائفه، وله إحدى وعشرون سنة، فاشتهر أمره، وبعد صيته في العالم»^(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله في تأريخه لأحداث سنة ٦٨٣ هـ: «في يوم الإثنين، ثاني المحرم منها، درس الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، بدار الحديث السكرية التي بالقصاعين»^(٣).

(١) البداية والنهاية: ١٣/٣٤١.

(٢) فوات الوفيات (منجد؛ ص ٥٨)، العقود الدرية: ص ٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٣/٣٠٣.

وقال ابن رجب رحمة الله تعالى:

«ثم توفي والده، الشيخ شهاب الدين المتقدم ذكره، وكان له حيئث إحدى وعشرون سنة، فقام بوظائفه بعده، فدرس بدار الحديث السكرية في أول سنة ثلاث وثمانين وستمائة»^(١).

○ درسه الأول ومن حضره من العلماء:

حين توفي الشيخ شهاب الدين عبد الحليم والدشيخ الإسلام في عام ٦٨٢هـ، وكان تقى الدين أحمـد بن تيمـية في الثانية والعشرين من عمره، وشعر الناس بفراغ كبير في التدريس في دار الحديث السكرية، وفزعوا لهذا الفراغ، ولكن فزعهم لم يطل، حيث حل ابن تيمـية الابن محل الوالـد المتوفـي، وسد ذلك الفراغ، بعد فترة قصيرة من الزـمن، فكان درسه الأول في يوم الإثنين الثاني من محرم سنة ثلاث وثمانين وستمائة...»^(٢).

○ من حضره من العلماء:

وقد حضر هذا الدرس الأول كبار علماء دمشق وفضلاـؤها، مثل الشيخ قاضـي القضاـة بهـاء الدين بن الزـكي الشـافـعـي، والـشـيخ تـاجـ الدين الفـزارـي شـيخـ الشـافـعـيـة، والـشـيخـ زـينـ الدينـ ابنـ المرـحلـ،

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٨٧/٢.

(٢) الـبداـيةـ والنـهاـيةـ: ١٣/٣٠٣ـ، الرـدـ الـواـفـرـ: صـ ١٥٤ـ.

وزين الدين بن المنجا الحنبلي، وبعض علماء الحنفية، وغيرهم من كبار العلماء وسراتهم^(١).

وقد كان لهذا الدرس أثراً كبيراً في نفوسهم، جعلهم يعترفون بالتبحر العلمي، وسرعة البديهة، والفصاحة والجرأة لهذا العالم الشاب، وكلهم أثني على ابن تيمية، واعترف بفضله، وعلمه، وقوة ذاكرته، وفي ذلك يقول ابن كثير رحمة الله:

«... وكان درساً هائلاً، وقد، كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنـهـ الحاضرون، وقد أطـنـبـ الحاضرونـ فيـ شـكـرـهـ عـلـىـ حـدـاثـةـ سـنـهـ وـصـغـرـهـ، فإـنـهـ كـانـ عـمـرـهـ إـذـ ذـاكـ عـشـرـينـ سـنـةـ وـسـتـيـنـ»^(٢).

وقال ابن رجب رحمة الله:

«... وذكر درساً عظيماً في البسملة، وهو مشهور بين الناس، وعظمـهـ الجـمـاعـةـ الـحـاضـرـونـ، وـأـنـتـواـ عـلـيـهـ ثـنـاءـ كـثـيرـاـ.

قال الذهبي: وكان الشيخ تاج الدين الفزاري، يبالغ في تعظيمـهـ الشـيـخـ تـقـيـ الدـيـنـ، بـحـيـثـ أـنـهـ عـلـقـ بـخـطـهـ درسـهـ بالـسـكـرـيـةـ...»^(٣).

(١) البداية والنهاية: ٣٠٣/١٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٣٨٧/٢، الرد الوافر: ص ١٥٥.

(٢) البداية والنهاية: ٣٠٣/١٣.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٨٧/٢، الرد الوافر: ص ١٥٤.

○ جلوسه للتفصير في المسجد الأموي:

«ثم جلس الشيخ تقى الدين رحمة الله يوم الجمعةعاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على كرسي قد هبى له لتفصير القرآن العزيز، فابتداً من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير، والجمع الغفير من كثرة ما يورد من العلوم المتنوعة المحررة، مع الديانة والزهادة والعبادة، فسارت بذكره الركبان فيسائر الأقاليم والبلدان، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة، وكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر، وبقي يفسر في سورة نوح عدة سنين أيام الجمع»^(١).

○ طريقة في إلقاء دروسه في مجالسه:

وقد وصف أحد من استمعوا إليه طريقة في إلقاء دروسه وصفاً دقيقاً يبعث على الإعجاب حيث قال الحافظ أبو حفص البزار رحمة الله:

«وأما ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بدمشق لا أفوتها، وكان لا يهبيء شيئاً من العلم ليلقيه ويورده، بل يجلس بعد أن يصلى ركعتين فيحمد الله ويثنى عليه، ويصلى على رسوله ﷺ، على صفة مستحسنة مستعدبة لم أسمعها من غيره، ثم

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٨٧-٣٨٨، البداية والنهاية: ١٣/٣٠٣، فوات الوفيات عن المنجد: ٥٨، العقود الدرية: ص ٥.

يشرع فيفتح الله عليه إيراد علومٍ وغواصاتٍ ولطائفٍ ودقائقٍ، وفنونٍ ونقول، واستدللاتٍ بآياتٍ وأحاديثٍ، وأقوالٍ للعلماء، ونصرٍ بعضها وتبين صحته، أو تزييف بعضها، وإيضاح حجته، واستشهاد بأشعار العرب وربما ذكر اسم ناظمها، وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل، ويفيض كما يفيض البحر، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ، كالغائب عن الحاضرين، مغمضاً عينيه، وذلك كله مع عدم فكر فيه أو رؤية، من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن، بل فيض إلهي، حتى يبهر كل سامع وناظر، فلا يزال كذلك إلى أن يصمت، وكانت أarah حينئذٍ كأنه قد صار بحضرة من يشغله عن غيره، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يُرعد القلوب، ويحير الأبصار والعقول.

وكان لا يذكر رسول الله ﷺ قط إلا ويصلّي ويسلم عليه، ولا والله ما رأيْتُ أحداً أشدّ تعظيماً لرسول الله ﷺ، ولا أحقر من على إتباعه ونصر ما جاء به منه، حتى إذا أورد شيئاً من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيءٌ غيره من حديث يعمل به، ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، وقال رضي الله عنه: كل قائل إنما يحتاج لقوله لا به، إلا الله ورسوله.

وكان إذا فرغ من درسه يفتح عينيه، ويُقبل على الناس بوجه طلق بشيش، وخلق دمث، كأنه قد لقيهم حينئذٍ، وربما اعتذر إلى

بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال.

وكان درسه الذي يورده حينئذٍ قدر عدة كراسيس، وهذا الذي ذكرته من أحوال درسه أمر مشهور يوافقني عليه كل حاضر بها، وهم بحمد الله خلق كثير، لم يحصر عددهم: علماء، رؤساء، وفضلاء، من القراء، والمحدثين، والفقهاء، والأدباء وغيرهم من عوام المسلمين»^(١).

وقال ابن الوردي رحمة الله:

«...أخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعم، وكذلك الدرس، بتؤدة وصوت جهوري وفصيح، يقول في المجلس أزيد من كراسين، ويكتب على الفتوى في الحال، عدة أوصال بخط سريع في غاية التعليق والإغلاق»^(٢).

وقال الصفدي رحمة الله:

«..رأيته مرات بمدرسة القصاعين وبالحنبلية، وكان إذا تكلم أغمض عينيه، وازدحمت العبارة على لسانه، فرأيت العجب العجيب، والجبار الذي مال له مُشاكلٌ في فنونه ولا ضريب،»
والعالم الذي أخذ من كل شيء بنصيب سهمه للأغراض مُصيب،

(١) الإعلام العلية .٢٧-٢٩.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٤٠٨/٢.

والمناظر الذي إذا جال في حومة الجدال رمى الخصوم من
مباحثه باليوم العصيب:

وعاينت بدرأ لا يرى البدر مثله

وخطبَت بحراً لا يرى العبر عائمه

واجتمعت به مرات، وكنت أحضر دروسه في الحنبلية،

ويقع لي أثناء كلامه فوائد لم أسمعها من غيره، ولا وقفت عليها
في كتاب^(١).

صفات دروسه:

ودروسه وإن تعددت نواحيها تجمعها جامعة واحدة، واتجاه
واحد، وهو إحياءها ما كان عليه الصحابة أهل القرن الأول الذي
تلقي الإسلام صافياً لم يرافق بأفكار غريبة، ولم تدرس فيه نحل
بائدة أراد أن يحييها أصحابها مستورة بستار المسلمين، فيجمعوا
بين أمرين، إحياء تراثهم وإفساد إدراك المسلمين، فيجمعوا بين
أمرين، إحياء تراثهم وإفساد إدراك المسلمين لدينهم.

وكان ينهج النهج الذي يعود بالإسلام إلى عهد الصحابة
في عقائده، وأصوله وفروعه، وإذا استيقن أن ما يقول هو ما
كان عليه الصحابة دافع عنه بالحججة والبرهان، وكل ما يواتيه
عقله ودراساته، من أدلة عقلية ونقلية، ويقرب ما يقول بعبارات

(١) الوفي بالوفيات: ١٩/٧.

مستقيمة، وتعليقات سليمة، وبواقع الحياة وما يجري بين الناس.

وهو في هذا يلقي بكل أسلحته العلمية، ومن رأه من كبار العلماء يثير إعجابه.

لقد رأه المحدث الكبير ابن دقيق العيد، وقد كان حجة العصر في الحديث وعلومه فقال فيه:

«رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريده، ويدع ما يريده، وقال له أول مرة رأه وسمع كلامه: كنت أظن أن الله تعالى ما بقي يخلق مثلك» بربت هذه المعرفة، وتلك الخواص، وذلك الامتياز البين، وابن تيمية حول الثلاثين من عمره، وقد صار مقصدًا للعلماء، والطلاب، الذين يستمدون إليه ليرحّلوا عليه فيعجبوا به، والطلبة ليستفیدوا، فيستهديهم بفكرة وقلبه وإخلاصه وبلاغ بيانه»^(١).

وها هو الحافظ ابن حجر رحمه الله يبدي إعجابه بغزاره علومه، وقدرته العلمية الكبيرة فيقول:

«وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسنّة واللغة والنظر، ما لا يقدر أحدٌ على أن يورده في عدة مجالس، كأن هذه العلوم بين

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٣٠.

عينيه يأخذ منها ما يشاء ويدر»^(١).

ونستطيع أن نلخص أبرز صفات أو سمات - دروسه على النحو التالي:

- ١ - فصاحة اللسان، وجرأة الجنان، وعدم التلعثم فيما يورده، والكلام بتأنٍ وبصوت جهوري مسموع لمن حضره واستمع إليه.
- ٢ - سلاسة الألفاظ التي يوردها، وفيضان العلم في مجالسه وكتاباته، بحيث عبر عن ذلك الأقشيري رحمه الله بقوله: «وقلمه ولسانه متقاربان».
- ٣ - شدة تعظيمه للرسول ﷺ، ومحبته الكبيرة له، وتقديمه لُسته على كل رأي غيرها.
- ٤ - نصرته لكتاب والسنة، وما كان عليه الصحابة الكرام في العهد الأول، مع توضيحه لما يقول بأوضح حجة، وأقوى برهان.
- ٥ - سعة اطلاعه التي أعطته وفرة في المعلومات، وكثرة البراهين والحجج، وقدرة على توظيف هذه المعلومات في المكان الذي يحتاج إليها فيه، مما جعل حجته أبلغ، وقدرته على الحوار والمناظرة أوسع، مما جعل الكثير من العلماء في

(١) الدرر الكامنة: ١٥٣/١.

عصره يرهبون، بل ويحجرون عن مواجهته في ميدان المعاشرة والجدل.

٦ - الذاكرة الحادة المتيقظة، والذكاء الخرافي، مما أكسبه قدرة غير عادية على استحضار الآيات الدالة على ما يريد، واستحضار متون الأحاديث وعزوها إلى أماكنها كأنها نصب عينيه.

٧ - هيبته الكبيرة في قلوب مستمعيه، وشدة تأثيره في نفسيات من يستمعون، ما جعله يثير إعجابهم به، فلا يملكون إلا أن يعبروا عن هذا الإعجاب بكلمات جامعة، كما فعل ابن دقيق العيد رحمة الله.

٨ - حيوية مجالسه، وشدة تأثيرها في الناس، وذلك لأنها كانت شديدة المساس بمشاكلهم اليومية، ولارتباطها بواقع الحياة وما يجري بين الناس، مع تقديميه للتعليلات السليمة، بعبارات واضحة مستقيمة، ولا أول على ذلك من معالجته قضية غزو التتار للشام، وقضية الحلف بالطلاق وغيرهما من القضايا.

هذه الصفات وغيرها جعلت من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله شخصية محبوبة، قريبة من آمال وألام الناس، مما أكسبه قوة في التأثير على أحداث الفترة التي عاشها، مما جعل هذا التأثير يثير حراكاً غير عادي وسط جو من الجمود والتقليد، وأجواء المداهنة والمداراة للحكام في ذلك العصر.

○ اشتهر علمه في الآفاق:

إن من وهبه الله تعالى هذه العلوم والمعارف، وآتاه الله تعالى هذه القدرة الفائقة على توظيف معارفه لخدمة الكتاب والرسالة، لجدير أن شير بذكره الركبان في البلدان والأقاليم، ويشتهر أمره بين الناس، فيأتيه طلبة العلم زرافات ووحدان، وهو في بوادر عطاءه، وعظم همته التي ما فترت طيلة حياته، حتى توفاه الله تعالى وهو دائم العطاء، لا يعرف الكلل ولا الملل، ولا يشبع من العلم والمناظرة والتصنيف والتأليف.

يقول الإمام الذهبي رحمه الله:

«ومات والده، وكان من كبار الحنابلة وأئمته، فدرسَ بعده بوظائفه، وله إحدى وعشرون سنة، فاشتهر أمره، وبعد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد ما ي قوله من غير توقف ولا تلعثم، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح»^(١).

وقال أيضاً:

«وَحَجَّ سَنَةً إِحْدَى وَتَسْعِينَ - وَقِيلَ ٦٩٢هـ - وَلَهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً، وَرَجَعَ وَقَدْ انْتَهَى إِلَيْهِ الْإِمَامَةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالْزَهْدِ، وَالْوَرْعِ، وَالشَجَاعَةِ، وَالْكَرْمِ، وَالتَوَاضِعِ وَالْعِلْمِ، وَالْأَنَاءِ وَالْجَلَالَةِ

(١) العقود الدرية: ص ٦-٧، فوات الوفيات منجد: ص ٥٨.

والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعلمة والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهاج إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوس المراقبة له، والتمسك بالأثر، والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان - رحمه الله تعالى - سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجاً في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»^(١).

○ تدريسه بالمدرسة الحنبلية:

إضافة إلى تدريسه رحمه الله تعالى في دار الحديث السكرية، وتفسيره القرآن الكريم في المسجد الأموي، فقد تولى رحمه الله التدريس بالمدرسة الحنبلية خلفاً للشيخ العالم العلامة زين الدين بن المنجا الحنبلي، ثم تنازل عن التدريس فيها بعد فترة طويلة من الزمن، لعدم تفرغه وكثرة أسفاره بين الشام ومصر، وانشغاله بمحاربة التتار، وإعداد الناس لمجابهتهم.

وفي كل هذا يقول العلامة ابن كثير رحمه الله في تاريهه لسنة ٦٩٥هـ:

«وفي يوم الأربعاء سابع عشر شعبان، درس الشيخ الإمام

(١) العقود الدرية: ص ٥، فوات الوفيات منجد: ص ٥٨.

العلامة شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية الحرانى بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين الدين ابن المنجا الذى توفي إلى رحمة الله»^(١).

وقد كان الشيخ العلامة الفقيه زين الدين ابن المنجا الدمشقي الحنفي أحد شيوخ ابن تيمية، وكان قد انتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي أصولاً وفروعاً، وكان يلقي دروسه في المدرسة الحنفية، فلما توفي رابع شعبان، خلفه في التدريس هناك تقي الدين ابن تيمية في السابع عشر من شعبان، بعد اثنى عشر يوماً.

وأما عن تنازله عن التدريس فيها فيقول ابن كثير رحمة الله:

«ونزل ابن تيمية عن حلقة العماد ابن المنجا لشمس الدين ابن الفخر البعلبكي»^(٢).

○ إجماع علماء عصره في الثناء عليه:

لقد أجمع الذين عاصروه على قوة فكره، وسعة علمه، وأنه بعيد المدى عميق الفكرة، يستوي في ذلك الأولياء والأعداء، فإن تلك القوة الفكرية هي التي أثارت الأولياء لنصرته، وأثارت الأعداء لعداوه، ولو كان هيناً في ذاته أو فكره، ما تحركت مناواة

(١) البداية والنهاية: ٣٤٤/١٣

٢) البداية والنهاية: ١٣ / ٣٤٤

المناوئين، وما استعنوا بالقوة المانعة عن القول، وقد عجزوا عن مجاراته.

فالجميع إذن مقررون بقوة عقله وعلمه، يستوي في ذلك العدو والولي، وما بين هؤلاء وهؤلاء، ولكن موضع الخلاف بين الأعداء والأولياء هو في الموافقة على الرأي الذي كان ينادي به، لا في قدر المنادي وقوته في العلم والفكر، وإذا كان الناس قد غضوا من قدره كعالم جليل، فليس ذلك من صميم قلوبهم إن كانوا عالمين، بل من الهوى الذي يغلب الفكر والعقل، وليس هذا شأن علماء الدين، أما الجاهلون فلا عبرة بقولهم إن أيدوا أو خالفوا، فقولهم لم يدخل في الحساب.

ونستطيع أن نقول أن كل علماء عصره علموا قدر علمه، حتى من ناوأه وحاول إيتاءه، لأنه قد ضاق صدره حرجاً بمخالفته، وما يأتي من جديد، وإن كان يستمد من القديم قوته فلم يوافق عليه»^(١).

وسيكون له وقفة مفصلة مع ثناء العلماء عليه، وأقوالهم في ذلك في فصل خاص سنفرده للحديث عن هذا الثناء العاطر الذي لم ينله عالم من العلماء كما حصل مع ابن تيمية رحمه الله إلا بعض علماء الصدر الأول، والقرون الأولى الخيرة.

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٩٣ - ٩٤.

الفصل الثالث

شيوخه وتلاميذه

البحث الأول

شيوخه

○ مصدر تلقي العلم في عصره:

كان تلقي العلم في عصر ابن تيمية رحمه الله تعالى، والذي
كان ضمن فترة عصر التدوين العلمي يتم من ناحيتين:

الأولى: من الرجال يوجهون ويلقون، ويخرج العالم
عليهم.

الثانية: من الكتب يدرسها ويفحصها وينقب فيها.

ومن مجموع ما يتغذى مما يتناوله من شيوخ، وما
يستخرجه من بطون الكتب تكون المادة العلمية التي يبني عليها،
ويستنبط منها، ويزيد عليها، وقد يأتي بلون آخر من ألوان الفكر،
مادته الأولى فيما درس.

وستزيد الأمر تفصيلاً في عرضنا لمادة هذا الفصل.

وفي معرض الحديث عن الناحية الأولى والتي تمثل الرجال الذين يوجهون ويلقون، ويخرج العالم عليهم، يقول الأستاذ العلامة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله:

«... وقد تهياً لابن تيمية - رحمه الله - مدرسة علمية في صدر حياته على أكمل مثال، وكان أول موجه له أبوه، فقد كان عالماً جليلاً له كرسي في المسجد الجامع بدمشق، وله مشيخة الحديث في بعض مدارسه، فنشأ في معدن العلم، ووجد الموجه الذي يلزمه، وهو أشدق الناس به وأحناهم، استمر ملازماً لأبيه إلى أن بلغ الحادية والعشرين حيث توفي ذلك الموجه الكريم، وفي أثناء تلك الملازمة التي جمعت أقوى قرابة، وصلة الروح والفكر كان يتصل بالعلماء ويتلقى عن كل شيخ من شيوخ دمشق أخص ما امتاز به»^(١).

فقد جاء في ترجمته عند الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله

ما نصه:

«شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير»^(٢).

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١١١.

(٢) العقود الدرية: ص ٣.

وفي ذلك يقول الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزار
رحمه الله:

«ولقد سمع غير كتابٍ على غير شيخ من ذوي الروايات
الصحيحة العالية، أما دواوين الإسلام الكبار كمسند أحمد،
وصحيح البخاري، ومسلم، وجامع الترمذى، وسنن أبي داود
السجستاني، والنمسائى، وابن ماجه، والدارقطنی، فإنه سمع كلاماً
منها مرات عدّة، وأول كتاب حفظه في الحديث الجمّع بين
الصحيحين للإمام الحمیدي»^(۱).

إن المتبّع لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى
يلحظ أنه تلقى على الرجال ما لا يؤخذ إلا بالسماع، وهو
ال الحديث، ليسند روايته إلى من قرأ عليه، وتلقى قبل ذلك أوائل
العلوم على شيوخ تخصصوا فيها، ودربوا عليها، فعلم العربية على
شيوخها، والمنطق على شيوخه، والتفسير على شيوخه، والفقه
الحنبلی على شيوخه وهكذا.

وكان مع ذلك يحضر المحافل والمجامع فيستمع إلى
مساجلات العلماء، ومحاورات الأدباء ومحاضرات ذوي الفكر
الثاقب التي كانوا يلقونها في المساجد الجامعية، أو في المدارس.
هذا في المجالس العامة، والمحافل الجامعية، أما في
المجتمعات الخاصة فكان بيته لمنزلة أبيه في العلم، ومكانته بين

(۱) الأعلام العلية: ص ۱۸

الفقهاء ورياسته لمشيخة الحديث، مجتمعاً علمياً خاصاً، يستمع فيه إلى أدق المسائل النظرية، والحقائق العلمية مدققاً موازناً بين غثها وسمينها، ضعيفها وقويتها، بعقل ذكي أريب، وقلب فتى مجيد، يردد ما يسمعه ويمحصه.

ولذلك كان يستفيد من كل العلماء الذين كانوا بمدينة دمشق، أو يفدون إليها، أو يمرون عليها، ويغشى مجالسهم مستمعاً مستفيداً ممizaً، غير هاضم إلا ما يستسيغه العقل ويوافق الأثر»^(١).

○ ثبت بأسماء قسم من شيوخه:

ذكرت سابقاً أن شيخ الإسلام رحمة الله قد تلقى العلم عن عدد كبير من شيوخ عصره يفوق المائة شيخ، كما أشار إلى ذلك تلميذه ابن الهادي رحمة الله تعالى، وقد حاولت جمع ما أستطيع من أسماء هؤلاء الشيوخ، لأكون من خلال ذلك ثبتاً لأسماء شيوخ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله، وفيما يلي أسوق أسماء من وصلت إليهم، ومصادر ترجمة كل واحد منهم، وبعض ما سمع شيخ الإسلام على كل واحد منهم، وتاريخ السمعان إن وجدت ذلك.

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١١١٢.

١ - الإمام المحدث الفقيه مستد الشام أبو العباس زين الدين
أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن أحمد المقدسي، المولود سنة
٥٧٥هـ، من شيوخ الحنابلة، عالم بالحديث، كان فيه دين
وتواضع ونباهة، وروى الحديث بضعاً وخمسين سنة، وانتهى إليه
علو الإسناد، توفي يوم الإثنين ثامن من رجب سنة ٦٦٨هـ
رحمه الله تعالى.

وقد استفاد منه ابن تيمية رحمه الله في الحديث وسمع منه
سنة ٦٦٧هـ وقد ذكر ذلك كما في مجموع الفتاوى الكبرى^(١).
وقد كف بصر ابن عبد الدائم في آخر عمره^(٢).

٢ - الشيخ الإمام العالم العلامة الزاهد قاضي القضاة
شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة
المقدسي، الجماعيلي، الحنبلي، الصالحي ولد في محرم سنة
٥٩٧هـ. وكان كثير الفضائل، وتفقه على عمه الشيخ الموفق
وكان منقطع النظير، عظيم القدر، في العلم والفضل والجلالة، من
تصانيفه: كتاب شرح المقنع، وكتاب تسهيل المطالب في تحصيل
المذاهب، وكلاهما في فروع الفقه الحنبلي، توفي سنة ٦٨٢هـ.

(١) مجموع الفتاوى الكبرى: ١٨/٧٧.

(٢) شذرات الذهب: ٥/٣٣٦-٣٣٥، النجوم الظاهرة: ٧/٢٣٠، البداية والنهاية،
١٣/٢٤٤، الواقي بالوفيات: ٦/٢٨، فوات الوفيات: ١/٨١-٨٢ ترجمة: ٣٥
العبر في خبر من غير: ٣١٧/٣.

وكان شيخاً لابن تيمية في الحديث ذكر أنه سمع منه في
شعبان سنة ٦٦٧ هـ بقاسيون، وأخذ عليه الفقه والأصول^(١).

٣ - الإمام الفقيه القاضي شرف الدين أبو العباس أحمد بن
أحمد بن نعمة المقدسي الشافعي، المولود سنة ٦٢٢ هـ، سمع
الكثير، وبرع في الفقه، والأصول، والعربيّة، وصنف فأجاد وأفاد،
ولي القضاء نيابة بدمشق، وأذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء،
منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول:
أنا أذنت لابن تيمية، من مؤلفاته: كتاب في أصول الفقه، توفي
سنة ٦٩٤ هـ^(٢).

٤ - والده الإمام الفقيه العلامة المحدث أبو المحاسن
عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ.
سمع منه بحران سنة ٦٦٦ هـ.

وقد ذكرنا ترجمته في بداية الكتاب، حين تحدثنا عن أسره
شيخ الإسلام^(٣).

(١) البداية والنهاية: ٣٢/١٣، شذرات الذهب: ٥/٣٧٦، النجوم الظاهرة: ٥/٣٧٦،
الأعلام للزركلي: ٣٢٩/٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٠٤-٣١٠، العبر في خبر
من غير: ٣٥/٥٠، مرآة الجنان: ٤/١٧٩.

(٢) البداية والنهاية: ٣٤١/١٣، شذرات الذهب: ٥/٤٢٤-٤٢٥، طبقات الشافعية:
٧/٥ معجم المؤلفين: ١/١٥٦.

(٣) البداية والنهاية: ٢٨٧/١٣، الدارس في أخبار المدارس للنعييمي: ١/٧٤،
شذرات الذهب: ٥/٣٧٦.

٥ - الإمام الفقيه المحدث زين الدين أبو البركات المنجّى بن عثمان بن أسعد بن المنجّى بن بركات التنوخي، الدمشقي، الحنبلي المولود سنة ٦٣٢ هـ، انتهت إليه رئاسة المذهب الحنبلي بالشام في وقته، ومن تصانيفه: شرح المقنع، وتفسير القرآن العزيز، وغيرهما.

أخذ عنه ابن تيمية رحمه الله الفقه.

وهو الذي تولى شيخ الإسلام ابن تيمية التدريس بدلاً عنه بعد وفاته في المدرسة الحنبلية، وهو من حضر أول درس ابن تيمية في دار الحديث السكرية، توفي رحمه الله سنة ٦٩٥ هـ^(١).

٦ - الإمام الفقيه النحوي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي. فقيه، محدث، نحوي، ناظم، كان ابن تيمية رحمه الله من قرأ عليه العربية، من مؤلفاته: كتاب الفروق، وغيره، توفي رحمه الله سنة ٦٩٩ هـ^(٢).

٧ - الإمام الفقيه القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي، شارح كتاب الهدایة، وكان بارعاً في علوم شتى، له اعترافات على شيخ الإسلام ابن تيمية في علم

(١) البداية والنهاية: ١٣/٣٦٥، الذيل على الطبقات: ٢/٢٣٣-٣٣٢ برقم: ٤٣٩.

(٢) الوافي بالوفيات: ٣/٢٧٨، الأعلام: ٧/٨٣، شذرات: /٤٥٢-٤٥٣، الذيل على الطبقات: ٢/٣٤٢ ترجمة رقم: ٤٥٠.

الكلام، وقد رد عليه شيخ الإسلام في مجلدات، وأبطل حجته،
توفي سنة ٧١٠ هـ^(١).

٨ - الإمام المحدث الشيخ فخر الدين أبو الحسن علي بن
أحمد بن عبد الواحد بن أحمد السعدي المقدسي الصالحي،
الحنبلي، المعروف بابن البخاري المولود سنة ٥٩٥ هـ، كان
شيخاً، عالماً، فقيهاً، زاهداً، عابداً، مستنداً، مكرماً للطلبة،
حدث نحواً من ستين سنة.

طال عمره، ورحل الطلبة إليه من البلاد، وألحق الأسباط
بالأجداد في علو الإسناد، حتى أصبح مستند الدنيا في عصره.
سمع منه شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٦٨١ هـ، وكان يقول
عنه: «ينشرح صدرى إذا أدخلت ابن البخاري بيبي وبين النبي ﷺ
في حديث»، توفي رحمة الله سنة ٦٩٠ هـ^(٢).

٩ - الشيخ الفقيه الإمام العالم البارع جمال الدين أبو الفرج
عبد الرحمن بن سليمان بن سعيد بن سليمان البغدادي المولود
سنة ٥٨٥ هـ بحران، نزيل دمشق، سمع منه شيخ الإسلام سنة
٦٦٨ هـ، توفي رحمة الله تعالى سنة ٦٧٠ هـ^(٣).

(١) البداية والنهاية: ١٤/٥٢، الدرر الكامنة: ١/٩٦-٩٧، معجم المؤلفين: ١/
١٤٠.

(٢) شذرات الذهب: ٥/٤١٤، العبر: ٣/٣٧٣، البداية والنهاية: ١٣/٣٤٣، معجم
الشيخ الكبير للذهبي: ٢/١٣-١٤، معجم المؤلفين: ٧/١٦، الإعلام: ٤/٢٥٧.

(٣) شذرات الذهب: ٥/٣٣٢، العبر: ٣/٣٢١، التلجم الزاهرة: ٧/٢٣٧.

١٠ - الإمام المحدث مُسنـد الشـام الكـاتـب المـنشـىء
تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسـر التـنـوـخـي
ولـد سـنة ٥٨٩ـهـ وـسـمع مـنـه ابن تـيمـيـة سـنة ٦٦٩ـهـ. وـفـيـهـ خـيـرـ
وـعـدـالـةـ وـصـلـاحـ، تـوـفـيـ رـحـمـهـ اللهـ فـيـ صـفـرـ سـنة ٦٧٢ـهـ^(١).

١١ - الإمام الفـقيـهـ سـيفـ الدـينـ أـبـوـ زـكـرـيـاـ يـحـيـىـ بنـ
عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ نـجـمـ بـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ الـحـنـبـلـيـ الـأـنـصـارـيـ الـمـولـودـ
سـنة ٥٩٢ـهـ سـمعـ مـنـهـ ابنـ تـيمـيـةـ رـحـمـهـ اللهـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ عـاـشـرـ
شـوـالـ سـنة ٦٦٩ـهـ، وـتـوـفـيـ رـحـمـهـ اللهـ فـيـ شـوـالـ سـنة ٦٧٢ـهـ^(٢).

١٢ - الشـيـخـ الـإـمـامـ الـقـاضـيـ شـمـسـ الدـينـ أـبـوـ مـحـمـدـ
عـبـدـ اللهـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـطـاءـ بـنـ حـسـنـ الـأـذـرـعـيـ الـحـنـفـيـ الـمـولـودـ
سـنة ٥٩٥ـهـ، سـمعـ مـنـهـ ابنـ تـيمـيـةـ رـحـمـهـ اللهـ فـيـ سـنة ٦٦٧ـهـ، كـانـ
يـشـارـ إـلـيـهـ فـيـ مـذـهـبـهـ مـعـ الدـيـنـ وـالـصـيـانـةـ وـالـتـوـاـضـعـ وـالـتـعـفـفـ، تـوـفـيـ
وـقـدـ قـارـبـ الـثـمـانـيـنـ سـنة ٦٧٣ـهـ^(٣).

١٣ - الشـيـخـ الـمـسـنـدـ زـيـنـ الدـيـنـ أـبـوـ الـعـبـاسـ الـمـؤـمـلـ بـنـ
مـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ بـنـ مـحـمـدـ الـبـالـسـيـ الـمـولـودـ سـنة ٦٠٢ـهـ وـقـيلـ

(١) الـبـادـيـةـ وـالـنـهـاـيـةـ: ١٣/٢٥٤، الدـرـرـ الـكـامـنـةـ: ١/٩١، شـذـرـاتـ الـذـهـبـ: ٥/٣٣٦.
الـعـبـرـ: ٣٥٢/٣.

(٢) شـذـرـاتـ الـذـهـبـ: ٥/٣٤٠، الـعـبـرـ: ٣٢٩/٣.

(٣) الـبـادـيـةـ وـالـنـهـاـيـةـ: ١٣/٢٨٩، الـعـبـرـ: ٣٢٧/٣، شـذـرـاتـ: ٥/٣٤٠، الـفـوـائـدـ الـبـهـيـةـ:
صـ ٩٠.

ثلاث، وسمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٦٩هـ والمتوفى سنة ٦٧٧هـ^(١).

١٤ - الشيخ العدل رشيد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر محمد بن محمد بن سليمان العامري سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى سنة ٦٦٨هـ، ٦٦٩هـ - ٦٧٧هـ، وتوفي رحمه الله تعالى في ذي الحجة سنة ٦٨٢هـ^(٢).

١٥ - الإمام المحدث شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن غدير بن القواس الطائي المولود سنة ٦٠٢هـ، كان شيخاً متميزاً حسن الديانة، سمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٧٥هـ، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٨٢هـ^(٣).

١٦ - الإمام العالم الزاهد كمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح بن رافع بن علي الحراني ابن الصيرفي، كان إماماً عالماً صاحب عبادة وتهجد وصفات حميدة، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في شوال سنة ٦٦٨هـ، وتوفي في رابع صفر سنة ٦٧٨هـ^(٤).

(١) العبر: ٣/٣٣٧، شذرات الذهب: ٥/٣٦٠، النجوم الزاهرة: ٧/٢٨٥.

(٢) العبر: ٣/٣٥١، شذرات الذهب: ٥/٣٨١، مرأة الجنائز: ٤/١٧٨، النجوم الزاهرة: ٧/٣٦١.

(٣) شذرات الذهب: ٥/٣٨٠، العبر: ٣/٣٥١، النجوم الزاهرة: ٦/٣٦١.

(٤) معجم المؤلفين: ١٣/٣٢٣، العبر: ٣/٣٣٩، شذرات الذهب: ٥/٣٦٣.

١٧ - الحاج المسند العالم أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن عبد الواسع الهروي الدمشقي عماد الدين، المولود سنة ٥٩٤ هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في رابع ربيع الأول سنة ٦٦٨ هـ، وتوفي رحمه الله تعالى في رجب سنة ٦٧٣ هـ^(١).

١٨ - الإمام المسند زين الدين أبو العباس أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم بن سلامة بن الحداد الدمشقي، كان والده إماماً لحلقة الحنابلة، فمات وهو صغير، وكان خياطاً ودللاً، وأضطر بأخره، وكان يحفظ القرآن.

سمع منه ابن تيمية رحمه الله في ربيع الأول سنة ٦٧٥ هـ، وكان مولده رحمه الله في ربيع الأول سنة ٦٠٩ هـ، وتوفي في يوم عاشوراء سنة ٦٧٨ هـ^(٢).

١٩ - العدل المسند أمين الدين أبو محمد القاسم بن أبي بكر بن قاسم بن غنيمة الإربيلي المولود في سنة ٥٩٥ هـ أو قبلها بإربيل، ارتحل في طلب العلم مع أبيه وله بضع عشرة سنة، سمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٧٧ هـ وتوفي رحمه الله في جمادي الأولى سنة ٦٨٠ هـ^(٣).

(١) الأربعون لابن تيمية: ص ٢٢، مجموع الفتاوى: ١٨/٨٢.

(٢) العبر: ٣/٣٣٨، شذرات الذهب: ٥/٣٦٠، مجموع الفتاوى: ١٨/٩١-١١٢.

(٣) العبر: ٣/٣٤٤، شذرات الذهب: ٥/٣٦٧، النجوم الراحلة: ٧/٣٥٣.

٢٠ - الشيخ الإمام الصدر الرئيس شمس الدين أبو الغنائم المسلم بن محمد بن المسلم بن علان القيسي الدمشقي، كان محدثاً من سروات الحديث ولد سنة ٥٩٤ هـ، وسمع منه ابن تيمية رحمة الله سنة ٦٦٧ هـ، وسنة ٦٨٠ هـ.

وتوفي رحمة الله تعالى في السادس ذي الحجة سنة ٦٨٠ هـ^(١).

٢١ - الإمام المحدث بدر الدين أبو العباس أحمد بن شيبان بن تغلب بن حيدرة الشيباني المولود سنة ٥٩٩ هـ راوي مسند الإمام أحمد بن حنبل، سمع منه ابن تيمية رحمة الله سنة ٦٨٤ هـ، وفي شعبان سنة ٦٧٥ هـ وتوفي رحمة الله في صفر سنة ٦٨٥ هـ^(٢).

٢٢ - الإمام المحدث ناصر الدين أبو حفص عمر بن عبد المنعم ابن القواس الدمشقي، المولود سنة ٦٠٥ هـ، والمتوفى سنة ٦٩٨ هـ رحمة الله تعالى، كان مسند الوقت في زمانه^(٣).

(١) البداية والنهاية: ١٣/٣١٦، النجوم الزاهرة: ٧/٣٥٣، شذرات الذهب: ٥/٦٩، العبر: ٣٤٦/٣.

(٢) شذرات الذهب: ٥/٣٩٠، النجوم الزاهرة: ٧/٣٧٠ العبر: ٣/٣٥٨، البداية والنهاية: ١٣/٢٣٢٦.

(٣) شذرات الذهب: ٥/٤٤٢.

٢٣ - الشيخ المسند كمال الدين أبو نصر عبد العزيز بن عبد المنعم بن الخضر بن شبل بن عبد الحارثي المولود سنة ٥٨٩هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى في يوم الجمعة السادس شعبان سنة ٦٦٩هـ بجامع دمشق، وتوفي في شعبان سنة ٦٨٢هـ^(١).

٢٤ - الشيخ الصالح المسند أبو عبد الله محمد بن بدر بن محمد بن يعيش الجزري سمع منه ابن تيمية في شعبان سنة ٦٧٥هـ بقاسيون، وتوفي في شعبان سنة ٦٧٥هـ رحمه الله تعالى^(٢).

٢٥ - الشيخ المسند أبو يحيى إسماعيل بن أبي عبد الله بن حماد بن عبد الكري姆 العسقلاني، كان أمياً لا يكتب، وقد سمع ابن العسقلاني في الرابعة سنة ٥٩٩هـ، وقد سمع منه ابن تيمية رحمه الله في شعبان سنة ٦٧٥هـ وفي سنة ٦٨١هـ، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٨٢هـ في رمضان^(٣).

٢٦ - الفقيه الإمام العالم زين الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن أبي الفرج بن أبي طاهر بن محمد بن نصر، عُرف بابن السديد الأنباري الحنفي، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في

(١) شذرات الذهب: ٥/٣٢٨، العبر: ٣/٣٢٥ النجوم الظاهرة: ٧/٢٢٤.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٨/٨٨-٨٩.

(٣) العبر: ٣/٣٤٩، شذرات الذهب: ٥/٣٧٥، مجمع الفتاوى: ١٨/١٠٥-١٠٦.

رجب سنة ٦٧٥هـ، وتوفي رحمة الله في جمادى الأولى سنة ٦٧٧هـ، وله ثلث وسبعون سنة^(١).

٢٧ - الشيخ الإمام المقرئ الرئيس الفاضل كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل بن فارس التميمي السعدي، كان مولده سنة ٥٩٦هـ، وفيه خير وتدين، سمع منه ابن تيمية رحمة الله في رمضان سنة ٦٧٤هـ، توفي في صفر سنة ٦٧٦هـ^(٢).

٢٨ - الجمال أحمد بن أبي بكر بن سليمان الوعاظ ابن الحموي أبو العباس الدمشقي المولود في حدود سنة ستمائة، سمع منه ابن تيمية رحمة الله في رجب سنة ٦٨٠هـ، وفي سنة ٦٨١هـ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٦٨٧هـ وله سبع وثمانين سنة^(٣).

٢٩ - المسند الأصيل العدل مجد الدين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن عثمان بن المظفر بن هبة الله بن عساكر الدمشقي الشافعى، كان مولده سنة ٥٨٧هـ سمع منه ابن تيمية رحمة الله في شعبان سنة ٦٦٧هـ، وتوفي رحمة الله في ذي

(١) مجموع الفتاوى: ١٨ / ٨٩ - ٩٠.

(٢) شذرات الذهب: ٥ / ٣٥١، العبر: ٣٣١ / ٣، مجموع الفتاوى: ١٨ / ٩٠ - ٩١.

(٣) التجوم الظاهرة: ٧ / ٣٨٧، العبر: ٣ / ٣٦٣، شذرات الذهب: ٥ / ٤٠٠، مجموع الفتاوى: ١٨ / ١١ - ١١٢.

القعدة سنة ٦٦٩هـ^(١).

٣٠ - الإمام السيد عماد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الصعر بن السيد بن الصانع الأنصاري المتوفى في رمضان سنة ٦٧٩هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله في سنة ٦٧٦هـ^(٢).

٣١ - الشيخ الأصيل المسند نجم الدين أبو العز يوسف بن يعقوب بن محمد بن علي المجاور الشيباني الدمشقي الكاتب، تفرد برواية تاريخ بغداد عن الكندي سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى سنة ٦٧٦هـ، ٦٨٠هـ، وقد ولد رحمه الله سنة ٦٠١هـ، وتوفي في ذي القعدة سنة ٦٩٠هـ^(٣).

٣٢ - الإمام العالم أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى بن علوى بن الحسين الدرجى القرشى الحنفى إمام مدرسة الكشك، روى المعجم الكبير للطبرانى، سمع منه في رجب سنة ٦٨٠هـ، ولد سنة ٥٩٩هـ، وتوفي في صفر سنة ٦٨١هـ^(٤).

(١) الوافي بالوفيات: ٢١٩/٢، شذرات الذهب: ٣٣١/٥، مجموع الفتاوى: ١٨/٩٧-٩٦.

(٢) الأربعون لابن تيمية: ص ٦٦.

(٣) الأعلام: ٢٥٨/٨، معجم المؤلفين: ٣٤٥/١٣، النجوم الزاهرة: ٣٣/٨، شذرات الذهب: ٤١٧/٥، العبر: ٣٧٥/٣.

(٤) العبر: ٣٤٧/٣، شذرات: ٣٧٣/٥، البداية: ٣١٧/١٣، النجوم الزاهرة: ٧/٣٥٦.

٣٣ - الإمام نجيب الدين المقداد بن أبي القاسم هبة الله بن المقداد أبو المرهف القيسي البغدادي الشافعى، كان عدلاً خيراً تاجراً، ولد في سنة ٦٠٠هـ وتوفي بدمشق في ثمان شعبان سنة ٦٨١هـ^(١).

٣٤ - الإمام محمد بن عامر بن أبي بكر الفسولي أبو عبد الله المقرىء، كان صالحاً متواضعاً خيراً حسن الوعظ، حلو العبارة في الدعاء، سمع منه ابن تيمية رحمة الله تعالى في سنة ٦٨٢هـ، وقد توفي رحمة الله تعالى في جمادى الآخرة سنة ٦٨٤هـ وقد قارب الثمانين^(٢).

٣٥ - الشيخ الجليل الصالح كمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن عبد الملك بن يوسف بن قدامة المقدسي المولود في حدود سنة ٥٩٨هـ والمتوفى في جمادى الأولى سنة ٦٨٠هـ، وكان رجلاً صالحاً، سمع منه ابن تيمية رحمة الله تعالى في صفر سنة ٦٨٠هـ، أي قبل وفاته بشهرين تقريرياً^(٣).

٣٦ - الشيخ الإمام علي بن محمود بن شهاب، المولود سنة ٥٩٥هـ والمتوفى في رمضان سنة ٦٨٠هـ^(٤).

(١) العبر: ٣٤٩/٣، شذرات: ٥/٣٧٤-٣٧٥.

(٢) العبر: ٣٥٧/٣، شذرات: ٥/٣٨٩، البداية والنهاية: ١٣/٣٢٣، الأربعون: ص ٧٢.

(٣) العبر: ٣٤٣/٣، الأربعون: ٨٤.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٨/١٠٥-١٠٦.

٣٧ - الشيخ الجليل الثقة زين الدين أبو بكر محمد بن أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الأنماطي الأنصارى المصرى، سمع منه ابن تيمية رحمه الله تعالى في رجب سنة ٦٦٨هـ، وقد ولد سنة ٦٠٩هـ وتوفي في ذي الحجة سنة ٦٨٤هـ بالقاهرة^(١).

٣٨ - الإمام شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك بن عثمان بن عبد الله بن سعد المقدسي، كان ثقة صالحًا نبيلاً مهيباً من خيار الشيوخ. ولد رحمه الله سنة ٦٠٦هـ، وتوفي في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ، سمع منه ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٨١هـ^(٢).

٣٩ - الشيخ الإمام الحافظ جمال الدين أبو حامد محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن علي بن الصابوني، شيخ دار الحديث النورية بدمشق، المولود في سنة ٦٠٤هـ، والمتوفى في ذي القعدة سنة ٦٨٠هـ، سمع منه في رمضان سنة ٦٦٨هـ^(٣).

٤٠ - الشيخ الأمين الصدوق شمس الدين أبو غالب

(١) شذرات الذهب: ٥/٣٣٨، العبر: ٣/٣٥٧، مجموع الفتاوى: ١٨/١٠٧-١٠٨.

(٢) العبر: ٣/٣٦٩، شذرات: ٥/٤٠٨، النجوم الزاهرة: ٧/٣٨٦، مجموع الفتاوى: ١٨/١٠٨-١٠٩.

(٣) العبر: ٣/٣٤٦، مرآة الجنان: ٤/١٩٣، شذرات: ٥/٣٦٩، مجموع الفتاوى: ٤/٢٤٦، ١٨/١١٠، ١١١، الوافي بالوفيات: ٤/٢٤٦.

المظفر بن عبد الصمد بن خليل الأنباري المتوفى في جمادى الأولى سنة ٦٨٨هـ وعمره اثنان وثمانون سنة، سمع منه قراءة عليه في جمادى الآخرة سنة ٦٨٤هـ^(١).

٤١ - الشيخ الإمام عبد الرحمن بن أحمد بن عباس أبو محمد الفاقوسي، المتوفى في شعبان سنة ٦٨٢هـ وله خمس وسبعون سنة^(٢).

٤٢ - الشيخ الإمام محيي الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي عصرون التميمي، المولود في سنة ٥٩٩هـ، والمتوفى في ثالث ذي القعدة سنة ٦٨٢هـ، سمع منه ابن تيمية رحمة الله تعالى سنة ٦٨٢هـ^(٣).

٤٣ - أقضى القضاة نفيس الدين أبو القاسم هبة الله بن محمد بن علي بن جرير الحارثي الشافعى المتوفى في صفر سنة ٦٨٠هـ، وله ثلث وسبعون سنة سمع منه سنة ٦٧٩هـ^(٤).

٤٤ - الشيخ الإمام الزاهد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الكمال عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد بن

(١) مجموع الفتاوى: ١٨ / ١١٢-١١٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨ / ١١٢-١١٣.

(٣) العبر: ٣/٣٥٠، شذرات: ٥/٣٧٩، التجوم الظاهرة: ٧/٣٨٢، مجموع الفتاوى: ١٨ / ١١٥-١١٣.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٨ / ١١٥-١١٦.

عبد الرحمن المقدسي السعدي الحنبلي، عُني بالحديث وجمع وخرج، مع الدين والورع والعبادة، وولي مشيخة الضيائية، ومشيخة الأشرفية بالجبل، المولود في سنة ٦٠٧هـ، والمتوفى في جمادى الأولى سنة ٦٨٨هـ، سمع منه ابن تيمية رحمة الله في سنة ٦٨١هـ^(١).

٤٥ - الشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن الزين أحمد بن عبد الملك المقدسي^(٢).

٤٦ - أحمد بن محمد الظاهري المحدث الحلبي، المولود في سنة ٦٢٦هـ والمتوفى سنة ٦٩٦هـ^(٣).

٤٧ - أحمد بن عبد الرحمن بن العنية الحراني^(٤).

٤٨ - الشیخة الصالحة أم الخیر ست العرب بنت يحيى بن قايماز بن عبد الله التاجیة الدمشقیة الکندیة، المولودة سنة ٥٩٩هـ والمتوفاة سنة ٦٨٤هـ، سمع منها في رمضان سنة ٦٨١هـ^(٥).

٤٩ - الشیخة الجلیلیة الأصیلۃ أم العرب فاطمة بنت أبي

(١) شذرات: ٤٠٥/٥، العبر: ٣/٣٦٧، النجوم الظاهرة: ٧/٣٨٢، مجموع الفتاوى: ١٨/١٨، ١١٧-١١٦، معجم المؤلفين: ٣/٢٤٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨/١١٦-١١٧.

(٣) الرد الوافر: ص ٩٦.

(٤) الرد الوافر: ص ٩٦.

(٥) العبر: ٣/٣٥٥، شذرات: ٥/٥، النجوم الظاهرة: ٧/٢٦٨، مجموع الفتاوى: ١٨/١١٨-١١٧.

القاسم علي بن أبي محمد القاسم بن أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر، وهي بنت الحافظ مؤرخ الشام أبو القاسم بن عساكر، المولودة سنة ٥٩٨هـ والتي توفيت في شعبان سنة ٦٨٣هـ، سمع منها في رمضان سنة ٦٨١هـ^(١).

٥٠ - الصالحة العابدة المجتهدة الشيخة زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحرانية، المعمرة أم أحمد، ازدحم عليها الطلبة، ولدت في سنة ٥٩٨هـ وتوفيت في شوال سنة ٦٨٨هـ، سمع منها ابن تيمية رحمة الله في شعبان سنة ٦٧٥هـ^(٢).

٥١ - الشيخة الصالحة أم محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن كامل المقدسي، سمع منها ابن تيمية رحمة الله سنة ٦٨٤هـ، تفردت بأجزاء «الاثتفقيات» ومسند «عبد» و«الدارمي» وارتحل إليها الطلبة، وماتت في بيت المقدس. ذكر الذهبي في العبر أنها ماتت سنة ٧٢٢هـ عن أربع وتسعين سنة، وذكرها صاحب الشذرات في وفيات سنة ٧٢٢هـ، وكذلك ذكر ابن حجر أنها توفيت في ذي الحجة سنة ٧٢٢هـ^(٣).

(١) شذرات: ٥/٣٨٣، العبر: ٣/٣٥٣، مجموع الفتاوى: ١٨/١١٨-١١٩.

(٢) مرآة الجنان: ٤/٢٠٧، النجوم: ٧/٣٨٢، شذرات: ٥/٤٠٤، العبر: ٣/٣٦٦، مجموع الفتاوى: ١٨/١١٩-١٢٠.

(٣) الدرر: ٢/١١٨، التجوم: ٩/٢٥٨، العبر: ٤/٦٥، شذرات: ٦/٥٦، مرآة الجنان: ٤/٣٦٩، مجموع الفتاوى: ١٨/١٢٠-١٢١.

هؤلاء هم أهم الأعلام الذين تلقى عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى كثيراً من العلوم والمعارف التي استطاع أن يصل إليها، ولعله فاق في كثير منها شيوخه الذين أخذ عنهم، وقد شهد هؤلاء الأعلام أو بعضهم على ذلك رحمهم الله تعالى أجمعين.

٥ الكتب التي قرأها:

استفاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله من كل العلماء الذين لقيهم بمدينة دمشق، أو كانوا يفدون إليها، أو يمررون بها، وأخذ عنهم ما لا يؤخذ إلا بالسماع، وهو الحديث، وكان قد تلقى قبل ذلك على شيخ تخصصوا فيها، ودربوا عليها، فأخذ العربية عن شيوخها، والمنطق على شيوخه، والتفسير على شيوخه. والفقه الحنبلية على شيوخه، وغير ذلك من العلم.

وحين تكون له محصول طيب من هذه العلوم، أخذ يدرس بنفسه في الكتب ويتعمق في كل علم، يساعد في ذلك رغبة في العلم، ونهمة في طلبه وتحصيله، فقد كان لا يشبع من المطالعة والتأليف، ولا يشغله عنهما شيء فهو كما قال الصفدي رحمة الله تعالى عنه:

«كان من صغره حريصاً على الطلب، مُجداً على التحصيل والدأب، لا يؤثر على الاشتغال - أي تحصيل العلم - لذة، ولا يؤثر أن يضيع منه لحظة في البطالة، فذلة، يذهل عن الطعام،

ويغيب في لذة العلم عن حسه، لا يطلب أكلاً إلا إذا حضر لديه، ولا يرتاح إلى طعام أو شراب في أبرديه - أي في الغداة والعشي^(١).

والحق أن ما نقل عنه في كثرة مطالعته لسائر أنواع العلوم، وقراءته لأصولها وتصححه لها، وزيادته على أربابها في أبواب كثيرة، شيء يثير العجب، فهو قلًّا كتاب إلا وقرأه واطلع عليه، وهذا الحافظ البزار رحمه الله ينصل عنده شدة محبته للمطالعة والقراءة فيقول الحافظ رحمه الله:

«قلَّ كتابٌ من فنون العلم إِلَّا وقفَ عَلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ قَدْ خَصَّهُ بِسُرْعَةِ الْحَفْظِ، وَإِبْطَاءِ النَّسِيَانِ، لَمْ يَكُنْ يَقْفَ عَلَى شَيْءٍ أَوْ يَسْتَمِعْ لِشَيْءٍ غَالِبًا، إِلَّا وَيَقْنَى عَلَى خَاطِرِهِ، إِمَّا بِلَفْظِهِ أَوْ مَعْنَاهِ»^(٢).

ويقول الذهبي رحمه الله:

«... لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل من البحث، وقلًّا أن يدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه، إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله»^(٣).

(١) الواقي بالوفيات: ١٩-٢٢، أعيان العصر عن المنجد: ص ٥١.

(٢) الإعلام: ص ١٨.

(٣) الواقي بالوفيات: ١٦/٧، فوات الوفيات عن المنجد: ٥٧-٥٨.

ومن ذلك ما جاء في قراءاته في مجال علم التفسير، واهتمامه الشديد بكثرة المطالعة في هذا الفن ما ذكره الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله يقوله:

«... ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثة مجلداً، وقد بيض أصحابه بعض ذلك، وكثيراً منه لم يكتبوا بعد.

وكان رحمه الله يقول: «ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمني، و كنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى. وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني...»^(١).

وكذلك كان حاله في كل علم من العلوم التي أتقنها رحمه الله تعالى، فقد كان العلماء يعجبون من كثرة محفوظه في هذه العلوم، وفي ذلك يقول الشيخ علم الدين البرزالي رحمه الله تعالى:

«أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، الشيخ تقي الدين أبو العباس الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه.

(١) العقود الدرية: ص ٢٦.

قرأ الفقه ويرع فيه، والعربة والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث، وكان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهد واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير بُهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضييف والإبطال، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب»^(١).

وقال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله تعالى فيه:

«...ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روایته، أو حاضر بالنَّحْلِ والمُلْلِ لم يُرِ أَوْسَعَ مِنْ نَحْلَتِهِ فِي ذَلِكَ وَلَا أَرْفَعَ مِنْ دَرَايَتِهِ.

برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رأه مثله،
ولا رأت عينه مثل نفسه...»^(٢).

وقال الحافظ ابن الزملياني رحمه الله تعالى فيه:

«... كان إذا سُئل عن فن من العلوم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه

(١) العقود الدرية: ١٢-١٣.

(٢) العقود الدرية: ص ١٠.

ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم. سواءً أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه...»^(١).

ولا شك أن من بلغ هذا المبلغ من العلم. ووصفه علماء عصره وأذكياؤهم بهذه الأوصاف، لم يبلغ كل هذا إلا وقد اطلع وقرأ وبحث ونقب عن كل هذه العلوم من مصادرها، وهضم علومها، وقوم معوجها، وزاد عليها وأحسن توجيه ما فيها من العلوم نحو الخير ومصلحة المسلمين، يعينه في ذلك كله حافظة واعية، وذكاء خارق، وتوفيق من الله تعالى له حين كان يلتجأ إلى السجود ليفهمه الله تعالى أو يعلمه، ولعل فيما سندكره في جوانب علمه ومعارفه ما يزيد الأمر وضوحاً.

(١) العقود الدرية: ص ٧.

البحث الثاني

«تلاميذه»

ربى شيخ الإسلام جيلاً عالماً مجاهداً، شارك معه أحداث عصره، فأصابه ما أصاب الشيخ من السراء والضراء، ووقف معه يجاهه الأحداث من قتال للتتار، وقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة حيناً، وبالموعظة الحسنة حيناً آخر، وشاركه السجون والمعتقلات والضرب والإيذاء، كما شاركه الدعوة والإرشاد، والتدريس والإفادة. والافتاء والكتابة، والتصنيف والتأليف.

ولقد كثر تلاميذه رحمه الله تعالى كثرة فاقت غيره من علماء عصره رحمهم الله تعالى، وفي ذلك يقول الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله:

«لعل الجيل الذي عاش فيه ابن تيمية لم يعرف شيئاً كثراً تلاميذه ومربيده، كما كثر تلاميذ الشيخ تقى الدين رضي الله عنه، ولقد كان تنقله بين مصر والشام، وتنقله في مصر بين الإسكندرية والقاهرة، مع عكوفه الدائم على الدرس والفحص والجدال والخطابة، سبباً في أن كثر تلاميذه كثرة عظيمة، فكان له

تلميذ في مصر، وتلميذ في الشام، وتلميذ مصر بين القاهرة والإسكندرية.

بيد أنه يلاحظ أن تلاميذه نوعان، لأن دروسه كانت نوعين، فالنوع الأول من دروسه دروس عامة يلقاها على العامة في المسجد الجامع يرشدهم بها ويبين لهم الاتباع وحقيقة، ويجنبهم الابتداع كما كان شأن في كثير من دروسه بمصر، وببعض دروسه العامة في الشام وحيثما حل، كما فعل بعزة عندما مر بها، وهو مقبل إلى مصر؛ وقد كان له تلميذ في هذه الدروس العامة يلازمونها وإن كان الأخرى أن يسمى أكثرهم مريدين، لأنهم لا طاقة لهم بأن يدركوا كل مدارك الشيخ، حتى يكونوا له تلاميذ بالمعنى الخاص الذي يرثون فيه علمه.

والقسم الثاني من دروسه، دروس خاصة كان يلقاها على تلاميذه الذين اختصوا بعظام المدارك وصلحوا لأن يكونوا ورثته في علمه من بعده، والقائمين على تركته الفكرية وخلفاؤه فيها، وهؤلاء هم الذين كان يلقي عليهم كل تفكيره ومنهاجه في مدارس الشام، وببعض المجتمعات الخاصة، في مصر والشام.

وأن هذا القسم من التلاميذ هم الذين قاموا على تركته الفكرية من بعده وأكثراهم من الحنابلة، وكثير منهم من الشافعية، وأن عددهم لا يحصى، فقد كانوا كثيرين لطول المدة التي ألقى فيها دروسه، فقد ألقى دروسه نحواً من ستة وأربعين عاماً دائياً لا

يني ولا يمل، ولا يكل، أي من وقت أن توفي أبوه وهو في الحادية والعشرين إلى أن قبضه الله سبحانه وتعالى إليه، وقد بلغ السابعة والستين.

ولقد كان أولئك الخاصة من تلاميذه ينالهم الاضطهاد، إذا اعتقل، فقد كانوا معه في البلاء، كما كانوا في الدرس^(١).

وما يرى اليوم من كثير من الكتب التي يعتمد عليها طلبة العلم في مختلف العلوم الإسلامية فهي من تأليف تلاميذه وتلاميذهم، الذين ملأوا الدنيا علمًا وفضلاً، ولا يمكن لطلبة العلم أن يستغنوا عنها أبدًا.

وقد ذكر السخاوي رحمة الله تعالى في مؤلفات الذهبي رحمة الله مؤلفاً في أسماء أصحاب ابن تيمية رحمة الله فقال: «... وورقة في أصحاب التقي بن تيمية سماها القبان»^(٢). وفي ذكره لمناقب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله، يعرج الحافظ ابن حجر رحمة الله على ذكر تلاميذه الإمام ابن القيم كنموذج رائع من التلاميذ الذين يعدون في مناقب شيوخهم، فيقول:

«... ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٥٢٥-٥٢٦.

(٢) الإعلان بالتوبیخ لمن ذم التاريخ: ص ٦٧٥.

النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف - لكان غاية في الدلالة على عظمته متركته.

فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتميز في المنطوق والمفهوم أنمة عصره من الشافعية وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة»^(١).

ولقد كثر تلاميذه كثرة فائقة كما سبق أن أسلفت قبل قليل، فاق فيها علماء عصره، ولعلنا نعيد أسباب ذلك إلى الأمور التالية:

١ - ما كان يتمتع به من شخصية عملاقة جبارة، تستهوي الأذكياء وأصحاب القدرات العالية، مع ما أوتيه من قدرة على التأثير فيمن حوله، مع عمل دؤوب لإسلام على مختلف الجبهات وال المجالات المختلفة.

٢ - غزارة علمه، وسعة معارفه واطلاعه على شتى العلوم والمعارف التي كانت معروفة في عصره، مما جعله مقصداً لطلبة العلم الراغبين في أن ينهلوا من هذه الينابيع الغزيرة من العلوم المختلفة، مما أعطاه قدرة عالية في جذب طلبة العلم إليه، مع ما أوتيه من فصاحة لسان، وقدره بيانية عالية.

٣ - كثرة تنقلاته بين مصر والشام مما كان له أكبر الأثر في استفادة الكثيرين من علومه، حيثما نزل أو ارتحل، لا يحول بينهم

(١) الرد الواfir: ص ٢٣١، الشهادة الزكية، الكرمي: ص ٧٤.

ويبين الاستفادة من علومه حائل، حتى أخذوا عليه في المعتقلات
حيث سجن رحمة الله تعالى.

٤ - إلقاءه الدروس العامة التي اكتسبته علاقات اجتماعية
كبيرة، مع شرائح واسعة في المجتمع الدمشقي أو القاهري،
واكتسب من خلال جرأته في قول كلمة الحق فيها مهابة واحتراماً
عند العامة والخاصة، فكان له من المحبين في كل طبقات
المجتمع، وفي ذلك يقول ابن الوردي رحمة الله:

«... له محبوه من العلماء والصلحاء والجند، والأمراء،
والتجار، والكبار، وسائر العامة تحبه...»^(١).

ويضاف إلى ذلك الدروس الخاصة التي كان يلقاها على
خاصة تلاميذه، والتي من خلالها برزت مداركه وقدراته الهائلة في
العلم والمعارف.

٥ - احترامه ومحبته لتلاميذه، وبذله العلم لهم مع تلمسه
 حاجاتهم وقدراتهم وحسن تعامله مع هذه القدرات والكفاءات
تهذيباً، وتنمية، وتعميقاً، مما رزق هؤلاء التلاميذ كثيراً من الثقة
 بالنفس، وجرأة في قول الحق والدفاع عنه، مهما كانت العوائق
التي تعوق ذلك.

(١) شيخ الإسلام عند المؤرخين: المنجد: ص ٢٠.

○ ثبت بأسماء أشهر تلاميذه رحمه الله:

التلاميذ صحيحة من الشيخ - كما يقولون - ويكفي شيخ الإسلام رحمه الله فخرًا تلاميذه، فهم أئمة أعلام، مذكورون أخيراً، مشهود لهم بالفضل والتقوى والعلم، منهجهم التحقيق والتدقير.

وليس باستطاعتنا معرفة كل الذين سمعوا من ابن تيمية رحمه الله، وتلذموا على يديه، لأنه رحمه الله. انخرط في سلك العلم والعلماء منذ سن مبكرة، وعمل بالتدريس والإفتاء وهو في الحادية والعشرين. واستمر كذلك حتى بلغ السابعة والستين حين توفي رحمه الله.

وسأذكر فيما يلي أسماء أشهر تلاميذه رحمه الله تعالى:

١ - الفقيه الحنبلي، المجتهد المطلق، المفسر، النحوي، الأصولي شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعبي، ثم الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى. صاحب التصانيف النافعة، التي انتفع بها الموافق والمخالف المتوفى سنة ٧٥١هـ^(١).

٢ - الشيخ الإمام، الحافظ، مؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، وإمام المعدلين والمبرحين شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي، الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، عالم

(١) انظر ترجمته: البداية: ١٤ / ٢٤٦ - ٢٤٧، شذرات: ٦ / ١٦٨ - ١٧٠، وغيرها.

التاريخ الموسوعي، وصاحب كتاب تاريخ الإسلام، وسير أعلام
النبلاء، وميزان الاعتدال وغيرها^(١).

٣ - الإمام الأوحد، المحدث الحافظ، الحاذق، الفقيه،
المؤرخ، المقرئ النحوي، ذو الفنون، شمس الدين محمد بن
أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنفي، صاحب الصارم
المنكي، والعقود الدرية، والأجزاء المفيدة في الحديث، المتوفى
سنة ٧٤٤هـ^(٢).

٤ - الإمام العالم الزاهد، الورع، المحدث، العمدة، الحجة،
محدث العصر، الحافظ الكبير جمال الدين يوسف بن الزكي
عبد الرحمن بن يوسف المزي القضايعي الحلبي الدمشقي الشافعى
إمام المحدثين، صاحب كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال،
المتوفى سنة ٧٤٢هـ^(٣).

٥ - الإمام، الحافظ، المؤرخ، المفسر، الفقيه أبو الفداء
عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعى،
صاحب التفسير، والبداية والنهاية في التاريخ، المتوفى سنة
٧٧٤هـ^(٤).

(١) البداية: ١٤/١٩٤، شذرات: ٦/١٥٣-١٥٧، وغيرها.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٤٣٦، البداية: ١٤/٢٢١-٢٢٢، وغيرها.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٨، البداية: ١٤/١٩١، شذرات: ٦/١٣٦.

(٤) شذرات: ٦/٢٣١-٢٣٢، الدرر الكامنة: ١/٣٩٩-٤٠٠ ترجمة ٩٤٤، وغيرها.

٦ - الفقيه، الأصولي، المحدث، نائب قاضي القضاة، محمد بن مفلح بن محمد المقدسي، الرامياني، الدمشقي شمس الدين أبو عبد الله الحنفي المتوفى سنة ٧٦٣ هـ^(١).

٧ - الإمام الحافظ المؤرخ علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الأصل، الدمشقي الشافعي، صاحب التاريخ، المعجم، والمؤلفات المختلفة الكثيرة المتوفى سنة ٧٣٩ هـ^(٢).

٨ - الإمام الحافظ الفقيه العالم الأديب البارع فتح الدين أبو الفتح محمد بن أبي عمر محمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمرى الأندلسي الإشبيلي، ثم المصرى الشافعى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ^(٣).

٩ - القاضي، الفقيه، العالم، الإمام شرف الدين أبو العباس، أحمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة الحنفي، شيخ الحنابل، المقدسي الأصل، ثم الدمشقي، المشهور بابن قاضي الجبل، المتوفى سنة ٧٧١ هـ رحمه الله تعالى^(٤).

(١) البداية: ١٤/٢٥٢، شذرات: ٦/١٩٩-٢٠٠، الدرر: ٤/٢٦١.

(٢) البداية: ١٤/١٩٦، الأعلام: ٥/١٨٢، معجم الشيوخ: ٢/١١٥.

(٣) الرد الواfir: ٥٨-٦٠.

(٤) الرد الواfir: ١٣٢، شذرات: ٦/٢١٩-٢٢٠، الدرر الكامنة: ١/١٢٩ ترجمة ٣٣٤.

١٠ - الشيخ العالم الفاضل المحدث البارع الأصيل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي العباس أحمد بن عبد الدائم المتوفى سنة ٧٧٥هـ^(١).

١١ - الشيخ الإمام المحدث المفید أمین الدین جمال المحدثین محمد بن الشيخ المسند أبي إسحاق إبراهیم بن محمد بن أحمد بن أحمد بن الوانی المؤذن المتوفی سنة ٧٣٥هـ^(٢).

١٢ - الشيخ الصالح العالم المسند الكبير شمس الدين محمد بن إبراهیم بن محمد بن أبي بكر بن إبراهیم بن يعقوب بن إلیاس الأنصاری الخزرجی ابن إمام الصخرة البیسانی الدمشقی المقدسي المتوفی سنة ٧٦٢هـ^(٣).

١٣ - الشيخ العالم الفقیه العابد الناسک، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ سعد الدين أبي محمد سعد الله بن عبد الأحد بن سعد الله بن عبد القاهر بن عبد الواحد الحرانی ابن نجیح المتوفی سنة ٧٢٣هـ.

اذن له الشيخ تقی الدين بالافتاء، وكان من جملة ملازميه^(٤).

(١) الرد الوافر: ص ٦١-٦٢.

(٢) الرد الوافر: ص ٧٤-٧٦.

(٣) الإنس الجليل: ١٥٨/٢، الرد الوافر: ٨٠-٨١.

(٤) الرد الوافر: ص ٩٠.

١٤ - الشيخ العالم الفاضل المحدث المفید الرحال، جمال المحصلین، ناصر الدین، أبو المعالی محمد بن طغریل بن عبد الله الخوارزمی ابن الصیرفی المتوفی سنة ٧٣٣هـ.

سمع من الشيخ ابن تیمیة فی مجلس یوم الجمعة الثاني عشر من رمضان سنة ٧١٧هـ بمشهد عثمان بجامع دمشق^(١).

١٥ - الشيخ الإمام الزاهد العابد العلامة النبیل، المحدث الأصیل، الحافظ الكبير، عمدة الحفاظ، شیخ المحدثین شمس الدین أبو بکر محمد بن عبد الله بن أحمد بن المحب عبد الله السعدي، المقدسی، ثم الصالحی، الحنبلي، الشهیر بالصامت المتوفی سنة ٧٨٨هـ من أجل شیوخه ابن تیمیة رحمة الله^(٢).

ومن كبار أصحابه ومحبیه:

الشيخ الإمام الفقیه الصالح، مفتی المسلمين، علم المدرسين، شرف الدین أبو عبد الله محمد بن أبي البرکات المنجا وابن العز أبي عمر وعثمان بن وجیه الدین التنوخي المغربي الأصل، ثم الدمشقي، المتوفی سنة ٧٢٤هـ.

(١) الرد الوافر: ٩١-٩٢.

(٢) الرد الوافر: ٩٥-٩٦.

كان من خواص أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية
وملازميه حضراً وسفراً.

هؤلاء بعض أشهر تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه،
وأصابوا من غزاره علومه حظ وافر. ولا شك أن مما يلفت
الانتباه أن هؤلاء التلاميذ كانوا من نوعيه خاصة ممتازة، انتجوا
أمهات المراجع الإسلامية التي انتفع بها الخاص والعام، والموافق
والمخالف، مما يوضح لنا قوة تأثير شيخ الإسلام في هؤلاء
التلاميذ، وغزاره علومه رحمة الله تعالى.

الفصل الرابع

ابن تيمية أخلاق وسجايا

إن صفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى الخُلُقية كثيرة، دلت في مجملها على ما كان يتمتع به من أجمل الخصال، وأنبأ المزايا، لأنها ثمرات الإيمان الراسخ، فكلما قوي الإيمان وترسخت دعائمه، واستولى على القلب وتمكن منه، وملأه بنوره، ازدادت أخلاق صاحبه واتسعت، وغطت قطاعاً واسعاً من جوانب الحياة.

فقد انتهت إليه رحمه الله الإمامة في كثير من هذه الأخلاق، ووصل فيها إلى غاية المنتهى مما جعل علماء عصره يبدون إعجابهم الشديد بما وصل إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى من سمو الأخلاق، ونبل الخصال والمزايا.

حيث قال فيه الحافظ ابن الزملکانی رحمه الله:
ما ذا يقول الواصفون له
وصفاته جلت عن الحصر

هو حجة لله قاهرة

هو بيننا أجيوبة الدهر

هو آية للخلق ظاهرة

أنوارها أربت على الفجر^(١)

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«نشأ - يعني الشيخ تقى الدين - رحمه الله في تصوينِ تام،

وعفاف وتأله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل».

وقال رحمه الله أيضاً:

«انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم، والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة، وحسن المقصد، والإخلاص والابتهاج إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوم المراقبة له. والتمسك بالأثر، والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان رحمه الله تعالى - سيفاً مسلولاً على المخالفين،

وشجا في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق

ونصرة الدين، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»^(٢).

(١) العقود الدرية: ص ٩، الذيل على طبقات الحنابلة: ٣٩٢/٢.

(٢) العقود الدرية: ص ٤-٧، فوات الوفيات: ص ٥٨ منجد.

وقال فيه الشيخ مجير الدين أحمد بن الحسن بن محمد
الخياط رحمة الله:
ما كان إلا مُزَنْ عِلْمٌ رُوَضَتْ
منه بِصَيْبٍ قَطَرِهِ الْأَقْطَارُ
كالغِيْثِ أَقْلَعَ بَعْدَ سَعِيْمَهُ
وَتَخَلَّفَتْ مِنْ بَعْدِهِ الْأَثَارُ
ما كان إلا طَوَّدَ عِلْمٌ بِإِذْنِ
مِنْ دُونِ وَزْنِ حَصَّاتِهِ الْقَنْطَارُ
ما كان إلا بَحْرٌ جَوِيدٌ كَفَهُ
تِيَارٌ بِنَوَالِهِ رَخَّاَرُ
ما كان إلا دِيمَةً مَعْرُوفَهَا
بِهِبَاتِهِ لِصَفَاتِهِ مَدْرَارُ
ما كان إلا الْبَدْرُ عَنْدَ كَمَالِهِ
وَفَاهُ مِنْ نَقْصِ التَّمَامِ سِرَارُ
ما كان إلا خَيْرٌ أُمَّةٌ أَحْمَدٌ
فِي الْعَضْرِ لَمْ تَسْمَعْ بِهِ الْأَعْصَارُ
حِبْرٌ، وَبِحِرٌ لِلْمَكَارِمِ، وَالْتَّقَى
وَالْجُودُ، وَالْإِحْسَانُ فِيهِ بَحَارُ
وَسَادَ ذِكْرُ فِي هَذَا الْفَصْلِ بَعْضُ أَخْلَاقِ شِيْخِ الْإِسْلَامِ
رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَوْضِحًا لِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ مِنْ خَلَالِ أَحْدَاثِ حَيَاتِهِ،
مَكْتَفِيًّا بِهَذِهِ الْأَحْدَاثِ دُونَ تَعْلِيقٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ.

١- قوة إيمانه:

قد رزق شيخ الإسلام من رسوخ الإيمان في قلبه شيء
يعجز عن وصفه الواصفون، وما مواقفه الجريئة في الحق إلا تجأ
لما كان يعمر قلبه من إيمان بالله عزّ وجلّ.

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله:

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله رُوحه يقول:
في الدنيا جَنَّةً - يعني بها: جَنَّةً الإيمان بالله وبما جاء به
سيدنا رسول الله - من لم يدخلها - أي يتصف بها في الدنيا - لا
يدخل جَنَّةَ الآخرة.

وقال لي مرةً: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبيتاني في
صدري - يعني بذلك: إيمانه وعلمه -، أين رُحْتُ فهـي معي لا
تفارقـي، إنـ حبـي خـلـوةـ، وـقـتـلـي شـهـادـةـ، وـإـخـرـاجـي سـيـاحـةـ.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلتُ ملء هذه القلعة
ذهبـاً ما عـادـلـ عنـدي شـكـرـ هذهـ النـعـمـةـ، أوـ قالـ ما جـزـيـتـهـمـ عـلـىـ ما
تـسـبـبـواـ لـيـ فـيـهـ مـنـ الخـيـرـ.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللـهـمـ أـعـنـيـ عـلـىـ
ذـكـرـ وـشـكـرـ وـحـسـنـ عـبـادـتـكـ، ماـ شـاءـ اللهـ، وـقـالـ ليـ مـرـةـ:
«الـمـحـبـوـسـ مـنـ حـبـسـ قـلـبـهـ عـنـ رـبـهـ تـعـالـىـ، وـالـمـأـسـوـرـ مـنـ أـسـرـهـ
هـوـاهـ».

ولما دخل القلعة وصار داخل سورها، نظر إليه وقال:
﴿فَقَرِيبٌ يَتَّهِمُ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِأَطْنَاءٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَمُوا مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. وَعَلِمَ اللَّهُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَطَيَّبَ عِيشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ضَيْقٍ لِلْعِيشِ وَخَلَافِ الرِّفَاهِيَّةِ وَالنَّعِيمِ، وَمَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ الْحَبْسِ وَالْتَّهْدِيدِ وَالْإِرْجَافِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَطَيَّبِ النَّاسِ عِيشًا، وَأَشْرَحَهُمْ صَدْرًا، وَأَقْوَاهُمْ قَلْبًا، وَأَسْرَهُمْ نُفْسًا، تَلُوْحُ نَصْرَةِ النَّعِيمِ عَلَى وَجْهِهِ.

وَكُنَا إِذَا اشْتَدَ بِنَا الْخُوفُ، وَسَاءَتْ مِنَا الظُّنُونُ، وَضَاقَتْ بِنَا الْأَرْضُ، أَتَيْنَاهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ، وَنَسْمَعَ كَلَامَهُ، فَيَذَهِبُ عَنَا ذَلِكُ كُلُّهُ، وَيَنْقُلِبُ انشِرَاجًا وَقُوَّةً وَيَقِينًا، وَطَمَانِيَّةً.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَةَ جَنْتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وَفَتْحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دَارِ الْعَمَلِ، فَأَتَاهُمْ مِنْ رُوْحِهَا وَنُسُمِّهَا وَطَيِّبَهَا مَا اسْتَفْرَغُ ْوَاهِمْ لِطَلْبِهَا وَالْمَسَابِقَةِ إِلَيْهَا.

وَسَمِعْتُهُ قَدْسَ اللَّهُ تَعَالَى رُوحَهُ يَقُولُ: الْذَّكْرُ لِلْقَلْبِ مُثْلِ المَاءِ لِلْسَّمْكِ، فَكِيفَ يَكُونُ حَالُ السَّمْكِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ؟.

وَحَضُرَتْهُ مَرَّةً: صَلَى الْفَجْرِ، ثُمَّ جَلَسَ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى إِلَى قَرِيبٍ مِنْ اِنْتَصَافِ النَّهَارِ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: هَذِهِ غَدُوْتِي وَلَمْ أَتَغَدَّ، وَلَوْ لَمْ أَتَغَدَّ - هَذَا - الْغَدَاءُ سَقَطَتْ قَوْتِي، أَوْ كَلَامًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنيّة إجمام نفسي وإراحتها،
لأستعد بذلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه^(١).

ثم قال الشيخ الإمام ابن القيم: وهو يعدد فوائد الذكر:
والحادية و الستون من فوائد الذكر؛ أنه يعطي الذاكرا قوة،
حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يُظنَّ فعله بدونه.

وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سَنَتِهِ،
وكلامِهِ، وإقامتهِ، وكتابتهِ: أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من
التصنيف ما يكتبه الناسخ في جُمْعَة أو أكثر، وقد شاهدَ العسكريُّ
في الحرب أمراً عظيماً^(٢).

وفي محتته رحمة الله ظهر منه من عظمة الإيمان، ورسوخ
الاعتقاد في القلب شيئاً عجيباً:
يقول خادمه إبراهيم بن أحمد:

فلما كان بعد صلاة العصر وقفت أبكي، فقال لي الشيخ: لا
تبك، ما بقيت هذه المحنّة بطيءاً، فقلت له: أفتح لك في
المصحف؟ فقال: افتح، فطلع قوله تعالى: «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا
بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ أَنْتَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُّخْسِنُونَ» [النحل: ١٢٧ - ١٢٨].

(١) الوابل: ص ٦٩ - ٧٠، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢ / ٤٠٢ - ٤٠٣، العلماء العزاب: ١٧٦ - ٨ - ١.

(٢) الوابل الصيّب.

قال: افتح في موضع آخر، فطلع قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا
مَكَرًا وَمَكَرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] إلى آخرها.
قال: افتح آخره، فطلع قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ
مَعَهُ أَشِدَّاهُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءٌ يَنْهَمُّ تَرَهُمْ رُكَّا سُجَّدًا يَتَغَوَّلُونَ فَضْلًا مِنْ
اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْتَّوْلِهِ
وَمَثَلُهُ فِي الْإِخْيَلِ كَرَعَ أَخْرَجَ سَطْعَهُ فَازْرَعَ فَاسْتَعْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى
شَوْقِهِ يُعِجِّبُ الرَّزَاعَ لِعَيْنِيْهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ مَاءَمُوا وَعَمِلُوا
أَفْلَاحَتِيْهِمْ مَغْفِرَةً وَاجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخرها.

فلما صلينا المغرب بقي يدعو بداعه الكلب، وأنزل الله
عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً كان وجهه شمع يجلوه
مثل العروس^(١).

٢ - الإخلاص في طلب الحق، والتخلص من أدران الهوى:

كان الإخلاص ولا زال مناط قبول العبد عند ربِّه تعالى،
والينبوع الشِّر المعطاء الذي لا ينضب، والأصل الأصيل لكل عمل
من أعمال الخير، بل والقاعدة المتبينة لسائر الأعمال والأقوال.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
».. ومعلوم أن الإيمان كله: تقوى الله، وتفصيل أصول
التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله.

(١) ناحية من حياة شيخ الإسلام: ص ٣١.

لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه: عبادة، واستعانة، كما في قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وفي قوله: «فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» [هود: ١٢٣]، وفي قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُبِثُ» [هود: ٨٨]، وفي قوله: «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الْرِّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوهُ اللَّهُ» [العنكبوت: ٢٩] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين، انتفاعاً بهم، أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربها - تعالى - وذلك بملازمة الدعاء لها في كل مطلوب من: فاقة، وحاجة، ومخافة، وغير ذلك، والعمل لها بكل محبوب، ومن أحكم هذا، فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك^(١).

ولا شك أن ابن تيمية رحمه الله تعالى قد رزق حظاً كبيراً، ونصيباً وافراً من الإخلاص، فقد أخلص في طلب الحقيقة فأدركها، وأخلص في نصرة الحق في هذا الدين فلم يقتضيه إليه حتى ترك دوياً في عصره. وتناقلته الأجيال من بعده، وكل من يقرؤه يلمس نور الحقيقة ساطعاً مما يقرأ، وإشراق الإخلاص متيراً للقاريء، ويتأثر القاريء بما يقرأ، لأنه يجد حرارة الإيمان بينة قوية لا تحتاج إلى كشف^(٢).

ولقد أحس بإخلاصه وأدركه من عاشه من محبيه، ولم يستطع خصومه إلا أن يتكلموا مثنيين عليه في هذا، ومنصفين له

(١) الوصية الصغرى: ص ٤٤.

(٢) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١٠٠.

لأنَّ طبيعة العالم العارف بالله تأبى عليه إلا أن ينصف في شهادته حتى لو كانت في حق خصم له يختلف معه اختلافاً كبيراً في كثير من القضايا.

فهذا العلامة السبكي رحمه الله تعالى يقول في رسالته التي بعث بها إلى الحافظ الذهبي رحمه الله، مثنياً على ابن تيمية رحمه الله ومقرأً بفضله وعلمه:

«.. والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة، والورع، والديانة، ونصرة الحق، والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك المأخذ الأولي، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان»^(١).

والإخلاص يقذف في قلب المخلص بنور الحقيقة ويجعله يدرك الأمور إدراكاً مستقيماً لا عوج فيه، ولا يأتي هذا الإخلاص إلا من قوة علاقة بالله تعالى، ومن كان في عصر ابن تيمية مثله في قوة علاقته بربه، وإخلاصه التوجه إليه سبحانه، والحافظ ابن كثير رحمه الله يقول فيه:

«لم أر مثله في ابتهالاته، واستعانته بالله، وكثرة توجهه إليه»^(٢).

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٢، العلماء العزاب: ص ١٧٥.

(٢) البداية والنهاية:

وقد جاء عن ابن تيمية رحمة الله أنه قال:

«ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله تعالى. الفهم، وأقول: يا معلم إبراهيم فهمي، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب وأقول: يا معلم إبراهيم فهمي»^(١).

ولم يكن هذا الإخلاص في حياته مغطياً لفترة معينة منها، وإنما غطى حياته كلها، وقد ذكر الإمام الشيخ أبو زهرة رحمة الله وأحسن إليه:

إن إخلاصه تجلى في أمور أربعة أظللت حياته كلها، فما كان يخلو منها دور من أدوار حياته، مما جعلنا نؤمن بأن هذا العالم الجليل عاش دهره كله مخلصاً لله العلي العليم، ولدينه الكريم.

أولها: أنه كان يجابه العلماء بما يوحيه فكره، يعلنه بين الناس بعد طول الفحص والدراسة، خصوصاً ما يكون مخالفًا لما جرى عليه مألفو الناس، وما عرف بينهم فإذا أدركه وعلم وجه الحق فيه جهر به، لا يهمه رضي الناس أو سخطوا، لأنه لا يرجو إلا ما عند الله، وإذا دُعى إلى المنازرة لم يجمجم ولم يتلوكاً، لا يدهن القول لأحد، ولا يحاول إرضاء أحد.

والامر الثاني: الذي كان يظهر فيه إخلاصه وتفانيه في

(١) العقود الدرية: ٢٦.

الحق، جهاده في سيله ولو بالسيف، كما حصل في حربه للتار، والنصيرية، وتحمله البلاء والتضييق على حريته في سبيل إعلان رأيه، حين رفض إلا أن يجهر برأيه الذي وصل إليه بالرغم من المراسيم السلطانية التي أصدرت لمنعه من الجهر برأيه، مما اضطر السلطان إلى تقييد كلمته بالسجن في القلعة بدمشق، ليموت رحمة الله سجيناً لإخلاصه الذي دفعه إلى المجاهرة بالحق، وسجل بهذا ابعاده عن الغرض والهوى في آرائه.

(الأمر الثالث): الذي بدا فيه إخلاصه، وتبؤه من الأغراض والهوى والمحاسبة والمباغضة، عفوه عنمن أساؤوا إليه ما داموا مخلصين طلاب حق، وإن أخطأوا، حين عفا عن العلماء الذين أرادوا قتله، وسجنه، وقد مكنه السلطان من رقابهم، ومسامحته لكل من آذوه حين سجن في دمشق وأخذت منه كتبه، والتماسه المعذرة لهم قوله: «أحللت كل مسلم من إيزائه لي».

(الأمر الرابع): زهذه في المناصب التي عرضت عليه، فلم يطلب منصباً، ولم يتول منصباً، ولم ينزع أحداً في رئاسة، رغم أنه عرض عليه مشيخة الشيوخ، وقضاء القضاة، ورفضه ذلك رحمة الله كما ذكر ذلك ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة^(١).

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ١٠٢ - ١٠٠ بتصريف، الذيل على طبقات الحنابلة: ٣٩٠ / ٢

وكم أنجاه إخلاصه هذا من كيد دبر له، أو بلاء أعد له بالخفاء، ومصيبة قد دبرها أعداؤه ليتحققوا به، وفي ذلك يقول الذهبي رحمه الله:

«وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله تعالى، فإنه دائم الابتهاج، كثير الاستعانة قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يديمها»^(١).

٣- ورعه وزهده وفراغه عن الدنيا وأسبابها:

إن العالم إذا كان زاهداً في الدنيا، والمنافسة على المناصب فيها، يكون محل أنظار الناس وموضع عنایتهم لأنهم يحسون فيه أنه بعيد عن الحرص والهوى النفسي وحربيص على حاجات الناس وما ينفعهم، فيزدادون محبة له.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان من الزهاد الذين ضربت بهم الأمثال، بل كان شديد الزهد، فلم يجمع من الدنيا إلا القليل، وإذا عرضت عليه أعرض عنها.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد والأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثني عليه المواقف

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٤

والمخالف»^(١).

وكان في الورع لا يجاري، إليه تنتهي الإمامة في الورع في عصره، وكل من رأه أو لازمه كان يدرك أنه لا يجاري في الزهد والورع، وها هم أهل عصره يثنون عليه ثناءً شديداً في هذا الباب:

يقول العلامة صفي الدين البخاري رحمه الله:

«أما ورעה: فان من الغاية التي ينتهي إليها في الورع، فما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة، ولا كان ناظراً أو مباشراً لوقف، ولم يقبل سنة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر، ولا داخراً ديناراً ولا درهماً ولا غيرهما، ولا زاحم في طلب الرياسات، ولا رئي ساعياً في تحصيل المباحثات، مع أن الملوك والأمراء، والكباراء كانوا طوع أمره، خاضعين لقوله»^(٢).

ويقول الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«ولقد اتفق كل من رأه خصوصاً من أطالي ملازمته، أنه ما رأى مثله في زهده في الدنيا، حتى لقد صار ذلك مشهوراً، بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها، بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ من كان أزهد أهل هذا العصر، وأكملهم في رفض فضول الدنيا،

(١) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٦-١٥٧.

وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية^(١).
 وأما عن فراغه عن الدنيا وأسبابها. وعدم اهتمامه بأمورها،
 وتقلله من متعها، وعدم حرصه على ملذاتها، فقد ذُكر عنه في
 هذا الباب شيئاً عجياً، فمن ذلك ما قاله الحافظ الذهبي رحمه الله: «ما رأيت في العالم أكرم منه، ولا أفرغ منه عن الدينار
 والدرهم، لا يذكره، ولا أظنه يدور في ذهنه.. ولا له من المعلوم
 إلا شيء قليل، وأخوه يقوم بمصالحه، ولا يطلب منهم غداء ولا
 عشاء في غالب الوقت، وهو فقير لا مال له، وملبوسه كآحاد
 الفقهاء: فرجية ودلق، وعمامة تكون قيمة ثلاثة درهماً، ومداس
 ضعيف الثمن، وشعره مقصوص»^(٢).

وقال الشيخ زين الدين الواسطي رحمه الله وقد أقام مع
 الشيخ ملة:

«وكلت أسأله أن يزيد على أكلة فلا يفعل، حتى إني كنت
 في نفسي أتوجع له من قلة أكله..»^(٣).
 ويقول الصلاح الصفدي رحمه الله:

«... لا يؤثر على الاشتغال - أي تحصيل العلم - لذة، ولا
 يؤثر أن تضيع منه لحظة في البطالة فذلة، يذهل عن الطعام،

(١) الأعلام العلية: ص ٤٤-٤٥.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٦، تاريخ ابن الوردي: ٢/٤١٣.

(٣) الأعلام العلية: ص ٤٨.

ويغيب في لذة العلم عن حسه، لا يطلب أكلاً إلا إذا حضر لديه، ولا يرتاح إلى طعام أو شراب في أبرديه - أي في الغداة والعشي..»^(١).

ومن تلك الأحداث التي تدل على زهده وورعه، وفراغه عن الدنيا وأسبابها:

○ إجابته للسلطان محمد بن قلاوون حين أخبره أنه قد حدث أن شيخ الإسلام يطعم في السلطنة:

«قال له السلطان محمد بن قلاوون رحمه الله: إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك.

فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وصوت عالي سمعه كثير من حضر:

أنا أفعل ذلك !! والله إن ملكك وملك المُغْل لا يساوي
عندِي فِلَسَيْن»^(٢).

○ ومن ذلك أسلوب تربيته لתלמידه في عدم الإكثار من المباح:

«قال ابن القيم رحمه الله: قال لي يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في شيء من المباح:

(١) الوافي بالوفيات: ٢٢/٧ عن المتجد: ٥١-٥٠.

(٢) الأعلام العلية: ص ٧٤.

هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة»^(١).

○ ومن صور فراغه عن ملاذ النفس: من اللباس الجميل والمأكل الطيب والراحة الدينية:

«أن والدته طبخت يوماً قرعية ولم تذقها أولاً، وكانت مرة، فلما ذاقتها تركتها على حالها، فطلع إليها وقال: هل عندك ما آكل؟.

قالت: لا، إلا أنني طبخت قرعاً كان مُرّاً.

فقال: أين هو؟ فأرته المكان الذي فيه تلك القرعية فأحضرها وقعد أكلها إلى أن شبع، وما أنكر شيئاً منها»^(٢).

وخلاصة الأمر في هذا أن شيخ الإسلام جرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر، والتقلل من الدنيا، ورد ما يفتح به عليه، هذا مع الانقطاع إلى الزهد والعبادة، والاشتغال بالله تعالى، والتجرد من أسباب الدنيا»^(٣).

(١) مدارج السالكين: ٢٦/٢.

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي: عن المنجد: ص ٢٧.

(٣) الرد الوافر: ص ٩٥، العقود الدرية: ص ١٣.

٤ - كثرة عبادته وابتهاه وتعظيمه لحرمات الله:

لقد شهد المعاصرون والمطلعون على أحوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله بأنه كان له القدح المعلى من الاجتهاد في العبادة، وكثرة الابتهاه والاستعانة بالله، وتعظيمه لحرمات الله، مما جعله يندمج مع هذه العبادة إلى حد لم يكن أحد من أصحابه والمقربين منه يجرؤ على إشغاله عنها، أو أن يقطعه عن هذا الاندماج.

وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي رحمة الله:

«... إنه دائم الابتهاه، كثير الاستغاثة والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يُدمنُها»^(١).
وقال أيضاً:

«ولم أر مثله في ابتهااته، واستعانته بالله وكثرة توجّهه»^(٢).
وقال أيضاً:

«... كان في ليله منفردًا عن الناس كلهم، خالياً بربه عزّ وجلّ، ضارعاً إليه، مواظباً على تلاوة القرآن، مكرراً لأنواع التعبد الليلية والنهارية، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة»^(٣).

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٤، الدرية اليتيمية: عن العلماء والعزاب: ص ١٦٩.

(٢) الوافي بالوفيات: ٧/١٧، الدرر الكامنة: ١/١٥٤، الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

(٣) الكواكب الدرية: ص ١٥٦.

وقال الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله:

«... ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً سلفياً متألهاً عن الدنيا، صَيَّنَا تقياً، بِرَا بِأْمَهِ، ورَعَا عَفِيفَاً، عَابِدَا نَاسِكَاً، صَوَاماً قَوَاماً، ذَاكِرَا اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ أَمْرٍ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، رَجَاعاً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْقَضَائِيَّا، وَقَافَا عِنْدَ حَدُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، أَمْرَا بِالْمَعْرُوفِ، نَاهِيَا عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ، لَا تَكَادُ نَفْسَهُ تُشَبِّعُ مِنَ الْعِلْمِ، فَلَا تَرُوِي مِنَ الْمَطَالِعَةِ وَلَا تَمْلِي إِلَيْهِ الْأَشْتَغَالَ، وَلَا تَكُلُّ مِنَ الْبَحْثِ، وَقَلَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ مِنْ بَابِ مِنْ أَبْوَابِهِ إِلَّا وَيَفْتَحُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ أَبْوَابَ، وَيَسْتَدِرُكَ مِسْتَدِرَكَاتٍ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ عَلَى حُذَاقِ أَهْلِهِ، مَقْصُودُهُ الْكِتَابُ وَالسُّنْنَةُ»^(١).

ويقول الحافظ عمر بن علي البزار رحمه الله:

«أَمَا تَعْبُدُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ قَلَّ أَنْ سُمِعَ بِمُثْلِهِ، لَأَنَّهُ كَانَ قَدْ قَطَعَ جُلَّ وَقْتِهِ وَزَمَانِهِ فِيهِ، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ شَاغِلَةً تَشْغُلَهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، مَا يُرَادُ لَهُ لَا مِنْ أَهْلٍ وَلَا مِنْ مَالٍ»^(٢).

وقال أيضاً:

«... وَكَانَ قَدْ عُرِفَتْ عَادَتُهُ لَا يَكُلُّهُ أَحَدٌ بَغِيرِ ضَرُورَةٍ بَعْدِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَا يَزَالُ فِي الذِّكْرِ يُسْمِعُ نَفْسَهُ، وَرَبِّمَا يَسْمَعُ ذِكْرَهُ مِنْ إِلَى

(١) العقود الدرية: ص ٥.

(٢) الأعلام العلية: ص ٣٦.

جانبه، مع كونه في خلال ذلك يُكثر من تقليل بصره نحو السماء،
هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة^(١).

○ نماذج من عباداته وابتهااته:

لقد تعددت النماذج وكثرت في حياته رحمه الله تعالى،
فمن ذلك:

ما ذكره عنه ابن القيم رحمه الله في مجالس ذكره حيث قال:
«.. وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مرة،
صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف
النهار، ثم التفت إليّ وقال هذه غدوتي، ولو لم أتعد الغداء
سقطت قوتي..»

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنيّة إجمام نفسي وإراحتها
لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر^(٢).

- ومن ذلك كثرة استغفاره ليفتح عليه في فهم المسائل
العلمية:

«قال رحمه الله: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو
الحالة، فاستغفر لله تعالى ألف مرة، أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح
الصدر، وينحل إشكال ما أشكّل.

(١) الأعلام العلية ص ٣٨.

(٢) الوابل الصيب: ص ٦٣.

قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو ال درب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أتال مطلوبـي^(١).

ويقول رحـمه الله تعالى:

«ربـما طـالـتـ عـلـىـ الآـيـةـ الـواـحـدـةـ نـحـوـ مـائـةـ تـفـسـيرـ،ـ ثـمـ اـسـأـلـ اللهـ الفـهـمـ،ـ وـأـقـولـ:ـ يـاـ مـعـلـمـ آـدـمـ وـإـبـرـاهـيمـ عـلـمـنـيـ،ـ وـكـنـتـ أـدـهـبـ إـلـىـ المسـاجـدـ الـمـهـجـورـةـ وـنـحـوـهـاـ،ـ وـأـمـرـغـ وـجـهـيـ فـيـ التـرـابـ وـأـسـأـلـ اللهـ تـعـالـىـ وـأـقـولـ:ـ يـاـ مـعـلـمـ إـبـرـاهـيمـ فـهـمـنـيـ»^(٢).

- ومن ذلك أنه كان يعتبر كثرة توجهه وذكره لله، وتفكيره فيما يرضيه سبيله للشفاء من مرضه:

«قال ابن القيم رحـمه اللهـ:ـ وـسـمـعـتـ شـيـخـنـاـ أـبـاـ العـبـاسـ بـنـ تـيـمـيـةـ يـقـولـ:ـ وـقـدـ عـرـضـ لـهـ بـعـضـ الـأـلـمـ،ـ فـقـالـ لـهـ الطـبـيـبـ أـضـرـ مـاـ عـلـيـكـ الـكـلـامـ فـيـ الـعـلـمـ وـالـفـكـرـ فـيـهـ وـالـتـوـجـهـ وـالـذـكـرـ.ـ فـقـالـ:ـ أـلـسـتـ تـزـعـمـونـ أـنـ النـفـسـ إـذـ قـوـيـتـ وـفـرـحـتـ أـوـجـبـ فـرـحـهـاـ لـهـ قـوـةـ تـعـيـنـ بـهـاـ الطـبـيـعـةـ عـلـىـ دـفـعـ الـعـارـضـ،ـ فـإـنـهـ عـدـوـهـ،ـ إـذـاـ قـوـيـتـ عـلـيـهـ قـهـرـهـ؟ـ.ـ

فـقـالـ الطـبـيـبـ:ـ بـلـىـ.

(١) العقود الدرية: ص ٦، الكواكب الدرية: ص ١٤٥.

(٢) العقود الدرية: ص ٢٦.

فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت، فأوجب ذلك دفع العارض^(١).

- أما شدة هيبة الله تعالى، فكان فيها على حال عظيم، وهذا الحافظ البزار يصف حالته فيقول:

«... وكان إذا أحرم بالصلاوة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يُميله يمنةً ويُسرّةً وكان إذا قرأ يمد قراءته مداً كما صع في قراءة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ركوعه وسجوده وانتصابه عنهمَا، من أكمل ما ورد في صلاة الفرض، وكان يخفف جلوسَهُ للتشهد الأول خفة شديدة، ويجهّر بالتسليمة الأولى حتى يُسمعَ كلَّ من حضر»^(٢).

- ومن ذلك أنه كان يقدم بين يدي نجواه وتوجهه صدقة ليكون أوعى للقبول:

قال ابن القيم رحمه الله: «... وكان رحمه الله يتحرى التصدق بين يدي الصلاة والدعاة ما أمكنه، لأنه إذا استحببت الصدقة بين يدي مناجاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستحببها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاة أولى»^(٣).

(١) مفتاح دار السعادة ٢/١٧٠-١٧١.

(٢) الأعلام العلية: ٣٦-٣٧.

(٣) مفتاح دار السعادة: ٢/٣٨٧.

- ومن ذلك ما كان ينعم به شيخ الإسلام من نعمة فقر التذلل لخالقه، وعزّة عبوديته لله سبحانه، والذي كان يبرز في مناجاته وتذلله رحمة الله:

يقول ابن القيم رحمة الله:

«ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:
أنا المُكَدِّي وابن المكدي^(١)

وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقيرُ إلى رب البرياتِ

أنا المُسَيْكِينُ في مجموع حالاتي

أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي

والخيرُ إن يأتنا من عنده يأتي

(١) المُكَدِّي: الذي يلح في المسألة، وتمثله به رحمة الله دلالة على افتقاره إلى الله وإظهاراً لذله وانكساره له سبحانه وتعالى.

لَا أَسْتَطِعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ
وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دُفَعَ الْمُضَرَّاتِ
وَلِيَسْ لِي دُونَهُ مَوْلَى يُدْبِرُنِي
وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِينَاتِي
إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا
إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِي
وَلَسْتُ أَمْلُكُ شَيْئاً دُونَهُ أَبَدًا
وَلَا شَرِيكَ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَاتِي
وَلَا ظَهِيرَ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ
كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوَلَايَاتِ
وَالْفَقْرُ لِي وَصَفُّ ذَاتِي لَازِمٌ أَبَدًا
كَمَا الْغَنِيُّ أَبَدًا وَصَفُّ لَهُ ذَاتِي
وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعُهُمْ
وَكُلُّهُمْ عَنْدَهُ عَبْدُ لَهُ آتِي
فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ
فَهُوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءُ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ
مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدِهِ قَدْ يَأْتِي

(ثم الصلاة على المختار من مُضِرٍ

خيرُ البرية من ماضٍ ومن آتٍ)^(١)

- برنامج قضاء الوقت عند شيخ الإسلام:

وأما عن برامج حياته اليومية، وأعماله المعتادة التي يقضيها في العبادة فقد ذكر معاصره ومن عاشه منهنم ولازمه ملزمة لصيغة، أقوالاً تدل بمجموعها على الكيفية التي كان شيخ الإسلام يرتب فيها حياته اليومية: « فهو قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى، ما يُراد له لا من أهل ولا من مال.

وكان في ليله منفرداً عن الناس كلهم، خالياً بربه عز وجل، ضارعاً مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلة الفجر يأتي بستتها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرم بالصلاحة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيره الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميله يمنةً ويسرةً.

فإذا فرغ من الصلاة، أثني على الله عز وجل، هو ومن حضر بما ورد في قوله: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام تبارك

(١) مدارج السالكين: (١/٥٧٨-٥٧٩)، وما بين قوسين في الشعر زيادة من العقود

الدرية (ص ٣٧٥).

يا ذا الجلال والإكرام، ثم يُقبل على الجماعة، ثم يأتي بالتهليلات الواردات حينئذٍ، ثم يسبح الله، ويحمده ويكبره ثلاثةً وثلاثين، ويختتم المائة بالتهليل، وكذا الجماعة، ثم يدعو الله تعالى له ولهم وللمسلمين، يفتشه ويختتمه بالصلوة على النبي ﷺ، ثم يشرع في الذكر.

وكان إذا صلى الفجر يجلس في مكانه، حتى يتعالى النهار جداً، يقول: هذه غدوتي لو لم أتغد هذه الغدوة سقطت قواي.

وكان قد عرَّفت عادته لا يُكَلِّمُه أحدٌ بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمِّع نفسه، وربما يسمِّع ذكره من إلى جانبه، مع كونه في خلال ذلك يُكثُر من تقليل بصره نحو السماء، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة.

ثم إنه كان يركع - أي يصلِّي الضحى -، فإذا أراد سماع حديث في مكان آخر، سارع إليه من فوره، مع مَنْ يصحبه.

وإذا رأى مُنكرًا في طريقه أزاله، أو سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها أو تأسف على فواتها، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث، فصلَّى عليه.

ثم يعود إلى مسجده، فلا يزال تارة في إفشاء الناس، وتارة في قضاء حوائجهم حتى يصلِّي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه.

وكان مجلسه عاماً للكبير والصغير، والجليل، والحقير، والحر، والعبد، والذكر، والأنثى، قد وسع على كل من يردد عليه من الناس، يرى كلّ منهم في نفسه أن لم يُكرم أحداً بقدره.

ثم يصلى المغرب، ثم يتطوع بما يَسِّرَهُ الله، ثم يُقرأ عليه من مؤلفاته، فيفيد بالطرائف، ويمد باللطائف، حتى يُصلّي العشاء، ثم بعدها كما كان من الإقبال على العلوم، إلى أن يذهب هوئي من الليل طويلاً، وهو في خلال ذلك كله، في النهار والليل، لا يزال يذكُرُ الله تعالى، ويوحدُه ويستغفره، وكان رضي الله عنه كثيراً ما يرفع طرفه إلى السماء، لا يكاد يفتر من ذلك، كأنه يرى شيئاً يثبته بنظره، فكان هذا دأبه ودينه رحمة الله تعالى^(١).

٥- تواضعه وحلمه وعفوه عن الآخرين وصفحه:

إن التواضع وهضم النفس من خصائص رجال الله الخاصة، وهو المنصب الأعلى في الدين، أفضل من ألف فضيلة وألف كرامة، ولا يبلغ الإنسان هذه المنزلة، إلا أن تموت الأنانية، ويترزّك قلبه من جميع الشوائب والعلاقات، وقد كان شيخ الإسلام متحلّياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية، وسموه الديني،

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٦، الراي والصيّب: ص ٦٣، الأعلام العلية: ص ٣٦ - ٤٠.

وأقوال من عاصروه، وما جاء عنه رحمه الله، تشهد بما كان يتصف به من التواضع والربانية وهضم النفس^(١).

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم، والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة...»^(٢).

وقال رحمه الله:

«وملبوسه كآحاد الفقهاء، فرجية ودلق، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً ومدارس ضعيف الثمن، وشعره مقصوص»^(٣).

وقال الحافظ البزار رحمه الله:

«وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والغني الصالح والفقير، وكان يُدْنِي الفقير الصالح ويُكْرِمُه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلب، زيادة على مثله من الأغنياء، حتى أنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته، جبراً لقلبه، وتقرباً بذلك إلى ربه.

(١) الحافظ أحمد بن تيمية للندوبي: ص ١٦٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٩، الذيل على طبقات الحنابلة: ٣٩٢/٢.

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة: ٣٩٦/٢.

وكان لا يسألُ ممن يستفتته أو يسألُه، بل يُقبلُ عليه ببساطة وجه ولبن عريكة، ويقفُ معه حتى يكون هو الذي يفارقه، كبيراً كان أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، حراً أو عبداً، عالماً أو عامياً، حاضراً أو بادياً، ولا يجهه ولا يُحرجه ولا يُنفره بكلام يوحشه، بل يجيئه ويفهمه ويعرّفه الخطأ من الصواب بلطف وابساط.

وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومحبيه عنهم، في قيامه وقعوده، ومشيه ومجلسه، ومجلس غيره^(١).

وقال أيضاً:

«كان رضي الله عنه متوسطاً في لباسه و هيئته، لا يلبس فاخر الشباب بحيث يُرمق ويُمد النظر إليه، ولا أطماراً، ولا غليظة شهير حال لباسها ويميز من عامة الناس بصفة خاصة يراه الناس فيها من عالم و عابد، بل كان لباسه و هيئته كغالب الناس و متوسطهم، ولم يكن يلزم نوعاً واحداً من اللباس فلا يلبس غيره بل كان يلبس ما اتفق وحصل، ويأكل ما حضر، وكانت بذادة الإيمان عليه ظاهرة، لا يُرى متصيناً في عمامة ولا لباس ولا مشية، ولا قيام ولا جلوس، ولا يتهيأ لأحد يلقاه، ولا لمن يردد عليه من بلد»^(٢).

(١) الأعلام العلية: ٥٠-٥١.

(٢) الأعلام العلية: ٥٣.

ومن أحواله وأقواله رحمة الله تعالى والتي تدل على هذا
الخلق أنه كان لا يرى لنفسه على أحد حقاً، ولا يطالب بشيء،
ولا يعاتب أحداً ولا ينتقم لنفسه في أي حال.

يقول ابن القيم رحمة الله تعالى:

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول:
العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد على غيره
فضلاً، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب»^(١).

وأما حاله مع أعدائه وخصومه فعجبية:

قال ابن القيم رحمة الله:

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وحيث يواماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدتهم عداوة
وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت
أهلة فزعاتهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون
فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه»^(٢).

وها هو يتحسر على وفاة الشيخ العلامة ذو الفنون صدر
الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن مكي الشافعي العثماني
المعروف بابن المرحل، وبابن الوكيل رحمة الله تعالى والذي كان

(١) مدارج السالكين: ٤٩٦/١.

(٢) مدارج السالكين: ٣٤٥/٢.

يعد في خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، بل كان من ألد خصومه ومنافسيه:

يقول ابن العماد الحنبلي في ترجمة ابن المرحل رحمهم الله جميعاً:

«.. ولما بلغت وفاته ابن تيمية قال: أحسن الله عزاء المسلمين فيك يا صدر الدين»^(١).

ومن ذلك عفوه وتسامحه وصفحه عن خصومه حين قدر عليهم، وحكمه السلطان في أمرهم:

«يقول ابن القلانيسي: أن ابن تيمية حدثه قال:

إن السلطان استفتاه في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومباعدة العجاشنكيه وأنهم قاموا عليك وأذوك أنت أيضاً، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم.

ففهمت قصده بذلك، فأخذت في تعظيم أولئك العلماء والقضاة، وأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له:

إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثاهم.

فقال: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً.

(١) شذرات الذهب: ٦/٤٢.

فقلت له: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زلت به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

ويقول ابن كثير:

«كان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»^(١).

٦ - ثباته وجرأته في قول الحق، وعدم مداهنته:

كان رحمة الله تعالى ذا شخصية قوية، ونفس لا تهاب الصعاب، فقد كان يقف أمام السلاطين والظلمة ينصحهم ويسخونهم، ويحذرهم برباطة جأش يهابه كل من حضر، لا يخاف في الله لومة لائم.

ولقد كان يتمتع برباطة الجأش، ورسوخ الجنان، ويقف صلباً راسخاً لا يتزعزع عند الخطوب التي يتزلزل عندها أقوىاء الرجال، قوي القلب منشرح الصدر، مسرور النفس.

يقول ابن القيم رحمة الله:

(١) البداية والنهاية: ١٤ / ٥٤، العقود الدرية: ٢٨٢ - ٢٨٣.

«وعلم الله، ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعم، بل ضدتها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق.

وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نصرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساقت منا الظنوں، وضاقت بنا الأرض أتیناه فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحأً وقوة ويقيناً وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبواباً في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»^(١).

ويقول خادمه إبراهيم بن أحمد الغياني رحمه الله:

«... ثم بعد أيام جاء عند الشيخ - يعني ابن تيمية - رحمه الله تعالى - شمس الدين بن سعد الدين الحراني، وأخبره أنهما يسافرون إلى الإسكندرية، وجاءت المشايخ التدamerة^(٢) وأخبروه بذلك، وقالوا له: كل هذا يعملونه حتى توافقهم، وهم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك.

(١) الوابل الصيب: ص ٦٩ - ٧٠، ذيل طبقات الحنابلة: ٢ / ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٢) التدamerة: نسبة إلى تدمر في الشام.

فقال لهم: «أنا إن قتلت كانت لي الشهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبداً وأنا مثل الغنمة كيما تقلبت، تقلبت على صوف».

فيئسوا منه وانصرفوا.. ثم ذكر أنه لما ركب مع نائب السلطان متوجهاً إلى الإسكندرية فقال له إنسان: «يا سيدى هذا مقام الصبر».

فقال له: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها»^(١).

ويقول الذهبي رحمه الله:

«.. وكان قَوَّالاً بالحق، نَهَاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومه لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة»^(٢).

ومن تلك المواقف الجريئة في الصدع والجهر به دون أن يهاب ولا يخاف إلا الله، موقف حثه السلطان الناصر على القدوم إلى الشام ومجابهة التتار.

(١) ناحية من حياة شيخ الإسلام لإبراهيم بن أحمد الغياني: ص ٣٠-٣٢.

(٢) ثلاث ترافق نفيسة من كتاب ذيل تاريخ الإسلام ص ٢٣.

«... فقد سافر الشيخ مرة على البريد إلى الديار المصرية يستنفر السلطان عند مجيء التتار سنة من السنين، وتلا عليه آيات الجهاد، وقال:

إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذب عنهم، فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم، ويستبدل بكم سواكم، وتلا قوله تعالى: **﴿هَتَانُتُهُنَّ لَاءَ مُتَّعِنُونَ لَنْ يُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَفْعَلُ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَلَنْ تَرَوْنَ يَسْتَبِدُّ فَوْمَا عَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾** [محمد: ٣٨] وقوله تعالى: **﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبِدُّ فَوْمَا عَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَرِيرٌ﴾** [التوبية: ٣٩] وبلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وكان هو القاضي حيتى - فاستحسن ذلك، وأعجبه هذا الاستنباط، وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام»^(١).

ومن تلك المواقف الجريئة في الجهر بالحق، ما جابه به السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين رد عليه في قوله أنه يطمع في الملك:

فقد وشي بالشيخ إلى السلطان الناصر، فأحضره بين يديه، ومن جملة ما قال له الناصر: أُخبرت أنك أطاعك الناس، وأن في

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٦، البداية: ١٤/١٥، شذرات: ٥/٤٥٥.

نفسك أخذ المُلْك. فرد عليه بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وبصوت عالي سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المُغْلِ لا يساوي عندي فلسين.

فتُبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إلى كاذب^(١).

ومن تلك المواقف الجريئة، ما قابل به السلطان الناصر رحمه الله في أمر أهل الذمة، وخوف الكثير من الفقهاء عن قول كلمة الحق في أمرهم:

«ثم إن الوزير أنهى إلى السلطان أن أهل الذمة قد بذلوا للديوان في كل سنة سبعمائة ألف درهم، زيادة على الحالية، على أن يعودوا إلى لبس العمائم البيضاء، المعلمة بالحمرة والصفرة والزرقة، وأن يُعْفُوا من هذه العمائم المصبَّغة كلها بهذه الألوان، التي أُلزِمُهم بها ركن الدين الجاشنكير. فقال السلطان للقضاء ومن هناك: ما تقولون؟»

فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء منها ومنهم ابن الزملکاني.

فلما رأهم الشيخ تقي الدين سكتوا جثا على ركبتيه، وشرع

(١) الأعلام العلية ص: ٧٢.

يتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ، ويردُّ ما عرضه الوزير
عنهم ردًّا عنيفًا، والسلطان يسكته بترفق وتوذة وتوقير.

فبالغ الشيخ في الكلام، وقال ما لا يستطيع أحدًا أن يقوم
بمثله، ولا بقريب منه، حتى رجع السلطان عن ذلك، وألزمهم بما
هم عليه، واستمروا على هذه الصفة.

فهذه من حسنات الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله
ورضي الله عنه أمين»^(١).

ومن عباراته التي قالها للسلطان في أثناء حديثه:
«حاشاك أن يكون أول مجلس حلسته في أبهة الملك تنصر
فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفاني، فاذكر نعمة الله عليك إذ
ردَّ مُلوكك إليك، وكبت عدوك، ونصرك على أعدائك، والذي
فعله الجاشنكير كان من مراسيمك، لأنه إنما كان ناتيًّا لك»^(٢).

ومن ذلك ما واجه به قطلوبك المنصوري الكبير أحد كبار
مماليك السلطان الناصر، والذي كان ظالماً متعدياً لا يدفع لأحد
ثمن ما يشتريه منه إلا بعسر وحيل، فجاء أحد التجار فشكى
لشيخ الإسلام ابن تيمية ظلمه وجبروته وأكله لحقه وقد جاء في
ذلك.

(١) العقود الدرية: ص ٢٨١، البداية والنهاية: ١٤ / ٥٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٤ / ٥٤.

«.. أن ابن تيمية دخل عليه مع تاجر يشفع له في قضاء حقه.

فقال له قطلوبك: إذا رأيت الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقر، وإذا رأيت الفقر بباب الأمير، فبئس الأمير وبئس الفقر - أنا الذي أريدُ أجيء إليك لأنك رجل زاهد ..

فقال له ابن تيمية: - قطلوبك! لا تعمل علي دركوناتك -
كان فرعون أنحس منك، وموسى خيراً مني، وكان يأتي إلى بابه كل يوم - مرات - يأمره بالإيمان، وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه.

فلم يسعه إلا امتحال أمره، ووفى الرجل حقه»^(١).

ومن أعظم تلك المواقف الجريئة: موقفه العظيم من «قازان» سلطان التتار - مع ما اشتهر به ذلك السلطان من الجبروت والسلط والظلم وسفك الدماء، فقد جاءه مع مجموعة من أهل العلم وجابهه بكلام شديد، كان له وقع السحر في قلب قازان مما جعله يلبي للشيخ مطالبه التي جاء من أجلها وسأذكر هذه القصة مفصلاً في موطن آخر حين نتحدث عن مواقفه العامة وجهاده رحمة الله تعالى^(٢).

(١) الدرر الكامنة: ٣٣٧-٣٣٨، الوفي بالوفيات للصفدي: ١٦/٧، فوات الوفيات: ٧٦/١.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/٧.

٧ - موضوعاته وإنصافه:

إن العدل والإنصاف من لوازم الإيمان ومقتضياته، وبه قامت السموات والأرض، وهو نظام كل شيء، وأساس المجتمعات الإنسانية، وهو مما اتفق أهل الأرض على مدحه وصحته، والثناء على أهله والبحث على صحبتهم، وبه أمرنا رب العزة والجلال، وحثنا على التعامل به مع القريب والبعيد، والعدو والصديق.

ولقد كان هذا الخلق من الأخلاق الكريمة التي تحلى بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ونال منه خطأً وافراً، ونصيباً كبيراً، ومما يدل على عظم هذا الخلق في قلب شيخ الإسلام رحمه الله ما جاء عنه من أقوال:

قال رحمه الله تعالى:

«والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني - فضلاً عن الروافض - قوله فيه حق أن نتركه، بل لا نرد ما فيه من باطل دون ما فيه من الحق».

وقال رحمه الله تعالى:

«وليس مما أمر الله به رسوله، ومما يرتضيه عاقل أن نقابل الحجج القوية بالمعاندة والجحود، بل قول الصدق والتزام العقل لازم عند جميع العقلاة، وأهل الإسلام أحق بذلك من غيرهم، إذ

هم - والله الحمد - أكمل الناس عقولاً، وأتمهم إدراكاً، وأصحهم ديناً، وأشرفهم كتاباً، وأفضلهم نبياً، وأحسنهم شريعة».

وعن منهجه في التعامل مع أهل العلم والفضل بعد جيل الصحابة رضوان الله عليهم قال رحمة الله:

«ومعلوم أننا إذا تكلمنا فيما هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل، لا بظلم وجهل، وإن العدل واجب كل أحد، وعلى كل أحد في كل حال، والظلم محرّم مطلقاً لا يباح بحال قط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجِرُّنَّكُمْ شَيْئاً قَوْمٌ عَلَىٰ أَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَأَتَّقْوَا﴾ [المائدة: ٨]، وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البعض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من بغضه، فكيف بمن يبغض مسلماً بتأويل وشبهة أو بهوى النفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه»^(١).

وعند الحديث عن نفسه في أسلوب تعامله مع مخالفيه وخصومه قال رحمة الله:

«هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدد حدود الله في بتکفیر، أو تفسیق، أو افتراء أو عصبية جاهلية: فأنا لا أتعدی حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله، وأفعله، وأزنـه بمیزان

(١) منهج السنة النبوية: ١٢٦/٥.

العدل، وأجعله مؤتمراً بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس، حاكماً فيما اختلفوا فيه، قال الله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَيَحْدَهُ فَبَعَثَ اللَّهُ الْبَيْتَنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مِنْهُمُ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنْزَعُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرَسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْبَيْتَ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ أَتَقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا لَا يَصْرُكُمْ كِيدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ يِمَا يَعْمَلُونَ تُحِيطُ﴾ [آل عمران: ١٢٠]^(١).

وعن مواقف الإنفاق التي تعامل بها رحمة الله، والتي كانت ضمن هذا الخلق الكريم الذي تخلق به:

○ موقفه من الصوفية:

يقول رحمة الله تعالى:

(١) مجمع الفتاوى: ٣/٢٤٥.

«فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم في ذلك طائفة من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، وفيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتضى الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد في خطئه، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً وإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد»^(١).

(١) مجموع الفتاوى: ١١/١٧.

- ومن ذلك أيضاً كلامه في العلماء بإنصاف بذكر حسناتهم إلى جانب ما يراه من سبيّات، ففي معرض حديثه عن الحنابلة رحمة الله:

قال رحمة الله: «وستتكلّم على هذا بما ييسّره الله، متحرّين للكلام بعلم وعدل»^(١).

وكلامه في الفرق وتشعب المذاهب على الرغم من كرهه لها، فهو لا يقبل من كلامها إلا ما وافق **السُّنَّة**، وما جاءت به الآيات الكريمة، ويدرك حسناتها وأراءها الصحيحة بقوله: رحمة الله:

«وكذلك متكلّمة أهل الإثبات، مثل الكلابية والكرامية والأشعريّة إنما قُبّلوا وأتّبعوا واستُحِمِّدوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان من إثبات الصانع وصفاته، وإثبات النبوة، والرد على الكفار من المشرّكين وأهل الكتاب وبيان تناقض حجّهم، وكذلك استُحِمِّدوا بما ردّوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدريّة من أنواع المقالات التي يخالفون فيها أهل **السُّنَّة** والجماعة، فحسناتهم نوعان: إما موافقة أهل **السُّنَّة** والحديث، وإما الرد على من خالف **السُّنَّة** والحديث ببيان تناقض حجّهم»^(٢).

(١) نقض المنطق: ص ١٣٦.

(٢) نقض المنطق: ص ١١-١٠.

- ومن ذلك مدحه لصلاح الدين الأيوبي رحمه الله ووصفه له بأنه من ملوك أهل السنة مع أنه أشعري. ومخالف لشيخ الإسلام رحمه الله:

فقال رحمه الله: «ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق إلى ديار مصر وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشييع، وكانوا باطنية ملحدة، وكان بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية، أمر أصحابه أن لا يصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك، ثم بعد موته فتحها ملوك السنة مثل صلاح الدين وظهرت فيها كلمة السنة المخالفة للرافضة، ثم صار العلم والسنة يكثر بها ويظهر»^(١).

- ومن ذلك قوله الذي قاله للسلطان الناصر رحمه الله حين أراد قتل العلماء الذين خالفوه وتسبيوا في سجنه رحمه الله، فأنصفهم وتعامل معهم بعدل وعلم بعيداً عن الهوى الشخصي حيث قال للسلطان:

«إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، وقد أثر ذلك في قاضي المالكية ابن مخلوف رحمه الله فقال: ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ٣ / ٢٨١.

(٢) البداية والنهاية: ١٤ / ٥٤، العقود الدرية: ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

- وقد كان في حكمه على المبتدعة باختلاف مللهم ضمن ما اقتضته الشريعة، وما يؤيده الواقع الماثل للعيان بعيداً عن الأهواء الشخصية، فكان يعطي كل ذي حق حقه، ولهذا نراه يعترف بفضلهم ومحاسنهم في قوله:

«والرافضة فيهم من هو متبع متورع زاهد، ولكن ليس في كل مثل غيرهم من أهل الأهواء.

فالمعتزلة أعقل فهماً وأعلم وأدين، والكذب والفجور فيهم أقل منه في الرافضة، والزيدية من الشيعة خير منهم وأقرب إلى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أدين من الخوارج في هذا، فأهل السنة يسمعون فيهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإن الظلم حرم مطلقاً كما تقدم، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم البعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض».

- وهذا هو يذكر الإمام الغزالى رحمة الله وينصفه بقوله: «وهذا أبو حامد الغزالى - مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف - ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، وصنف «إلجام العوام عن علم الكلام»^(١).

(١) نقض المنطق: ص ٦٠

وكثيرة هي مواقفه المنصفة بحق مخالفيه، وتعامله معهم بعلم وعدل، لا يمنعه مخالفته لهم أن يستفيد من جوانب الحق والصواب الموجودة عندهم، وأن يستشهد بها في مصنفاته ومؤلفاته، وأن يدعم بها ما جاء به من الحق.

٨- شجاعته المفرطة مع قوة الصبر والاحتمال:

لقد نال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى من خلق الشجاعة والصمود أمام الموت، وما ينزل من المصائب والبلاء حظاً وافراً جعله مثار دهشة معاصريه من أهل العلم، وقادة الجيش المملوكي وضباطه، فإن ما تمنع به من رباطة جأش، وثبات قلب، أمام خطر التتار الذي داهم المسلمين في عصره، فأذهل قادتهم وعامتهم، جعل منه موطن القدوة في الشجاعة، فإليه كان العامة يلتجأون ليبعث الثبات في قلوبهم، ويصبرهم ويشجعهم على مجابهة الأخطار.

وقد وصفه معاصره رحمهم الله تعالى بأوصاف تبعث على الدهشة من هذا الخلق العظيم الذي كان يتمتع به، في وقت شاع فيه الخوف وسيطر على قلوب الكثيرين من أهل العلم والسياسة في عصره.

يقول الإمام الذهبي رحمه الله فيه:

«... هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله

قط، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل..»^(١).
وقال رحمة الله أيضاً.

«... وأما شجاعته فيها تضرب الأمثال، ويعوضها يتشبه أكابر
الأبطال»^(٢).
وقال أيضاً:

«... كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهد
الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد..»^(٣).

وقال الحافظ سراج الدين رحمة الله:

«وكان إذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان،
ويقوم كأثبت الفرسان وينكى العدو من كثرة الفتاك بهم ويخوضن
بهم خوض رجل لا يخاف الموت»^(٤).

وقال الحافظ الصفدي رحمة الله:

«هذا إلى كرم يضحك البرق منه على غمامه، وشجاعة يفر
منها قسورة، وإقدام يتأخر عنه عنترة، دخل على محمود غازان
وعلمه بكلام فيه غلظة وقوة، وأسمعه مقالاً لا تحمله الأبوة من
البنوة»^(٥).

(١) ثلاث تراث من ذيل تاريخ الإسلام: ص ٢٣.

(٢) العقود الدرية: ص ١١٨.

(٣) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٤) الكواكب الدرية: ص ١٦١.

(٥) أحيان العصر: عن المنجد ص: ٥١.

- ومن مواقفه الشجاعة التي تعد في حياته شامة مميزة، وعلامة متميزة، موقفه في مواجهة قازان سلطان التتار بكلام شديد أثر في نفسه، فلبى مطالب شيخ الإسلام كاملة، ويصف ابن فضل الله العمري رحمة الله تعالى ذلك الموقف بقوله:

«... جلس الشيخ إلى السلطان محمود غازان حيث تجم الأسد في آجامها، وتسقط القلوب داخل أجسامها، وتتجدد النار فتوراً في ضرمتها، والسيوف فرقاً في قرمها، خوفاً من ذلك السبع المغتال، والنمرود المحتال، والأجل الذي لا يُدفع بحيلة محتال، فجلس إليه، وأوما بيده إلى صدره، وواجهه ودرأ في نحره، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ودعا دعاء منصف أكثره عليه، وغازان يؤمن على دعائه»^(١).

وأما عن شجاعته في الميدان، والتي فاق فيها على سائر أقرانه، بل ويرز فيها على الشجعان المعروفيين في زمانه الذين امتهنوا القتال وصاروا سادته وجنده».

«قال أحد أمراء الشام: قال لي الشيخ - يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءى الجماعان -: يا فلان، أوقفني موقف الموت.

قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم.

(١) تاريخ ابن الوردي: ٤١١/٢، انظر المنجد: ص ٢١.

ثم قلت له: يا سيدى، هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما ت يريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال، وأما أنا، فخيل إلىّ أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة.

قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار.

قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما، تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار.

فقلت: يا سيدى، لك البشارة بالنصر، فإنه قد فتح الله ونصر، وها هم التتار محصورون بهذا السفح، وفي غد - إن شاء الله تعالى - يؤخذون عن آخرهم.

قال: فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن دعاءً وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده^(١).

وقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله الأثر الكبير في حسن الإعداد لمعركة مرج الصفر (شحوب)، حيث أسهم إسهاماً كبيراً في إعداد المتطوعين، وحضر أمراء المسلمين وملوكهم على الجهاد وصد هجمات التتار، وكان له الدور الكبير في حض

(١) العقود الدرية: ص ١٧٨.

السلطان الناصر على القتال، ولم يقف عند التحرير فقط، وإنما أسمهم بسيفه وماله ونفسه في هذه المعركة.

قال ابن كثير رحمة الله تعالى:

«... وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه، فحثه على المعجزة إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإيابه جميعاً، فسألة السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ:

السُّنْنَةُ أَنْ يَقْفَرِ الرَّجُلُ تَحْتَ رَأْيَةِ قَوْمِهِ، وَنَحْنُ مِنْ جَيْشِ الشَّامِ لَا نَقْفِ إِلَّا مَعْهُمْ، وَحَرَضَ السُّلْطَانَ عَلَى الْقَتَالِ، وَبَشَّرَهُ بِالنَّصْرِ، وَجَعَلَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْكُمْ مُنْصُورُونَ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْمَرَةِ.

فيقول له الأماء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم ليتقوا على القتال أفضل، فيأكل الناس، وكان يتأنى في الشاميين قوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «إنكم ملاقوا العدو غداً، والفطر أقوى لكم». فعزم عليهم في الفطر عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدرى^(١).

(١) البداية والنهاية: ١٤ / ٢٥-٢٦.

وقد كانت شجاعته وجرأته تبرز بوضوح وجلاء عندما كانت تنزل المصائب والمحن، فمن ذلك ما واجه به القضاة في عام ١٧٠٧هـ:

«فقد صدر مرسوم السلطان بحبس ابن تيمية لنيله من الصوفية وكلامه في شأنهم، وطلب من القضاة والفقهاء الإفتاء في شأنه بالحبس، ولكن لم يجد الفقهاء للشريعة مأخذًا عند الرجل حتى يفتوا في أمره بالحبس، وتحير أمرهم في ذلك، ولما وجد ابن تيمية الحيرة باديه على وجوبهم تقدم بنفسه إلى الحبس قائلًا: «أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة»^(١).

ولا شك أن هذا الموقف منه شجاعة بالغة، وأدب جم في التعامل مع الفقهاء والقضاة، فهو حين قال هذا وفعله فقد أراد بذلك أن يرفع الحرج عنهم. ويزيل الحيرة التي وقعوا فيها، ولذلك نرى فيه الإقدام والشجاعة والجرأة، ونجد التجرد من النزعة الشخصية حين قدم المصلحة العامة على مصلحته الشخصية.

هذه المواقف الشجاعة والجريئة التي ذكرت، وغيرها الكثير مما ورد وما سيرد في طيات فصول هذا الكتاب، ترسم لنا صورة واضحة عما كان يتمتع به شيخ الإسلام من شجاعة فائقة، وختاماً فهذا الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله يذكر شيخ الإسلام بقوله:

(١) البداية والنهاية: ٤٤/١٤.

«كان رضي الله عنه، من أشجع الناس وأقواهم قلباً، ما رأيت أحداً أثبت جائساً منه، ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومه لائم»^(١).

٩ - هيبته:

الهيبة منحة من الله سبحانه يمنحها لبعض خلقه فيكون في الشخص قوة روح وقوة شخص، وتبعد عنه قدرة على التأثير في نفوس سامعيه، ويكون لكلامه روعة، ولنظراته نفاذ إلى النفس، وقد يفقد الشخص حريته بين يديه من غير سلطان قاهر، ولا قوة مادية مجبرة ملزمة، بل الإلزام ينبعث من النفس. وقد آتى الله ابن تيمية تلك القوة الروحية، ولعل من أسبابها صفاته التي ذكرناها، ومقدراته التي بينها، ولكن ليست هذه الصفات وحدها مكونة لها، بل لا بد من العطاء الإلهي، والمنحة الربانية، وأن قادة الأفكار الذين يوجهون الناس توجيهها فكريأً يكونون ممن آتاهم الله تلك الموهبة، فيسيرون بها الناس طائعين مأخذوين بروعة القائد، مشدوهين بعظمته نفسه، فيلقون معه الحتف راضين، والله في خلقه شؤون.

ولقد كان يحس بهيبته مخالفوه من العلماء، فكانوا إذا

(١) الأعلام العلية: ص ٦٧.

أرادوا أمراً دبروه بليل، وبيته، ثم لم يلقوه بل يشكونه، ليتقوا لقاءه، وإن أصر السلطان أو من له الأمر على أن يلتقي بهم ويجادلوه فإن النتيجة ألا ينالوا منه شيئاً لقوة حجته، ولهيبيته أيضاً^(١).

- ومن مظاهر هيبيته ما كان يظهر على أخيه العالم الفاضل أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم ابن تيمية رحمة الله من تعظيم له ومهابة:

قال الحافظ أبو حفص البزار رحمة الله تعالى:

«... وما رأيت أحداً كان أشد تعظيمًا للشيخ من أخيه هذا، أعني القائم بأؤده، وكان يجلس بحضرته كأن على رأسه الطير، وكان يهابه كما يهاب سلطاناً، وكنا نعجب منه في ذلك ونقول: من العرف والعادة أن أهل الرجل لا يحتشمونه كالأجانب، بل يكون انساطهم معه فضلاً عن الأجنبي، ونحن نراك مع الشيخ كتلميذ مبالغ في احترامه واحترامه.

فيقول: إنني أرى منه أشياء لا يراها غيري، أوجبت علىي أن أكون معه كما ترون»^(٢).

«ومن مظاهر هيبيته أن الملوك والأمراء، والتجار والكبار، كانوا طوع أمره، خاضعين لقوله وفعله، وادين أن يتقربوا إلى قلبه

(١) ابن تيمية لمحمد أبو زهرة: ص ١٠٩ - ١١٠.

(٢) الأعلام العلية: ص ٥٤ - ٥٥.

مهما أمكنهم، مظهرين لإجلاله، أو أن يؤهل كلاً منهم في بذل ماله».

ومن ذلك أن السلطان غازان سلطان التتار لما ظهر على دمشق المحروسة جاءه ملك الكرج وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بال المسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى الشيخ، فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف.

فانتدب منهم رجالٌ من وجوههم وكبارهم وذوي الأحلام منهم، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان، فلما رأهم السلطان قال: من هؤلاء؟.

فقيل: هم رؤساء دمشق، فأذن لهم فحضرروا بين يديه. فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولاً، فلما أن رأه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة، حتى أدناه وأجلسه.

وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسلیط المخزول ملك الكرج على المسلمين، وضمن له أموالاً، وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعاً، وحققت بسيبه دماء المسلمين، وحُمِيَّت ذراريهم، وصين حريمهم»⁽¹⁾.

(1) الأعلام العلية: ص ٤٦، ٦٩.

١٠ - كرمه وجوده:

إن الإيثار أعلى مراتب الجود والكرم، وهو ضد الشح، فالمؤثر على نفسه تاركٌ لما هو محتاجٌ إليه، والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيءٌ شح عليه، وبخل بإخراجه، فالبُخْلُ ثمرة الشح، والشحُ يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح، فإن الشح أهلكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، أمرهم بالبُخْلِ فبَخْلُوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(١).

فالبخيل من أجباب داعي الشح، والمؤثر من أجباب داعي الجود، كذلك السخاءُ عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضلُ من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك - رحمه الله -: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من «سخاء النفس بالبذل».

وهذا المترُّزُ هو منزلُ الجود والسخاء والإحسان^(٢).

وقد بلغ كرم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله منزلة كان يضرب بها المثل، ويتعلّم للوصول إليها كرام الناس، وقد وصف مترجموه هذا الكرم وأجادوا في ذلك. وأثروا على جوده وإنفاقه ثناءً ما عليه من مزيد.

(١) أخرجه أبو داود برقم: ١٦٩٨، والحاكم: ١١/١ وصححه ووافقه الذهبي من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهمَا، وهو صحيح كما قالا.

(٢) تهذيب مدارج السالكين: ٢/٦٤١.

قال الحافظ ابن فضل الله العمري رحمه الله:
«كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل
المسومة والأنعام والحرث، فيهب ذلك بأجمعه، ويوضعه عند أهل
الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيئاً إلا ليهبه، ولا يحفظه إلا
ليذهبه»^(١).

وقال الصفدي رحمه الله:
«... هذا إلى كرم يضحك البرق منه في غمامه، وجود ما
صلح حاتم أن يكون في فص خاتمه..»^(٢).
وقال الذهبي رحمه الله:
«... كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد
الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد...»^(٣).
وقال أيضاً رحمه الله:.

«... فكان لا يُشُقُ فيه غباره، ويلحقُ شاؤه، هذا مع ما كان
عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قطُّ، والشجاعة المفرطة التي
يضرب بها المثل...» إلى أن قال: «.. وأنه بحر لا ساحل له، وكتن
لا نظير له، وأن جُوده حاتمي وشجاعته خالديه...»^(٤).

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٨.

(٢) أعيان العصر: عن المنتجد ص ٥١.

(٣) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٤) ثلاث تراثم نفيسة: ص ٢٣، ٢٥.

وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«كان رضي الله عنه مجبولاً على الكرم، لا يتطبعه ولا يتصنعه، بل هو له سجية، وأنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يوجد به كله، وكان لا يردد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير، ولا ثياب ولا كتب، ولا غير ذلك»^(١).

ومن مواقف جوده وكرمه التي ذكرت عنه رحمه الله تعالى:

قال ابن القيم رحمه الله: «كان - رحمه الله - يتحرى التصدق بين يدي الصلاة والدعاء ما أمكنه، لأنه إذا استحببت الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ، فاستحببها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى»^(٢).

ومن ذلك ما ذكره العالم الفاضل المقرئ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد حيث قال: «كنت يوماً جالساً بحضوره شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، فجاء إنسان فسلم عليه، فرأى الشيخ محتاجاً إلى ما يعتمر به، فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل ذلك فقطعها نصفين، واعتم بنصفها، ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل، ولم يحتشم للحاضرين عنده»^(٣).

(١) الأعلام العلية: ص ٦٣.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٣٧٨/٢.

(٣) الأعلام العلية: ص ٦٣.

وقال الحافظ ابن فضل الله العمري: «كان يتصدق، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء»^(١).

ومن مواقف الإيثار والكرم المحرجة أن يعامل المرء أعداءه ومعارضيه، برحابة الصدر، بل بالعفو عنهم، والإحسان إليهم، وفوق ذلك بالدعاء والنصح، وهذا منصب خطير لا يناله إلا من تجاوز حدود الكبر والأنانية ونسى نفسه، وأنعم الله عليه بنعمائه، ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عداء ومعارضة فيجد قلبه عامراً بداع النصح والرثاء لأعدائه، وقد تحلى شيخ الإسلام بذلك حين عفا عن العلماء الذين آذوه وتسببوا في سجنه، ولم يكتف بالعفو بل أثني عليهم أمام السلطان، وشفع لهم ومنعه من قتلهم، فلم يتمالك القاضي ابن مخلوف المالكي الذي كان من أشد معارضيه إلا أن قال: «ما رأيت كريماً واسع الصدر مثل ابن تيمية فقد أثروا الدولة ضده، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا».

فمكانة العفو والإحسان، والشفقة والرحمة مع الأعداء، أرفع وأسمى من مكانة الإيثار المالي والمادي بكثير، إنها مكانة لا يسعد بها إلا الأولياء والصديقون، وقد كان لابن تيمية قدم راسخة في هذه المكانة..»^(٢).

(١) الكواكب الدرية: ص ١٥٧.

(٢) ابن تيمية: للتدوي: ص ١٦٢-١٦٣ بتصرف.

وحيث ذكر الإمام ابن القيم مراتب الجود في مدارج السالكين ذكر منها:

«الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ أن لا ينفع به بخلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تبذل له من لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة، استقصي له جواباً شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتضراً عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في ذلك أمراً عجياً.

كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربع إذا قيَّرَ، وأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أدنى للسائل من مسألته، فيكون فرحة بتلك المتعلقات واللوازم: أعظم من فرحة بمسألته،

وهذه فتاويه - رحمه الله - بين الناس، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك^(١).

١١ - قوه فراسته:

إن الذين يتولون إصلاح الجماهير يجب أن يكون لهم من قوة الفراسة، ونفاذ البصيرة ما يمكنهم من أن يدركوا خلجان القلوب من العيون، وحركات النفوس من غضون الوجوه، ليستطعوا أن يخاطبوا الوجدان، ويصيروا المشاعر بما يريدون، وقد أعطى الله شيخ الإسلام حظاً وافراً من الإدراك الروحي، والإحساس النفسي، ولذلك ما خطب جماعة إلا استرعى انتباها، وأصاب مشاعرها بما يقول إلا من ركب العناد رأسه. وجمع به شماس نفسه، فإن منافذ الإدراك عنده تسد، فإن لم يصل القول الحق إليه فإن ذلك يكون من نقص فيه، لا من نقص القائل.

وقد كان لقوة عقله - رحمه الله - ونفاذ بصيرته، وحدة مداركه مع قوة الإحساس ينفذ نظره إلى قرارات النفوس فيدركها، وإلى بواطن الأمور فيكشفها، فكان الألمعي يظن الظن كأنه قد رأى وسمع، وبدت فراسته واضحة في كل أمر تولاه^(٢).

(١) تهذيب مدارج السالكين: ٦٤٤/٢.

(٢) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ١٠٦ - ١٠٧ بتصريف.

وقد شهد معاصروه، وتلاميذه ومحبوه، بوقائع عديدة
حدثت كخرق للعادة والكرامة، واعترف بها المتأخرن، وقالوا لا
يمكن إنكارها لكثرة ما عرفت ونقلت، يقول العلامة بدر الدين
العيني، صاحب عمدة القارئ، شرح صحيح البخاري في تقريره
الرد الوافر:

«وهذا الإمام مع جلاله قدره في العلوم نقل عنه على لسان
جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس».
ونظراً إلى كل ذلك قال العلامة علي بن سلطان محمد
القاري الهروي المتوفى بمكة المكرمة سنة ١٠١٤هـ، في - كتابه
المرقاة شرح المشكاة -^(١).

«ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهم - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - كانوا من أكابر أهل السنة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة»^(٢).

«ولقد شاهدتُ من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أموراً عجيبة وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سِفراً ضخماً. أخبر أ أصحابه بدخول التبار الشام سنة تسع

(١) المرقاة شرح المشكاة: ٤٢٧/٤

(٢) ابن تيمية للندوي: ص ١٦٨-١٦٩.

وتسعين وستمائة، وأن جيوش المسلمين تُكسر، وأن دمشق لا يكون بها قتلٌ عام، ولا سبيٌ عام، وأن كلَّ الجيش وحِدَتَه في الأموال، وهذا قبل أن يهُمَّ التار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنين وسبعين مائة لما تحرك التار وقصدوا الشام، أنَّ الدائرة والهزيمة عليهم، وأنَّ الظفر والنصر لل المسلمين. وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يميناً، فيقال له: قُلْ إن شاء الله. فيقول: تحقيقاً لا تعليقاً. وسمعته يقول ذلك. قال: فلما أكثروا علي. قلت: لا تُكثروا، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ: أنهم مهزومون في هذه الكرا، وأن النصر لجيوش الإسلام قال: واطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو. وكانت فراسته الجزئية في خلال هايتن الواقعتين مثل المطر.

ولما طُلب إلى الديار المصرية، وأُرِيد قتله - بعدهما أُنضجت له القدور، وقُلِّبت له الأمور: - اجتمع أصحابه لوداعه، وقالوا: قد توارت الكتب بأنَّ القوم عاملون على قتلك.

فقال: والله لا يصلون إلى ذلك أبداً، قالوا: أَفْتُحبس؟ قال: نعم، ويطول حبسه، ثم أخرج وأتكلم بالسُّنة، على رؤوس الناس. سمعته يقول ذلك.

ولما تولى عدوه - الملقب بالجاشنكير - المُلْك أخبروه بذلك. وقالوا: الآن بلغ مراده منك، فسجَّدَ الله شكرأ وأطال، فقيل

له: ما سبب هذه السجدة؟ فقال: هذه بداية ذله ومقارقة عزه من الآن، وقرب زوال أمره، فقيل: متى هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتى تغلب دولته، فوقع الأمر مثل ما أخبر به. سمعت ذلك منه.

وقال مرة: يدخل على أصحابي وغيرهم، فأرى في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكرها.

فقلت له أو غيري - لو أخبرتهم؟ فقال: أتريدون أن أكون معرفاً كمعرف الولادة؟

وقلت له يوماً: لو عاملتنا بذلك، لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح. فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة، أو قال: شهراً. وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه، ولم ينطق به لساني.

وأخبرني ببعض حوادث كبار، تجري في المستقبل، ولم يعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها.

وما شاهد كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم⁽¹⁾.

(1) مدارج السالكين: ٢/٥٥٢-٥٥٣.

وقد ذكر الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله في كتابه
الأعلام العلية مجموعة من هذه الحوادث^(١)، ذكر منها هذه
الحادثة:

«وحدثني الشيخ الصالح المقرئ أحمد ابن الحريري أنه
سافر إلى دمشق، قال: فاتفاق أني لما قدمتها لم يكن معي شيء
من النفقة البتة، وأنا لا أعرف أحداً من أهلها، فجعلت أمشي في
زقاق منها كالحائز، فإذا بشيخ قد أقبل نحوي مسرعاً فسلام، وَهَشَّ
في وجهي، ووضع في يدي صرّة فيها دراهم صالحة، وقال لي:
انفق هذه الآن وخلّي خاطرك مما أنت فيه، فإن الله لا يُضيعك.
ثم رُدَّ على أثره كأنه ما جاء إلا من أجلني، فدعوت له وفرحت
بذلك.

وقلت لبعض من رأيته من الناس: من هذا الشيخ؟
فقال: وكأنك لا تعرفه، هذا ابن تيمية، لي مدة طويلة لم أره
احتاز بهذا الدرب.

وكان جلّ قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه. فتحققتُ أن
الله أظهره علي وعلى حالي، فما احتجت بعدها إلى أحدٍ مدة
إقامةي بدمشق، بل فتح الله عليَّ من حيث لا أحسب، واستدللُتُ

(١) الأعلام العلية: ص ٥٦-٦٢.

فيما بعد عليه، وقصدتُ زيارته والسلام عليه، فكان يكرمني ويسألني عن حالِي، فأحمد الله تعالى إليه^(١).

١٢ - تعظيمه للسُّنَّة ونصرته لها:

لقد سلك سبيل التمسك بالكتاب والسُّنَّة الجيل الأول من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وتابعهم على ذلك جيل التابعين وأئمة الهدى، فكانوا لا يقدمون على الكتاب والسُّنَّة في أي مسألة رأياً شخصياً، أو احتمالاً عقلياً، ولا عصبية مذهبية، واستمروا على ذلك فترة من الزمن.

ثم جدت بعد ذلك فتن وأحداث سياسية فرقت الناس شيئاً ومذاهب وفرق، وأخذت هذه المذاهب والفرق تتجادل فيما بينها وتتناحر، حتى وصل بهم الأمر إلى ترك الكتاب والسُّنَّة ورميها وراء ظهورهم، ورغم هذا الحال المحزن إلا أنه لم يخل أي عصر من العصور من أئمة هدى يدعون الناس إلى العودة إلى المنبع الأصيل. والتمسك بالكتاب والسُّنَّة والعودة إليهما، وبيان أن العلاج الوحيد لهذه الأمة للخروج مما هي فيه من فرقة وتمزق هو في التمسك بهما، والاعتصام بحبل الله والبعد عن الأفكار الدخيلة، والمذاهب الهدامة التي ليس لها أدنى صلة بهذا الدين.

(١) الأعلام العلية: ص ٥٧.

ولما كان القرن السابع الهجري كان الظلام الدامس قد اشتد، والتناحر والعصبية المذهبية المقيمة قد بلغت أوجها، في هذا الوسط المحزن للأمة الإسلامية وقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله شامخاً كالشمس الرواسي، ينادي ويعمل للعودة إلى المنبع الأصيل لهذا الدين من خلال العودة إلى الكتاب والسنّة، والتخلي عن العصبية المذهبية المقببة، فتعرض في سبيل دعوته إلى محن وخطوب جسيمة في نفسه، إلا أنه صبر واحتسب، فكان لهذا الصبر والاحتسب ثمار إيجابية من خلال نهضة علمية أحدثت حراكاً في ذلك الواقع، وكان له دور كبير حتى هذه الأيام.

وقد تحدث معاصروه عن شدة تعظيمه للسنّة ونصرته لها، وتحمله الأذى في سبيل الدعوة لها:

قال الحافظ المزي رحمة الله :

«ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنّة رسوله، ولا أتبع لها منه»^(١).

وقال الحافظ ابن الزمل堪اني رحمة الله .

«ما رأينا في عصرنا هذا من يستجلِي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتّباع حقيقة»^(٢).

(١) الرد الواfir: ص ١٢٩، فوات الرفقات عن العلماء العزاب: ص ١٧٤، العقود: ص ٧.

(٢) مقدمة علم الحديث لابن تيمية: ص ٥٤.

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«ولقد نصر السنة المحسنة، والطريقة السلفية، واحتاج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه. ويدعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المُرَّ الذي أدى إليه اجتهاده وحِدَّه ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال، وجرى بينه وبينهم حملاتٌ حربية، ووقعاتٌ شامية ومصرية»^(١).

وقال أيضاً:

«وأوذى في ذات الله من المخالفين، وأهين في نصر السنة المحسنة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكتب أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجلب قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته، وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم خصوصاً في كائنة التمار»^(٢).

○ مظاهر تعظيمه للسنة:

وقد برزت مظاهر تعظيم السنة في جوانب عدة في حياة

(١) الدرة اليتيمية في السيرة التيمية: عن العلماء العزاب ص ١٦٩.

(٢) معجم شيوخ الذهبي: ٨١/٦.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أذكر بعضها على سبيل التمثيل لذلك، وليس على سبيل الحصر.

١ - شدة تعظيمه للنبي ﷺ وحبه له:

وقد أشار إلى ذلك تلميذه أبو حفص البزار رحمه الله في قوله:

«وكان لا يذكر رسول الله ﷺ قطُّ، إلَّا وَيُصْلِي وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ،
وَلَا وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ تَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَحْرَضَ
عَلَى اتِّبَاعِهِ وَتَضَرَّرَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ أُورِدُ شَيْئًا مِنْ
حَدِيثِهِ فِي مَسَأَلَةٍ، وَيَرَى أَنَّهُ لَمْ يَنْسَخْهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ مِنْ حَدِيثٍ يَعْمَلُ
بِهِ، وَيَقْضِي وَيَفْتَنُ بِمَقْتَضَاهُ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ مِنْ
الْمُخْلُوقَيْنَ كَائِنًا مِنْ كَانَ، وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُلُّ قَائلٍ إِنَّمَا يَحْتَاجُ
لِقَوْلِهِ لَا بِهِ، إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(١).

٢ - عناته بحفظ الحديث ونسخه:

عني شيخ الإسلام رحمه الله بالحديث النبوي، وسمع الكتب الستة والمسند للإمام أحمد مرات، ومعجم الطبراني الكبير، وما لا يحصى من الكتب، ونسخ الأجزاء، ودار على الشيوخ، وخرج، وانتقى، وبرع في الرجال والطبقات وعلل

(١) الأعلام العلية: ص ٢٨-٢٩.

ال الحديث وفقهه، وحصل ما لم يحصله غيره، وصار من أئمة النقد، فقل من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزواً إلى أصوله وصحابته، وكان شديد الاستحضار للسنّة النبوية وقت إقامة الدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوي الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عليه.

كتب الحافظ ابن سيد الناس في جواب سؤالات الدمياطي في حق ابن تيمية: ألم يفتيه ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والأثار حفظاً^(١).

وقال الذهبي في تاريخه الكبير بعد ترجمة طويلة: بحيث يصدق عليه أن يقال: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث».

وسأذكر المزيد من الأقوال في سعة اطلاعه في معرفة السنّة، وعلومها في فصل خاص عن ابن تيمية محدثاً.

٣ - استقلاله في الأخذ للفقه من الكتاب والسنّة:

درس شيخ الإسلام كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ وأثار السلف الصالح بكل شمولية وعمق، ثم اختار ما ترجح لديه بالكتاب

(١) الشهادة الزكية: ص ٢٦.

والسُّنَّةَ وجهر به من دون أن يبالي بالذى قال خلافه من الأئمة السابقين فهو تابع للدليل، يدور معه حيثما دار.

قال ابن الوردي رحمه الله:

«.. له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، قل أن يتكلم في مسألة إلا ويدرك فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج لها بالكتاب» إلى أن قال: «وبقي سنين، لا يفتى بمذهب معين، بل بما قام الدليل عليه عنده، ولقد نصر السُّنَّةَ الممحضة، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، ويدعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المركب الذي أدى إليه اجتهاده وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال»^(١).

وسأذكر مزيداً من أقوال أهل العلم التي تدل على أنه كان مستقلاً في استدلالاته الفقهية، وأنه كان يستمدتها من الكتاب والسُّنَّةَ مباشرة، ومخالفته للأئمة الأربعة في مسائل عديدة في فصل ابن تيمية فقيها.

(١) تاريخ ابن الوردي: ٤١٣، ٤٠٦/٢.

٤ - دعوته للرجوع إلى الكتاب والسنّة:

نهج شيخ الإسلام نهجاً علمياً عاد بالإسلام إلى العهد الأول في عقائده وأصوله وفروعه، وإذا استيقن أنما ذهب إليه هو ما كان عليه الصحابة دافع عنه بالحججة والبرهان واستخدم في هذا السبيل كل ما أتي من القدرة العلمية، فأثار إعجاب أهل العلم في عصره، وأغضب أهل البدعة، واحتسب الأجر فيما يناله من الأذى في هذا السبيل.

يقول رحمة الله تعالى:

«وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ، في شيء من سنته، دقيق أو جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ»^(١).

وقال أيضاً:

«ليس لأحد أن يعارض الحديث الصحيح عن النبي ﷺ بقول أحد من الناس، كما قال ابن عباس رضي الله عنهمما لرجل سأله عن مسألة فأجابه فيها بحديث، فقال له: قال أبو بكر وعمر،

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ص ١٠.

قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول:
قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر^(١).

٥ - محاربته للأفكار والعقائد والمذاهب الزائفة:

اختص شيخ الإسلام في عصره بكشف المذاهب الزائفة عن الدين بحرب ضروس كشف فيها أستارهم. وكل هدفه هو أن يعيد للإسلام نضارته، ويدحض الباطل ويكشف زيفه، من خلال كشف زيف الفرق الباطلة التي أرادت أن تشوّه العقائد الأساسية للإسلام وشرعيته السمحاء، وهاجم جميع الفرق والمذاهب المنحرفة عن الكتاب والسنّة القائمة في عصره.

وفي ذلك يقول الحافظ البزار رحمة الله تعالى:

«وَأَمَّا مَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ مُعَارِضَةِ أَهْلِ الْبَدْعِ فِي بَدْعِهِمْ، وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ فِي أَهْوَائِهِمْ، وَمَا أَلْفَهُ فِي ذَلِكَ فِي دَحْضِ أَقْوَالِهِمْ وَتَزْيِيفِ أَمْثَالِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ، وَإِظْهَارِ عَوَارِهِمْ وَانتِهَالِهِمْ، وَتَبْدِيدِ شَمْلِهِمْ، وَقَطْعِ أَوْصَالِهِمْ، وَأَجْوِبَتِهِ عنْ شَبَهِهِمُ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَمُعَارِضَتِهِمُ النَّفْسَانِيَّةُ لِلشَّرِيعَةِ الْحَنِيفَيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِمَا مَنَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْبَصَائِرِ الرَّحْمَانِيَّةِ، وَالدَّلَائِلِ الْنَّقْلِيَّةِ وَالْتَّوْضِيَّحَاتِ الْعُقْلِيَّةِ، حَتَّى يُكَشَّفَ قَنَاعُ الْحَقِّ، وَيَبَانَ فِيمَا جَمَعَهُ فِي ذَلِكَ وَأَلْفَهُ

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ص ٥٤.

الكذب من الصدق، حتى لو أن أصحابها أحياء ووقفوا لغير الشقاء، لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق»^(١).

هذه بعض الصفات التي كان يتمتع بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، تعطينا صورة واضحة عن شخصية هذا الإمام الجليل، وتوّكّد التطابق والتكامل بين قوله وفعله. وبين سلوكه وما جاءت به الشريعة الإسلامية، وتبيّن أن ابن تيمية رحمه الله كان نعم النموذج للعالم العامل بأحكام الدين.

(١) الأعلام العلية: ص ٧٦ وما بعدها.

الفصل الخامس

ابن تيمية

ومنهجه في الدعوة والإصلاح

بين النظرية والتطبيق

جاء شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الدنيا في فترة فقد فيها المسلمين أو كادوا يفقدون معالم الطريقة التي تهديهم إلى الحق، في غمرة من المحن، واشتداد من الخطوب والبلاء، فنهض بعبء الإصلاح للواقع المرير الذي تمر به الأمة الإسلامية، فبعث الحياة في الفكر الإسلامي بعد جمود أصابه، وأيقظ حياة كانت معالمها المشرقة أن تختفي بعد أن عمها الركود.

جاء رحمة الله إلى الحياة على فترة من المصلحين في تاريخ الإسلام، وكان المجتمع الإسلامي فيها قد وصل إلى صورة يعجز القلم عن تصوير ما كان يغمر هذا المجتمع من الانحلال الاجتماعي، والتحلل السياسي، والتفتت المذهبي، مجتمع فرقه الهوى، ومنزقه الترف البطين، واستولت على سياسته قيادات حاكمة عاشت لشهواتها الداعرة في ظل الجهالة الجahلة،

واستحوذ البلاء على كل جانب، وصبت عليه المحن القواصم صباً. وأحاطت به الرزايا العواصف، فعصفت بمقوماته، حتى أفقدته الإحساس بالمقاومة، فهو يبصر ولا يعي، ويسمع ولا يفقه، ويساق فلا يدرى»^(١).

مثل هذه الأوضاع السياسية السيئة التي هاجم فيها التار بلاد المسلمين واكتسحوا العالم الإسلامي، والأوضاع الاقتصادية المنهارة، والأوضاع الاجتماعية المتردية، تحتاج إلى داعية لبق يستطيع أن يراعي الظروف، ويقدرها قدرها، ويدرسها جيداً قبل أن يقوم بنشاطه الإصلاحي، لأن السير في تيار مضاد لها يؤدي بتلك الحركة وذلك السير إلى التعويق والتعطيل، إن لم يؤد إلى ضياع الجهد وتفويت الفرصة.

وقد كان ابن تيمية رحمة الله ذلك الداعية للبقاء، والمصلح الفذ الذي استطاع أن يحدث حراكاً قوياً في بيئه عصره الراكرة، ساعده في ذلك بيت علم ودين، نشأ فيه وترعرع، وحصل على وقارات حباه الله إليها مثل الاطلاع الواسع، والحافظة الخارقة، والجرأة في قول الحق وتبنيه، وصبر وجلد على تحمل المسؤوليات والتبعات والمحن والبلاء الذي نزل به، ونفسه راضية عما يصيبه في ذات الله عزّ وجلّ ونصرة دينه وسُنة

(١) مجلة الوعي الإسلامي، السنة الثامنة، العدد ٨٨ لعام ١٣٩٢هـ، نموذج من دعاء الإصلاح: ص ٦٥-٦٤.

نبيه ﷺ، وتجرد من أهواء النفس، وسعة صدر وعفو عن الآخرين، وتخلى عن شهوات الدنيا ومطامعها، وزهد وورع وعبادة ونسك، كل ذلك جعل منه وهياه بعد توفيق الله وهدايته ليكون مصلحاً مجرداً لتلك الأوضاع البائسة التي كان يحياها المسلمون في ذلك الزمان.

فقد قام شيخ الإسلام لنصرة دين الله عز جل، وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين ومحاربة الخوف والجزع الذي ملأ تلك النفوس، وإعادة بناء ما تهدم أو كاد يتهدم من بناء فكري أو سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي للأمة الإسلامية، وقد بذل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك، وسأعالج في هذا الفصل بعض جوانب منهجه النظري في الدعوة والإصلاح، وأبين الممارسة العملية لما كان يدعو الناس إليه رحمة الله تعالى.

أ- أسس المنهج الدعوي عند ابن تيمية:

وفق الله تعالى ابن تيمية للعمل على إحياء الدعوة إلى الحق في نفوس الناس في عصره، وإزالة ما علق بأحوالهم من سحب قائمة أخفت مبادئ الإسلام السمحنة عن كثير من الناس، فوضع لنفسه أساساً لحركته الدعوية في أوساطهم ينطلق من خلالها حتى يصل إلى مبتغاه في إعادة ثقة الناس في ربهم، ويربط المنقطع من صلاتهم بينهم وبين خالقهم، ويأخذ بأيديهم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة، ومن هذه الأسس المعتمدة عنده:

١- التمسك بالكتاب والسنّة:

كان رحمة الله من أحرص الناس على التمسك بالكتاب والسنّة، والدعوة إلى اتباعهما، والأعراض عما خالفهم، وكان من اتبع الناس في سلوكه للكتاب والسنّة.

يقول عنه الحافظ المزي رحمة الله:

«ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنّة رسوله ولا أتبع لهما منه».

وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمة الله:

«كان إذا وضح له الحق بعض عليه بالنواخذ، والله ما رأيت أحداً أشد تعظيمًا لرسول الله ﷺ ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به - منه، وكان إذا أورد شيئاً من حديثه في مسألة ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديث، يعمل ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسنّة لا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان، ولا يرقب في الأخذ بمعلومهما أحداً، ولا يخاف في ذلك أميراً، ولا سلطاناً ولا سيفاً، ولا يرجع عنهما لقول أحد، وهو متمسك بالعروة الوثقى».

وما سمعنا أنه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل، ما اشتهر عنه من كثرة متابعته للكتاب والسنّة، والإمعان في تتبع معانيهما، والعمل بمقتضاهما، ولهذا لا يرى في مسألة أقوالاً للعلماء إلا

وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسنّة، وتحري الأخذ بأقوامها من جهة المنقول والمعقول»^(١).

ومن أقواله في ذلك رحمة الله:

«...إن طاعة الله ورسوله موجبة للسعادة، وأن معصية الله موجبة للشقاوة وهذا يبين أن مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج إلى طاعة إمام أو قياس، ومع معصية الله ورسوله لا ينفع طاعة إمام أو قياس.

ودليل هذا الأصل كثير في الكتاب والسنّة، وهو أصل الإسلام «شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله» وهو متفق عليه بين الذين أوتوا العلم والإيمان قولًاً واعتقادًا، وإن خالقه بعضهم عملاً وحالاً، فليس عالم من المسلمين يشك في أن الواجب على الخلق طاعة الله ورسوله، وأن ما سواه إنما تجب طاعته حيث أوجبها الله ورسوله.

وفي الحقيقة فالواجب في الأصل إنما هو طاعة الله، لكن لا سبيل إلى العلم بماموره ويخبره كله إلا من جهة الرسل، والمبلغ عنه إما مبلغ أمره وكلماته فتوجب طاعته وتصديقه في جميع ما أمر وأخبر، وأما ما سوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال..»^(٢).

ومن هذا يتبيّن أنه كان يرى ضرورة اتباع كتاب الله وسنته رسول الله عليه السلام، وطاعة الله ورسوله طاعة كاملة، وأنه لا معصوم

(١) الأعلام العلية: ص ٢٨-٢٩، ٧٨-٧٩.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٩/٦٨-٦٩.

بعد الرسول ﷺ ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء، فالاتباع المطلق دائري مع الرسول وجوداً وعدماً.

٢ - حرصه على وحدة الأمة، واجتماع الكلمة، وائتلاف القلوب:

وقد بُرِزَ هذا الحرص منه رحمة الله من خلال أمور عدّة أبرزها:

٥ ببيانه لأهمية اجتماع الكلمة ومكانتها الكبيرة في دين الله تعالى حيث قال رحمة الله:

«وتعلمون أن من القواعد العظيمة، التي هي من جماع الدين، تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] ويقول: ﴿وَاعْصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَيْعَانًا وَلَا تَفْرَقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَأَخْتَلُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْيَتُمْ وَأَفْلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل: هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة، وجماع السنة: طاعة الرسول ﷺ...»^(١).

(١) مجمع الفتاوى: ٢٨/٥١.

○ اختياره أن يبدأ من أصل اجتماع الكلمة، واتلاف القلوب حيث قال:

«أول ما أبدأ به من هذا الأصل، ما يتعلق بي، فتعلمون - رضي الله عنكم - أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين - فضلاً عن أصحابنا - بشيء أصلاً، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة، والإجلال والمحبة، والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان، كل بحسبه، ويخلو الرجل أما أن يكون مجتهداً مصبياً، أو مخطئاً، أو مذنباً، فالأول: مأجور مشكور والثاني مع أجره على الاجتهاد، فمغفو عنه، مغفور له، والثالث: فالله يغفر لنا وله، ولسائر المؤمنين، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل»^(١).

○ ويحذر رحمة الله من أشد الأخطار فتكاً في العلاقات الاجتماعية بين الأحباب والإخوان، والتي تمزق صفوهم، وتفرق كلمتهم ألا وهو التقول على الآخرين بغير حق، والإكثار من لومهم وتقريعهم، وإشاعة الكلام السيء عنهم فيقول:

«... فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلان قصر، فلان ما عمل، فلان أؤذى الشيخ بسيبه، فلان كان سبب هذه القضية، فلان كان يتكلم في كيد فلان، ونحو هذه

(١) مجمع الفتاوى: ٢٨ / ٥٢-٥٣.

الكلمات، التي فيها مذمة لبعض الأصحاب، والإخوان فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بل مثل هذا يعود على قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف»^(١).

○ ويحذر من أن يتخذ من شدته في بعض الأحيان مع بعض الناس، وإغلاظ القول لهم لسبب معين يرى أنه فيه مصلحة عامة للمؤمنين - فقد حذر أن يتخذ هذا منهجاً وديداً للنبيل من المخالفين، فيقول رحمة الله:

«وتعلمون أيضاً أن ما يجري من نوع تغليظ، أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان، ما كان يجري بدمشق، ومما جرى الآن بمصر، فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا، ولا بغض، بل هو بعدما عومنا به من التغليظ والتخشين، أرفع قدرأ، وأنبه ذكرأ، وأحب وأعظم، وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين، التي يصلح الله بها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينفع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والتعومة ما نحمد معه ذلك التخشين.

وتعلمون: أنا جمياً، متعاونون على البر والتقوى، واجب

(١) مجمع الفتاوى: ٢٨/٥٣.

علينا نصر بعضاً، أعظم ما كان، وأشد، فمن رام أن يؤذى بعض الأصحاب، أو الإخوان، لما قد يظننه من نوع تخشين - عومن به بدمشق، أو بمصر الساعة، أو غير ذلك - فهو الغالط وكذلك من ظن أن المؤمنين يدخلون عما أمروا به من التعاون والتناصر، فقد ظن ظن سوء وأن الظن لا يعني من الحق شيئاً» وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا الساعة، أو قبل الساعة إلا ومنتزله عندنا اليوم أعظم مما كانت، وأجل وأرفع..» «فلا أحب أن يتضرر من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله، فإن تابوا تاب الله عليهم، وإنما فحكم الله نافذ فيهم، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله، لكنه أشكر كل من كان سبباً في هذه القضية، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه، وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»^(١).

○ وبختار أيضاً لنفسه في سعيه لتوحيد كلمة المسلمين، وحرصه على ائتلاف صفهم، أن يتلمس العذر لمن أخطأ منهم حتى يعرف

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨ / ٥٣-٥٦

خطأه، ويحذر تحذيراً شديداً من إيذاء أحد من الناس أخطأ في حقه مجتهداً معنوراً في اجتهاده فيقول رحمة الله:

«وتعلمون - رضي الله عنكم - أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها اجتهاد الآراء، واختلاف الأهواء، وتنوع أحوال أهل الإيمان، وما لا بد منه - من نزغات الشيطان ما لا يتصور أن يعري عنه نوع الإنسان، وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَّلَهَا أَلْيَانَنْ إِنَّهُ كَانَ طَلُومًا جَهُولًا * لِيَعْذِبَ اللَّهُ الْمُنِفِّقِينَ وَالْمُنَفَّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(١) [الأحزاب: ٧٢ - ٧٣].

«فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ، أو ظلمه وعدوانه، فإني قد احللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي»^(٢).

وقد تجلى حرصه هذا يوم أن عفا وصفح عن آذوه حين أمكنه السلطان منهم، وأراد منه أن يقتله بقتلهم، ولكنه أجابه بقوة وجرأة العالم الذي يعرف الحق بقوله: «إنك إن قتلتهم فلن تجد مثلهم»، ثم صفح وعفا عنهم وجعلهم في حل مما فعلوه في حقه.

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨ / ٥٤ - ٥٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨ / ٥٥.

٣ - مراعاته لفقه الأولويات والدرج في التربية:

كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يعرفون جيداً من خلال فهمهم الصحيح لهذا الدين كيف يرتبون أولوياتهم، وكيف ينظمون حياتهم من خلال هذا الترتيب، فإذا ظهر من بينهم من لم يفقه جيداً كيفية ترتيب الأولويات سارعوا إليه بالنصيحة، فيبيتون له أن النصوص الشرعية قد تتعارض - في الظاهر - أمام المسلم في وقت من الأوقات ولكن بالرجوع إلى سلم الأولويات يسهل التعرف على الأهم فالملهم، وعلى الأولى فالأولى ولكن نتيجة لغياب الفهم الصحيح للإسلام والفقه الجيد للأولويات فإن هذا يعد من أهم الأسباب التي أدت إلى وجود الخلافات التي ظهرت بين المسلمين.

ولا شك أن ترتيب الأولويات عند المسلم وتقدير الأهم فالملهم بالأقل أهمية ليس من شأن عوام المسلمين، بل هي مهمة العلماء الثقات في هذه الأمة ولهذا قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف رحمة الله تعالى:

«إن تقدير الضرورة التي يعدل به عن حكم النص، وتقدير المصلحة التي يبني عليها الحكم فيما لا نص فيه يجب أن يكونا من اختصاص الجماعة التشريعية في الأمة المكونة من العدول ذوي البصيرة النافذة بأحكام الشريعة ومصالح الدنيا، ولا يوكل أمر واحد منها إلى فرد أو أفراد، فإن الهوى قد يغلب على

العقل فيقدر الكمال ضرورياً، ويقدر المتشوّه قطعياً، ويقدر المفسدة مصلحة»^(١).

وقد كان شيخ الإسلام رحمه الله تعالى من أعظم الشخصيات على مدار التاريخ الإسلامي التي فهمت مقاصد الشريعة وضوابطها، وترتيب أولوياتها في العمل بشكل صحيح، إضافة إلى ما أعطاه الله تعالى من غزارة العلوم والمعارف، وسعة الاطلاع على أمور الشريعة واختلاف المذاهب وأقوال الأئمة، مما أكسبه قدرة كبيرة على ترتيب الأولويات لعمله الدعوي وجهده الإصلاحي. ولذلك أخذ فقه الأولويات أهمية بالغة عنده رحمه الله، وسأقوم بإبراز بعض جوانب هذا الاهتمام منه بهذا الفقه، وجعله أساساً من أسس منهجه الدعوي والإصلاحي:

٥. أهمية فهم مقاصد الشريعة:

قال رحمه الله: «من استقرأ الشريعة في مواردها ومقاصدتها وجدها مبنية على قوله: «فَمَنْ أَضْطَرَّ عَنِيرَ بَاغٍ وَلَا عَابِرَ فَلَا إِنْهَىٰ عَلَيْهِ» [البقرة: ١٧٣]، قوله: «فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ عَنِيرَ مُتَجَانِفِي لِإِثْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ» [المائدة: ٣].

(١) مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه لعبد الوهاب خلاف: ص ١٠٣، فقه الأولويات: ص ٩٨.

فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم، ولم يكن سببه معصية - هي ترك واجب أو فعل محرم - لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بياغ ولا عاد»^(١).

٥ دقته في ترتيب الأولويات:

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله من فقه شيخ الإسلام العميق للإسلام ودقته في ترتيب الأولويات فيقول:

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معى، فقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسيبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم»^(٢).

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله بقوله:

«وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار من أي قبيل هو؟ فإنهم يظهرون الإسلام، وليسوا بُغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته ثم خالفوه.

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣/٢٩٤.

(٢) إعلام الموقعين: ٣/٣.

يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيرون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتقطن العلماء والناس لذلك. وكان يقول للناس: إذا رأيتمني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم^(١).

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله أيضاً في تشجيع شيخ الإسلام على الإفطار في رمضان للتقوi بذلك على لقاء التتار وقاتلهم فقال:

«... وأفتي الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم ليتقوا على القتال أفضل، فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميin قوله عليه السلام: «إنكم ملاقوا العدو غداً، والفطر أقوى لكم» فعزم عليهم في الفطر عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدري^(٢).

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير أيضاً من أن ابن تيمية رحمه الله رفض أن يقف تحت راية السلطان في معركة شقحب لأن الأولوية عنده أن يقف تحت راية جيش الشام حيث قال ابن كثير رحمه الله:

(١) البداية والنهاية: ١٤/٢٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/٢٥-٢٦.

«وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه، فتحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال، وبشره بالنصر...»^(١).

○ جواز ترك واجب لفعل الواجب، أو السكوت عن مفسدة لدفع الأفسد:

قال رحمة الله:

«إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذا الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يكون ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذا الحال محرماً على الحقيقة وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر، ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو الضرورة أو لدفع ما هو أحرم»^(٢).

(١) البداية والنهاية: ١٤ / ٢٥-٢٦.

(٢) مجمع الفتاوى: ٢٠ / ٥٧.

٥ تأليف القلوب أولى من الخلاف في أمور الشرع الفرعية:
ذكرت سابقاً حرصه الشديد على جمع كلمة المسلمين،
وتوحيد رايتهم، وتأليف قلوبهم، وحين نتحدث عن فقه
الأولويات عنده سنجده يحرص على هذا الهدف، ويبيّن سبل
تحقيقه ولو أدى ذلك إلى ترك بعض المستحبات، أو ترك الخلاف
في أية مسألة فرعية من أمور الدين، ويذكر نماذج من اجتماع
القلوب مع الخلاف في الرأي.

- ترك بعض المستحبات لتأليف القلوب:

فيقول رحمة الله:

«ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف هذه القلوب بترك
هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من
مصلحة فعل مثل هذا.

كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت، لما رأى في إيقائه من
تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة
في السفر ثم صلى خلفه متماً وقال: الخلاف شر»^(١).

- والخلاف في فروع العقيدة لا يفرق:

وهو في إطار تحديد الأولويات فإنه يعتبر أن الخلاف في
المسائل الفرعية الخفية الدقيقة في أمور العقيدة ينبغي ألا يحدث

(١) القواعد النورانية الفقهية: ص ٤٣-٤٤.

بين المسلمين فرقة ونفرة، ولا يجوز أن تتخذ شعار محنـة وفتـة، بل ينبغي للألسـن أن تـكـفـ وـلـلـقـلـوبـ أن تـجـتـمـعـ، وـلـلـنـفـوـسـ أن تـصـفـوـ، حيث ذـكـرـ في رسـالـتـهـ التـيـ وجـهـهـاـ إـلـىـ أـهـلـ الـبـحـرـيـنـ حـيـنـ اـخـتـلـفـواـ فـيـ مـسـأـلـةـ فـرـعـيـةـ مـنـ مـسـائـلـ الـعـقـيـدـةـ وـهـيـ «ـرـؤـيـةـ الـكـفـارـ رـبـهـمـ»ـ، وـتـنـازـعـواـ وـتـفـرـقـتـ كـلـمـتـهـمـ، حـتـىـ تـهـاـجـرـوـ وـتـرـكـواـ الـصـلـاـةـ وـرـاءـ بـعـضـهـمـ الـبـعـضـ، قـالـ رـحـمـهـ اللهـ:

«ـوـالـذـيـ أـوـجـبـ هـذـاـ (ـكـتـابـةـ الرـسـالـةـ)ـ أـنـ وـفـدـكـمـ حـدـثـوـنـاـ بـأـشـيـاءـ مـنـ فـرـقـةـ وـالـخـلـافـ بـيـنـكـمـ،ـ حـتـىـ ذـكـرـوـاـ أـنـ الـأـمـرـ آـلـ إـلـىـ قـرـيـبـ الـمـقـاتـلـةـ وـذـكـرـوـاـ أـنـ سـبـبـ ذـلـكـ الـخـلـافـ فـيـ «ـرـؤـيـةـ الـكـفـارـ رـبـهـمـ»ـ وـمـاـ كـنـاـ نـظـنـ أـنـ الـأـمـرـ يـلـغـ بـهـذـهـ الـمـسـأـلـةـ إـلـىـ هـذـاـ الـحـدـ،ـ فـالـأـمـرـ فـيـ ذـلـكـ خـفـيفـ،ـ إـنـمـاـ الـمـهـمـ الـذـيـ يـجـبـ عـلـىـ كـلـ مـسـلـمـ اـعـتـقـادـهـ:ـ أـنـ الـمـؤـمـنـيـنـ يـرـوـنـ رـبـهـمـ فـيـ الدـارـ الـآـخـرـةـ فـيـ عـرـصـةـ الـقـيـامـةـ وـبـعـدـمـ يـدـخـلـوـنـ الـجـنـةـ»ـ،ـ إـلـىـ أـنـ قـالـ:ـ «ـفـبـالـجـمـلـةـ فـلـيـسـ مـقـصـودـيـ بـهـذـهـ الرـسـالـةـ الـكـلـامـ الـمـسـتـوـفـيـ لـهـذـهـ الـمـسـأـلـةـ،ـ فـإـنـ الـعـلـمـ كـثـيرـ،ـ إـنـمـاـ الـغـرـضـ بـيـانـ أـنـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ لـيـسـ مـنـ الـمـهـمـاتـ الـتـيـ يـنـبـغـيـ كـثـرـةـ الـكـلـامـ فـيـهـاـ،ـ وـإـيـقـاعـ ذـلـكـ إـلـىـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ،ـ حـتـىـ يـبـقـىـ شـعـارـاـ،ـ وـيـوـجـبـ تـفـرـيقـ الـقـلـوبـ وـتـشـتـتـ الـأـهـوـاءـ»ـ⁽¹⁾ـ.

(1) مـجمـوعـ الـفـتـاوـيـ:ـ ٦ـ،ـ ٤ـ٨ـ٥ـ،ـ ٥ـ٠ـ٢ـ.

- والخلاف في فروع الفقه لا يفرق:

ولشن كان الخلاف في فروع العقيدة لا يفرق كلمة المسلمين، فإن الخلاف في فروع الفقه والأحكام يجب أن لا يفرق من باب أولى حيث قال رحمه الله:

«وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة»^(١).

واستنكر استنكاراً شديداً ما يجري من تقاطع وتدابر نتيجة للخلاف في بعض مسائل الفقه الفرعية فقال:

«فأما صفة الصلاة: فمن شعائرها مسألة البسمة، فإن الناس اضطربوا فيها نفياً وإثباتاً، في كونها آية من القرآن، وفي قراءتها، وصنفت من الطرفين مصنفات، يظهر في بعض كلامها نوع جهل وظلم، مع أن الخطب فيها يسير».

وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرقة والاختلاف الذي نهينا عنه، إذ الداعي لذلك هو ترجيح الشعائر المفرقة بين الأمة وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جداً، لو لا ما يدعو الشيطان من إظهار شعار الفرقة»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/١٧٣.

(٢) القواعد النورانية الفقهية: ص ٤٢.

- خلاف دون تهاجر:

قال رحمه الله:

«وليست هذه المسألة فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة، فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سُنّة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا، كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم والناس بعدهم في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا، وقالوا فيها كلمات غليظة، كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»^(١)، ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجراً ولا تقاطعاً. وكذلك ناظر الإمام أحمد أقواماً من أهل السُّنّة في «مسألة الشهادة للعشرة بالجنة» حتى آلت المنازرة إلى ارتفاع الأصوات، وكان أحمد وغيره يرون الشهادة، ولم يهجروا من امتنع من الشهادة، إلى مسائل نظير هذه كثيرة»^(٢).

- خلاف في ظلال المحبة:

قال رحمه الله:

«قد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَزَّعُمْ فِي شَيْءٍ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٣٤ ومسلم: ١٧٧.

(٢) مجمع الفتاوى: ٦/٥٠٢، ٥٠٣.

فَرُدُودُهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَرْسُولِهِ إِنْ كُنْتُمْ تُقْرِئُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَكْرَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا» [النساء: ٥٩].

وكانوا يتناذرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين.

نعم من خالف الكتاب المستعين والسنّة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به «أهل البدع»^(١).

○ اختلاف درجة العمل باختلاف الظروف:

قال رحمة الله:

«العمل الواحد يكون فعله مستحباً تارة، وتركه تارة باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية، والمسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحة، كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم، وقال لعائشة: لو لا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لتفضلت الكعبة، ولأقصتها بالأرض، ولجعلت لها بابين، باب يدخل الناس منه، وباب يخرجون منه، فترك النبي ﷺ هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين للمعارض

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/١٧٢.

الراجح وهو حدثان عهد قريش بالإسلام لما في ذلك من التنفيذ لهم، فكانت المفسدة راجحة على المصلحة.

ولذلك استحب الأئمة: أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل، إذا كان فيه تأليف المأمورين. مثل أن يكون عنده فصل الوتر أفضل، بأن يسلم في الشفع، ثم يصلّي ركعة الوتر، وهو يوم قوماً لا يرون إلا وصل الوتر، فإذا لم يمكنه أن يتقدم إلى الأفضل كانت المصلحة الحاصلة بموافقته لهم بوصل الوتر أرجح من مصلحة فصله مع كراحتهم للصلوة خلفه...، إلى أن قال (.. فهذه الأمور وإن كان أحدها أرجح من الآخر، فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزًا وقد يكون فعل المرجوح أرجح للمصلحة الراجحة، كما يكون ترك الراجح أحياناً لمصلحة راجحة وهذا واقع في عامة الأعمال، فإن العمل الذي هو في جنسه أفضل وقد يكون في مواطن غيره أفضل منه»^(١).

٥ مخالفة الكفار في الهدى الظاهر:

قال رحمة الله:

إِنَّ الْمُخَالَفَةَ لِهِمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ ظَهُورِ الدِّينِ وَعِلْمِهِ،
كَالْجَهَادِ وَالزَّانِمَهُمْ بِالْجُزِيَّةِ وَالصَّغَارِ، فَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي أُولَئِكَ الْأَيَّامِ
أَمْرٌ ضُعْفَاءٌ لَمْ يُشَعِّرُ الْمُخَالَفَةَ لِهِمْ، فَلَمَّا كَمِلَ الدِّينُ وَظَهَرَ وَعَلَى
الْأَمْرِ ضُعْفَاءٌ لَمْ يُشَعِّرُ الْمُخَالَفَةَ لِهِمْ، فَلَمَّا كَمِلَ الدِّينُ وَظَهَرَ وَعَلَى

(١) مجموع الفتاوى: ١٩٥-١٩٨ / ٢٤

شرع ذلك، ومثل ذلك اليوم: لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأمور بالمخالفة لهم في الهدى الظاهر لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك أو دفع ضررهم عن المسلمين ونحو ذلك من المقاصد الصالحة.

فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعز الله فيها دينه وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية: ففيها شرعت المخالفة، وإذا ظهرت الموافقة والمخالفة لهم باختلاف الزمان ظهر حقيقة الأحاديث من هذا^(١).

٤ - شمولية منهجه الدعوي والإصلاحي:

اتسم منهجه الدعوي رحمة الله بالشمولية، حيث غطى جوانب الحياة المختلفة، فقد كان شيخ الإسلام رحمة الله تعالى ذا عقلية مفتوحة، عقري الذاكرة، متقد الذهن رحب الأفق، ينظر إلى الأشياء بفراسة المؤمن، ويرى من خلالها ما قد يحدث في مستقبل الأيام، فكان يستعين في حياته بحسن صلته بالله، يقضى في الدعوة إلى الله نهاره، ويفرغ ليه لعبادة ربه، فالله رشده،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ١٧٦ - ١٧٧.

وأيقظ قلبه، ونور بصيرته، وأزاح عنه الحجب التي حالت بين الناس ورؤية الحقيقة، فانكشفت له الخفايا، ورأى ما لم يره غيره من أحوال المسلمين، فعزم على التغيير، وصمم على الإصلاح، وكان ثمرة ذلك كله هذا المنهج المتكامل الذي امتد إلى جوانب الحياة المختلفة، فأصلاح فاسدتها، وقوم معوجها، وأحياها بروح الإسلام الحنيف^(١).

وقد امتدت جهوده الإصلاحية رحمه الله لتغطي جميع جوانب الحياة فمنها:

○ الجانب السياسي:

وقد اتجه جهوده الإصلاحي إلى جانبيين هامين في هذا الباب:

- بناء تصور شرعي صحيح لمفهوم الحكم: وذلك من خلال توضيح حقيقة هامة هي أنه لا يكفي أن تكون الدولة قوية في إدارتها فقط، وإنما يجب أن تنسجم هذه الإدارة مع المفاهيم الشرعية والقواعد الثابتة في كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ.

فكتب رحمه الله كتابيه الحسبة والسياسة الشرعية اللذين ضمنهما الكثير من آرائه حول حقوق الراعي والرعية، وكيف

(١) استمرارية الدعوة: ص ٩٤.

قامت الدولة الإسلامية، ونظام الشورى، ونظام الحسبة، ومحاربة الرشوة التي كانت منتشرة في عصره بين موظفي جهاز الدولة^(١).

ولتحقيق هدفه هذا بادر بإقامة علاقات متينة مع السلطان، فوجده وأرشده، وبين له بعض ما خفي عليه، وطالبه بإصلاح ما أفسده الولاة والأمراء، وتولى بعض التغييرات بنفسه، أو أزال المنكر بيده^(٢).

- سعيه لإقامة حكومة قوية:

وفي سبيل ذلك أقام أيضاً علاقات قوية مع أمراء المماليك، والسلطان الناصر، وحاول إقناعهم بمنهج الكتاب والسنّة في الحكم، حتى قيل في عدد منهم أنهم من تلاميذه وأتباعه أمثال:

زين الدين كاتوبيغا المنصوري الذي كان حاكم حماة، وأرغون الناصري الذي تولى منصب نائب السلطان في مصر وحلب ودمشق، والأمير سلار نائب السلطان الناصر، والأمير حسام الدين مهنا ابن عيسى الطائي ملك العرب، الذي أخرج شيخ الإسلام من السجن سنة ٧٠٧هـ معظماً له ومكرماً، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي عاد للسلطنة سنة

(١) استمرارية الدعوة: ص ٩٤-٩٥، دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨٦/١.

(٢) استمرارية الدعوة: ص ٩٥.

٧٠٩هـ بعدهما قتل الجاشنكير الجركسي، وكان أول عمل له إطلاق سراح ابن تيمية من مقاهي الإسكندرية^(١).

٥ الجانب الاقتصادي:

فبعد أن تراجع التيار، وكان قد انتشر في عهدهم كثير من المفاسد تولى شيخ الإسلام محاربة الفساد بنفسه، حيث لم يكن في دمشق حاكم ولا مسؤول من قبل السلطان فنصب نفسه حاكماً في البلاد، وتولى قطع دابر هذا الفساد، وكانت الحانات قد انتشرت، والخمارات قد شاعت، وكانت تلك الحانات، وهذه الخمارات من أهم الموارد المالية للحاكم السابق، ولكن ابن تيمية لم يقرها مهما كانت تدر من الأموال فإنها أموال محرمة لا تصلح أن تكون مورداً لبيت مال المسلمين، فقام ومن معه من المتطوعة بإغلاق الحانات، وتكسير أواني الخمر، وإراقة الخمور، ولو أدى ذلك إلى حرمان الدولة من مصدر مهم من مصادر تمويلها^(٢).

وكان سكان جبال الجرد وكسروان قد ساعدوا التتر على غزو الشام ولما رجع جيش الشام مهزوماً انقضوا عليه، وسلبوا ما كان معه من الأسلحة والأموال والخيول، وقتلوا كثيراً من

(١) دعوة شيخ الإسلام: ١/٨٦، ٨٧، ٢٧٧، ٥/٦، ١٩، ١١٢، ١٣٤.

(٢) رجال الفكر والدعوة: ٢/٥٤، ص ٩٥، استمرارية الدعوة.

المسلمين ولما هدأت الأحوال، عزم ابن تيمية على تأديب هؤلاء الفسقة المتمردين، فخرج في خلق كثير من المتطوعة والحوالنة، واقتحموا عليهم بلادهم، واستتاب رؤسائهم وألزمهم برد الأموال التي سلبوها من المسلمين، وفرض عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت مال المسلمين^(١).

وحين توجه التتار إلى بلاد الشام مرة أخرى، ذهبت أحلام الناس، وانخلعت قلوبهم، وبدأوا يفكرون في الهرب والفرار من الشام، نشط رحمة الله في إلقاء الدروس، يثبت الناس، ويزيل الخوف من النفوس، وأخبرهم بأن الفرار عار، وطرح عليهم نظرية اقتصادية أعتقد أنه لم يسبق إليها، وذلك حين قال لهم: إن ما نفقه من أجرة الفرار، لو أنفق على المجاهدين يشترون به السلاح، ويستعينون به على قتال الأعداء، لكان أحب إلى الله، وأعظم أجرأ، وأدعى إلى انتصار المسلمين المجاهدين، فاستقرت النفوس وسكتت الأحوال^(٢).

○ الجانب التربوي والفكري:

ونظراً لأهمية هذا الجانب فقد كشف شيخ الإسلام جهوده لتعزيز مفاهيم الفكر الصحيح، وتوضيح معالمه التي غطى عليها

(١) استمرارية الدعوة: (ص ٩٥-٩٦).

(٢) رجال الفكر والدعوة: ٥٦/٢، استمرارية الدعوة: ص ٩٦.

ران التقليد، وسفسطة المتكلمين، وأصحاب الفرق الضالة، ولذلك اتجه نحو جانبين هامين:

- إصلاح العقيدة وتجديده معالماها:

وقد شغلت هذه القضية جانباً كبيراً من تفكيره، واستحوذت على جهود كبيرة منه، لأنها الهدف الأول لبعثة الأنبياء والرسل، ولأنها تشكل أساس العمل في المنهج الإسلامي، ونظراً لما أصاب صفاء العقيدة من شبه بسبب كثرة التيارات الكلامية التي خاضت فيه بالحق والباطل. ولذلك فقد ركز جهوده على بيان خطأ المتكلمين في معالجة قضيائيا العقيدة من خلال التصور والمنهج، حيث لم يقوموا بواجب بيان أصول العقيدة الصحيحة التي جاء بها الدين ولم يكفوا المسلمين مؤونة الرد على الملحدين، فلا الإسلام نصروا، ولا أعداءه كسروا، ويوضع بالمقابل منهج السلف في إثبات قضيائيا العقيدة لأنهم يتبعون طريقة القرآن في الاستدلال، ويجرون النصوص على ظاهرها اللائق بالحقائق الغيبية من غير تكيف ولا تأويل^(١).

- تجديد العلوم الشرعية من خلال موقفه من الاجتهاد والتقليد:

اعتمد شيخ الإسلام في بداية انطلاقته العلمية على القواعد التي كان يرتكز عليها أهل الحديث في الاجتهاد من خلال التعامل

(١) تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية: ص ٩١-٨٩.

مع الكتاب والسنّة وتقديمهما على غيرهما، ثم فتاوى الصحابة يتخير منها ما يعتقد أنه الأقرب إلى الكتاب والسنّة، ولا يلجم إلى القياس إلا عند الضرورة وحين يفتقد النص الصحيح أو الحسن.

وقد اعتمد في البداية على المذهب الحنفي ونصره على غيره حين رأه الأقرب إلى السنّة والأثر، تأسياً بعائليه وأبائه وأجداده، ولكنه ما لبث أن شب عن طوق التقليد فانتهى إلى التمسك بمطلق نص الوحي ما دام ثابتاً عن المعصوم، لا يعدل عنه إلى قول أحد كائناً من كان.

وفي دعوته إلى فتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد فقد سلك رحمة الله تعالى منهجاً متزناً نرى ذلك من خلال أقواله حيث قال رحمة الله:

«وتقليل العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور»^(١).

ويقول رحمة الله:

«واتباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ له ليس هو مما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق.

(١) مجمع الفتاوى: ٢٦٢/١٩.

بل كل أحد عليه أن يتقي الله ما استطاع، ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله، فيفعل المأمور، ويترك المحظور، والله أعلم^(١).

ويوضح الأسباب أو المبررات التي تبيح التقليد للأئمة فيقول رحمة الله:

«لما كان من الأحكام ما لا يعرفه كثير من الناس، رجع الناس في ذلك إلى من يعلمهم ذلك، لأنه أعلم بما قاله الرسول ﷺ وأعلم بمراده، فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول ﷺ، يبلغونهم ما قاله ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم، وقد يخص الله هذا العالم من العلم والفهم ما ليس عند الآخر، وقد يكون عند ذلك مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا»^(٢).

وعن اتجاهات الناس ومذاهبهم في الاجتهاد والتقليد يقول رحمة الله:

«من غالبة المتكلمة والمتفقهة من يوجب النظر والاجتهاد في المسائل الفرعية على كل أحد حتى على العامة، وهذا ضعيف، لأنه لو كان طلب علمها واجباً على الأعيان، فإنما يجب مع القدرة.

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠٩/٢٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٢٤/٢٠.

والقدرة على معرفتها من الأدلة التفصيلية تتعذر أو تتعسر على أكثر العامة.

وبإزائهم من اتباع المذاهب من يوجب التقليد فيها على الجميع من بعد الأئمة: علمائهم، وعوامهم والذى عليه جماهير الأمة أن الاجتهد جائز في الجملة، والتقليد جائز في الجملة، لا يوجبون الاجتهد على كل أحد، ويحرمون التقليد ولا يوجبون التقليد على كل أحد، ويحرمون الاجتهد وأن الاجتهد جائز للقادر على الاجتهد، والتقليد جائز للعجز عن الاجتهد»^(١).

وقد اختار رحمة الله أن ينطلق مع الدليل حيث كان، ويدور مع نصوص الكتاب والسنّة في العقائد والأحكام حيث دارا، من دون أن يتقييد بمذهب معين، وصرح بذلك قائلاً:

مع أني في عمري إلى ساعتي هذه، لم أذع أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنفي وغير حنفي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها. وقد قلت لهم غير مرة: أنا أمهل من يخالفني ثلاثة سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقر بذلك، وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بالفاظهم، وبالفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف»^(٢).

(١) مجمع الفتاوى: ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) مجمع الفتاوى: ٣/٢٢٩.

وفي سبيل تحقيق ذلك عقد الدروس، وفتح المدارس، وألقى المحاضرات، وأفسح المجال للعقل للبحث وتناقش، وتطرق باب الاجتهد المغلق لتفتحه، وتبليغ فيه أقصى ما يمكن أن يبلغه العقل البشري من النتائج، مع أنه حدد لهذا العقل دوره وزنه في الشرع، في وقت غالى أناس في العقل فجعلوه الأصل، والشرع تابعاً، وأهمل أناس العقل ولم يقيموا له وزناً، وفي ذلك يقول رحمة الله:

«العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك، فهو غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار».

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكتها، وإن عزل بالكلية: كانت الأقوال والأفعال مع عدمه: أموراً حيوانية، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق كما قد يحصل للبهيمة فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما لم يعلم بالعقل امتناعه.

لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوائزها، وامتناعها، لِحُجَّ عقلية بزعمهم اعتقادوها حقاً، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به.

والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال، وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم.

وقد يقترب من كل من الطائفتين بعض أهل الحديث: تارة بعزل العقل عن محل ولايته، وتارة بمعارضة السنن به^(١).

٥ الجانب العسكري والجهادي:

وقد أولى شيخ الإسلام رحمة الله هذا الجانب اهتماماً كبيراً، نظراً لما كانت تتعرض له الأمة الإسلامية من هجمات متواتلة من التتار، والصلبيين، وحلفاءهم من أهل الجبل والنصيرية، فقد حث على الجهاد، ورَغَبَ فيه، وبيَّنَ أجر المجاهدين، وما أعده الله للشهداء من النعيم المقيم، وقد ذكرت جانباً كبيراً من حثه على الجهاد في كتابي الذي قمت فيه بتحقيق ثلاثة رسائل في الحث على الجهاد لشيخ الإسلام ابن تيمية بالمشاركة مع أحد الأخوة الأحبة جزاه الله خيراً، ومن خلال الممارسة الميدانية التي قام بها بنفسه ومعه جماعة من المتطوعين من تلاميذه ومحبيه ومن تلك الإنجازات التي حققها في هذا الميدان:

(١) مجمع الفتاوى: ٣٣٨ - ٣٣٩ / ٣.

٥ الحيلولة بين قازان ودخول دمشق، وتخليص الأسرى المسلمين من أيدي أتباعه من التتار، وجرأته في مخاطبته وذلك في عام: ٦٩٩هـ:

وها هو الشيخ ابن الأنجا الذي رافق ابن تيمية رحمهما الله، وحضر معه إلى قازان يتحدث عن هذا اللقاء فيقول:

«كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرُبَ أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته، مُصَحَّ لما يقول، شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة، سأله من يخصه من أهل حضرته؟ من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انتقاداً مني لأحدٍ منه، فأخبرَ بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل».

فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضي وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدك كانوا كافرين، وما عملاً الذي عملت: عاهداً فوفياً، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت بما وفيت وجُرْت».

فخرج من بين يديه مكرماً معززاً قد صنع له الله بما طوى

عليه نيته الصالحة من بذلك نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، فبلغه ما أراده. وكان ذلك أيضاً سبباً لتخلص غالب أسرى المسلمين من أيديهم، وردهم على أهلهم وحفظ حريتهم، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات، وقوة الجأش.

وكان يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلاً شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولادة، فقال: لو صحت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك^(١).

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس: أنهم لما حضروا مجلس قازان، قدم لهم طعام فأكلوا منه، إلا ابن تيمية: فقيل لم لا تأكل؟ فقال: كيف أكل من طعامك، وكله مما نهبتهم من أغنام الناس طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد في سبيلك فأأن تؤيده وتنصره، وإن كان للملك والدنيا، والتکاثر فأأن تفعل به، وتصنع، فكان يدعو عليه، وقازان يؤمن على دعائه، ونحن نجمع ثيابنا خوفاً أن يقتل فيطرطس بدمه، ثم لما خرجنا قلت له: كدت تهلكنا معك، ونحن ما نصحبك من هنا. فقال: وأنا لا أصحبكم، فانطلقنا عصبة،

(١) الأعلام العالية: ص ٧٠-٧٢، الكواكب الدرية: ٢٥-٢٦، عن ابن تيمية للندوي

وتأخر فسمعت به الخواتين والأمراء، فأتواه من كل فج عميق، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا ببرؤيته، فما وصل إلا في نحو ثلاثة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة فسلحونا^(١).

- لما جاوز قازان المغولي بجيشه الفرات عام ٧٠٠هـ، وقصد حلب وأخذ الناس يتذرون البلاد طلباً للنجاة من شراسة المغول، قام شيخ الإسلام بحث الناس على الجهاد واجتمع بالأمراء، وذهب إلى القاهرة، يسأل السلطان محمد بن قلاوون الدفاع عن الشام، وقال لهم فيما قال:

- إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام^(٢).

- وفي عام ٧٠٢هـ حين جاء التتار مرة ثالثة، كان شيخ الإسلام في الصف الأول من المعركة، وقاتل قتال الشجعان الكبار، ووضع نفسه موضع الموت في ميدان المعركة، وأصدر فتوى بالإفطار للمقاتلين، وكان لوجوده الأثر الكبير في الانتصار في معركة شقحب^(٣).

(١) المرجع السابق.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/١٥، شذرات الذهب: ٥/٤٥٥.

(٣) شذرات الذهب: ٦/٤، البداية والنهاية: ١٤/٢٥٢٦.

- ومن ذلك قتاله لطائفة النصيرية أهل الجبل وكسروان في عامي ٦٩٩هـ و٧٠٥هـ الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين والمغول، فاستتاب خلقاً منهم، وألزمهم شرائع الإسلام، وقد حصل بسبب حضوره هذه الغزوة خير كثير، وأبان عن علم وشجاعة لا نظير لها، وقد امتلأت قلوب حساده غماماً وهماً^(١).

○ الجانب الأخلاقي:

فقد كان يبحث أصحابه على التحلية بأخلاق الإسلام من الصفح والعفو ومعاملة الناس بالحسنى، والحرص على وحدة جماعة المسلمين، واتلاف قلوبهم، واتحاد كلمتهم، وقد ذكرت طائفة من أقواله فيما سبق عند حديثي عن حرصه على وحدة الجماعة، وممارسته الجانب السلوكى الإسلامي في تعامله مع الآخرين وصفحه وتسامحه مع من آذوه، ورفضه أن يؤذى أحد من المسلمين بسببه.

كان هذا الشمول في منهجه رحمة الله دليلاً على ما وبه الله عزّ وجلّ من بعد النظر، ودقة الفهم، ورحابة الأفق، وعلى أنه كان بجدارة مجدداً للقرن الثامن الهجري».

(١) البداية والنهاية: ١٤/٣٥.

وبعد حديثنا عن هذا الجانب من جوانب منهجه الإصلاحي والدعوي أكون قد أبرزت أهم جوانب منهجه الدعوي والإصلاحي، والله أعلم.

ب - العمل الجماعي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وموقعهما في منهجه الإصلاحي:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو جوهر العبادة حيث أن التعريف الشامل للعبادة هي كل ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأفعال، وبالتالي فهي الهدف الذي خلق الله الإنسان من أجله، وهي الأمانة التي عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها وحملها الإنسان، ولما للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهمية فقد احتل مكاناً بارزاً في منهجه الدعوي، وسابرزاً هذه الأهمية من خلال كلامه وموافقه، وأوضح أبرز مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنده وهو العمل الجماعي:

- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال رحمة الله:

«إن كان صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتَ لِلنَّاسِ﴾

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: «وَلَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» [آل عمران: ١٠٤] وقال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِعِظَمٍ أَوْلَيَّاهُ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» [التوبه: ٧١] وقال تعالى عن بني إسرائيل: «كَانُوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوا لِتَسْكُنَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [المائدة: ٧٩] وقال تعالى: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَبَنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيْسِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ» [الأعراف: ١٦٥]، فأخبر الله تعالى أن العذاب لما نزل نجى الذين ينهون عن السوء، وأخذ الظالمين بالعذاب الشديد^(١).

وقال رحمة الله:

«فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِتَّمَامُهُ بِالْجَهَادِ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمْرَنَا بِهِ، وَلِهَذَا قِيلَ: لِيَكُنْ أَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ غَيْرُ مُنْكَرٍ.

وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ٣٠٦/٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٢٦/٢٨.

وعن مراتبه يقول رحمة الله:

«وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد، فاما القلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: (وذلك أدنى - أو - أضعف الإيمان) .. وهنا يغلط فريقان من الناس:

فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلاً لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه في خطبته: إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿عَيْتُكُمْ أَنْسَكْتُمْ لَا يَصْرُكُمْ مَنْ حَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإنني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه. والفريق الثاني: من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقاً، من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر.

فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع في ذلك الله ورسوله، وهو معتد في حدوده»^(١).

- آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال رحمة الله:

«فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨ / ١٢٧ - ١٢٨.

بد من العلم إلى المأمور والمنهي، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود.

ولا بد في ذلك من الرفق كما قال النبي ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا كان العنف في شيء إلا شانه»^(١) وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»^(٢).

ولا بد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فإنه لا بد أن يحصل له أذى. فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه: «وَأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» [لقمان: ١٧]. ولهذا أمر الله الرسل. وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالصبر.. فلا بد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر.

العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً في هذه الأحوال.

وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف وروروه مرفوعاً، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان: فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيناً

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٩٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٠٢٤، ومسلم: ٢١٦٥.

فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه، حليناً فيما يأمر به، حليناً فيما ينهى عنه».

- العمل الجماعي مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن العمل الجماعي مطلوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي في أمور الدعوة إلى الله عز وجل، ولا يسع الفرد المسلم إلا أن يعمل مع جماعة مؤمنة لاعلاء كلمة الله تعالى ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله:

«يجب أن يعرف أن ولادة أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ: إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» رواه أبو داود، من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة^(١).

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم» فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن

(١) مجمع الفتاوى: ٢٨ / ١٣٦ - ١٣٧.

الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة^(١).

ـ حث الإسلام على العمل الجماعي في كل الأمور:

وأفضل الأعمال - في كل الأمور - ما كان جماعياً فصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد، والحج لا يكون إلا مع جماهير المسلمين، والجمعة لا تصح إلا في جماعة، ومع أن المحاسبة على الطاعات والمعاصي فردية، إلا أن الفضل والثواب يزداد فيها عند عملها مع جماعة، مما يدل على فضل الجماعة في الإسلام، والنظر الدقيق لجميع العبادات في الإسلام يجد المنحى الجماعي فيها واضحاً، وأمر الجماعة أوسع من أن يكون في العبادات فقط، بل هو سُنة الله في خلقه، وهو أمر تدعوه له مصلحة الدين والدنيا، ولذلك كانت الروح الجماعية واضحة في المعاملات والعادات^(٢) وفي توضيح أهمية العمل الجماعي في كل الأمور يقول شيخ الإسلام رحمة الله:

ـ «وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدنى

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/٣٩٠.

(٢) مسافر على طريق الدعوة: ص ٦٦.

بالطبع، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطينين للأمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بنى آدم «لا بد لهم من طاعة آمر وناء»^(١).

ويقول رحمة الله:

«ولهذا أمر النبي ﷺ أمه بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى، ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»... فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولي أحدهم: كان هذا تنبئهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك»^(٢).

- الإمارة ركن من أركان العمل الجماعي:

والجماعة لا تتحقق إلا بأمير أو قائد، وقد جرت سُنّة الله تعالى في كل خلقه بذلك، وذكرت أقوال شيخ الإسلام في تولية ولاة الأمور على الناس ووظيفتهم في إقامة العدل بينهم، وإذا كانت هذه القضية سُنّة كونية في سائر الخلائق من قطعان الماشية

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/٦٤-٦٥.

التي تقاد خلف واحد منها، وأسراب الأسماك في البحر، والطيور في الهواء، والنحل، والنمل وكيف ترتب إجراء مصالحها وهي في جماعاتها وأسرابها بناء على هذه السنة، فلا بد أن تجري هذه السنة الكونية على البشر بكل أجناضهم ومذاهبهم، إذ لا بد من التعاون والتناصر، ولا بد لهذا من أمر ونهي اللذين هما ركن الإمارة ومقصد التأمير، وفي ذلك يقول رحمة الله: «وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهي، ولا بد أن يأمر وينهي، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهَا، إما بمعرفة وإما بمنكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ...﴾ [يوسف: ٥٣] وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر، وتناه عن أمر، ولهذا كان أقل الجماعة في الصلاة اثنين، كما قيل: الاثنين فما فوقهما جماعة:.. وأما الأمور العادية ففي السنن أنه رض قال: «لا يحل لثلاثة يكونون في سفر إلا أمروا عليهم أحدهم»^(١).

ـ الطاعة ركن العمل الجماعي الثاني:

إذا كانت الإمارة هي الأساس لفكرة العمل الجماعي والجماعة، فلا مبرر لوجودها ما لم يكن لها طاعة، والطاعة في الشريعة لا تكون إلا في المعروف، ولقد جاءت الأحاديث

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨ / ١٦٨ - ١٦٩.

مستفيضة في وجوبها سواء أكانت في السفر الحقيقي كما وردت، وتقاس عليها الأعمال الدعوية لتحقيق طاعة الله تعالى، أم ما ورد في غيره حتى تجري جميع الأمور على نسق واحد، ورأي واحد، ومع هذا فقد وردت الآيات والأحاديث في طاعة الأمير ووجوبها صراحة في الأعمال الدعوية.

يقول رحمة الله تعالى في ذلك:

«أولوا الأمر: أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولوا الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأحمسية لما سأله: ما بقاونا في هذا الأمر؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم، ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان، وكل من كان متبعاً فإنه من أولي الأمر، وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وعلى كل واحد من عليه طاعته أن يطيعه في طاعة الله، ولا يطيعه في معصية الله»^(١).

○ شيخ الإسلام يقود عملاً جماعياً ويمارس العلم الجماعي:
وكل من يدرس بإمعان سيرة شيخ الإسلام رحمة الله سيجد

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨٠ / ١٧٠.

أنه لم يكتف بالتنظير ووضع الأسس الشرعية للعمل الجماعي، وبيان محاسنه وفضائله، وحث الإسلام عليه، بل سيجد أنه كان قائد جماعة تلتزم بأمره، وتعمل بمشورته وتصدر عن رأيه، وتعيش معه سراءه وضراءه، وياخذها الظلمة بما ينقمون على الشيخ، وتحارب تحت لوائه، وتتوacial معه بكل أنواع الصلات^(١) والدليل على ذلك ما كتبه شيخ الإسلام وهو في سجن الإسكندرية في رسالته التي أرسلها إلى جماعته حيث يقول فيها:

«وَأَنَّا يَنْعَمُ بِرَبِّكَ فَحَدَّثَ» [الضحى: ١١]، والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي الآخرة وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة فإني - والله العظيم الذي لا إله إلا هو - في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى أبواب فضله، ونعمته وخرائن جوده، ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال... الخ^(٢) وبعد أن يسترسل الشيخ ما بين نعم الله على العبد المؤمن إذا ابتلاه يقول:

«وأنا في هذا المكان أعظم قدرًا وأكثر عدداً ما لا يمكن حصره، وأكثر ما ينقص على الجماعة!! فأنما أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعم ما تقر به أعينهم، وأن يفتح لهم من

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي لعبد الرحمن عبد الخالق: ص ٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨ / ٣٠.

معرفة الله وطاعته والجهد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات..»^(١).

ويقول رحمة الله:

«والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير كثير، ونحن بحمد الله في زيادة من نعم الله وإن لم يمكن خدمة الجماعة باللقاء فأنا داع لهم بالليل والنهار، قياماً ببعض الواجب من حقهم، وتقرباً إلى الله تعالى في معاملته فيهم»^(٢).

ثم يوجه إليهم رحمة الله لا أقول موعظته بل (أوامره) على حد تعبيره حيث قال:

«والذى آمر به كل شخص منهم أن يتقي الله ويعمل الله مستعيناً بالله، مجاهداً في سبيل الله، ويقصد بذلك أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله الله، ويكون دعاؤه وغيره بحسب ذلك، كما أمر الله به ورسوله»^(٣).

- جماعة الشيخ تمارس تغيير المنكر باليد أحياناً:

يقول الحافظ ابن كثير رحمة الله في أحداث سنة (٦٩٩هـ)
(وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب أعيدت الخطبة بدمشق

(١) مجموع الفتاوى: ٤١ / ٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤٤ / ٢٨.

(٣) مجموع الفتاوى: ٤٤ / ٢٨، ٤٥-٤٤، شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي: ص ٩-١٠.

لصاحب مصر، ففرح الناس بذلك، وكان يُخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء.

وفي بُكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمة الله، وأصحابه على الخمارات والحانات، فكسروا آنية الخمور، وشققا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، وفرح الناس بذلك»^(١).

وهذا نص واضح أن الشيخ رحمة الله كان يخرج هو وأصحابه فيكسرون آنية الخمور، ويشققون الظروف (وهي القرب وأمثالها التي فيها) ويريقونها، وأنهم كانوا يعزرون أصحابها، والتعزير يقتضي الضرب ونحوه، فأي مثال أبلغ من هذا أنه كان للشيخ جماعة وأنصار وأصحاب وأعوان يقتدون بفعله ويأترون بأمره.

ولا شك أنه لم يكن كل الناس موافقين لما يقوم بهشيخ الإسلام، وإلى أنه مجرد عالم محتسب ليس موظفاً عند الدولة، ولا هو تابع لأحد الأمراء، فكيف يمارس هذه السلطات ولذلك حسده الكبير من المشايخ العاطلين عن العلم والفضل والعمل، وكذلك الأوباش من أهل الفسق ثاروا عليه كما يروي ابن كثير (في أحداث عام ٧٠١هـ) حيث قال:

«وفي هذا الشهر (شوال) ثار جماعة من الحسدة على

(١) البداية والنهاية: ١٤/١١.

الشيخ تقي الدين وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزز ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكوا منه ذلك، وبين خطأهم، ثم سكنت الأمور»^(١).

وفي هذا النص دليل على أن الشيخ رحمة الله كان يرى مشروعية إقامة الحدود، وتعزيز الخارجين على حكم الكتاب والشّرعة، ولا شك أن الشيخ رحمة الله كان يفعل ذلك مستنداً إلى قبوله لدى عامة الناس، وإلى جماعته وكثرة أتباعه، وكذلك إلى هيبته عند بعض ذوي السلطان ممن كانوا على مذهب أهل الشّرعة والجماعة أو يميلون إلى ذلك»^(٢).

- بعض مواقفه في تغيير المنكر:

وسأذكر فيما يلي بعض مواقفه في تغيير المنكر على سبيل الاختصار:

- فمن ذلك أن شيخ الإسلام استحضر محمد الخباز البلاسي، فاستتابه عن أكل المحرمات، ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً أن لا يتكلم في تعبير المنامات ولا في غيرها مما لا علم له به، وكان ذلك في سنة ٧٠٤هـ^(٣).

- ومن ذلك أنه في رجب من سنة (٧٠٤هـ) أحضر إلى

(١) المصدر السابق: ١٤/١٩.

(٢) ابن تيمية والعمل الجماعي: ١٣-١٤.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/٣٣.

الشيخ تقي الدين بن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بقطع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب، وقطعوه حتى لم يدعوا منه شيئاً، وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلم أظفاره وكانت طوالاً جداً، وحف شاربه المسيل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة، وما لا يجوز من المحرمات وغيرها.

- ومن ذلك في هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى مسجد النارنج، وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة هناك بنهر قلوط تُزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها، ومن الشرك بها، فأراح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً^(١).

- ومن ذلك تكسيره لأصنام الباب الصغير في «дорب النافدانيين»، وচنم قبة اللحم، وচنم فراش الطاحون، وচنم «حجارين حجر» وغير ذلك مما أزاح عن صدور المسلمين شبهات كادت تفتك بآيمانهم وعقيدتهم^(٢).

(١) البداية والنهاية: ١٤ / ٣٣ - ٣٤، ناحية من حياة شيخ الإسلام: ص ١٧، ذيل طبقات الحفاظ: ص ٢٠١.

(٢) لمعرفة تفاصيل ذلك انظر: ناحية من حياة شيخ الإسلام: ص ١٠ - ١٩، شذرات الذهب: ٩/٦، وغيرها.

- ومن ذلك مناقشته لطائفه الأحمدية وإنكاره عليهم ما يأتون به من البدع والخرافات، والحيل والبهتان حتى قال الشيخ صالح المنبيج: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع، وقد ألموا أحكام الشرع وعدم الخروج عن الكتاب والسنّة، وأظهر الله السنّة على يديه وأحمد بدعتهم والله الحمد والمنة^(١).

- ومن ذلك توسطه لدى السلطان ليبطل ما ضرب على أهل الشام من ضرائب على الأماكن والأوقاف، فتألم الناس لذلك تألماً عظيماً، فأخبر شيخ الإسلام السلطان بذلك وتوسط لإلغاء الضرائب وعزل الوالي ففعل السلطان ووافق على وساطة شيخ الإسلام^(٢).

وغير هذه المواقف كثير في حياته رحمه الله تعالى وأحسن مثوبته.

ج- مواصفات الداعية الناجح ومدى انطباقها على شيخ الإسلام ابن تيمية:

إن الدعوة إلى الله تعالى ومنهجه القويم، مهمة كلف الله تعالى بها الممتازين من البشر، والموهوبين من الخلق، ولا يقوى

(١) البداية والنهاية: ٣٥/١٤.

(٢) البداية والنهاية: ٦٢/١٤.

على تحملها إلا عظماء النفوس، ورجحاء العقول وأقوياء الهمم والعزائم، ولذلك فقد كانت مهمة الدعوة إلى الله مهمة الأنبياء والمرسلين وورثتهم الشرعيةين من أهل العلم والخير والفكر والرشاد، ونحوهم من أصفاء الخلق، لأن رسالة الدعوة إلى الله بهذه الخطورة، وتميز بهذه الأهمية العظيمة فقد كان من البدهي أن يتتصف من يقوم بها من الدعوة بصفات تؤهلهم للقيام بهذا الدور وأدائه بشكل ناجح، والسير بدعاة الله إلى الأمام.

ولا شك أن شيخ الإسلام قد نال من هذه الصفات حظاً وافراً، أهله ليكون نموذجاً حياً للدعاة إلى الله في عصر الركود الفكري والجمود الديني، وفي هذا الجانب نجد في ابن تيمية شخصية عريضة المعالم، عميقة الغور، صنعها الله على عين الإسلام في بدئه غريباً، وفي قوته مؤيداً رهيباً، وفي سماحته رغيباً أريضاً، وفي عدله حكيمًا لبياً، وفي رحمته مواسياً حبيباً، وفي آدابه وشرائعه معلماً نجياً^(١).

ومن أبرز تلك الصفات التي أهله لذلك:

١ - قوة الصلة بالله تعالى:

إن الصلة بالله تعالى تعد الدعامة الأولى في أخلاق الدعاة،

(١) ابن تيمية نموذج من دعاء الإصلاح: محمد صادق عرجون/مجلة الوعي الإسلامي السنة الثامنة/عدد ٨٨/ص ٦٤.

والمرتكز الركين الذي ينطلقون منه في حركتهم بدعوتهم، وهذا يقتضي معرفة حسنة به سبحانه وتعالى، لأن المعرفة الصحيحة بالله تعالى هي أساس الدعوة، فكلما ضعفت معرفة الداعية بالله تعالى لم يمكنه ذلك من تحمل تكاليف الدعوة إلى الله، ولنلق نظرة على حياة شيخ الإسلام لنتشسف من خلالها هذا الجانب الذي ظهر فيه بقوه.

فرغم انشغال ابن تيمية رحمه الله الدائب في مدارسة العلم، وعمله المتواصل في تربية الناس وإصلاح ما فسد من أحوالهم، وجهاده المتواصل بقلبه وقلمه ولسانه ويده عن حياض الإسلام، فقد كان دائم الصلة بربه عز وجل، حتى كان إذا أغلق عليه فهم مسألة، أو غاب عنه رؤية الحق فيها، يذهب إلى مسجد مهجور، ويضع جبهته على التراب ويردد قوله: «يا معلم إبراهيم فهمني»^(١).

وكان يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل علي، فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر، وينحل الإشكال، قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار حتى أتال مطلوبني»^(٢).

(١) العقود الدرية: ص ٢٦.

(٢) العقود الدرية: ص ٦٥.

فهذه الحالات الروحية السامية هي التي كانت تجعله يشعر دائمًا بأنه في كنف الله، وهي التي كانت تسيطر على حياته كلها حتى يرى أن اللذة الحقيقة، والفرحة الدائمة، والسرور الذي لا ينقطع، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى، وتوحيده والإيمان به، وافتتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية.

يقول رحمة الله:

«إِنَّ اللَّهَ وَالْفَرَحَ وَالسُّرُورَ وَطَيْبَ الْوَقْتِ وَالنَّعِيمِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَانْفَتَاحِ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْمَعْرُوفَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الشِّيُوخَ: لَقَدْ كُنْتَ فِي حَالٍ أَقْوَلُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَنَّهُمْ لَفِي عِيشٍ طَيْبٍ، وَقَالَ آخَرُ: لَتَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ أَوْقَاتٍ يَرْقُضُ فِيهَا طَرَبًا، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشَبِّهُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ، إِلَّا نَعِيمٌ الْإِيمَانُ وَالْمَعْرِفَةُ»^(١).

وكان يقول:

«وَلَيْسَ لِلْقُلُوبِ سُرُورٌ وَلَا لَذَّةٌ تَامَّةٌ إِلَّا فِي مَحْبَةِ اللَّهِ، وَالْتَّقْرِبِ إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّهُ، وَلَا تَمْكِنُ مَحْبَتَهُ إِلَّا بِالْاعْرَاضِ عَنْ كُلِّ مَحْبُوبٍ سُواهُ، وَهَذَا حَقِيقَةٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢).

(١) مجمع الفتاوى: ٢٨/٣١.

(٢) مجمع الفتاوى: ٢٨/٣٢.

وكان رحمة الله يرى أن هذه المحبة هي جنة الدنيا ونعمتها، وأن من حرم هذه الجنة لم يدخل جنة الآخرة، فكان يقول: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة^(١).

ولهذا لم يكن يعبأ بالسجن، ولا يجزع من الحبس، بل كان يرحب به إذا حصل، لأنه يفرغه للعبادة والذكر، والاجتهاد في التبتل والخشوع، وكان يعتقد أن المحبوس حقيقة هو المحبوس عن ذكر الله، ويقول في ذلك: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه^(٢).

ولأهمية الصلة بالله تعالى في منهج الدعوة إلى الله فقد كان شيخ الإسلام يراعيه في نفسه ويأمر به جماعته وتلاميذه، فقد قال الحافظ الذهبي رحمة الله في وصف شيخ الإسلام.

«إنه دائم الابتهاج، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية»^(٣).

ولهذا كان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة.

(١) الوابل الصيب: ص ١٠٥.

(٢) الوابل الصيب: ص ١٠٥.

(٣) العقود الدرية: ص ١١٨.

٢- الاستبحار العلمي والثقافي:

ومن تلك الصفات التي أهلته ليكون نموذجاً يحتذى في الدعوة إلى الله، الاستبحار العلمي وسعة الاطلاع، فقد تميز رحمة الله بسعة معارفه في جميع فنون المعارف التي كانت معروفة في عصره، وكان كثير منها قد استوى في ذرotope ونضجت مباديه وأصوله، فقرأها وهضمها، ونقداها وزيف الباطل منها، وانفع بما فيها من حق وخير.

ولقد صادف ذلك عنده تبحره في علوم الإسلام والערבية بما لم يعرفه التاريخ العلمي في الإسلام لفرد غيره، منذ أن قام بنهاضته الإصلاحية داعياً إلى الله، مبلغاً رسالة الإسلام كما فهمها من الكتاب والسنّة وأقاويل الصحابة والتابعين، وقد اعترف بفضله وقوته في العلوم والمعارف، الفطاحل من معاصريه الذين كان لهم في مجال الفكر الإسلامي القدح المعلى، والذين تعتبر شهادتهم مفخرة في حياة هذا الإمام الداعية المجاهد، يقول فيه الإمام ابن دقيق العيد، وكان قد اجتمع به وسئل عن هـ (رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريـد) ويقول عنه ابن سيد الناس: (كاد يستوعب السنن والأثار حفظاً، أن تكلـم في التفسير فهو حامل رايـته، أو أفتـى في الفقه فهو مدرك غـايـته، أو ذاـكر في الحديث فهو صاحـب علمـه ودرـايـته، أو حـاضـر بالـمـللـ والنـحلـ لم تـرـ أوسـعـ من نـحلـتهـ في ذلكـ ولا أـرفعـ من دـلـالـتهـ، بـرـزـ

في كل علم على أبناء جنسه، ولم تر عين من رأه مثله، ولا رأت عيناه مثل نفسه) ويقول فيه الزمل堪اني: (كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه من قبل، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبيين إليه»^(١).

والحق أن الاستبحار العلمي والفكري والثقافي المطلوب بقوة وإلحاح يرتكز على القواعد المعرفية التالية بشكل أساسى:

- المعرفة الحسنة بعلوم الكتاب والسنّة.
- الاطلاع على التاريخ الإسلامي والإنساني.
- دراسة اتجاهات علوم النفس وفروعها المتعددة.
- الاطلاع على علوم الكون والجغرافية والحياة.
- التعرف الوعي على شتى المذاهب الفلسفية.
- الإمام بعلوم اللغة والأدب العربي.

(١) من نماذج الدعاة لمحمد صادق عرجون/ مجلة الوعي الإسلامي / عدد ٨٨ / السنة الثامنة / ص ٦٨.

وقد أُوتى شيخ الإسلام رحمة الله منها حظاً وافراً، وقد ذكرنا الكثير عن معارفه وعلومه في ثنايا هذا الكتاب بما يغني عن إعادة بعضه هنا.

٣- الإخلاص للفكرة والمبدأ:

إن الإخلاص الكامل للمبدأ هو سر نجاح وتألق الدعوات والحركات الإصلاحية، وذلك لأن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحث، فيجعلانه عبادة مقبلة، وأن خبث الطوية يهبط بالطاعات المحسنة فيقلبها إلى معاصي شائنة فلا ينال المرء منها بعد التعب في أدائها إلا الفشل والخسائر.

وقد ذكرت في أخلاقه وسجاياه في سجية وخلق الإخلاص، علامات كثيرة تدل على مدى صفاء قلبه، وإخلاصه في دعوته، فقد كثر خصومه واشتد عليه منهم الأذى، وبلغوا منه في محنته كل مبلغ إلا أن يسكنوه عن قوله الحق جهيرة مسومة، وكثيراً ما تمكّن من رد عدوائهم عليه، ولكنه يكرم ولم يؤذ أحداً منهم بل إنه كان يدافع عنهم، ويلتمس لهم الأعذار، وقد كتب إلى جماعته وتلاميذه يحذّرهم أن يصيّب أحداً من آذوه سوء منهم، وبين لهم شدة محبيه لهم فقال: «لا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ، أو ظلمه لي وعدوانه عليّ، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل

مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حل من جهتي» بل لقد سما ابن تيمية بنفسه لأرفع المنازل حين أراد السلطان أن يتتصف له من خصومه ويوقع الأذى بهم، إلا أنه دافع عنهم وطلب من السلطان أن يعفو عنهم، وقد أثر هذا الموقف فيهم فعبروا عن ذلك بقول ابن مخلوف رحمه الله: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه، فلم نقدر، وقدر علينا وصفح وحاج عنا».

ولا شك أن هذا من أرفع ما عرف في أخلاق الدعاة إلى الله تعالى، وهو خلق ربّي عليه سيدُنا رسولُ الله ﷺ الطليعة من الرعيل الأول الذين سبقو إلى الإسلام، فاحتملوا الأذى في سبيل عقيلتهم ودينهم^(١).

٤ - الشجاعة والثبات على الحق:

إن الإسلام يمقت الجبن والخوف والتردد، ويمجده الشجاعة والعزم والإقدام، فالرسالات العظيمة والمبادئ الكبيرة لا ينتصر لها، ولا يزيدها وضوحاً وألقاً وإغراء باعتناقها، إلا ذوو الشجاعة والعزم من الناس، وأما الجبن فهو سلوك يذوي بالمبادئ ويدفن الحق تحت الترى، كما أنه يمكن للظلم وما يستتبعه من مآرب خسيسة ونزوّات دنيا وهبوط إنساني.

(١) من نماذج الدعاة/ مجلة الوعي الإسلامي/ عدد ٨٨/ السنة الثامنة/ ص ٩١.

ولقد تميز رحمة الله تعالى بالشجاعة الفائقة، وجرأته في الحق والجهر به، لا يخاف وعيهاً وترهيباً، ولا يتلمظ إلى وعد وترغيب، وصبره واحتماله الأذى مما لم يعرف لأحد سوى أفراد من إبطال الإسلام، فقد عرف هذا الإمام منذ أحسن بالمسؤولية الإيمانية وواجباتها وهو لا يزال في ميزة الشباب أنه مسؤول عن دينه، وأمته التي تخوض المحن والبلايا، فلا بد أن يكون طليعة لها، وقائداً دينياً يقودها إلى طريق عودتها إلى حقيقة إسلامها، تلك الحقيقة التي أصلتها في غمرة المحن والجهالات والأساطير والخرافات، فدرس وبحث وتعقب وتضليل، ونهض ليقوم بالعبء وحيداً، ولداته وأقرانه من حوله رضوا بالمقام في دنياهم، يدفعون عن أنفسهم شر المحن والبلايا سلباً، وحسب الفاضلين منهم أن يحتلوا كراسي التدريس في مدارس العلم المنتشرة في عواصم الإسلام، ولا عليهم أن يكون المجتمع على مستوى ما يدرسون له من علم و المعارف تبيّن حقائق الإسلام وشرائعه، ولكن ابن تيمية أبى أن يكون شغله فقط في التدريس في المدارس والمساجد، لأنه رأى أن دينه يكلفه تكليفاً ويدفعه دفعاً إلى أن يطبق علمه لإصلاح واقع الناس، ولا سيما في عقيدتهم لأن العقيدة هي الأساس لوزن كل عمل يصدر من المكلفين.

وقد شاهد في المجتمع أموراً أنكرها علمه ومعرفته، فجاهر بإنكارها، واشتد في دحض الأباطيل التي كان يراها منسوبة إلى الإسلام، والإسلام منها بريء، واجتهد في أمور ظهر له فيها من اجتهاده مخالفة من سبقه من الأمة، فأعلن ذلك وجاهر به، ولم يبال بصيغات المقلدين المتعصبين، ولا بحقيقة العامة، ولا بيطش الملوك والسلطانين، ولم يتهيب للألقاب والسمعة، ووقف مع اجتهاده يناضل عنه ويجادل الذين يجادلونه، ويقرع الحجة بالحججة، ويرد الشبهة بالدليل مع ثبات جأش، وقوة يقين، لا يهون ولا يستكين، وقد أتعب خصومه، وكانوا من ذوي السمعة العلمية من عصره، وذوي السلطان في الدولة، فعقدوا له مجالس المنازرة فكان يحضرها بمفرده، وكان خصومه كثرة في العدد، وقوة في التناصر بمكانتهم، فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً يتآمرون عليه، وكتبوا مرات يشكونه للسلطان، فحبس وأطيل حبسه، ولكن علمه لم يحبس، فكتب وأعلن عن آرائه، وخرج من الحبس فعاد إلى التدريس، واستشرى الخصم بيته وبين عدد من الطوائف من فقهاء إلى صوفية، إلى فلسفه، إلى شيعة باطنية رافضة، إلى ملاحدة لا يؤمنون بالنبوة والرسالة ولكنهم يتسبون إلى الإسلام، فلما عجزوا عن مجابهته، آذوه وحرضوا عليه الغوغاء فنالوا منه بأيديهم. وأبى على أنصاره ومريديه أن يستبكونا معهم لدفع عدوائهم، وترجمته

مليئة بالقصص والحوادث التي وقعت له بسبب آرائه العلمية، ولكنه خرج منها كلها أشجع ما يكون^(١).

وقد ذكرت طرفاً من مواقفه الشجاعة، وجرأاته في الصدع بالحق والثبات عليه، في أثناء حديثي عن أخلاقه وسجاياه رحمة الله.

٥ - دقة الفهم للدين والفقه بالواقع:

إن الداعية لا يعتبر جاداً وصادقاً في دعوه إن لم يبذل الجهد المطلوب، ويثابر على فهم حقيقة الدين وجوهره، واستيعاب نصوصه ومقاصده على الوجه المرتجي، ويستطيع أيضاً أن يفهم أحوال المدعوين، وأنماط المتغيرات، والمستجدات في حياتهم وواقعهم، لأن المداخل الصحيحة للتغيير واقع الناس لا يكون إلا بدراسة مشاكلهم، وأن يسهم بإخلاص في حل بعض جوانبها، وأن يظهر الداعية همة مشاركة المدعوين همومهم وأعباء ما يعانون من ظروف الحياة وأثقالها، وذلك بقصد صادق وعزم قوية، كي لا يشعر هؤلاء المدعوون بتكلف أو بقلة صدق في سلوك الداعية.

فالداعية الحكيم النابه هو الذي يحسن تشخيص الأدواء والعلل، ثم يضع لها الدواء المناسب من المظان المعصومة،

(١) من نماذج الدعاء/ محمد صادق عرجون/ ص ٨٩-٩٠

فيسوق من الحق الإلهي ما يقوّم العوج الإنساني ببلادة وفقه،
ويرسل من العظات ما يكون دواء حاسماً لما يحسه الناس في
أنفسهم من حيرة واضطراب^(١).

ولقد كان ابن تيمية رحمة الله تعالى ذلك الداعية العالم
المتمتع بدقة الفهم للدين، فقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود
الحديد كما قال ابن الزملکاني، وأُوتى من الفهم والفقه بالواقع
ومشاكل الناس وهمومهم، وعلل واقعهم وأمراضهم، ما جعله
يستطيع تشخيص الدواء الناجع للأمراض الموجودة، ويحسن
تقديم العلاج، فهو قد درس كل المذاهب الكلامية التي استفحلا
خطرها في واقع المسلمين فأفسدت صفاء عقيدتهم، وشغلتهم بما
فتت صفوهم، وفرق كلمتهم، وقد وصل إلى سبر غورها ومعرفة
أسرارها، ورد على كل صغيرة وكبيرة من أباطيلها، وبين زيفها
بالأدلة والبراهين القاطعة، وخلف الكثير من المصنفات التي
عالجت جميع جوانب الحياة الإسلامية، مبيناً عللها وأدواءها،
وقدم العلاج الناجع لها.

٦ - الاهتمام بأوضاع المسلمين ومعايشة الأحداث:

إن الداعية الحق يستحيل أن يعيش في غيبوبة عما يحدث
للمسلمين، ولذلك فإن أوضاع وأحوال المسلمين يجب أن تكون

(١) مع الله: لمحمد الغزالى ص ١٩٥.

من صميم منهجه الدعوي الذي لا يتأثر بالتوازل والمتغيرات، ولقد كانت عين شيخ الإسلام مفتوحة على كل شؤون المسلمين، وعلى ما يعانون في مواطنهم الأصلية، يشاركونهم في آلامهم وأمالهم، يعيش هموم مجتمعه وأحلامه، ويوجّه المسلمين في النساء والضراء، والمنشط والمكره، والعسر واليسر، فهو حين حاصر التتار دمشق عام ٦٩٩هـ خاف أهل البلد وهرب الأماء والحكام والعلماء والأعيان، وأصبحت دمشق بلا قائد ولا نظام، وخرج المجرمون والمفسدون من سجونهم فعاثوا في الأرض فساداً، وهنا وقف ابن تيمية رحمة الله موقف الأبطال الشجعان فجمع كبار من بقي في البلد، واتفق معهم على ضبط الأمور في البلد، وذهب لمقابلة قازان، وطلب منه فك الحصار عن البلد، وأخذ الأمان منه لأهلها.

وما جمعه للمتطوعين وتدربيهم على السلاح، ومشاركته في معركة شقحب، ومتابعته لكثير من الأمور في شتى بلاد المسلمين إلا دليلاً عملياً على ذلك.

٧ - الزهد في الدنيا:

ومن الخصال التي تضع القبول للداعية في قلوب الناس زهده في الدنيا، وتباعده عن طلبها، تباعداً يفرغ فيه عقله وقلبه وجوارحه إلى العلم والمعرفة، ولقد اتفق أهل عصر ابن تيمية على وصفه بالزهد وعدم الطمع بملذات الدنيا، فلم يعرف عنه

أنه اشتغل بعمل من أعمال الدنيا، ليكسب منه مالاً، أو يقتني شيئاً، ولا عرف عنه أنه تولى عملاً من أعمال الدولة، يتقاضى عليه أجراً، ولكنه أعطى حياته وجهده للدعوة إلى الله تعالى، من طريق العلم، يقول صاحب الكواكب الدرية «ما خالط الناس في بيع ولا شراء، ولا معاملة ولا تجارة، ولا مشاركة ولا مزارعة، ولا عمارة، ولا كان ناظراً لوقف، أو مبادراً لمال.. ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً، ولا طعاماً ولا متعاماً، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته - رضي الله عنه - العلم اقتداءً بسيد المرسلين الذي قال «العلماء ورثة الأنبياء والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر»^(١).

د- مجالات عمل دعوة ابن تيمية:

وجد شيخ الإسلام مجالات العمل كثيرة ومتشعبة، ووجد الميدان خالياً من الفرسان وأعداء الله يصولون ويجولون فيه وكل شيء حوله يحتاج إلى إصلاح: العامة في حاجة إلى التربية والتعليم، والعلماء في حاجة إلى التذكير والإيقاظ، والحكام في حاجة إلى الاستنهاض والاستفار، والأعداء من التتار والصلبيين يعيشون في الأرض فساداً، دون أن يجدوا مواجهة أو مقاومة.

(١) من نماذج الدعوة: لعرجون: ص ٩١.

لمس تعدد الميادين، ولكنها لم تفل من عزمه، ورأى انفساح المجالات، ولكنها لم توهن من قوته، وتأكد من شراسة الأعداء ولكنه أصر على المقاومة والتحدي، وهو موقن أن الله لن يتخلّى عنه، ما دام يعمل في سبيل الدعوة، ويكافح من أجل نصرة الإسلام، ويستعين على هذا العمل الشاق المضني بذكر الله وطاعته، فقد كان يظل في مصلاه من بعد صلاة الصبح إلى وقت الصبح يذكر الله، وكان يقول: هذا غذائي، وإنني إذا لم اتغذّ بهذا الغذاء سقطت قوائي.

لم يضيع رحمة الله وقتاً، أو يتضرر معيناً، فقد كان يؤمن بأن الوقت هو الحياة، وأن كل لحظة تمر دون عمل فهي خسارة لا يمكن تعويضها، لأن ما يمضي من الحياة لا يمكن استرجاعه، ويؤمن بأن الله هو المعين، وأن ما دونه إنما هي أسباب ظاهرة يسخرها لمن يشاء من عباده، والعون والنصر في الحقيقة من الله - عزّ وجلّ -^(١).

١ - إصلاح العامة:

وقد حرص رحمة الله على إصلاح العامة من خلال تعليمهم الصحيح من أمور دينهم، فقد قام بشرح أمور الإسلام وشرائعه، وحرص في أثناء ذلك على تقديم بعض الأولويات. فقد

(١) استمرارية الدعوة. د. محمد السيد الوكيل: ٧٨-٧٩.

كان يقوم على شرح المفاهيم الأساسية للإسلام من خلال غرس العقيدة الصحيحة في قلوب السامعين، وبيان شبكات المنحرفين والرد عليها، ويشرح أحكام العبادة الصحيحة ويعلّمها لهم رائدة في ذلك التمسك بما جاء في الكتاب والستة الصحيحة، ويعلّمهم أحكام الجهاد فقههاً وتطبيقاً من خلال قيامه بحمل السلاح والتدريب عليه، ويشاركهم في أعمال الخير التي تعود بالنفع على الأمة.

ولكنه في طيات أحاديثه هذه كان لا ينسى التركيز على مفهوم الإسلام الشامل الذي يشمل كل جوانب الحياة، ويركز هذا المفهوم في نفوس الناس حوله، ويوفر لهم ضمائرهم لكي تتفاعل مع هذا المفهوم، وتتحرك للعمل، وتنهض بهم للجهاد في سبيل الله، واستطاع رحمة الله بعد جهود شاقة أن يصل إلى ما يريد، وكانت صحوة^(١) حرّكت الساكن، وأيقظت النائم، وأحدثت حراكاً وسط سكون وجمود ثقيلين على نفوس الدعاة المخلصين.

وقد كان رحمة الله شديد الحرص على وحدة كلمة المسلمين، واتلاف قلوبهم، وعلى تقديم كل ما ينفع الناس، عظيم الإحسان، يبذل نفسه ليدفع الأخطار عن أمتة، وليس موقفه مع قازان، وقتاله لأهل الجبل، ونصرته للمظلومين وتحصيله لحقوقهم، وغير ذلك من المواقف التي يشعر أنها تدفع مفسدة

(١) استمرارية الدعوة: ص ٧٨-٨٠ بتصريف.

عن المسلمين، أو تجلب منفعة ومصلحة لهم إلا فعلها أو حرص على القيام بها بنفسه رحمة الله.

٢ - إصلاحه للعلماء:

وذلك من خلال تذكيرهم بالقيام بواجباتهم التي كلفهم رب العزة بالقيام بها، فقد كان العلماء كثيرون ولكنهم في مجال العلم للدعوة والإصلاح لم يكن يميزهم عن العامة إلا علمًا ملأ عقولهم، ولكنه لم يحرك وجداً لهم، ومناصب شغلت حياتهم ولكنها شلت حركتهم، وقرب من السلطان والحكام أورثهم فخرًا وتيهاً، ولكنه أسكن ألسنتهم، فلم يكونوا خيراً من العامة في شيء.

وقد كانت كلمة هؤلاء العلماء متفرقة، والنزاع والفرقة قد ملأت قلوبهم وأسباب ذلك تعود إلى الأمور التالية:

- التعلق المذهبى المقيت الذى سيطر على العقول، فأصابها بالعجز عن النظر في الأدلة لاتباع الحق.

- الاتجاه السياسى الذى زاد من تمزق وحدتهم، وتوسيع هوة الخلاف بينهم، حيث عمدت الدولة إلى تعيين قاض لكل مذهب، وكأنها تقر لهم على التعلق والاختلاف، وكان كل وزير يصطفى لنفسه عالماً منهم يقربه ويدنيه، وقد يغضب عليه لأمر ما فيقصيه وينفيه، حتى أصبح العلماء «لعباً في أيدي الحكام، لا يرون فيهم جلال العلم، ولا يجدون فيهم هيبة العلماء».

- ميل كثير منهم إلى تبني آراء المنحرفين من الصوفية، الذين كانوا يؤمنون بوحدة الوجود، ويقولون بنظرية الحلول والاتحاد.

كان العلماء في ذلك الحين لا يُرى لهم أثر على أرض الواقع، وقد أحسن العلامة السيد أبو الحسن الندوبي في وصف حالهم حيث قال:

«وكان العلماء لا يعيرون الأمور المخالفة للشرع أهمية في بعض الأحيان، كما كانوا يخافون من المعارضه والإنكار في حين آخر»^(١).

رأى ابن تيمية رحمه الله هذه المواقف المخزية من العلماء، كما رأى بعينيه قعود بعضهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فطالبهم بالقيام بواجبهم نحو الإسلام والمسلمين^(٢) وحضهم على أن يحسنوا تمثيل الإسلام بحق، بعيداً عن المصلحة الذاتية، والهوى الشخصي.

وقد رغب رحمه الله في إبعاد العلماء عن السلطان واستعطافه للحصول على المناصب، مبدياً اعترافه على تقبيل الأيدي والانحناء بين أيديهم من أجل حفنة من المال تجري بين أيديهم.

(١) ابن تيمية للندوبي: ٦٢.

(٢) استمرارية الدعوة: ص ٨٤.

وقد ضاق رحمه الله ذرعاً بهذا الصنف من العلماء، فبلغ مبلغاً عظيماً في التحذير من مثل هؤلاء العلماء، الذين أصبحوا أغنياء في رشوة أصحاب الحاجات الذين توسعوا لهم عند السلطان، ووصلوا إلى حد إيادة الرشوة لقضاء الحاجة.

وقد جلجل صوته بالمسجد يقول: «يجب أن يولي في كل مرتبة أصلح من يقدر عليه، وأن يرزق أحق المسلمين، وأنفعهم للMuslimين».

وقد تجاوب معه قسم منهم فأحسنوا القيام بواجباتهم، وأسهموا معه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بفرضية الجهاد لإعلاء كلمة الله، وجوبه من القسم الآخر بحسد وضغينة، ودس وتدبير مؤامرات، وإلقاءُّهم وافتراطات، وكيد له عند الحكام حتى يلقوه في غياب السجون، من أجل أن يسجّنوا كلمته، ولكنهم لم يستطعوا سجن الكلمة رغم أنهم استطاعوا سجن الجسد بكيدهم المدبر بليل، ورغم هذا لم يشن رحمه الله عن عزمه في القيام بالنصح لهم، وحب الخير وتنمية لهم، ثم عفوه عنهم وتسامحه معهم حين قدر عليهم.

٣ - إصلاح الحكام والأمراء:

أقام شيخ الإسلام رحمه الله علاقات قوية ومتينة مع السلطان والأمراء في عصره، وكان منهم من يحبه ويحترمه

ويوقره، ويعجبهم فيه نهيه عن المنكر، وغيرته على سُنة
رسول الله ﷺ، وحرصه على إحيائها.

ورغم هذه المودة والعلاقة المتينة إلا أنه كان زاهداً فيما
بين أيديهم، فلم يطلب لذاته شيئاً، ولم يطمع يوماً في منصب،
وكان يرفض عطاياهم.

وكان رحمة الله يدعو الناس إلى طاعة أولي الأمر أينما
 كانوا، فإذا عصى هؤلاء الولاة فلا طاعة لهم من الرعية، وقد أحبه
المماليك وهم حكام البلاد في تلك الأيام، لأنه لا يؤمن بالقول
أنهم عبيد ولا بد أن يعتقونا، ولم ينس قول أحد الصحابة الذي
قال: موالينا أمراؤنا، وكان شرط شيخ الإسلام في طاعتهم
الاستقامة، فقد دعا إلى طاعتهم واشترط استقامتهم.

وكان يرى أن المماليك محاربين شجعان، يذود كلًّا منهم
عن ثغور أمة الإسلام، فكان له احترام كبير ووقار شديد ومهابة
عظيمة في أوساط المماليك.

وما جاء هذا الشعور المتبادل بين ابن تيمية والمماليك إلا
لردهم التتار والصلبيين، وهم أشد أعداء الإسلام في العصر الذي
عاش فيه ابن تيمية.

بل ذهب المماليك إلى أبعد من ذلك تجاوباً مع الإمام
الجريء ابن تيمية عندما أقرروا عمله، وأعلنوا رغبتهم في إغلاق
أماكن اللهو والحانات، وأوكار الفساد، والدعوة إلى تكوين شباب

إسلامي قوي غير متختنث ولا متشبه بالنساء، ولا مفسد في الأرض»^(١).

ورغم علاقة الود المتبادلة هذه، فقد كان أعداؤه وحساده من العلماء وال العامة على حد سواء، يشيرون عليه الحكماء بشتى الوسائل، وكان الأمراء أو السلطان يحضرون ابن تيمية في مجالسهم للمحاكمة، ويناقشونه فيما اتهم به، وفي كل مرة تثبت براءته، ويخرج من المجلس متصرراً، ولكن ضغط هؤلاء الحساد يستمر قوياً مؤثراً، ما يضطر الحكماء إلى الأمر بحبسه واعتقاله برغم شهادة العلماء بعدم إدانته.

ولقد كانت هذه الشكاوى التي يتقدم بها خصومه من أهم الأسباب التي جعلت الحكماء يتعرفون على ابن تيمية رحمة الله، ويسمعون منه عن قرب، وكان من عرفة وأحبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون من خلال هذه المجالس، ومن جهاده معه في حرب التتار، فأحبه وقدره ولم يمس إخلاصه ووفاءه لدينه ووطنه، ومع حبه له، وتقديره لجهوده، كان يأمر بحبسه تحت ضغط الأعداء الذين لم يستطع مقاومتهم.

ولم تمنع هذه الظروف المحيطة بابن تيمية رحمة الله من أن يطالب الحكماء بالقيام بما يجب عليهم نحو دينهم أولاً، ووطنهم ثانياً، ورعاياهم ثالثاً.

(١) ابن تيمية العالم الجريء: عبد المنعم الهاشمي ص ٣٠-٣١.

فذهب ليستحث السلطان على مواجهة التتار وشدد عليه في الكلام، وكان من ضمن ما قاله له: (لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلطانه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنه) ثم قال له: (إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحميه ويحوطه، ويستغله في وقت الأمن) ^(١).

- ومن ذلك حثه السلطان على تجريد حملة لمحاربة أهل الجبل من النصيرية والباطنية والحاكمية والإسماعيلية، وأخبره بغدرهم وخيانتهم، وما فعلوه بالمسلمين من أنواع الفساد، وما كانوا يعاونون به الأعداء ضد المسلمين، وحرضه على قتالهم ليمعن عن المسلمين شرهم.

- ومن ذلك محاربته لبعض العادات الجاهلية مثل الأخذ بالثار، وحثه السلطان أن يطبق القصاص الشرعي العادل، وتنفيذ السلطان لما طلبه منه.

- ومن ذلك محاربته لظاهرة الرشوة المنتشرة بين النساء وأصحاب المناصب في الدولة، وحثه السلطان على الكتابة لعماله أن لا يولي أحد بمال أو رشوة، وتنفيذ السلطان لما طلبه منه.

وبهذا يتبيّن لنا أن شيخ الإسلام لم يجامِل أحداً في الحق، عدواً كان أو صديقاً، عالماً أو حاكماً، بل كان يدعى الناس جميعاً

(١) البداية والنهاية: ١٤ / ٣٣.

إلى الحق، وإلى مقاومة الباطل والتصدي له، حتى يقضي عليه، وكان كل همه إقامة الإسلام والشريعة في نفوس الناس، كما جاء به رسول الله ﷺ، وإعادة دولة الإسلام قوية فتية كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين»^(١).

هـ - عقبات في طريق ابن تيمية الإصلاحي ووسائله في التغلب عليها:

ليس هناك داعية منذ خلق الله الخلق، وإلى آخر داعية، إلا وتواجهه الصعوبات والعقبات، فطريق الدعوة هو طريق الجنة، وطريقها محفوف بالمكاره.

ثم إن العقبات في طريق الدعوة: هي المؤشر على سلامة المسيرة، وإن الصعوبات التي تواجههم، هي الضوء الأخضر الذي يمنحهم إجازة الاستمرار في الطريق، ولذلك فإن العقبات في طريق ابن تيمية ليست نقصاً في حقه، ولا عيباً فيما يدعو إليه، لأن الدعاة يرون هذه العقبات، لازمة من لوازم الدعوة لا تنفك عنها، ولا تخلو منها، ولذلك فهم مطمئنون على سلامة المسيرة ما داموا يجدون الصعوبات، ويواجهون العقبات.

والعقبات التي تواجه الدعوة في كل زمان ومكان واحدة، غير أن الأسلوب الذي تؤدي به قد يختلف تبعاً لاختلاف

(١) استمرارية الدعوة: ص ٨٤-٨٦.

المنكرين. وإن القرآن الكريم ليعبر عن هذه العقبات المتكررة في وجه كل داعية، بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا فَأَلُوْا سَاحِرٍ أَوْ سَحْرُونَ ﴾١٢٣ أَوْ أَوْاصَمُوا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].^(١)

○ عقبات في طريق ابن تيمية رحمه الله:

ومن تلك العقبات التي واجهته رحمه الله تعالى ما يلي:

١ - الإيذاء:

والإيذاء بمعناه العام: يراد به كل ما يلحق بالإنسان من الضرر، ولكنه إذا أطلق يراد به الضرر اليسير، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ﴾ [آل عمران: ١١١] أي لن يضروكم إلا بكلام قبيح تسمعونه منهم، وقد لقي رحمه الله تعالى لونين من الأذى.

- اللون الأول: الأذى النفسي من خلال اتهامه بالتجسيم، أو الرمي بالكفر والضلال، أو افتراء الكذب عليه، كما فعل علاء الدين البخاري حين رمى كل من يطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر، مما دفع ابن ناصر الدين الدمشقي كتابه «الرد الوافر» دافع فيه عن شيخ الإسلام ورد على علاء الدين البخاري المذكور كلامه وتجنيه، والحق أن الأذى النفسي الذي يلحق

(١) المصدر السابق: ص ١٠١-١٠٠.

بالإنسان في رميء بالكفر والإلحاد والتشبيه والتجمسيم أذى كبير،
وله في النفس وقع مؤثر جداً.

- الثاني: الأذى الجسدي: من خلال الاعتداء عليه بالضرب
من العامة نتيجة لتحرير حساده من أهل العلم كما حصل معه
حين اعتدى عليه جماعة من الغوغائية في حي الحسينية بالقاهرة،
وقد تجمع جماعة من محبيه من أهل الحسينية ليثأروا له، ولكن
الشيخ ردهم ولم يأذن لهم بذلك وقال لهم:
«إما أن يكون الحق لي، أو لكم، أو الله، فإن كان الحق لي
فهم في حل منه، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني ولا تستفتوني
فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله، فالله يأخذ حقه إن شاء كما
شاء».

وفي أثناء المناقشة حضر وقت العصر فذهب ليصلي في
الجامع، فنهوه عن ذلك حتى لا يؤذى ثانية، فلم يلتفت إلى
قولهم، ومضى إلى المسجد، وتبعته جماعة كبيرة من الغاضبين
له^(١).

٢ - وقوف العلماء ضده:

فقد وقف بعض العلماء ضده واتهموه بالخروج على
مذهب أهل السنة وما أجمع عليه علماء الأمة، ولهؤلاء العلماء

(١) العقود الدرية: ٢٨٦-٢٨٨.

ثقلهم ومكانتهم في المجتمع، فإذا عادوا أحداً وقف العامة معهم، لثقتهم فيهم، لأنهم رؤساء هذا الأمر والقائمون عليه، ويحسبك أن يقول العلماء إن فلاناً خارج على الدين، أو تنكب طريق السابقين، فذلك وحده يكفي لإعلان الحرب على من ينتمي بذلك.

ومن جهة أخرى فقد كان اتهام العلماء له، ووقوفهم ضده، دافعاً للحكام على معاداة ابن تيمية، ونحن نعلم أن الحكماء عادة هم الذين يدفعون العلماء إلى مثل هذه المواقف ممن ي يريدون القضاء على سمعتهم، والتشكيك في إخلاصهم، أما أن يتطلع العلماء من تلقاء أنفسهم لتشويه سمعة عالم جليل، وإثارة الدولة ضده، فذلك لا يكون إلا نتيجة حقد دفين، وغل ملاً الصدور والقلوب^(١).

وقد ذكر العلامة السيد أبو الحسن الندوبي حفظه الله تعالى الأسباب الرئيسية لمعارضة معارضيه وخصومه له:

ومن أهم هذه الأسباب علو شأن شيخ الإسلام، وجلالة قدره، وبلغه في العلم والفقه والاستنباط مبلغاً عجز عنه علماء عصره، والواقع أن شيخ الإسلام كان قد سبق زمانه، وفاق بعقريته وعقليته الجبارية أقرانه، فكانت لديه مقدرة عجيبة في البحث والتنقيب واستخراج النكات البدعة واستنباط القواعد والأحكام من النصوص، حيث كان يتغلغل في أعماقها وسبر

(١) استمرارية الدعوة: (ص ١٠٢).

أغوارها، ويخرج منها ببدعة لم تمر على بال هؤلاء، فحسدوه وأرادوا الحط من قدره، قال ابن كثير رحمه الله: وكان للشيخ تقى الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقديمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الناس له ومحبته لهم، وكثرة اتباعه وقيامه في الحق وعلمه وعمله.

وقال الأستاذ أبو زهرة رحمه الله: إن المشاهد قدّيماً وحديثاً أن الرجل الذي يختلف الناس في شأنه بين أعلاه وإهواه لا بد أن يكون رجلاً كبيراً في ذات نفسه عظيماً في خاصة أمره، له عبرية استرعت الأنظار واتجهت إليها الأ بصار، فيكون له الوالي الموالى، والعدو المترقب المؤاخذ الذي يتبع الهافة ويحصي السقطات، وكذلك كان ابن تيمية رضي الله عنه قد كان عظيماً في ذات نفسه اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، وهذه الميزة أدركها البعض فعظمو شأن الشيخ، وجحدها البعض واستيقنوا أنفسهم، فطعنوا فيها»^(١).

ولخص الألوسي رحمه الله الأسباب في المعارضة فقال:
هم على أقسام: فمنهم من شنع لداء المعاصرة، ومنهم لشهرة كاذبة من غير تحقيق، ومنهم لمخالفته في العقيدة، ومنهم حباً في ابن عربي وأتباعه، ومنهم اقتداء بشيخه المنافس له، وقد قال بهاء الدين السبكي قوله المشهورة: ما يبغض ابن تيمية إلا

(١) انظر المزيد من أسباب المعارضة عند الندوبي: ابن تيمية: ص ١٣٩-١٥٣.

جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل ما يدرى ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق^(١) وحين يقارن العلامة الشاه ولـي الله الدهلوى رحـمه الله بين علم شـيخ الإسلام وبين علم معاصرـيه المخالفـين له يقول:

«إن الفقهاء المخالفـين له لم يكنـ علمـهم عشرـ العـشـيرـ بالـنـسـبـةـ إـلـيـهـ»^(٢).

- أهم الافتـراءـاتـ التيـ رـمـوهـ بـهـاـ:

إنـ الخـصـومـ يـتـسـتـرـونـ خـلـفـ التـهـمـ وـالـافـتـراءـاتـ التيـ رـمـوهـ بـهـاـ ليـخـفـواـ الأـسـبـابـ الـحـقـيقـيـةـ لـعـدـائـهـمـ لـهـ،ـ وـلـيـتـخـذـوـهـاـ ذـرـيـعـةـ لـتـحـقـيقـ أـهـدـافـهـمـ،ـ وـمـنـ أـهـمـ هـذـهـ الـافـتـراءـاتـ:

• التجـسيـمـ:ـ لأنـ أـثـبـتـ منـ الصـفـاتـ لـهـ تـعـالـىـ ماـ وـصـفـ بـهـ نفسـهـ وـوـصـفـهـ بـهـ رـسـوـلـهـ ﷺـ.

• بـمـنـعـ زـيـارـةـ قـبـرـ النـبـيـ ﷺـ وـغـيـرـهـ مـنـ الـأـنـبـيـاءـ،ـ وـقـدـ بـيـنـ شـيـخـ الـإـسـلـامـ فـيـ عـدـدـ مـنـ كـتـبـهـ بـأـنـهـ حـرـفـواـ كـلـامـهـ،ـ وـالـذـيـ يـرـاهـ أـنـهـ لـاـ يـجـوـزـ شـدـ الرـحـالـ إـلـىـ الـقـبـرـ،ـ وـهـنـاكـ فـرـقـ بـيـنـ زـيـارـةـ الـقـبـرـ وـشـدـ الرـحـالـ إـلـيـهـ،ـ فـالـأـوـلـ مـأـمـورـ بـهـ شـرـعاـ،ـ وـالـثـانـيـ مـنـهـيـ عـنـهـ.

(١) النـدوـةـ الـعـالـمـيـةـ:ـ صـ ١٢٥ـ.

(٢) النـدوـةـ الـعـالـمـيـةـ:ـ صـ ٢١٣ـ.

- اتهامه بإهانة الأنبياء والصالحين: لأنه لا يرى التوسل بذواتهم وأشخاصهم وجاههم ومرتبتهم.
- اتهامه بالخروج على الإجماع: لأنه ينتقد المذاهب في ضوء الأدلة، ويذهب إلى ما يؤديه إليه اجتهاده، بدون أن يتقييد بمذهب معين^(١).

وقد تناول شيخ الإسلام هذه القضايا بالبحث والرد والمناقشة في ضوء أدلة الكتاب والسنّة.

٣ - السجن والاعتقال:

وقد كان نصيب ابن تيمية رحمه الله منه وافرًا، فقد سجن في مصر، ونفي إلى الإسكندرية، وكذلك سجن بالشام، وظل حبس القلعة حتى مات وهو في سجنه، وقد سجن رحمه الله عدة مرات منها:

- سنة ٦٩٣ هـ اعتقله نائب السلطنة لمدة قليلة، بسبب قيامه على عساف النصراوي الذي شتم النبي ﷺ، ثم أطلق معززاً مكرماً.

- سنة ٧٠٥ هـ حين نوّقش في أمر العقيدة في دمشق واتفق على أن معتقده سلفي جيد، وأن عقيدته سنية خالصة كما قال ابن رجب والذهبي، ولكن هذا لم يعجب أعداءه في مصر

(١) دعوة شيخ الإسلام: ١/٩٧-٩٨.

فاستدعيه إلى القاهرة لمناقشته وحكم خصمه ابن مخلوف بسجنه في برج القلعة في يوم ٢٦ رمضان سنة ٧٠٥هـ وبقي في السجن إلى ربيع الأول ٧٠٧هـ حتى أخرجه حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب.

- سنة ٧٠٧هـ حين شakah بعض الصوفية ولم يثبت عليه شيء، وفوضت الدولة أمره إلى الفقهاء والقضاة، وقد تحرروا في أمر سجنه، فمضى إلى السجن بنفسه.

- سنة ٧٠٨هـ أراد أعداؤه أن يتخلصوا منه فنفوه إلى الإسكندرية وسجنه هناك حيث بقي في السجن حتى خرج في ٨ شوال سنة ٧٠٩هـ حين أفرج عنه السلطان بعد عودته إلى السلطنة بعد قتله بيرس الجاشنكيـر.

- سنة ٧١٨هـ ورد مرسوم سلطاني يمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير، وعقد له مجلس بدار السعادة، ومنع من ذلك، ثم عقد له مجلس سنة ٧١٩هـ تأكيداً للمنع، ولكنه لم ينته عما رأه حتى عقد له مجلس ثالث، وحكم عليه بالسجن. وحبس بالقلعة في دمشق.

- سنة ٧٢٠هـ حبس لأجل إفتائه في مسألة الطلاق مرة أخرى، ومنع بسببه من الفتيا مطلقاً، وقد حكم عليه بالسجن عدوه نجم الدين بن صَعْرَى، فوضع في السجن خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وأخرج يوم الإثنين في عاشوراء من سنة ٧٢١هـ.

- سنة ٧٢٢ هـ حبس في مسألة شد الرحال إلى الأضرحة والقبور، حيث ورد فيه مرسوم بعدهما وشى به إلى السلطان أهل البدع والأهواء.

- سنة ٧٢٦ هـ وهذا آخر ما وقع لشيخ الإسلام من الحكم بالسجن، وسببه أيضاً مسألة شد الرحال إلى الأضرحة والقبور، وبقى فيه حتى توفي رحمه الله سنة ٧٢٨ هـ وقد حرف أعداؤه كلامه، وغيروا ألفاظه، وشنعوا عليه بما لم يقل^(١).

٤ - إنزال الأذى بتلاميذه ومحبيه:

إن شيخ الإسلام رحمه الله كان يعيش في كثرة من الاتباع والأنصار والأصحاب، وأنهم قاموا معه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان، وقد أصابهم من الأذى بعض ما أصاب الشيخ حيث عزّروا وسُجنوا، وأن الشيخ رحمه الله كان له من الهيبة والقوة والسلطان ما يستطيع به أن يذهب بنفسه ليخرج أصحابه من السجن !!!، ولا شك أن جماعة الشيخ كانت تلاقي العنت والمشقة وذلك نتيجة طبيعية لما يلقى شيخ الإسلام رحمه الله.

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: البداية والنهاية: ١٤/٥٤، ٨٧، ٩٣، ٩٧، ١١٣، ٣٣٥،
مجمع الفتاوى: ٣/٢٠١-١٦٠، الذي على طبقات الحنابلة: ٢/٤٠٣-٣٩٦.
فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٧ العقود الدرية مواطن مختلفة.

- فمن ذلك ما قاله ابن كثير رحمة الله:

«وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقديمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الناس ومحبتهم له وكثرة أتباعه وقيامه في الحق، وعلمه وعمله، ثم وقع بدمشق خبط كثير وتشويش بسبب غيبة نائب السلطنة وطلب القاضي جماعة من أصحاب الشيخ وعزر بعضهم ثم اتفق أن الشيخ جمال الدين المزي الحافظ قرأ فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد للبخاري، تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخاري بسبب الاستسقاء، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وشكاه القاضي الشافعي ابن صعرى، وكان عدو الشيخ فسجين المزي، فبلغ الشيخ تقي الدين، فتألم لذلك وذهب إلى السجن فأخرجه منه بنفسه، وراح إلى القصر فوجد القاضي هناك فقاولاً بسبب الشيخ جمال الدين المزي..»^(١).

- ومن ذلك ما ذكره رحمة الله في أحداث سنة (٧٢٦ هـ) حيث قال:

«وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ ابن تيمية في سجن الحكم، وذلك بمرسوم من نائب السلطنة وإذنه له فيه فيما تقتضيه

(١) البداية والنهاية: ١٤/٣٧.

الشريعة في أمرهم !!، وعذر جماعة منهم على دواب، ونودي عليهم ثم أطلقوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة»^(١).

وقال: وفي يوم الأربعاء عشر ذي القعدة درس بالحنبلية برهان الدين أحمد بن هلال الزرعبي الحنبلبي بدلاً منشيخ الإسلام ابن تيمية وحضر عنده القاضي الشافعي وجماعة من الفقهاء وشق ذلك على كثير من أصحاب الشيخ تقي الدين !!^(٢).

٥ - مصادره ما لديه من الكتب وأدوات الكتابة:

وهذه العقبة - أو العقوبة في ظن خصوصه - من أشد العقبات أثراً على نفس الشيخ رحمه الله، حين جرد من أحب شيء إلى نفسه، وهو مدارسة العلم، وتسجيل أفكاره التي تعن له، حتى يعفي عليها النسيان، ولا يخرج على الحاقدين بجديد ينghost their ضلالهم، ويفضح عوارهم.

وكان سبب ذلك أن القاضي عبد الله بن الأختناني كتب في موضوع زيارة القبور وخاصة قبر رسول الله ﷺ بما يخالف عقيدة ابن تيمية، فرد عليه ابن تيمية وهو في الحبس برسالة أثبت فيها أن هذا القاضي المالكي قليل البضاعة في العلم ضعيف الحجة، يقول

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٢٣.

(٢) البداية والنهاية: ١٤/١٢٤.

بما لم يقل علماء السلف، فغضب القاضي، واشتكى إلى السلطان، فأصدر السلطان مرسوماً بمصادرة جميع ما عند الشيخ من أدوات الكتابة والكتب حتى لا يبقى عنده ما يستعين به في التأليف والكتابة:

وفي غرة رجب ٧٢٨ هـ أرسلت جميع مسوداته وأوراقه من المحبس إلى المكتبة العادلية الكبرى، وكان ذلك نحو ستين مجلداً من الكتب، وأربع عشرة ربوة كراريس التي كان يشغله بها دراسة وتأليفاً^(١).

○ وسائله في مواجهة هذه العقبات:

لقد كان ما يملكه رحمة الله تعالى في مواجهة هذه المحن المتتالية ما كان يملكه النبيون والدعاة من قبله، حيث كان له فيهم أسوة حسنة، فقد كان يملك الصبر، والالتجاء إلى الله تعالى، والاستعانة به، وكثرة الذكر، والإلحاح في الدعاء، ثم أخلاق أهل الإيمان في العفو عن ظلمه، والاستغناء بكتاب الله وحفظه له عن مصادرة الكتب:

- فأما لجوء شيخ الإسلام إلى الله واستعانته به وكثرة ذكره لله سبحانه.

فقد وصف الإمام ابن القيم رحمة الله حاله فقال:

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٣٤، فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٩.

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة - يعني بها: جنة الإيمان بالله وبما جاء به سيدنا رسول الله - من لم يدخلها - أي يتصف بها في الدنيا - لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستانى في صدري - يعني بذلك إيمانه وعلمه - أين رحت فهى معي لا تفارقنى، إن حبسى خلوة، وقتلى شهادة، وإخراجي من بلدى سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عَدَلَ عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسبوا لي فيه من الخير.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ما شاء الله، وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه، ولما دخل القلعة وصار من داخل سورها نظر إليه وقال: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب).

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً،

وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نصرةُ النعيم
على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساعت مِنَ الظنوں، وضاقت بنا الأرض أتیناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب عننا ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقيناً وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»^(١).

- وقد كتب رحمة الله يخبر عن حالته من داخل السجن فقال
مخبراً عن سبب المحتة التي وقعت عليه فقال:

«والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده، بل مخالفة لدين جميع المرسلين: إبراهيم، وموسى، والمسيح ومحمد خاتم النبئين صلى الله عليهم أجمعين. وكانوا قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب، وجزعوا من ظهور الإنخائية، فاستعملهم الله تعالى، حتى أظهروا أضعاف ذلك وأعظم، وألزمهم بتفتيشه ومطالعته، ومقصودهم إظهار عيوبه، وما يحتاجون به، فلم يجدوا فيه إلا ما هو حجة عليهم. وظهر لهم جهلهم، وكذبهم وعجزهم،

(١) الوابل الصيب: ص ٤٤، العلماء العزاب: ١٧٦-١٧٧.

وشاء هذا في الأرض، وأن هذا مما لا يقدر عليه إلا الله، ولم يمكنه أن يظهرها علينا عيباً في الشرع والدين، بل غاية ما عندهم، أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين، والمخلوق كائناً من كان، إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، لم يجب بل ولا تجوز طاعته، في مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ باتفاق المسلمين»^(١).

ثم يبين رحمة الله حالته أمام ما نزل من المحنـة فيقول:

«ونحن لله الحمد والشكرا في نعم متزايدة، متوافرة، وجميع ما يفعله الله فيه نصر الإسلام، وهو من نعم الله العظام.

ونحن والله الحمد، على عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان، والجلبية، والجهمية، والاتحادية وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون»^(٢).

- ويتجلى خلق الرضا بقدر الله وشكره على نعمه بما قاله
رحمه الله:

«ونحن والله الحمد والشكر، في نعم عظيمة، تتزايد كل يوم، ويجدد الله تعالى من نعمه نعماً أخرى، وخروج الكتب كان من أعظم النعم فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها، لتقفوا

(١) العقود الدرية: ٣٦٤-٣٦٥، مجموع الفتاوى: ٢٨/٥٨.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/٥٧، ٥٩، العقود الدرية: ٣٦٤، ٣٦٦.

عليه، وهم كرهوا خروج الإخنائية، فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق.

فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس. فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يخذله الله ويخرزه..

وأنا طيب وعيوني طيبتان أطيب ما كانتا، ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ثم ذكر كلاماً، وقال:

كُلُّ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ وَالْحَكْمَةُ ﴿إِنَّ رَبِّ الْأَطِيفِ لِمَا يَشَاءُ إِنَّمَا هُوَ أَعْلَمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٢] ، القوي العزيز، ولا يدخل على أحدٍ ضررٌ إِلَّا مِنْ ذُنُوبِهِ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فِيْنَ اللَّهُ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فِيْنَ تَقْسِيْكُ﴾ [النساء: ٧٩] فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائمًا على كل حال، ويستغفر من ذنبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضى الله للمؤمن قضاءً إِلَّا كان خيراً له «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكْرٌ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرٌ، فَكَانَ خَيْرًا لَه»^(١).

(١) مجمع الفتاوى: ٢٨ / ٤٧-٤٨، العقود الدرية: ٣٦٦-٣٦٧.

- وأما إقباله على قراءة القرآن بعد إخراج كتبه، فقد قال ابن عبد الهادي رحمة الله:

«ولما أخرج ما عنده من الكتب والأوراق، حمل إلى القاضي علاء الدين القونوي، وجعل تحت يده في المدرسة العادلية.

وأقبل الشيخ بعد إخراجها على العبادة والتلاوة والتذكر والتهجد حتى أتاه اليقين.

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين، أو إحدى وثمانين ختمة في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة ﴿إِنَّ الْمُنْتَقَيْنَ فِي جَهَنَّمِ وَنَهَرِ﴾ * في مَقْعَدِ صِدِّيقٍ عِنْدَ مَلِيكِ مُقْنَدِرِ﴾ ثم كملت عليه بعد وفاته وهو مُسَبَّحٌ.

كان كل يوم يقرأ ثلاثة أجزاء، يختتم في عشرة أيام، هكذا أخبرني أخوه زين الدين»^(١).

- أما عن عفوه عن ظلموه:

فقد كان رحمة الله عظيماً حقاً، لا يعلق بقلبه أي درن من حقد أو ضغينة، وقد تجلى ذلك في عفوه عن ظلموه، وصفحة بطيب نفس عن كل مسلم ناله منه أذى، فقد جاءه نائب دمشق في مرضه الأخير، واستأذن في الدخول عليه ليعوده فأذن له، فلما

(١) العقود الدرية: ص ٣٦٨.

جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يعفو عنه إذا كان قد وقع منه تقصير أو أذى في حقه، فأجابه الشيخ:

«إنني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أنني على الحق، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إيابي، لكونه فعل ذلك مقلداً معدوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد مما بيسي وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ»^(١).

و- بعض آرائه في فقه الدعوة:

وسأعرض هنا بعض آرائه رحمة الله تعالى في الدعوة إلى الله تعالى، وبعض مفاهيمها، وفقه الدعوة إلى الله تعالى:

١- الدعوة إلى الله تعالى وظيفة الرسل وأتباعهم:

«والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به، ونهى عن كل ما نهى الله عنه، أمر بكل معروف، ونهى عن كل منكر»^(٢).

«وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب، من باطن وظاهر، فمن الدعوة إلى الله: الأمر به، وكل ما أبغضه الله ورسوله: من باطن وظاهر: فمن الدعوة إلى الله: النهي عنه، لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله، ويترك ما

(١) ابن تيمية للندوي: ١١٤، ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٩٠، الإعلام العلية: ٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٦١/١٥.

أبغضه الله، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة»^(١).

٢ - واجب الأمة تجاه الدعوة إلى الله:

«فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وهم أمة يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله، وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهى عنه، وإخبارهم بما أخبر به، إذاً الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر»^(٢).

وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفایة، إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقي، فالآمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقي»^(٣).

«فمجموع أمة تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلاله، وإذا تنازعوا في شيء، ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وكل واحد من الآمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره أسقط عنه، وما عجز: لم يطالب به.

(١) مجموع الفتاوى: ١٦٤/١٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٦٥/١٥.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٦٥/١٥.

وأما ما لم يقم به غيره، وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تقسّطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة، ويحسب غيره أخرى، فقد يدعوا هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الواقع أخرى.

وقد تبيّن بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبلیغ ما جاء به الرسول ﷺ، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن^(١).

٣- فقه ظهور الإسلام:

«ذكر تعالى أنه نزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، ولتعليم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر، وكفى بربك هادياً ونصيراً»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ١٦٦/١٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/١٠.

«إذا ظهر العلم بالكتاب والسنّة، وكان السيف تابعاً لذلك،
كان أمر الإسلام قائماً»^(١).

٤ - القدوة في التربية:

قال في شرح معنى (كونوا ربانين):

«قال مجاهد: هم الذين يربون الناس بصغر العلم قبل
كباره، فهم أهل الأمر والنهي».

وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني: نقل عن علي
قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها، وعن
ابن عباس قال: هم الفقهاء المعلمون، قلت: أهل الأمر والنهي هم
الفقهاء المعلمون، وقال قتادة وعطاء: هم الفقهاء العلماء الحكماء،
قال ابن قتيبة: «واحدهم ربانى، وهم العلماء المعلمون» ثم قال
«منسوبون إلى التربية»^(٢).

٥ - فقه العلم لإعادة الإسلام إلى الحياة:

«كثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال
المسلمين، جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي
عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين
الإسلام، وأن يؤمن بأن الله مع الذين اتقوا» إلى أن يقول:

(١) مجمع الفتاوى: ٣٩٣/٢٠.

(٢) مجمع الفتاوى: ٢٩٧/١٨.

«وقوله ﷺ: «ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»: أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: «مَنْ يَرْتَدَ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يُأْتِيَ اللَّهُ بِقُوَّتِهِ وَيُحْبِبُهُنَّهُ أَذْلَالَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَلَهُ عَلَى الْكُفَّارِ يُبَهِّدُونَ فِي سَيِّلِ الْأَوَّلِ وَلَا يَخَافُونَ لَزْمَةَ الْآتِيِّ» فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك».

«كذلك بدأ غريباً ولم يزل يقوى حتى انتشر، فلهكذا تغرب في كثير من الأماكن والأزمنة ثم يظهر، حتى يقيمه الله عزّ وجلّ»^(١).

٦ - من موالصفات طائفة أهل الحق:

«وليس لأولياء الله تعالى شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلامها مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً كما قيل: كم من صديق في قباء: وكم من زنديق في عباء، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفحور، في يوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع، والزراع..»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ٦٣/١.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٩٤/١١.

٧- العلم الدعوي الناجح ومواصفاته:

«إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخاص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَنَّ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْلَمَ عَهْلًا صَنِعًا وَلَا شَرِكَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١) [الكهف: ١١٠].

«وهذان الوصفان - وهما إسلام الوجه لله والإحسان - هما الأصلان المتقدمان، وهما كون العلم خالصاً لله، صواباً موافقاً للسنة والشريعة، وذلك أن إسلام الوجه لله هو متضمن القصد والنية لله.. والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لسنة رسوله، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله، وكان محسناً في عمله، فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب»^(٢).

٨- نية العمل المحركة:

«ولما كان العمل لا بد فيه من شتتين: النية والحركة، كما قال النبي ﷺ «أصدق الأسماء حارت وهمام» فكل أحد حارت

(١) مجمع الفتاوى: ١/ ٣٣٣.

(٢) مجمع الفتاوى: ١/ ٣٣٤، ٢٨/ ٢٧٧.

وهمام له عمل ونية، لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله، ويشيب عليها، أن يراد الله بذلك العمل، والعمل المحمود: الصالح، وهو المأمور به^(١).

٩ - من صفات الداعية الناجح:

«فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر.. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده.. وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً في جميع الأحوال»^(٢).

١٠ - الاستعانة بالمباحات على مصاعب الدعوة:

«وكما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات، وترك المحرمات، فقد شرع أيضاً كل ما يعين على ذلك، فينبغي تيسير طريق الخير والطاعة، والإعانة عليه، والترغيب فيه بكل ممكن، مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح، من مال أو ثناء أو غيره، ولهذا شرعت المسابقة بالخيل، والإبل، والمناضلة بالسهام، وأخذ الجعل عليها، لما فيه من الترغيب في إعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله»^(٣).

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/١٣٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/١٣٧.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٨/٣٧٠.

١١ - الإيمان أساس حمل الدعوة:

«إن الإيمان الذي يحمل صاحبه إلى سبيل الدعوة إلى الله، إيمان قد اقترب بحمل رسالة يعيش صاحبها من أجلها، ويناضل في سبيلها، ويموت لتنحية، أما الإيمان الذي لا يحمل صاحبه على الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، فهو إيمان خلا من معنى حمل رسالة الإيمان»^(١).

(١) رسائل السجن: محمد العبدة: ص ٦٤.

الفصل السادس

وفاته

○ مرض شيخ الإسلام:

قال ابن فضل الله العمرى في ترجمته لابن تيمية: «وكان قبل موته قد منع الدواة والقلم، وطبع على قلبه منه طابع الألم، فكان ذلك مبدأ مرضه، ومنشأ عَرَضِه، حتى نزل فقار المقابر، وترك فقار المنابر، وحل ساحة ربه وما يحاذر، وأخذ راحة قلبه من اللائم والعاذر»^(١).

○ مدة مرضه رحمه الله:

وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً، وأكثر الناس ما علموا بمرضه، واستمر به الحال حتى وفاه الأجل»^(٢).

(١) الشهادة الزكية: ص ٦٦.

(٢) العقود الدرية: ٣٦٨.

○ تاريخ وفاته:

يقول عامة المؤرخين أنه توفي رحمه الله في ٢٠ من شهر ذي القعدة/ سنة ٧٢٨هـ إلا المقرizi وتبعه ابن حجر يقولان أنه في ٢٢ من شهر ذي القعدة/ ٧٢٨هـ.

○ ردة فعل الناس على وفاته:

«وقد اتفق موته في سحر ليلة الإثنين، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها، وتكلم بها الحراس على الأبراجة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب الجسيم، فبادر الناس إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، واجتمع حشد عظيم من الخاصة وال العامة يدخلون إليه أفواجا يزورونه، ومنهم من كان يقبل رأسه وناصيته التي كانت تنصب على الأرض ساعات طوالاً أمام ربه.

وببدأ الناس يختتمون القرآن قبل غسله، وأذن للنساء بعد الرجال فزرنـه ولم يبقـ عند الغسل إلا من كان عليه أن يغسلـه»^(١).

«واجتمع الناس بالقلعة والطريق إلى جامـع دمشق، وامتلاـ الجامـع، وصـحنـه وبـابـ البرـيد، وبـابـ السـاعـات»^(٢).

(١) الـبداـية والـنـهاـية: ١٤٠ - ١٣٥ / ١٤.

(٢) البرـزـالي في تـارـيـخـه: الشـهـادـةـ الزـكـيـةـ صـ ٦٤.

○ من تولى غسله وتكفينه:

«ثم شرعوا في غسل الشيخ، وخرجت إلى مسجد هناك، ولم يدعوا عنده إلا من ساعده في غسله، منهم شيخنا الحافظ المزي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار، أهل العلم والإيمان»^(١).

○ نقل الجنازة من القلعة إلى المسجد:

وصلني عليه أولاً بالقلعة، وتقديم في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام وأخرجت الجنازة بعد الصلاة وغضت الطرق كلها ما بين القلعة والمسجد بالناس حتى حضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك - يعني قبل الظهر - ووضعت في الجامع، والجند قد أحاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وتزايد الزحام إلى حد لا يبلغ الإحصاء والتقدير، وقد صاح بين هذا الزحام صائح يقول: «هكذا تكون جنائز أئمة السُّنَّة»! فتباكى الناس وضجوا عند سماع هذا الصارخ، ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف بل مرصوصين رصاً لا يمكن أحد من السجود إلا بكلفة، وذلك قبل أذان الظهر بقليل، وجاء

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٣٨.

الناس من كل مكان، ونوى خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لأكل ولا لشرب، وكثير الناس كثرة لا تحد ولا توصف.

○ صلاة الجنازة عليه في المسجد:

وصلى عليه عقيب الظهر في المسجد الأموي، وقد صلى عليه الشيخ علاء الدين الخراط رحمه الله، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع، وقد تضاعف اجتماع الناس إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، وأغلقت الأسواق والمتاجر والمطاعم، والناس في بكاء وتهليل في مخافته كل واحد بنفسه، وفي ثناء وتأسف والنساء فوق الأسطح من هناك إلى المقبرة يبكيهن ويدعين ويقلن: هذا العالم.

○ حمل الجنازة من المسجد إلى المقبرة:

ثم حمل بعد أن صلى عليه على الرؤوس والأصابع، واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والتحبيب والترجم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائهم وثيابهم، وفارقت النعال والقباقيب الأرجل والأقدام وسقطت المناديل والعمائم عن الرؤوس والناس لا يلتقطون إليها لشغفهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس.

وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك، وتقدم للصلوة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن، وحمل إلى مقبرة الصوفية حيث دفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله تعالى، وكان دفنه قبل العصر بيسير، وذلك من كثير من يأتي ويصلّي عليه.

○ عدد من حضر جنازته:

لم يختلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور، ويحضر الرجال الذين حضروا الجنازة ما بين ستين ألفاً إلى مئتي ألف، عدا النساء يقدر الحاضرات منهن خمسة عشر ألف امرأة، عدا من كن على الأسطح والغرف، ولم يعهد مثل هذا الزحام في تاريخ دمشق، ويمكن أن يكون ذلك في زمنبني أمية حين كان الناس كثيرين وكانت دمشق دار الخلافة^(١).

قال أحد من حضر الجنازة:

وكنت أنا قد صليت عليه في الجامع، وكان لي مستشرف على المكان الذي صلّي فيه عليه بظاهر دمشق، فأحببت أن أنظر إلى الناس وكثرهم، فأشرفت عليهم حال الصلاة، وجعلت انظر

(١) انظر مزيداً من التفاصيل في البداية والنهاية: ١٤ / ١٤٩-١٣٥، العقود الدرية: ٣٨٥-٣٩٠، الشهادة الزكية: ٦٣-٦٩، الأعلام العلية: ٨١-٨٧، الذيل: ٢/ ٤٠٧ وغيرها من المصادر التي ترجمت له.

يميناً وشمالاً ولا أرى أواخرهم، بل رأيت الناس قد طبقوا تلك الأرض كلها»^(١).

○ من تخلف عن جنازته:

قال البرزالي: «ولا يمكن أحد حضر من حضر الجنازة، وتقريب ذلك أنه عبارة عنمن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره، ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات، وما علمت أحداً من أهل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور في جنازته، وهم ثلاثة أنفس: وهم ابن جملة، والصدر، والصفحاري، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته من الناس خوفاً على أنفسهم، بحيث أنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلükهم الناس، وتردد شيخنا الإمام العلام برهان الدين الفزارى إلى قبره في الأيام الثلاثة، وكذلك جماعة من علماء الشافعية، وكان برهان الدين الفزارى يأتي راكباً على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمة الله»^(٢).

○ صلاة الغائب عليه في بلاد الإسلام:

قال ابن رجب: «وصلني عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة، حتى في بلاد اليمن والصين، وأخبر

(١) الأعلام العلية: ص ٨٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٤٠ / ١٤.

المسافرون أنه نودي بأقصى الصين للصلاة عليه يوم الجمعة:
الصلاة على تُرجمان القرآن^(١).

وقال أبو حفص البزار: «وما وصل خبر موته إلى بلد - فيما
نعلم - إلا وصل إلى عليه في جميع جوامعه، خصوصاً أرض مصر،
والشام، والعراق، وتبريز، والبصرة، وقرها، وغيرها»^(٢).

○ هيبة جنازته:

ولم يُر لجنازة أحد ما رأى لجنازته من الوقار والهيبة
والعظمة والجلالة، وتعظيم الناس لها، وتقديرهم إياها، وتفخيمهم
أمر صاحبها، وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل
والزهادة والعبادة والإعراض عن الدنيا، والاستغفال بالأخرة،
والفقر، والإيثار، والكرم والمرءة، والصبر والثبات، والشجاعة
والفراسة، والإقدام، والصدع بالحق، والإغلاظ على أعداء الله
وأعداء رسوله، والمنحرفين عن دينه، والنصر لله ولرسوله ولدينه
ولأهلها، والتواضع لأولياء الله والتذلل لهم، والإكرام والإعزاز
لجنابهم، وعدم الاكتارات بالدنيا وزخرفها، ونعيهم ولذاتها وشدة
الرغبة في الآخرة والمواظبة على طلبها، حتى تسمع ذلك ونحوه
من الرجال والنساء والصبيان.

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٤٠٧ / ٢.

(٢) الأعلام العلية: ٨٥، تذكرة الحفاظ للذهبي: ١٤٩٦، ١٤٩٧.

وكل منهم يشي عليه بما يعلمه من ذلك»^(١).

○ من رثاء من العلماء:

وقد رثاه كثير من الفضلاء بقصائد متعددة أذكر أشهرهم
رحمهم الله جميماً:

- الحافظ شمس الدين الذهبي.
- الحافظ ابن فضل الله العمري.
- الحافظ ابن الوردي الشافعي.
- الشيخ علاء الدين بن غانم.
- الحافظ ابن عبد الهادي.
- المحدث تقي الدين أبو عبد الله محمد بن سلمان
الجعبري.

وقد ذكر ابن عبد الهادي الكثير من هذه القصائد في العقود
الدرية^(٢).

وقد جمع محمد بن إبراهيم الشيباني أسماء المشايخ
وطلاب العلم الذين رثوا ابن تيمية بعد وفاته^(٣).

وبعد هذا فقد ثوى ذلك العالم إلى رحمة ربه ورضوانه بعد
أن جاهد أكثر من ثلاثين سنة، من يوم أن بزغ نجمه عالماً بين

(١) الأعلام العلية: ٨٥-٨٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٣٩٣- إلى آخر الكتاب.

(٣) أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام: ص ٩٥-٩٧.

العلماء إلى أن فاضت روحه إلى العليم الحكيم الذي أحاط بكل شيء علمًا، فمن وقت أن ظهرت رسالة الحموية، وهو في نضال علمي، يتخيله نضال الحرب والسيف، وهو في الحالين كالجوهر الجيد الذي لا يزيده الاحتكاك إلا لمعاناً وصقلًا، وهو يعلو من أوج إلى أوج، ومن درجة إلى درجة، حتى أخذ بفضله المخالف والموافق، إلا من لم يذق بشاشة الإسلام، ولم يشرب حبه، فقد بغض إليه، كما بغض المخلصون للمنافقين، ولقد كان كل الذين ناووه وحاربوه كالحقيقة تظهر ثم تتبعها الأمواج، أما هو فكان معذناً خالصاً، لا زال اسمه يرن، وسيستمر بين الخالدين. إلى يوم القيمة»^(١).

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٩٢.

الفصل السابع

مكانته العلمية وثناء الأئمة عليه

تبوا الإمام ابن تيمية رحمة الله تعالى مكانة مرموقة في قلوب الناس في عصره، ونال مكانة رفيعة عند الأئمة والعلماء، ودام ذكره في الأجيال التي جاءت بعده إلى يومنا هذا، وهو جدير بهذا الثناء الطيب والذكر الحسن، والذي يدل على عاجل بشري المؤمن، فقد قدّم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى خدمات عظيمة للإسلام وأهله في عصره، ودفع عنهم بلسانه وقلمه وسيفه الخطر الداهم الذي كان يتهددهم من التار وغيرهم.

ولما رأى المعاصرون من العلماء والمؤخرون منهم تبحرون في العلوم، وجمعه للصفات العالية، والمميزات البارزة لم يلبثوا أن وصفوه بأسمى الصفات، فاعتبروه نادرة الزمان، إمام المحققين، آخر المجتهدين، وأية من آيات الزمان، وشهدوا بأنه على ^{الستة} المحضة، والطريقة السلفية في العقائد والأحكام، وأنثوا عليه بما لا مزيد عليه، وأنزلوه في المنزلة التي يستحقها بين العلماء، ودفعوا عنه كل شبهة نسبت إليه زوراً وبهتاناً، وردوا عن عرضه ما قاله الحاسدون الذين دبروا له المؤامرات، وكادوا له

عند الحكام، لأنهم عجزوا عن مواجهته في ميدان المناظرة، فللجأوا إلى سلاح السلطة ليعتقلوا كلمته، ولذلك ستتجدد فيما نعرضه من أقوال العلماء الكبار، ما يثبت مكانته العالية، وقدمه الراسخة في ميدان العلم، وإن كانت إماماة الشيخ رحمة الله وتقديره في العلم مما لا يحتاج إلى الاستدلال لإثباتها كما يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمة الله وغيره من أهل العلم.
ولذلك قال الإمام الشوكاني رحمة الله المتوفى ١٢٥٠ هـ

ما نصه:

«فنشر الله من فوائده ما لم ينشر بعضه لأحد من معاصريه، وترجمه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه بترجم لم يتيسر لهم مثلها، ولا ما يقاربها لأحد من الذين يتعصبون لهم، ويدأبون في نشر فضائلهم، ويطرؤون في إطرائهم، وجعل الله له من ارتفاع الصيت، ويُعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره حتى اختلف من جاء بعد عصره في شأنه واشتغلوا بأمره، فعاده قوم، وخالفهم آخرون.

والكل معترفون بقدرها، ومعظمون لها، وخاضعون لعلومها، واشتهر بينهم غاية الاشتهاهار، حتى ذكره المترجمون له في ترجمتهم فيقولون: وكان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»^(١).

(١) طلب العلم للشوكاني: ص ١٤.

ولا شك أن المكانة التي كان يتمتع بها شيخ الإسلام في قلوب الناس، والعلماء أهل الصلاح والخير، ومشاصل النور والعلم، لتعطي دلالة كبيرة على صلاحه وعلى درجته، وفي هذا يقول الأستاذ العلامة أبو الحسن الندوبي حفظه الله:

«إن ثناء حشد من الناس على رجل لا يعتبر دليلاً على قبوله عند الله، واستقامته وعلو منزلته، أما إذا شهد له رجال العلم وال بصيرة، وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله وعلو منزلته، ولا بد من أن يتصرف أتباعه ومحبوه، وجلساؤه بالصلاح والسداد، وحسن الاعتقاد والتقوى والإهتمام بالأخرة، ويتمازوا عن أبناء عصرهم في تدينيهم، وحسن سيرتهم، وهذا كان شأن شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد شهد بفضله وصحة اعتقاده، وسلامة عقيدته، ومكانته العالية، كبار رجال العلم وال بصيرة، وأصحاب الصلاح والرشد في عصره، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك، فمدحوه وأثنوا عليه»^(١).

وقد جمع الله عز وجل بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أموراً كانت متفرقة، وهدى الله به قلوبهاً كانت زائفة، ودانت ل مكانته قلوب الملوك والأمراء، وما ذلك إلا للعلوم التي وهبها الله له، ولنصرته للحق ودفاعه عنه، وفي ذلك قال الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى:

(١) ابن تيمية: للندوي: ص ١٦٧.

«أوذى في ذات الله من المخالفين، وأهين في نصر السنة
المحسنة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على
محبته والدعاء له، وكتب أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل
المملل والنحل، وجلب قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له
غالباً، وعلى طاعته، وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم
خصوصاً في كائنة التخار»^(١).

○ موقف المعارضين له:

وبالرغم من معارضة البعض له، ومناوئتهم لفكره، إلا أنهم
كانوا يعترفون بعلمه وفضله، وهذا دأب أهل العلم الصادقين
المنصفين، وفي ذلك قال الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله
تعالى:

«القد أجمع الذين عاصروه على قوة فكره، وسعة علمه، وأنه
بعيد المدى، عميق الفكر، يستوي في ذلك الأولياء والأعداء، فإن
تلك القوة الفكرية هي التي أثارت الأولياء لنصرته، وأثارت الأعداء
لعداوه، ولو كان هيناً في ذاته أو فكره، ما تحركت مناؤة
المناوئين، وما استعاناً بالقوة المانعة عن القول، وقد عجزوا عن
مجاراته، فالجميع إذن مقر بقوة عقله وعلمه، ويستوي في ذلك
العدو والولي، وما بين هؤلاء وهؤلاء، ولكن موضع الخلاف بين

(١) المعجم المختص بالشيخ للذهبي: ٦/٨١.

الأعداء والأولئك هو في الموافقة على الرأي الذي كان ينادي به، لا في قدر المنادي وقوته في العلم والفكر، وإذا كان الناس قد غضوا من قدره كعالم جليل، فليس ذلك من صميم قلوبهم إن كانوا عالمين، بل من الهوى الذي يغلب الفكر والعقل، وليس هذا شأن علماء الدين، أما الجاهلون فلا عبرة بقولهم إن أيدوا أو خالفوا، فقولهم لم يدخل في الحساب... ونستطيع أن نقول أن كل علماء عصره علموا قدر علمه، حتى من ناوأه وحاول إيذاءه، لأنه قد ضاق صدره حرجاً بمخالفته، وما يأتي به من جديد، وإن كان يستمد من القديم قوله، فلم يوافق عليه^(١).

وفي تحديد طبيعة المعارضين له وتصنيفهم يقول الأستاذ الندوى حفظه الله:

«وأما معارضوه فقد كان معظمهم ممن يتزلعون إلى الدولة، ويطلبون الدنيا، ويطمعون في الجاه والمنصب دائماً - إلا من عارضه لسوء تفاهم، أو اختلفوا معه في أصول بعض المسائل العلمية فحسب، وما من عام إلا وقد خص منه البعض - يقول مؤلف الكواكب الدرية:

«قالوا ومن أمعن النظر ببصيرته، لم ير عالماً من أهل أي بلد شاء موافقاً له إلا ورأه من اتبع علماء بلده للكتاب والشّرعة،

(١) ابن تيمية: لأبي زهرة: ٩٣-٩٤.

وأشغلهم بطلب الآخرة والرغبة فيها، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا، والإهمال لها، ولا يرى عالماً مخالفًا له، منحرفاً عنه إلا وهو من أكبرهم نهمة في جمع الدنيا، وأكثراهم رباءً وسمعة والله أعلم^(١).

و سنذكر فيما يلي طرفاً من ذكر العلماء له، وثناء أكابرهم عليه، على سبيل الاختصار، لأن حصر أسماء من أثروا عليه من الصعوبة بمكان ويحتاج إلى سفر ضخم، وهذا المكان لا يستطيع استيعابه وله وقت ومكان آخر بعون الله تعالى.

أولاً: ثناء معاصريه وكبار أهل العلم وتبجيلهم له

٥٥ شيخ الإسلام عمدة الفقهاء والمحدثين ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ):

قال بعد أن سمع كلام ابن تيمية في تحريض أعيان القاهرة على قتال التتار:

«ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك» وقال:
«لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه،
يأخذ منه ما يريد، ويدع ما يريده»^(٢).

(١) ابن تيمية: الندوى: ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/١٩٢، الكواكب الدرية: ورقة ٣، الرد الوافر: ص ١١١، الشهادة الزكية: ص ٢٩.

○ الإمام العلامة قاضي القضاة محمد بن علي ابن الزمل堪اني
الشافعي (ت ٧٢٧هـ) قال فيه:

«لم ير من خمسمائة سنة - أو قال أربعمائة سنة - الشك من
الناقل وغالب ظنه أنه قال: من خمسمائة أحفظ منه»^(١).

وقال: «هو بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو
والأصول، ملازم لأنواع الخير وتعلم العلم، حسن العبارة، قوي
في دينه، صحيح الذهن، قوي الفهم»^(٢).

وقال: «كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع
أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان
الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه
ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع
معه - ولا تكلم في علم من العلوم، سواء أكان من علوم الشرع أم
غيرها إلا فاق فيه أهله، والمنسوبيين إليه، وكانت له اليد الطولى
في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقييم والتبيين»^(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: بأنه وجد بخط ابن الزمل堪اني ثناء
على شيخ الإسلام، وكتب على تصنيف له هذه الأبيات:

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٣، الرد الوافر: ص ١٠٨، الشهادة الزكية: ص ٣٥.

(٢) الرد الوافر: ص ١٠٩، العقود الدرية.

(٣) العقود الدرية: ص ٨-٧، الرد الوافر: ١٠٧، ١٠٩، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٢.
المختصر في أخبار البشر لابن الوردي: ٤٠٦/٢.

ماذا يقول الواصفون له
 وصفاته جلت عن الحصر
 هو حجة الله قاهرة
 هو ببيننا أعيجوبة الدهر
 هو آية في الخلق ظاهرة
 أنوارها أربت على الفجر^(١)
 وكتب بخطه على كتاب بيان الدليل على إبطال التحليل
 لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله التقرير التالي:
 «من مصنفات سيدنا وشيخنا وقد وردتنا الشيخ السيد الإمام
 العالم العلامة، الأوحد البارع، الحافظ، الزاهد، الورع، القدوة
 الكامل العارف، تقي الدين، شيخ الإسلام ومفتى الأنام، سيد
 العلماء، قدوة الأئمة الفضلاء، ناصر السنة، قامع البدعة، حجة الله
 على العباد، راد أهل الزيف والعناد، أوحد العلماء العاملين آخر
 المجتهدين أبي العباس: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن
 عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، حفظ الله على
 المسلمين طول حياته، وأعاد عليهم من بركاته»^(٢) وله فيه غير
 هذا الثناء الكبير^(٣).

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٩٢/٢، تاريخ ابن الوردي: ٤١٠/٢، العقود الدرية: ص ٩، الرد الراوfer: ص ١٠٨، ١٦٢، ١٠٨، البداية والنهاية: ١٤٢/١٤، ١٤٣، ١٤٣.

(٢) العقود الدرية: ص ٨، الرد الراوfer: ص ١٠٨، الشهادة الزكية: ص ٣٧.

(٣) انظره في مواطنه من كتب التراجم.

○ العلامة الفقيه الأصولي الإمام أحد الأئمة المجتهدين شيخ الإسلام تقى الدين علي بن عبد الكافى السبكي (ت ٧٥٦هـ):

كتب إليه الحافظ الذهبي رحمه الله يعاتبه على ما صدر منه في حق ابن تيمية رحمه الله، فكتب الجواب يعتذر عن تلك الحادثات:

● أما قول سيدي في الشيخ، فالملوك يتحقق كثير قدره، وزخارفة بحره، وتوسيعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبُلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتتجاوز الوصف. والملوك يقول ذلك دائمًا، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة، والورع، والديانة، ونصرة الحق، والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه على سَنَنِ السلف، وأخذيه من ذلك المأخذ الأوفي، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل من أزمان^(١).

وقد أكد الحافظ الذهبي رحمه الله صحة هذه الحادثة، وجزم بها الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة.

○ الإمام العلامة علم القراء، أستاذ النحو أثير الدين أبو حيyan الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) اجتمع به حين سافر ابن تيمية رحمه الله إلى مصر لحضور السلطان والأمراء على الجهاد فقال فيه:

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٢-٣٩٣، الشهادة الزكية: ص ٥٨، الرد الوافر: ص ١٦٩، شذرات الذهب: ٦/٨٣، الدرر الكامنة: ١/١٠٠.

«ما رأت عيناي مثل ابن تيمية»^(١).

ثم مدحه أبو حيان - على البديهة - في المجلس فقال:

لما أتينا تقي الدين لاح لنا

داع إلى الله فرد ماله وزر^(٢)

على محياته من سيماء الأولى صحبوا

خير البرية نور، دونه القمر

حبر^(٣) تسربل منه دهره حبرا^(٤)

بخر تقاذف من أمواجه الدهر

قام ابن تيمية في نضر شرعتنا

مقام سيد تيم إذ عصت مضر

فأظهر الحق إذ آثاره درست

وأحمد الشر إذ طارت له الشر

كنا نحدث عن حبر يجيء - فها

أنت - الإمام الذي قد كان ينتظر^(٥)

(١) الرد الواfir: ١١٩، الشهادة الزكية: ص ٣١، تاريخ ابن الوردي: ٢/٤١٠.

(٢) الوزر: المعين والمساعد.

(٣) الحبر: العالم.

(٤) حبرا: جمع حبره وهو ثوب من قطن أوكتان مخطط.

(٥) تاريخ ابن الوردي: ٤١٠/٢، الدرر الكامنة: ١/١٦٢-١٦٣، ذيل طبقات

الحنابلة: ٩٢ الشهادة الزكية: ص ٣٢، إحياء الغمر: ٢/٣٣٤، النجوم الظاهرة:

١١٩-١٢٠، نفح الطيب: ٢/٥٧٨، الرد الواfir: ١٢١، ديوان أبي

حيان: ص ٤٤٧ بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب.

وقال الشيخ زين الدين ابن رجب في كتابه: «الطبقات» عن هذه الأبيات: ويقال إنَّ أبا حيَانَ لم يَقُلْ أبياتاً خيراً منها ولا أَفْحَلَ^(١).

وقال ابن فضل الله العمري رحمة الله: ثم دار بينهما كلاماً، فيه ذكر سيبويه، فقال ابنُ تيمية: فيه كلاماً، نافرُه عليه أبو حيَان، وقطعاً بسيبه، ثم عادَ من أكثر الناس ذمَّاً له، واتخذه له ذنباً لا يُغفر^(٢).

٥٥ الإمام العلَّامة قاضي القضاة عالم المناظرين، بهاء الدين محمد بن عبد البر أبو البقاء السبكي الشافعى (ت ٧٧٧هـ):

«والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهم أو صاحب هوى، فالجاهم: لا يدرى ما يقول، وصاحب الهوى: يصدُّه هواه عن الحق بعد معرفته به»^(٣).

٥٥ الفقيه العلَّامة القاضي زين الدين علي بن مخلوف المالكي (ت ٧١٦هـ):

قال: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حررنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصح عننا وحاجج عننا»^(٤).

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٩٢/٢.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٤١٠/٢.

(٣) الرد الوافر: ص ٩٩، الشهادة الزكية: ٥٨-٥٧.

(٤) البداية والنهاية: ١٤/٥٤، ذيل طبقات الحنابلة: ٤٠٠/٢.

٥٥ الإمام الحافظ، الفقيه العالم الأديب البارع أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الشافعي (ت ٧٣٤هـ):

«قال رحيمه الله في ترجمته لابن تيمية - بعد أن ذكر ترجمة الحافظ «المزي»: وهو الذي حداي على رؤية الشيخ الإمام. شيخ الإسلام: تقى الدين، أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية:

فالغفيته: ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير، فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه، فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث، فهو صاحب علمه، ذو روايته، أو حاضر بالمثل والنحل، لم يُرْ أوسع من نحلته في ذلك، ولا أرفع من درايته.

برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رأه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجم الغفير.. إلى أن دبت إليه من أهل بلده داء الحسد..»^(١).

وقد روى عنه حديثاً فقال:

(١) المعجم المختص بالصحابيين للذهبي: ص ٢٥، الرد الوافر: ٥٨-٥٩، الشهادة الزكية: ٢٦-٢٧، وذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٠، العقود الدرية: ص ١٠، الدرر الكامنة: ١/١٦٦-١٦٧.

«قرأت على الشيخ الإمام، حامل راية العلوم، ومدرك غاية الفهوم، تقي الدين أبي العباس..»^(١).

٥٥ الإمام الحافظ الثقة الحجة، مؤرخ الشام، وأحد محدثي الإسلام فقيه المحدثين علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الإشبيلي، صاحب التاريخ الخطير والمعجم الكبير (ت ٧٣٨هـ):

ذكر البرزالي رحمة الله في معجم شيوخه الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمة الله فقال: «... الإمام المجمع على فضله وثبته ودينه، قرأ القرآن وبَرَأَ فيه، والعربيَّة، والأصول، ومَهَرَ في علمي التفسير والحديث، وكان إماماً يُلْحِقُ غبَارَهُ في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتِهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدِين...»^(٢).

٥٥ العلامة المتفنن في العلوم عمر بن مظفر بن عمر، أبي الفوارس ابن الوردي الحلبي، الشافعي (ت ٧٤٩هـ):

قال في رحلته - لما ذكر علماء دمشق - :

«وتركَتُ التَّعَصُّبَ وَالْحَمِيَّةَ، وحضرت مجالس ابن تيمية، فإذا هو بيت القصيدة، وأول الخريدة^(٣)، علماء زمانه فَلَكُ، هو قُطْبُهُ، وجِسْمُهُ، هو قلبه، يزيَّدُ عليهم زيادة الشمس على البدور،

(١) الرد الوافر: ص ٦٠، الشهادة الزكية: ص ٢.

(٢) الرد الوافر: ص ٢١٨، الشهادة الزكية: ص ٤٨، العقود الدرية: ص ١٢.

(٣) الخريدة: اللولوة البكر قبل ثقبها.

والبحر على القطر.

بحشت بين يديه يوماً، فأصبتُ المعنى، فكتّاني، وَقَبْلَ بين عيني اليمنى، فقلت:
إنَّ ابْنَ تِيمَةَ فِي
كُلِّ الْعِلْمِ وَاحِدٌ
أَحْبَبْتَ دِينَ أَحْمَدَ
وَشَرَعَةَ يَاءِ أَحْمَدَ^(١)

٥٥ الإمام القدوة العارف العالم الرباني عماد الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي الحزامي ابن شيخ الحزاميين (ت ٧١١هـ):

له في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالة لطيفة يشني عليه فيها، ويوصي أصحابه وأهل العلم في دمشق بمعرفة حقه اسمها «الذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار في الثناء على شيخ الإسلام والوصاية به»^(٢) أقطع منها هذه الزهرة، حيث قال:

«واعلموا - رحمكم الله - أن هنا من^(٣) سافر إلى الأقاليم، وعرف الناس وأذواقهم وأشرف على أغلب أحوالهم، فوالله، ثم

(١) تاريخ ابن الوردي: ٤٠٧/٢، الشهادة الزكية: ص ٣٠، الكواكب الدرية: ورقة ٣ أ.

(٢) طبعت بتحقيق د. عبد الرحمن بن عبد لجبار الفريواني، وصدرت عن دار العاصمة للنشر والتوزيع في الرياض.

(٣) يزيد نفسه رحمه الله.

والله، ثم والله لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم، علمًا وعملاً وحالاً وخلقاً وابداعاً وكرماً وحلماً في حق نفسه، وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقداً، وأصحهم علمًا وعزمًا، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفأً، وأكملهم اتباعاً لنبيه ﷺ.

ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وستتها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة^(١).

ثانياً: ثناء تلاميذه ومن هو في درجتهم عليه، وتقديرهم له

٥٥ حافظ الإسلام محدث الأعلام الحبر النبيل شيخ المحدثين جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي الشافعي (ت ٤٧٤هـ):

قال رحمه الله:

«ما رأيت مثله» ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنة رسوله الله ﷺ، ولا أتبع لهما منه^(٢).
وقال أيضاً:

«ابن تيمية» لم يُر مثله منذ أربعمائة سنة^(٣).

(١) التذكرة والاعتبار ص ٣٧، الرد الواfir: ١٣٠، العقود الدرية: ص ٣١١-٣١٢.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٤٥، الرد الواfir: ٢٣٠، العقود الدرية: ص ٧.

وقال: قاضي القضاة صالح بن عمر البلقيني الشافعى: لقد افتخر قاضي القضاة - تاج الدين السبكي - في ترجمة أبيه - الشيخ تقى الدين السبكي - في ثناء الأئمة عليه بقوله:

«أن الحافظ المزى لم يكتب بخطه لفظة «شيخ الإسلام» إلا لأبيه، وللشيخ تقى الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر الحنفى»^(١).

وقال البلقيني رحمة الله:

«فلولا أن ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل، ما قرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً أو زنديقاً ما رضي أن يكون أباه قريناً له»^(٢).

٥٥ الإمام، الحافظ الهمام، مؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، وإمام المعدلين وال مجرحين، والمعتمد عليه في المدح والقدح: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ):

وقد ترجم الذهبي رحمة الله لشيخ الإسلام تراجم عديدة في عدة موضع من كتبه، وأثنى عليه ثناءً حسناً، وهي تراجم

(١) الشهادة الزكية: ص ٤٥ ، الرد الوافر: ٢٣٠.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٤٩ ، طبقات الشافعية الكبرى: ١٦٨/٦ ، الرد الوافر ص ٢٥٠.

(٣) الرد الوافر: ص ٢٥٠.

أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر كما قال ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه الرد الوافر^(١).

وقد أوردت مقاطع من ثناء الإمام الذهبي على شيخ الإسلام في مواطن مختلفة من هذا الكتاب حيث اقتضى التنويع على ذلك، ولكنني سأورد هذه المقتطفات إضافة إلى كل ما سبق، ومن أراد المزيد فيستطيع أن يرجع إليها في مظانها من الكتب المشار إليها:

قال رحمة الله تعالى مثنىً على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله:

«شيخنا وشيخ الإسلام، وفريد العصر علمًا ومعرفة وشجاعة، وذكاء، وتنويراً إلهياً، وكرماً ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر... وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي».

فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه في العلم»^(٢).

«الشيخ الإمام العلامة، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر البارع، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر.. كان من

(١) الرد الوافر: ص ٧٢.

(٢) شذرات الذهب: ٦/٨٢-٨١، ذيل طبقات الحتابلة: ٢/٣٨٩، الدرر الكامنة: ٩/٦٨-٦٦٩، الرد الوافر: ص ٧، العقود الدرية: ص ١١٨، الشهادة الزكية: ٤٢.

بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثني عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان»^(١).

«ولم يخلفه بعده مثله في العلم ولا من يقاربه»^(٢).

«هو بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له»^(٣).

«الشيخ الإمام العالم، المفسر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفترط»^(٤).

«كان آية في الذكاء، وفي سرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنّة والاختلاف، بحراً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علمأً وزهداً وشجاعة وسخاء، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وكثرة تصانيف»^(٥).

«كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحسن، موصوفاً بفرط الشجاعة

(١) تذكرة الحفاظ: ص ١٤٩٦.

(٢) المعجم المختص بالشيخ: ١/٥٧.

(٣) ثلاث ترافق نفيسة: ص ٢٥.

(٤) ثلاث ترافق نفيسة: ص ٢١-٢٢.

(٥) فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٢، العقود الدرية: ص ٤٠-٣٩، الكواكب الدرية: ٤ بـ ٥.

والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه، والعمل بمقتضاه^(١).
وغير هذا الثناء الكثير الكثير.

٥٥ الإمام العلامة، أحد المحققين، علم المصنفين، نادرة المفسرين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعبي الدمشقي ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) قال فيه:

«شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق، ونصرة الدين، الداعي إلى الله ورسوله، المجاهد في سبيله، الذي أضحك الله به من الدين ما كان عابساً، وأحيى من السنة ما كان دارساً، والنور الذي أطلاعه الله في ليل الشبهات، فكشف به غياه布 الظلمات، وفتح به من القلوب - مقللها - وأزاح به عن النفوس - عللها -، فقمع به زيف الزائغين، وشك الشاكين، وانتحال المبطلين، وصدقت به بشارة رسول رب العالمين: يقول ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ويقوله: «يحمل هذا العلم، من كل خلف عدُولُهُ، ينفون عنه، تحريف الغالين، وانتحال المبطلين».

وهو الشيخ العلامة، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، الحافظ، المتبوع تقى الدين، أبو العباس..»^(٢).

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٠.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٣٤، الرد الوافر: ١٢٢ - ١٢٣.

٥٥ الإمام العلامة الحافظ ثقة المحدثين عمدة المؤرخين، علم المفسرين، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي (ت ٧٧٤هـ):

ترجم لشيخ الإسلام مراراً كثيرة لا تحصى. وقد قال: «وبالجملة كان - رحمه الله - من كبار العلماء، وممن يخطىء ويصيب، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضاً مغفور له كما في صحيح البخاري، إذا اجتهد الحاكم فصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر^(١) فهو مأجور..»^(٢).

٥٥ الإمام العلامة، الحافظ، الناقد، ذو الفنون، عمدة المحدثين، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي (ت ٧٤٤هـ):

كتب في ترجمة شيخ الإسلام والثناء عليه كتابه الرائع «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية»، ومن جملة ما قاله:

«الشيخ، الإمام، العالم العامل، الرباني، إمام الأئمة، وعلامة الأمة، ومفتى الفرق، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني

(١) أخرجه البخاري: ١٣/٣١٧، ومسلم برقم: ١٧١٦ من حديث عمرو بن العاص.

(٢) الرد الواffer: ص ١٦٦، البداية والنهاية: ١٤٠/١٤.

والألفاظ، فريد العصر، ووحيد الدهر، شيخ الإسلام، بركة الأنام، علامة الزمان، وترجمان القرآن، وعلم الزمان، وأوحد العباد، قامع المبتدعين، وأخر المجتهدين، تقي الدين، أبو العباس.

«.. كان بحراً لا تكدره الدلاء، وحبراً يقتدي به الرجال الألباء، وطغت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»^(١).

٥٥ القاضي الفاضل، البارع، النبيل، العالم، الأصيل، أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العدوي العمري، الشافعي:

ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله ترجمة حافلة في كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ذكر فيها ما نصه: «أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، العلامة، الحافظ، المجتهد، المفسر، شيخ الإسلام، نادرة العصر، علم الزهاد.

هو البحر من أي النواحي جنته، والبدر من أي الضواحي رأيته، رضع ثدي العلم منذ فطم، وطلع وجهُ الصباح ليحاكيه فلطم، وقطع الليل والنهر ردائين، اتخد العلم والعمل صاحبين، إلى أن أنسى السَّلْفَ بهداه...

جاء في عصر مأهول بالعلماء، مشحون بنجوم السماء، تموج في جوانبه بحور خضارم، وتطير بين خافقية نسور قشاعم..

(١) العقود الدرية: ص ١٨، الشهادة الزكية: ص ٥٢-٥٣، الرد الواfir: ٦٤-٦٥.

إلا أن شمسه طمس تلك النجوم، وبحره طم على تلك الغيم،
وابتلع غديره المطمئن جداولها.

كان إماماً في التفسير، وعلوم القرآن، عارفاً بالفقه،
واختلاف الفقهاء والأصوليين، والنحو وما يتعلق به، واللغة،
والمنطق، وعلم الهيئة، والجبر، والمقابلة، وعلم الحساب، وعلم
أهل الكتابين، وعلم أهل البدع، وغير ذلك من العلوم النقلية
والعقلية.

وما تكلم معه فاضل - في فن من الفنون - إلا ظن أن ذلك
الفن فنه^(١).

٥٥ الإمام الحافظ المؤرخ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي
الشافعي (ت ٧٦٤هـ):

قال فيه وقد ترجمه ترجمة وافية في كتابه الواقفي
باللوفيات^(٢).

«الشيخ الإمام العالم العلامة المفسر الفقيه المجتهد،
الحافظ، المحدث شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف
والذكاء، والحافظة المفرطة تقي الدين أبو العباس..»^(٣).

(١) الشهادة الزكية: ٥٥-٥٦، الرد الواقفي: ١٤٧-١٤٨.

(٢) الواقفي باللوفيات: ٧/١٥-٣٣.

(٣) ٧/١٥.

«وعلى الجملة فما رأيت ولا أرى مثله في اطلاعه وحافظته، ولقد صدق ما سمعنا به عن الحفاظ الأول، وكانت همته عليه إلى الغاية..»^(١).

«.. وكان إذا تكلم أغمض عينيه، وازدحمت العبارة على لسانه، فرأيت العجب العجيب، والجُبُرُ الذي ما له مشاكل في فنونه ولا ضريب، والعالَمُ الذي أخذ من كل شيء بنصيب سهمه للأغراض مصيبة، والمُناظِرُ الذي إذا جال في حومة الجدال رمى الخصوم من مباحثه باليوم العصيب: وعاينت بدرًا لا يرى البدر مثله

وخطبَت بحراً لا يرى العَبْرَ عائِمَّةً^(٢)

٥٥ العالم الفاضل المحدث البارع، المؤرخ، جمال المؤرخين، شمس الدين محمد بن يحيى بن مفلح المقدسي الصالحي (ت ٧٥٩هـ):

كتب بخطه في طبقة سماع «الجزء الحسن بن عرفة»:
«الشيخ، الإمام، العالم، العلامة، الأوحد، البارع، الحجة،
الحافظ، الزاهد، العابد، الورع،شيخ مشايخ الإسلام، بقية الأنمة

(١) الوفي بالوفيات: ٢٢/٧.

(٢) المصدر السابق: ١٩/٧.

الأعلام، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علامَة الزَّمَان، فريد العصر
والأوان، بحر العلوم: تقى الدين، أبو العباس أحمد..»^(١).

٥٥ الإمام العلَّامة، الزاهد، القدوة، الحافظ، الحجَّة، واعظ
ال المسلمين، مفید المحدثين زین الدین أبو الفرج عبد الرحمن بن
أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ):

ترجم لشيخ الإسلام ترجمة ضافية في كتابه «ذيل طبقات
الحنابلة» قال في مقدمتها:

«الإمام الفقيه، المجتهد، المحدث، الحافظ، المفسر،
الأصولي، الزاهد، تقى الدين أبو العباس، شيخ الإسلام، وعلم
الأعلام، وشهرته تغنى عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في
أمره...»^(٢).

٥٥ الإمام العلَّامة الحافظ الكبير الحجَّة عمدة العلماء الأيقاظ،
محدث الفقهاء، وفقىء المحدثين صلاح الدين أبو سعيد خليل بن
كيكلي العلائي (ت ٧٦١هـ):

قال الحافظ ابن حجر رحمة الله:

«قرأت بخط الحافظ صلاح الدين العلائي في ثبت شيخ
شيوخنا الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد بن خليل ما نصه:

(١) الشهادة الزكية: ص ٦٠.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٨٧، الرد الواfter: ١٨٩، الشهادة الزكية: ص ٥٠.

شيخنا وسيدنا وإمامنا فيما بيننا وبين الله تعالى، شيخ التحقيق السالك بمن اتبعه أحسن طريق، ذي الفضائل المتكاثرة والحجج القاهرة، التي أقرت الأمم كافة أن هممها عن حصرها قاصرة، ومتعمنا الله بعلومه الفاخرة، ونفعنا به في الدنيا والآخرة، وهو الشيخ الإمام العالم، الرباني، والجبر البحري، القطب النوراني، إمام الأئمة، بركة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين أوحد علماء الدين، شيخ الإسلام، حجة الأعلام قدوة الأنام، برهان المتعلمين، قامع المبتدعين، سيف المناظرين بحر العلوم، كنز المستفيدين، ترجمان القرآن، أعيجوبة الزمان، فريد العصر والأوان، تقى الدين إمام المسلمين، حجة الله على العالمين، اللاحق بالصالحين، والمشبه بالماضين، مفتى الفرق، ناصر الحق، علامة الهدى، عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة، ذو الفنون البديعة أبو العباس ابن تيمية^(١).

وبهذا يعلم كذب المقوله أن النصيحة الذهبية نقلت بخط العلائي، فها هو العلائي رحمة الله يشفي كل هذا الثناء على شيخ ابن تيمية رحمة الله، فكيف ينقل ما نسب للذهبي أنه قاله في ابن تيمية زوراً وبهتاناً على الذهبي رحمة الله.

(١) الدرر الكامنة: ١/١٦٩-١٧٠.

وانظر أيضاً ما كتبه العلائي رحمة الله في انتقاءه وسماعه لأحاديث من جزء الحسن بن عرف على شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الرد الوافر^(١).

ثالثاً: ثناء الأكابر الآخرين

٥٥ الإمام الحافظ، المحدث، الفقيه، أمير المؤمنين في الحديث، قاضي القضاة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ):

«قال في تقريره «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي رحمة الله تعالى: «وشهرة إمامية الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس، وتلقبيه «بشيخ الإسلام» في عصره، باقٍ إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو تجنب الإنفاق، فما أغلط من تعاطى ذلك وأكثر عتاده، فالله تعالى المسؤول أن يقينا شرور أنفسنا وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله».

.. فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتميز في المنطق والمفهوم، أئمة عصره من الشافعية وغيرهم! فضلاً عن الحنابلة^(٢).

(١) الرد الوافر: ص ١٧٤.

(٢) الرد الوافر: ص ٢٤٨، الشهادة الزكية: ص ٧٢-٧٤.

ووصفه في كتابه *فتح الباري* بصفة «العلامة»^(١).

الإمام الهمام، شيخ الإسلام، صاحب *تحرير الكلام*، وإمام الحنفية في زمانه بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥هـ):

قال في تقريره لكتاب «الرد الواffer لابن ناصر الدين الدمشقي رحمهما الله تعالى»:

«.. وهو الإمام، الفاضل، البارع، التقى، النقى، الورع، الفارس في علمي الحديث والتفسير، والفقه، والأصول بالتقرير والتحرير، والسيف الصارم على المبتدعين، والجبر القائم بأمور الدين، والأمار بالمعروف، والناهي عن المنكر، ذو همة وشجاعة وإقدام فيما يروع ويزجر، كثير الذكر، والصوم، والصلوة والعبادة، خشن العيش، والقناعة من دون طلب الزيادة»^(٢).

الإمام العلامة، الحافظ، المجتهد، شيخ الإسلام عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البليقيني (ت ٨٠٥هـ):

«.. عالم زمانه، والفائق على أقرانه، والذاب عن شريعة المصطفى باللسان والقلم، والمناضل عن الدين الحنفي، وكم أبدى من الحكم.

(١) *فتح الباري*: ٦/٢٨٩.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٧٧، الرد الواffer: ٢٦١-٢٦٢.

صاحب المصنفات المشهورة، والمؤلفات المأثورة، الناطقة
بالرد على أهل البدع والإلحاد، القائلين بالحلول والاتحاد، ومن
هذا شأنه كيف لا يلقب بشيخ الإسلام؛ وينوه بذكره بين العلماء
الأعلام، ولا عبرة بمن يرميه بما ليس فيه، أو ينسبه بمجرد
الأهواء إلى قول غير وجيه، فلم يضره قول الحاسد والباغي،
والجادل والطاغي:
وما ضرَّ نور الشمس إن كان ناظراً

إليه عيون لم تزل دهرها عميا
حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
فالقوم أعداء له وخصوم
أعادنا الله من حسده يسدُّ باب الإنصاف، ويصد عن جميل
الأوصاف».

«.. ولقد افترخ قاضي القضاة، تاج الدين السبكي - رحمه الله تعالى - في ترجمة أبيه الشيخ «تقي الدين السبكي» في ثناء الأئمة عليه: بأن الحافظ المزي لم يكتب بخطه لفظة «شيخ الإسلام» إلا لأبيه، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين ابن أبي عمر، فلو لا أنَّ ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل، ما قرن ابنُ السبكي أباً معه في هذه المنقبة التي نقلها، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً، أو زنديقاً، ما رضي أن يكون أبوه قريباً له»^(١).

(١) الشهادة الزكية: ص ٤٦، الرد الرافر: ص ٢٤٩

٥٥ الإمام الحافظ المحدث جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت ٩١١هـ):

قال في ترجمته في طبقات الحفاظ:

«ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتري شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام.

.. وعني بالحديث، وخرج وانتقى، وبرع في الرجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام، وعلم الكلام، وغير ذلك، وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد، والأفراد..»^(١).

٥٥ العلامة علي بن سلطان محمد القاري الهروي (ت ١٠١٤هـ):

قال رحمة الله:

«ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما - يعني ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - كانوا من أكابر أهل السنة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة»^(٢).

(١) طبقات الحفاظ ص: ٥٢٠-٥٢١.

(٢) مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصايخ: ٤٢٧/٤.

٥٥ المؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي
(ت ١٠٨٩هـ):

قال في ترجمته:

«شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس .. بل المجتهد
المطلق»^(١).

وترجم له ترجمة حافلة.

٥٦ الإمام الفقيه المحدث شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني
(ت ١٢٥٠هـ):

«فنشر الله من فوائدہ ما لم ينشر بعضه لأحد من معاصریه،
وترجمہ أعداؤه فضلاً عن أصدقائے بتراجم لم يتيسر لهم مثلها،
ولا ما يقاربها لأحد من الذين يتعصبون لهم، ويدأبون في نشر
فضائلهم، ويطرؤون في إطرائهم، وجعل الله له من ارتفاع الصيت،
ويُعد الشهرة ما لم يكن لأحد من أهل عصره حتى اختلف من
جاء بعد عصره في شأنه، واشتغلوا بأمره، فعاده قوم، وخالفهم
آخرون.

والكل معترفون بقدره، ومعظمون لأمره، وخاضعون
لعلومه، واشتهر هذا بينهم غاية الاشتهر، حتى ذكره المترجمون

(١) شذرات الذهب: ٦/٨٠.

لهم في تراجمهم فيقولون: وكان من المائلين إلى ابن تيمية، أو
المائلين عنه»^(١).

وبعد كل هذا الثناء عليه، وهو ليس كل ما قيل في الثناء
عليه يتبيّن لنا صدق العبارة التي قالها الشيخ الإمام محمد أبو
زهرة رحمه الله حيث قال:

«ولو أحصيت أو حاولت أن تحصي أقوال الذين قدروه
حق قدره، وعرفوا حقيقة أمره، واعترفوا بمنزلته لضاق مجلد
ضخم من أن يسعها، ويحيط بها».

وكيف لا يكون الثناء عاطراً، والمكانة التي تأهل لها
ووصلها جليلة وخطيرة، والعلم الذي بين جنبيه لم ينله أحد من
أهل عصره، وقد عرف له ذلك أعداؤه وأصدقاؤه على حد سواء،
وها هي كلمات الحافظ الذهبي والحافظ ابن حجر رحمهما الله
تعالى تدل على ذلك:

فقد قال الذهبي رحمه الله:

«.. لو لاطف خصومه لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم
خاضعون لعلومه، معرفون بشغوفه، مقررون بنور خطئه، وإنه
بحر لا ساحل له، وكتز لا نظير له»^(٢).

وقول ابن حجر رحمه الله:

(١) طلب العلم للشوكاني: ص ١٤.

(٢) الدرر الكامنة: ١٦١/١.

«ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مراراً بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع... .. ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه، وكثرة ورعة وزهده، ووصفه بالسخاء والشجاعة، وغير ذلك من قيامه في نصر الإسلام والدعاة إلى الله تعالى في السر والعلانية»^(١).

وكيف لا يقرؤن بعلمه وفضله وقد حوى من العلوم ما لم يتيسر لغيره، ينتقي منها ما يشاء، ويترك ما يشاء وقد نشرت أمام عينيه، وانكشفت بين يديه وما أجمل كلمات شيخ الإسلام ابن دقيق العيد رحمه الله وهو يقول:

«رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما يشاء منها، ويترك ما شاء»^(٢).

فرحمة الله رحمة واسعة، وأكرم نزله، ورفع عنده درجته ودرجات أهل العلم والفضل أجمعين.

(١) الرد الواfir: ص ٢٤٧.

(٢) شذرات الذهب: ٦/٨٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٢، والشهادة الزكية: ص ٢٩.

الفصل التاسع

«مؤلفات شيخ الإسلام وقيمتها العلمية»

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله أحد كبار العلماء الأفذاذ الذين أثروا المكتبة الإسلامية بكنوز كثيرة غاية في الجودة، وذلك في مختلف مجالات العلم الشريف، ولا شك أن التراث العلمي الذي يخلفه أي عالم من العلماء هو من أكبر الأدلة على علو مكانته العلمية، كما أن مصنفاته ومؤلفاته تعتبر من أصدق المصادر وأعلاها في القيمة العلمية لتدوين سيرته، وخاصة إذا كانت شخصيته العلمية بارزة وواضحة في مؤلفاته.

وقد أجمع المواقف والمخالف في الإخبار عن غزارة علوم شيخ الإسلام، وسعة اطلاعه وعارفه، وبأنه من أفاد في ميدان التأليف طلبة العلم وأهله بتصانيف بدعة، غزيرة الفوائد، لم يسبق إلى مثلها، ولم يلحق في شكلها.

○ قيمة مصنفاته العلمية:

وزن العلماء كتب شيخ الإسلام ومؤلفاته، وعرفوا قيمتها، وأدركوا عظيم الفوائد المجتناة في رحابها، ولذلك أثروا عليها وعلى مؤلفها، وذكروا سعة انتشارها.

قال الذهبي رحمه الله:

«صنف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - التصانيف البدعية، التي سارت بها الركبان، والتي لم يسبق إلى مثلها، ولا يلحق في شكلها توحيداً، وتفسيراً، وإخلاصاً، وفقها، وحديثاً ولغة ونحواً، وبجميع العلوم كتبه طافحة بذلك»^(١).

وقال:

«ولقد سارت بتصانيفه الركبان في فنون من العلم، وألوان، لعل تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع، والزهد، واليقين، والتوكل، والإخلاص، وغير ذلك، تبلغ ثلاثة مجلدات، لا بل أكثر»^(٢).

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله: «ولا أعلم أحداً من متقدمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملأها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب.

ومن شهد له بطول الاباع في التصنيف والترتيب، وجودة العبارة والتركيب، عصريه الحافظ ابن الزملکاني رحمه الله حيث قال:

(١) المعجم المختص بالصحابيين: ص ٢٥، تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٧، الرد الواfir: ص ٦٣.

(٢) ثلاث ترافق نفيسة: ص ٢٣.

«كان له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين»^(١).

وكذلك محمد راغب باشا (ـ ١١٧٦هـ) وهو أحد مخالفي شيخ الإسلام حيث قال:

«ولكن يظهر للناظر فيه [أي في كتاب درء تعارض العقل والنقل] أن الرجل على علاته كيف كان شجرة في العلوم، واقتداره على إلزام الخصوم، مع ما يستفيد منه فوائد لا يستغنى عن اقتناصها الطالب، ولا ينشئي عن اصطياده من هو في اقتناص الشوارد راغب»^(٢).

ومن هذا نستطيع التبيين أن كتابات شيخ الإسلام رحمة الله كانت تتمتع بقيمة علمية عالية، فقد تعددت ألوانها في شتى المجالات، وهي تعتبر بحق من نوادر تاريخ التأليف، وقد تميزت بالقدرة العجيبة على إلزام الخصوم، وسعة الأفق الواضحة حيث دعم سعة الأفق اطلاع واسع على شتى العلوم والفنون، فما كان يفتح باباً من العلم إلا وظن من سمعه، أوقرأ له أنه لا يتقن إلا هذا الفن، ولا دخل ناحية من نواحيه إلا وفتح له فيها أبواباً من

(١) العقود الدرية: ص ٨-٧، الرد الوافر: ١٠٧، ذيل طبقات الحنابلة: ٣٩٢/٢، المختصر في أخبار البشر لابن الوردي: ٤٠٦/٢.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ١/ ٢٤-٢٥ من سماعات النسخة (طبعة جامعة الإمام ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م).

العلم لم تكن تخطر ببال أحد، وقد تميزت هذه المؤلفات باطلاع صاحبها المدهش على الخلافيات، والقول الفصل في القضايا المختلفة فيها بين الفقهاء، وقوة استحضاره للأدلة من الكتاب والسنّة وأقوال السلف الصالح، بحيث أن من يقرأها ينشرح صدره، ويطمئن قلبه لما يقرأ.

وأما عن تأثير كتبه ومصنفاته وانتشارها، فإن باحث دائرة المعارف الإسلامية يعجب من شدة تأثيرها فيقول:

«إن ابن تيمية من المؤلفين الذين لهم تأثير كبير على أهل الإسلام من الزمان الغابر إلى الآن وخاصة على أهل السنّة»^(١).

○ منهجه في مؤلفاته:

ويمكن استخلاص هذا المنهج من خلال النظر في مؤلفاته رحمة الله تعالى، والتي تبرز فيها شخصيته ومنهجه بشكل واضح جداً، ونستطيع أن نلخص هذا المنهج على شكل نقاط على النحو التالي:

- ١ - الارتباط بالحياة والواقع من خلال عيش الأحداث وتسجيلها ومناقشتها، ووضع الرأي السديد والصائب فيه، مما أكسب كتبه ومصنفاته قوة وحيوية وتأثيراً عميقاً في النفوس يندر أن تجد ذلك في كتب غيره من المؤلفين.

(١) الندوة العالمية عن شيخ الإسلام: ص ٢٠٧.

٢ - استعماله الأسلوب العلمي في إقناع الخصوم والزامهم الحجة من خلال الاحتجاج عليهم بكلام أثمنهم، واستخدام أساليبهم الجدلية والمنطقية مما يضيق دائرة المناقضة على الخصم.

٣ - الوضوح لأنها كانت في أغلب الأحيان ردوداً على مجادلات، أو نقداً لنواحي واجتها دات شرعية.

٤ - الأسلوب الموسوعي في جمع أطراف الفكرة الواحدة مما أكسب مؤلفاته ميزة خاصة تجعل قارئها يستغنى بما فيها من معلومات قيمة عن كتب كثيرة، بل عن مكتبة ضخمة، تغنى القارئ عن الرجوع إلى المصادر والمراجع حول الموضوع الذي يبحث فيه.

٥ - الإكثار من النقل عن الأئمة، مما أكسب مؤلفاته القوة والأصالة، ثم إلهاقه هذه النقول بتعليقاته وإيضاحاته، مع بيان المنزلة العلمية التي كان يتمتع بها هذا الإمام الذي نقل عنه، وهذا يشعر القارئ أن شيخ الإسلام كان يعرف الفضل لأهله.

٦ - تبرز هذه المؤلفات اطلاع شيخ الإسلام المدهش على الخلافيات، ودراساته المقارنة للمسائل التي يعرضها، مما جعل أحكامه أقرب إلى السلامة الكاملة، والدقة المتناهية، وندرة الخطأ، وجعل هذه الأحكام الأقرب إلى عقول وقلوب الناس، وكذلك الأقرب إلى إقناعهم.

٧ - خلو منهجه من الجفاف والتعقيد في عرض القضايا الفقهية، لأن سمة الجفاف والتعقيد كانت تسيطر على مؤلفات المتأخرین في الجانب الفقهي، فابتعد رحمة الله عنها في مصنفاته الفقهية، مما أعطى الفقه الإسلامي دفعة قوية، وقبولاً في نفوس الناس، وخاصة حين يعرض منهج السلف رحمهم الله، فالقارئ حين يقرأ يشعر بسلامة الألفاظ، وفيضان العلم في طيات هذه المؤلفات، وهذه السمة كانت تصاحبه حتى في مجالسه العلمية.

٨ - القدرة على الاستنباط وتأصيل القواعد تفريع المسائل، وقوة الحُجَّة في المُناَظِرَة، مما أكسب كتبه قوة كبيرة، وإمتاع للقارئ عظيم.

٩ - المعرفة الواسعة لمقاصد الشرع، والاطلاع الكبير على روح الدين وتشريعاته وشرحه الناجح لهما.

١٠ - الأمانة العلمية وتحري الدقة في النقل، فالنقول التي كان يوردها لم تكن في كثير من الأحيان بالمعنى وإنما كان يوردها بلفظها ونصها تماماً، مع العزو للمصدر والقائل.

١١ - الاستطراد في النقل أحياناً، حتى إنه أثناء إيراد كلام بعض الأئمة العلماء يذكر مسائل ليس لها علاقة مباشرة بأصل الكتاب الذي يصنفه.

١٢ - التجدد للحق وقبوله ممن جاء به على الرغم أنه قد يكون مخالفاً له في كثير من الأمور والمسائل العلمية، واتباعه

الموضوعية والعدالة حين يبني على من يقم بالرد عليهم، ويدرك الجوانب الإيجابية لديهم، وهذا أمر قد عرف عنه، واشتهر به، فهو لا يغمس أحداً من الآخرين حقه، ولا يهضم ما عنده من الإيجابيات.

١٣ - التكرار وإعادة البحث للموضوع الواحد في أكثر من موضع، ففي بعض تصانيفه يكاد ينقل كثيراً مما قال في مواطن أخرى ولعل ذلك ناتج من حرصه على التأكيد على أهمية الموضوع الذي يبحثه.

١٤ - سعة أفقه رحمة الله تعالى، واطلاعه المدهش على مختلف العلوم والفنون في عصره، مما جعله واثقاً مما يقول، وأكسبه ذلك قوة كبيرة في مناقشة أو بحث أية قضية لأنه يلم بها من جميع أطرافها.

١٥ - سرعة بديهته، وقوة استحضاره للدليل من كتاب الله وسنته رسوله ﷺ، وأقوال السلف الصالح، فتراه يسوق الأدلة ببراهة تثير الإعجاب عند الحفاظ والمتقنين، وأهل العلم المختصين، حتى جعلت الحافظ الذهبي يعجب من ذلك فيقول: «ما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه»^{(١)(٢)}.

(١) الدرر الكامنة: ١/١٦٠.

(٢) ابن تيمية لأبي زهرة: ٥٢١-٥٢٤، ابن تيمية للندي: ١٣٣-١٣٩، مقدمة الحمورية: ٧٢-٧٩.

ولعل الأمر الذي يؤخذ عليه في مصنفاته هو الأطناب والتطويل، والانتقال من موضوع إلى موضوع آخر لأدنى مناسبة، مما يوقع القارئ في حيرة شديدة خاصة إذا كان يجهل أسلوبه وطريقة تأليفه.

وهذا يعود إلى حدة ذهنه، وفرط ذكائه، ووفرة علمه، وحماس طبيعته، فإذا تجلد طالب العلم الصادق، ودأب على القراءة والتحصيل والغوص في معانيها عاد بدرر ثمينة ولآلئ فاخرة^(١).

٥- أسباب غزارة عطائه العلمي:

إن ما قام بتصنيفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يعجز الكثيرون عن القيام به مجتمعين، ولا شك أن توفيق الله تعالى وفضله أولاً وأخراً كانا يصاحبانه، علاوة على الأسباب الفطرية والمكتسبة التي توفرت فيه رحمه الله، ولعلنا نلخص هذه الأسباب في الأمور التالية:

١- البدء بالتأليف في سن مبكرة:

ابتدأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رحلته مع التصنيف والتأليف في سن مبكرة، وهذا مما يدل على نبوغه المبكر وطول باعه في مجال العلم، وفي هذا يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:

(١) ابن تيمية للتدوي: ١٣٦-١٣٧.

«وأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتصنيف من ذلك الوقت وأكب على الاشتغال»^(١).

ويقول الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«شرع الشيخ في الجمع والتصنيف من دون العشرين، ولم يزل في علو وازدياد من العلم والقدر إلى آخر عمره»^(٢).

وإذا علمنا أنه قد عاش (٦٧) عاماً، واشتغل بالتأليف في ذلك السن المبكرة فإن ذلك يعني أنه اشتغل بالتأليف والتصنيف حوالي نصف قرن من الزمان تقربياً، وهذا يوضح لنا كثرة مؤلفاته وتصانيفه رحمه الله.

٢ - غزارة علومه وعارفه:

استطاع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن يلم بفنون الثقافة في عصره في وقت مبكر، ساعده في ذلك حافظة خارقة، فقد كان يحفظ كل ما يقع تحت عينيه، وقد ذكرت نتفاً من ذلك في فصل نشأته وطلبه للعلم، وكان مع ذلك حريصاً على الوقت جداً لا يضيع منه شيئاً أبداً، ويعزف عما ينصرف إليه أقرانه في بداية مرحلة الطلب، ولم يكتفَ عن الدراسة القراءة والبحث والتأليف طول عمره وفي مختلف أحواله^(٣).

(١) العقود الدرية: ص ٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٨٨ / ٢.

(٣) فوات الوفيات: ٦٤ / ١.

وقد مَهَرَ في سائر العلوم التي كانت معروفة في عصره من تفسير، وحديث، وتوحيد وفقه، وأصول، وتاريخ، ونحو، وصرف، وبلاهة، وجبر، ومقابلة، وحساب، ومنطق، وفلسفة، وغير ذلك من العلوم التي كانت معروفة، وكان واقفاً على أصول الديانات كاليهودية والنصرانية، وكذلك الفرق الضالة القديمة، التي كانت في عصره كالفرق الباطنية وغيرها.

وأمد الله بكثرة الكَتُب وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان حتى قال غير واحد من أهل العلم: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه»^(١).

وقد ذكر أهل العلم والفضل في عصره غزارة علومه وشهدوا له ذلك: قال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله: «ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روایته، أو حاضر بالمملل والنحل لم يَرْ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، برب في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عينٌ من رأه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه»^(٢).

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

(١) شذرات الذهب: ٦/٨١.

(٢) الدرر الكامنة: ١٥٤، الرد الواffer: ص ٢٦، العقود الدرية: ص ١٠.

.. سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرج، ونظر في الرجال والطبقات وحصل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سياق، وخطر وقاد، استنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه، فقلّ من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزّزاً إلى أصوله وصحابته مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل.

وكان الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوي الصحابة والتابعين بحيث إنّه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عنده، واتقن العربية أصولاً وفروعاً واختلافاً، ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين، ورد عليهم، ونبه على خطئهم وحذر^(١).

وقد سبق أن ذكرت نصوصاً أخرى عن ابن الزمليكنى وغيره من أهل العلم ممن أثروا على علومه وسعة معارفه، حتى خصومه كانوا يعترفون له بالتفوق في العلم والمعرفة ويقررون بأنه لا نظير له حيث قال الذهبي رحمة الله:

«لو لاطف خصومه لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بتفوقه، مقررون بندور خطئه، وأنه بحر لا ساحل له وكتن لا نظير له»^(٢).

(١) شذرات الذهب: ٨١، ٨٢.

(٢) الدرر الكامنة: ١٦١/١.

وإنَّ ما يبرز سعة علمه وغزارته وعمقه معًا هذه المؤلفات الكثيرة التي أربت وزادت عن الخمسمائة مجلد في إحدى الروايات، وهي تشهد بالخدمات العظيمة التي أداها للفكر الإسلامي.

٣ - سرعته في الكتابة والتأليف:

أُوتَى شيخ الإسلام رحمة الله قدرة على سرعة الكتابة، وقد انعكس ذلك على غزارة إنتاجه العلمي، فكثُرت مصنفاته جداً إلى حد كبير، وقد وصفه أكثر من واحد من أهل العلم بذلك: قال الحافظ الصفدي رحمة الله:

«وكان ذا قلم يسابق البرق إذا لمع، والودق إذا قبع، يُملئ على المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم، ويكتب الكراسين والثلاثة في قعدة واحدة، وَحَدُّ ذهنه ما كُلَّ ولا انتلَم»^(١).
وقال أبو عبد الله بن رشيق كاتب مؤلفات شيخ الإسلام رحمهما الله:

«لو أراد الشيخ تقي الدين - أو غيره حصرها - يعني مؤلفات الشيخ - لما قدرها، لأنَّه ما زال يكتب وقد مَنَّ الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل»^(٢).

(١) أعيان العصر عن المنجد: ص ٥٠.

(٢) العقود الدرية: ص ٦٤.

وقال تلميذه النجيب الإمام ابن القيم رحمه الله:
«إنه كان يحرر أربعين فتوى في ساعة»^(١).

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«.. ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة الأوائل نحواً من أربعة كراريس أو أزيد، وما يبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسماة مجلد، وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلدة»^(٢).

ومن أمثلة سرعته في الكتابة ما ذكره ابن عبد الهادي وابن سيد الناس رحمهما الله تعالى أنه - يعني شيخ الإسلام - كتب الرسالة الحموية سنة ثمان وتسعين وستمائة في قَعْدَة بين الظهر والعصر^(٣).

وكتب الرسالة الواسطية في قَعْدَة بعد العصر^(٤).

وقد ذكر ابن عبد الهادي رحمه الله أنه كان يكتب مجلداً طيفاً في يوم^(٥).

ومن ذلك ما ذكر عنه أنه كان جالساً في حلقة إذ جاءه

(١) إعلام الموقعين: ص.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢/٤٠٦-٤٠٧، فوات الوفيات: عن المنجد ص ٦٣.

(٣) العقود الدرية: ص ٦٤، ٦٧، فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٦.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣/١٦٤، والعقود الدرية: ص ٣١١.

(٥) العقود الدرية: ص ٦٤.

سؤال على لسان ذمي ينكر صاحبه القدر، وكان السؤال عبارة عن
أبيات من الشعر منها:

يا علماء الدين ذمي دينكم
تحير دلوه بأعظم حجة
إذا ما قضى ربي كفري بزعمكم
ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

فلما قرأ الشيخ الأبيات فكر قليلاً، ثم أنشأ يكتب في الحال
جواباً لهذا الاعتراض، وكان الطلاب يظنون أنه يكتب نثراً، ولما
فرغ وقرأه من حضر من أصحابه وإذا هو نظم من الشعر، من
نفس البحر والقافية الذي ورد به السؤال، يزيد على مائة بيت،
وقد ذكر أنه أبرز فيها من العلوم ما لو شُرّح لجاء شرحه في
مجلدين كبيرين يقول في مطلعها:

سؤالك يا هذا سؤال معاند
تخاصم رب العرش رب البرية
وهذا سؤال خاصم الملا العلى
قديماً به إيليس أصل البلية
ومن يك خصماً للمهيمن يرجعون
على أم رأس هاوياً في الحفيرة

إلى آخر الأبيات^(١).

٤ - دخوله في مجادلة أهل العلم في زمانه، ومناظرة أصحاب المذاهب الفكرية والعلقية والفقهية، مما أعطاه حافزاً على التأليف والتصنيف انتصاراً لرأيه، وزاد ذلك في إنتاجه العلمي وكثرة تصانيفه.

٥ - خلوه عن المناصب والوظائف التي تستهلك الكثير من الوقت في حياة العالم، وتحرم الناس من فوائد علمه الغزير، أما شيخ الإسلام رحمه الله فلم يكن يرضي أن يأخذ من السلطان شيئاً، فقد كان أخوه يقوم بشؤونه وقد ذكر ابن رجب رحمه الله أنه قد عرض عليه قضاء القضاة قبل سنة ٦٩٠ هـ ومشيخة الشيوخ فلم يقبل شيئاً من ذلك^(١).

فهو لم يكن يقدم على تفرغه لطلب العلم وتحصيله، والإفادة به، شيء مهما كانت أهميته وخاصة إذا كان هذا الشيء من متعلقات الدنيا ولذاتها:

قال الحافظ البزار في ذلك:

«وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعمتها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها،

(١) الدرر الكامنة: ١٩٦/١، الكواكب الدرية ص ٧٩-٨٠، العقود الدرية: ص ٣٨٣-٣٩٣.

الأعلام العلية: ص ٢٨.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٣٩٠.

بل جعل همَّه وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى»^(١).

○ عدد مصنفاته رحمه الله:

ذكر العلماء أن مصنفات شيخ الإسلام رحمه الله كثيرة جداً، ومن الصعوبة حصرها، ولذلك اختلفت عباراتهم في تحديد عددها، وممن قال بصعوبة حصرها الحافظ البزار رحمه الله حيث قال:

«وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه - غالباً - أحد، لأنها كثيرة جداً، كباراً وصغراء، وهي منشورة في البلدان، فقلَّ بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه»^(٢).

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله:

«وللشيخ من المصنفات والفتاوی والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبو، ولا أعلم أحداً - من متقدمي الأمة ولا متأخريها - جمع مثل ما جمع، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملأها

(١) الأعلام العلية: ص ٣٣.

(٢) الأعلام العلية: ص ٥٣.

من حفظه، وكثير منها صنفها في الحبس وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب»^(١).

وقال أبو عبد الله بن رشيق كاتب الشيخ:

«لو أراد الشيخ تقي الدين - رحمه الله - أو غيره حصرها - يعني مؤلفات الشيخ - لما قدرها، لأنه ما زال يكتب، وقد من الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل»^(٢).

وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«وأما تصانيفه رحمه الله فهي أشهر من أن تذكر، وأعرف من أن تنكر، سارت مسيرة الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، قد جاوزت حد الكثرة فلا يمكن لأحد حصرها، ولا يتسع هذا المكان لعد المعرفة منها وذكرها..»^(٣).

وفي ذكر إعدادها تباهي العبارات، وذلك حسب ما اطلع عليه صاحب كل عبارة أو قول أو ما استطاع الوصول إليه:

فقد ذكر الإمام البرزالي «أن تصانيفه في هذا الوقت أربعة آلاف كراس أو أكثر»^(٤).

(١) العقود الدرية: ص ٢٠-٢١.

(٢) العقود الدرية: ص ٤٧.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٠٣.

(٤) فوات الوفيات: عن المنجد ص ٦١-٦٢.

وأما الحافظ الذهبي رحمه الله فقد تعددت أقواله في إعدادها، ولعل ذلك عائد إلى بداية الأمر ونتهائه، فقد ذكر أن مصنفات شيخ الإسلام أكثر من مائتي مجلد^(١)، وقال: أنه أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان، ولعلها ثلاث مائة مجلد^(٢)، وقال أيضاً: «وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد»^(٣)، وأما نهاية المطاف فقد قام بجمع مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية فوجدها ألف مصنف، ثم قال: رأيت له مصنفات أخرى^(٤).

وأما تلميذه الإمام ابن القيم فقد جمع ما حضره، وذكر أنه لم يستوعب، وذكر في «أسماء مؤلفات شيخ الإسلام» حوالي (٣٣٧) مصنفاً.

والحق أن أصحاب هذه الأقوال لم يلتزموا إحصاء دقيقاً ومستوعباً لمؤلفات شيخ الإسلام، فالكل متتفقون على صعوبة حصرها، وأما الأسباب التي جعلت من الصعوبة بمكان حصر أسماء مؤلفات شيخ الإسلام فتعود إلى الأمور التالية:

(١) ذيل العبر: ص ١٥٨.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤ / ١٤٩٦-١٤٩٧.

(٣) العقود الدرية: ص ٢٥.

(٤) الرد الواfir: ص ٧٢.

١ - الفتن والامتحانات التي تعرض لها شيخ الإسلام حيث أثرت في ضياع بعض مصنفاته وكتبه يقول:

«فَكَثِيرٌ مَا يَقُولُ: قَدْ كَتَبْتِ فِي كَذَا وَكَذَا، وَيُسْتَهْلِكُ عَنِ الشَّيْءِ»،
فِي قَوْلٍ كَتَبْتِ فِي هَذَا، فَلَا يَدْرِي أَيْنَ هُو؟ فَيَلْتَفِتُ إِلَى أَصْحَابِهِ،
فِي قَوْلٍ: رَدُوا خَطْيَهُ وَأَظْهَرُوهُ لِيَنْقُلَ، فَمَنْ حَرَصَهُمْ عَلَيْهِ لَا يَرْدُونَهُ،
وَمَنْ عَجَزَهُمْ لَا يَنْقُلُونَهُ فَيَذَهِّبُ وَلَا يَعْرِفُ اسْمَهُ»^(١).

٢ - كَانَ يَكْتُبُ الْجَوَابَ لِمَنْ سَأَلَهُ، فَإِنْ وَجَدَ مِنْ يَنْقُلُ
الْجَوَابَ وَيَبْيَضُهُ، وَإِلَّا أَخْذَ السَّائِلَ الْجَوَابَ وَذَهَبَ^(٢).

٣ - وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْهَادِيِّ أَنَّ الشَّيْخَ لَمَّا حُبِسْ تَفَرَّقَ أَتَبَاعُهُ،
وَتَفَرَّقَ كَتَبُهُ، وَخَوَفُوا أَصْحَابَهُ مِنْ أَنْ يَظْهَرُوا كَتَبُهُ، وَذَهَبَ كُلُّ
أَحَدٍ بِمَا عَنْهُ، وَأَخْفَاهُ، وَلَمْ يَظْهَرُوا كَتَبُهُ، فَبَقِيَ هَذَا يَهْرُبُ بِمَا
عَنْهُ، وَهَذَا يَبْيَعُهُ، أَوْ يَهْبِهُ، وَهَذَا يَخْفِي وَيَوْدِعُهُ، حَتَّى إِنْ مِنْهُمْ مَنْ
تَسْرِقُ كَتَبُهُ أَوْ تَجْحِدُهُ، فَلَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَطْلُبَهَا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى
تَحْصِيلِهَا فَبِدُونَ هَذَا تَمْزِقُ الْكِتَبَ وَالْتَّصَانِيفَ^(٣).

٤ - وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ كَتَبَ الشَّيْخِ الَّتِي كَانَتْ عَنْهُ فِي السُّجُونِ
وَهِيَ كَثِيرَةٌ حِينَ صُوْدُرَتْ تَوْزِعُهَا أَعْدَاؤُهُ وَخُصُومُهُ، فَمِنْهَا مَا أُجْبِرَ

(١) العقود الدرية: ص ٢٠٧، الفتاوى: ٣/١٦١.

(٢) العقود الدرية: ص ٦٥.

(٣) العقود الدرية: ص ٦٥-٦٦.

خصومه على إظهاره في نهاية الأمر، وأعيد إلى أخيه زين الدين عبد الرحمن بن تيمية رحمه الله، ومنها ما جحد وأتلفه الخصوم.

ولم يقتصر الأمر على هذا في ذلك العهد فقط، وإنما تعداه إلى عصور متاخرة حيث قام بعض أعيان دمشق من خصوم الشيخ بمحاولات عديدة لإتلاف كتب الشيخ، حيث كانوا يبذلون الأموال الطائلة لشراء مؤلفات الشيخ عند من يمتلكونها. فإذا تحصل لهم ذلك قاموا بإتلافها، وتارة كانوا يلجأون إلى إرهاب من يملكونها حتى يقوموا بإتلافها، ولا شك أنها أساليب سيئة في التعامل مع المخالفين، ومقاومة الآراء بهذه الطرق، فالله حسبنا ونعم الوكيل.

لكل هذه الأسباب مجتمعة يتعدى إحصاء مصنفات الشيخ، ولهذا تبانت آراء العلماء في عددها، وقد قمت بجمع ثبت لأسماء مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية من الكتب والمصادر التي ذكرت ترجمته، وأسماء بعض مؤلفاته ومصنفاته، وبعد أن أنهيت هذا الثبت رأيت قائمة جمعها محققا كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» ذكرها فيها حوالي (٧٠٢) عنوان من عناوين مصنفات شيخ الإسلام فاستفدت منها، وزدت عليها حتى بلغت أسماء مصنفات شيخ الإسلام التي اجتمعت عندي (٩٢٣) إسماً.

وسأورد ثيتاً بأسماء أشهر مصنفاته، ولعلي أقوم لاحقاً في إفراد رسالة خاصة تتضمن قائمة كاملة بأسماء مؤلفات شيخ الإسلام، وقيمتها العلمية بإذن الله تعالى.

○ أشهر مصنفاته رحمة الله:

- ١ - إبطال الحيل. ويقع في مجلدين.
- ٢ - اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية.
- ٣ - الاستغاثة.
- ٤ - الاستقامة.
- ٥ - إقامة الدليل على إبطال التحليل.
- ٦ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم.
- ٧ - أقسام القرآن.
- ٨ - الإكيليل في التشابه والتأويل.
- ٩ - أمثال القرآن.
- ١٠ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ١١ - الإيمان.
- ١٢ - بغية المرتاد = السبعينية.
- ١٣ - بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية.
- ١٤ - تحريم السماع.
- ١٥ - التحفة العراقية في الأعمال القلبية.
- ١٦ - التدمرية.

١٧ - تعارض الحسنات والسيئات.

١٨ - تعليقه على فتوح الغيب لعبد القادر الكيلاني.

١٩ - تفسير سورة الإخلاص.

٢٠ - تفسير سورتي المعوذتين.

٢١ - تفسير سورة النور.

٢٢ - تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل.

٢٣ - جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن (قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن).

٢٤ - الجواب الباهر في زوار المقابر.

٢٥ - حجاب المرأة ولباسها في الصلاة.

٢٦ - الحسبة في الإسلام.

٢٧ - الحسنة والسيئة.

٢٨ - حقيقة الصيام.

٢٩ - الحموية الكبرى.

٣٠ - الدرة المضيئة في فتاوى ابن تيمية (الفتاوى المصرية).

٣١ - دقائق التفسير ١ - ٦ أجزاء جمعه محمد السيد الجليند.

٣٢ - الرد على الأختاني في مسألة الزيارة.

٣٣ - الرد على تأسيس التقديس للرازي.

٣٤ - رسالة إلى ملك قبرص - الرسالة القبرصية.

٣٥ - رسالة في أمراض القلوب وشفائها.

٣٦ - سؤال في معاوية بن أبي سفيان.

٣٧ - السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية.

٣٨ - شرح حديث أبي ذر رضي الله عنه: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي.

٣٩ - شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات».

٤٠ - شرح حديث النزول.

٤١ - شرح العقيدة الأصفهانية.

٤٢ - شرح المحرن - تعليقه على كتاب المحرر في الفقه.

٤٣ - الصارم المسلول على شاتم الرسول عليه السلام.

٤٤ - الصفدية.

٤٥ - العبودية.

٤٦ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

٤٧ - الفرقان بين الحق والباطل.

٤٨ - في محتته بمصر / مجلدين.

٤٩ - قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.

٥٠ - قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات.

٥١ - قاعدة في الإجماع.

٥٢ - قاعدة في الاستعازة.

٥٣ - قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار.

٥٤ - قاعدة في المحبة.

٥٥ - القاعدة المراكشية.

٥٦ - الماردينية - المسائل الماردينية.

٥٧ - معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها
الرسول.

٥٨ - مقدمة في أصول التفسير.

٥٩ - منسك شيخ الإسلام وهي نحو مجلد.

٦٠ - منظومة في القدر.

٦١ - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.

٦٢ - مؤاخذة لابن حزم في الإجماع.

٦٣ - النبوات.

٦٤ - نقض المنطق.

٦٥ - الواسطة بين الحق والخلق.

٦٦ - الواسطية.

٦٧ - الوصية الصغرى.

الفصل التاسع

«ابن تيمية فقيهاً»

الفقه من علوم الإسلام التي حظيت باهتمام كبير لدى علماء الأمة الإسلامية من بداية عهدها الأول زمن الصحابة الكرام، وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لجلالة قدر هذا العلم في النفوس، وعظيم النفع الذي يعود على الناس بتعلمه، ولأهمية البالغة في توجيه المسلم إلى العبادة الصحيحة التي يتوجه إلى الله تعالى بها وها هو النبي ﷺ يقول:

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وقد تهيأت أسباب النبوغ في هذا الباب لشيخ الإسلام، وبعد توفيق الله تعالى وفضله عليه، فقد هيأ الله تعالى له أسرة كريمة مشهورة بالعلم، وقد تحدثنا عن هذه الأسرة المهتمة بالعلم سابقاً، وقد وجد رعاية كريمة من والده الذي كان من كبار علماء

(١) أخرجه الترمذى برقم: ٢٦٤٥ بإسناد صحيح عن ابن عباس، وجاء مطولاً من حديث معاوية: وأخرجه البخارى برقم: ٣١١٦، ومسلم: ١٠٣٧، وابن ماجه:

المذهب الحنفي، فوجده إلى الدرس والبحث والتعلم، والتلقى على كبار العلماء في دمشق، والتي كانت تزخر بعدد كبير من العلماء في ذلك الزمان، فطلب وحصل وقرأ ما لم يستطع الكثيرون قراءته، ومن هذه العلوم التي قرأها كان علم الفقه وأصوله، فدرس فيه حتى أحكمه وأتقنه، وشهد له باتقاده كبار أهل العلم في عصره.

○ الإذن له بالفتوى:

تشربت نفس شيخ الإسلام رحمه الله بالعلوم والمعارف، ومن بينها كان علم الفقه وأصوله، ومع هذه العلوم فقد رزقني بوعاً وذكاءً حاداً، أهله للتدريس والفتوى وهو في صدر شبابه قبل أن يتم العشرين من عمره، ثم قام بوظائف أبيه العلمية بعد وفاته وله حيتى عشرون عاماً تزيد قليلاً.

وقد ذكر مترجموه سن تأهله للفتوى والتدريس بأنه كان دون العشرين.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«تأهل للتدريس والفتوى، وهو ابن سبع عشرة سنة»^(١).

وقال:

«.. فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع

(١) العقود الدرية: ص ٤.

والتأليف من ذلك الوقت، وأكَبَ على الاشتغال»^(١).

وقال ابن كثير رحمه الله في ترجمة أحمد بن نعمة المقدسي:

«.. وأذن في الإفتاء لجماعة من الفضلاء منهم الشيخ الإمام العلَّامة شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية، وكان يفتخر بذلك ويفرح به ويقول:

أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء»^(٢).

○ غزاره علومه بالفقه وأصوله واختلافاته:

شهد له أهل العلم في عصره بغزاره علمه، وشدة إتقانه لهذا العلم وقدرته الكبيرة على استحضار الأدلة.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين - فضلاً عن المذاهب الأربعة - فليس له نظير»^(٣).

ونقل عنه ابن حجر رحمه الله قوله:

«كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه، وما

(١) المرجع السابق.

(٢) البداية والنهاية: ١٣/٣٤١.

(٣) العقود الدرية: ص ١٨.

رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه..»^(١).

وقال أيضاً:

«.. وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب، وفتاوي الصحابة والتابعين، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عليه»^(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله:

«.. فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به، عارفاً بالفقه، فيقال: إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع»^(٣).

وقال ابن الزمل堪اني رحمه الله:

«.. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في سائر مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه من قبل ذلك، لا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبيين إليه»^(٤).

(١) الدرر الكامنة: ١/١٦٠.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ١/٣٨٩، شذرات الذهب: ٦/٨١، ٨٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٤١/١٤.

(٤) تاريخ ابن الوردي: ٢/٤٠٨-٤٠٩.

وقال الصفدي رحمه الله:

«وأما المذاهب الأربعة فإليه في ذلك الإشارة، وعلى ما ينقله الإحاطة والإدارة، وأما نقل مذهب السلف وما حدث بعدهم من الخلف فذاك فنه..»^(١).

وغير هذه الأقوال الكثير الذي يشهد له بأنه إذا تكلم في الفقه فهو مدرك غايته، وأنه الفارس الذي لا يشق له غبار في ميدانه.

٥ تمذهب بمذهب أحمد في بداية الأمر وترجيحه له على سائر المذاهب:

لقد كانت أول دراسات شيخ الإسلام الفقهية على المذهب الحنفي، فتلقي الفقه الحنفي على أبيه الذي كان شيخاً كبيراً من شيوخ المذهب الحنفي، وقد اشتراك مع أبيه وجده في كتابة أحد كتب أصول المذهب الحنفي، ولذلك يعده أكثر العلماء فقيهاً حنفياً خالصاً، وقد كان شيخ الإسلام يرجع الفقه الحنفي على غيره من المذاهب الفقهية الأخرى، وذلك بأنه كان يعتبره أقرب إلى النص حين أوضح ذلك بقوله:

«أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنّة، وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصاً

(١) أعيان العصر عن المنجد ص ٥٠.

كما يوجد لغيره، ولا يوجد في مذهبه قول ضعيف إلا وفي مذهبه قول يوافق القول الأقوى، وأكثر مفاريده التي لم يختلف فيها يكون قوله فيها راجحاً^(١).

إلا أنه ورغم ترجيحه للمذهب الحنبلـي على غيره من المذاهب الفقهـية، لم يكن من المتعصـبين لهذا المذهب، ولم يـقبح رأـياً تـبنـاه مذهب فـقـهـي آخرـ، بل وـلم يـدع أحـدـاً إـلـى أـن يـتبـنـي المذهب الحنـبلـي أو غـيرـهـ، حيث يـقـولـ رـحـمـهـ اللهـ:

«مع أـنـيـ فيـ عـمـرـيـ، إـلـىـ سـاعـتـيـ هـذـهـ، لمـ أـدـعـ أحـدـاـ قـطـ فيـ أـصـوـلـ الـدـيـنـ إـلـىـ مـذـهـبـ حـنـبـلـيـ أوـ غـيرـ حـنـبـلـيـ وـلـاـ اـنـتـصـرـتـ لـذـلـكـ، وـلـاـ أـذـكـرـ فـيـ كـلـامـيـ، وـلـاـ أـذـكـرـ إـلـاـ مـاـ اـتـفـقـ عـلـيـهـ سـلـفـ الـأـمـةـ وـأـئـمـتـهـ»^(٢).

○ تقديره للأئمة والفقهاء الآخرين:

ورغم ترجـيـحـ شـيـخـ الإـسـلـامـ رـحـمـهـ اللهـ لمـذـهـبـ الحـنـابـلـةـ عـلـىـ غيرـهـ، إـلـاـ أـنـهـ كـانـ يـقـدـرـ آرـاءـ الـفـقـهـاءـ وـالـعـلـمـاءـ الـآخـرـينـ، وـيـعـتـذرـ لـهـمـ عـنـ الـخـطـأـ الـذـيـ يـخـالـفـونـ فـيـ السـنـنـةـ، وـيـذـكـرـ أـعـذـارـهـمـ فـيـ ذـلـكـ، وـلـذـلـكـ كـانـتـ رسـالـتـهـ الـقـيـمـةـ «رـفـعـ الـمـلـامـ عـنـ الـأـئـمـةـ الـأـعـلـامـ»ـ مـنـ أـفـضـلـ مـاـ أـلـفـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـضـوـعـ -ـ يـعـنـيـ فـيـ الـاعـتـذـارـ عـنـ الـأـئـمـةـ

(١) مـجمـوعـ الـفـتـاوـيـ الـكـبـرـىـ:ـ

(٢) مـجمـوعـ الـفـتـاوـيـ:ـ ٣/٢٢٩ـ

في مخالفة بعض آرائهم مما جاء عن النبي ﷺ. ومما قال في ذلك:

«.. فيجب على المسلمين - بعد موالة الله ورسوله - موالة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماؤها أشرارها، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمتهم، والمحبيون لمات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا..».

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأئمة قبولاً عاماً يعتمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يأخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه..»⁽¹⁾.

ثم يسوق شيخ الإسلام الأسباب التي يعتذر فيها عن الأئمة والفقهاء في مخالفة بعض آرائهم للسنة النبوية الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.

(1) رفع الملام عن الأئمة الإعلام: ص ٣.

٥ إفتاؤه على غير مذهب معين:

إن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى وإن كان حنبلي المذهب في بداية أمره، إلا أن ما أخذ به نفسه - من الرجوع إلى المعين الصافي الذي أخذ منه أئمة الفقه المعروفون - أداه بعد دراسات وتمحیص إلى أن يخالف مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بل مذاهب الفقهاء الآخرين أيضاً في بعض ما ذهب إليه.

فلم يكن رحمه الله تعالى بالرجل الذي يتبع غيره في رأي له بغير بينة أو دليل، ولا بالذى يتعصب لرأي ويجمد عليه وقد بان له خطأه، بل كان حراً في تفكيره في دائرة الكتاب والسنّة وما صح عن الصحابة من الآثار، غير متغصّب إلا للحق ولل الحق وحده، لأنّه خلع عن عنقه رقبة التقليد للغير، ولم يقيّد نفسه إلا بالقرآن وسنّة الرسول ﷺ وأثار السلف الصالح، إذا تبيّن له صحة صدورها عنهم، وفي هذه المصادر الأولى للإسلام وشريعته كان له جولات ومجال أي مجال».

على كل هذا يجمع مؤرخوه، وبكل هذا تنطق رسائله وكتبه وأراؤه التي تفرد بها وهي غير قليلة، كما تنطق به حياته وما لقى من سجن واعتقال مرات يسبب بعض هذه الآراء حتى لحق بربه وهو سجين بقلعة دمشق^(١).

وفي تحرره وإفتاؤه على غير مذهب معين مدة من الزمن،

(١) ابن تيمية: محمد يوسف موسى: ص ١٣٥-١٣٦ بتصريف.

وانطلاقه من عقال المذهبية والتعصب والجمود والتقليد يقول
الحافظ الذهبي رحمه الله:

«وَفَاقَ النَّاسُ فِي مَعْرِفَةِ الْفَقَهِ وَاخْتِلَافِ الْمَذَاهِبِ وَفَتاوِيِ
الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ بِحِيثِ أَنَّهُ إِذَا أَفْتَى لَمْ يُلْتَزِمْ بِمَذَهِبٍ بَلْ بِمَا
يَقُولُ دَلِيلُهُ عَلَيْهِ»^(١).

وقال ابن الوردي رحمه الله:

«.. لَهُ بَاعٌ طَوِيلٌ فِي مَعْرِفَةِ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ، قَلَّ أَنْ
يَتَكَلَّمَ فِي مَسَأَلَةٍ إِلَّا وَيَذَكِّرُ فِيهَا ذَاهِبَ الْأَرْبَعَةِ، وَقَدْ خَالَفَ الْأَرْبَعَةِ
فِي مَسَائِلَ مَعْرُوفَةٍ، وَصَنَفَ فِيهَا وَاحْتَاجَ لَهَا بِالْكِتَابِ ثُمَّ قَالَ: «وَيَقِي
سَنِينَ لَا يَفْتَي بِمَذَهِبٍ مُعِينٍ، بَلْ بِمَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ عَنْهُ»^(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله:

«.. فَفِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ يَفْتَيُ بِمَا أَدَى إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ مِنْ
مُوافِقَةِ أَئمَّةِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ، وَفِي بَعْضِهَا يَفْتَيُ بِخَلَافِهِمْ وَبِخَلَافِ
الْمُشْهُورِ فِي مَذَاهِبِهِمْ، وَلِهِ اخْتِيَارَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي مَجَلَّدَاتٍ عَدِيدَةٍ
وَأَفْتَى فِيهَا بِمَا أَدَى إِلَيْهِ اجْتِهَادَهُ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَالسُّنْنَةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلْفِ»^(٣).

(١) شذرات الذهب: ٢/٨٢-٨١، تاريخ ابن الوردي: ٤٠٩/٢، ذيل طبقات
الحنابلة: ٢/٣٨٩.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٤٠٩/٢.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/٦٧.

○ اجتماع شروط الاجتهاد فيه:

اعترف علماء عصره ومن جاء بعدهم لشيخ الإسلام بالإمامية والاستقلال الفكري، والتبحر العلمي، وتفوقه بدرجات كبيرة على معاصريه في علوم القرآن والسنّة، واجتماع شروط الاجتهاد فيه وسأذكر تاليًا من ذكر اجتماع هذه الشروط فيه، وبأنه وصل إلى درجة الاجتهاد المطلق ومخالفة كل المذاهب في آراء كثيرة تبناها ودافع عنها:

قال الحافظ البرزالي رحمه الله:

«.. كان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين..»^(١).

وقال الحافظ ابن الزملکانی رحمه الله:

«.. واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها»^(٢).

قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«.. فإن ذكر التفسير فهو حامل لواهه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق»^(٣).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

(١) العقود الدرية: ص ١٢، فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦١، الرد الوافر: ص ٢١٨.

(٢) العقود الدرية: ص ٨، الشهادة الزكية: ص ٧٣، فوات الوفيات عن المنجد: ص ٥٩، شذرات الذهب ٦ / .

(٣) العقود الدرية: ص ص ٢٤، فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٢.

«.. بل هو معدور لأن أئمة عصره شهدوا له: بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه، حتى كان أشد المتعصبين عليه، والقائمين في إيصال الشر إليه، وهو الشيخ كمال الدين الزمل堪اني شهد له بذلك، وكذلك الشيخ صدر الدين «ابن الوكيل» الذي لم يثبت لمناظرته غيره..»^(١).

وقال الحافظ السيوطي رحمه الله:

«وأما بقية من جاء من المجتهدين بعد السُّبْكِي إلى اليوم، فلم يكن فيهم من يبلغ رتبة البُلْقِيني في الحديث؛ وأما قبل السُّبْكِي فاجتمع الاجتهاد في الأحكام والحديث لخلق؛ منهم ابن تيمية، وقبله ابن دقيق العيد، وقبله التنووي، وقبله أبو شامة، وقبله ابن الصلاح، وأما في المتقدمين فكثير جداً..»^(٢).

وممن وصفه بالاجتهاد أيضاً من أهل العلم والفضل رحمهم الله جمِيعاً:

«ابن المرحل، وابن الواني المؤذن، وابن عبد الهادي، وابن الصيرفي، وابن القيم، وأبو العباس البقاعي، وابن فضل الله العمري، وابن رجب الحنبلي، وابن كثير، وصلاح الدين العلائي، وابن اللحام، وأبو حفص البزار، وأبو حفص المراغي، وغيرهم كثير رحمهم الله جمِيعاً.

(١) الشهادة الزكية: ص ٧٣، الرد الوافر: ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض: ص ٤٢.

ويقول الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله:

«إنه بلا شك من حيث أدوات الاجتهاد، والمدارك الفقهية، ومن حيث علمه بالسُّنَّة واللغة ومناهج المفسرين وفهمه للقرآن، وأصول السُّنَّة، وإحاطته بالحديث دراية ورواية - يوضع في الدرجة الأولى من الاجتهاد المطلق، فإن نظرنا إلى ذلك وحده فسنضعه في مرتبة المجتهدين المستقلين، ولكن نجده قد سلك في استنباطه مسلك الإمام أحمد في الجملة، متقيداً بأصوله، وفوق ذلك أن الذي انفرد به لا يعد كثيراً، بل نادراً، بل لا يكاد ينفرد كما نوهنا، فإن تقيدنا بهذه الناحية الموضوعية فإننا بمقتضى القواعد المقررة، نضعه ضمن المجتهدين في المذهب الحنبلية».

إنه بلا شك قد استوفى في شخصه كل شروط المجتهد المطلق من الأدوات والعلم والمدارك، ولكن من ناحية الموضوعات التي وصل فيها إلى نتائج مخالفة، ومن حيث منهاجه نجدها لا تخرج به عن الإطار المذهبي»^(١).

فيما ذكرنا سابقاً يتضح لنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد اجتمع في شروط الاجتهاد وأداته، وأنه قد استوفى في شخصه كل شروط المجتهد المطلق في الأدوات وفي الموضوعات، لأن كونه رحمه الله مجتهداً مطلقاً لا يعني أن

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

يخالف الأئمة الأربع في كل المسائل، لأن هذا يستدعي إلى القول بأحد أمرين، إما أن تلك المذاهب غير مؤسسة على القرآن والسنّة، لأن شيخ الإسلام يمشي مع الدليل من الكتاب والسنّة حيثما وجد، أو أن يكون شيخ الإسلام لم يكمل فيه شروط الاجتهاد، ومن أهمها استيعاب القرآن والسنّة، حيث خالفه الأئمة الأربع على غير بصيرة، وهذا لم يقله أحد، فترجحه لرأي من الآراء حسب الدليل لا يعني البتة أنه مقلد للإمام الذي قال بذلك القول قبل شيخ الإسلام، أو أنه مجتهد منتب من مجتهدي الحنابلة فقد اختار ما اختار من المسائل في الفقه بالدليل، ووافق ما وافق فيه من المسائل لأحد الأئمة الأربع بالحجّة والبرهان^(١).

والحق أن شيخ الإسلام رحمة الله قد اجتمعت فيه شروط الاجتهاد المطلق في الأدوات والمواضيع، وأفاد كثيراً جداً من أصول الإمام أحمد وفقهه، إلا أنه لم يلتزم في آرائه وفتاويه، وإن توافق الكثير منها مع مذهب الحنابلة، إلا أنه كان مجتهداً يقول ويفتي بما قام عليه الدليل، وإن خالف مذهب إمامه أو مذهب الفقهاء الآخرين المعروفين، ولا يهمه موافقة أو مخالفة أيّاً من هذه المذاهب، بحيث يصدق فيه قول الذهبي رحمة الله:

«وافق الناس في معرفة الفقه، واحتلّاف المذاهب، وفتاوي

(١) بحوث الندوة العالمية: ص ١١٩.

ال الصحابة والتابعين، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليلاً عنده»^(١).

٠ من كتبه في الأصول والفقه:

صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أصول الفقه، وفي مسائل الفقه وقد ذكر الصفدي رحمه الله مجموعة من هذه المصنفات أذكر من بينها:

١- علم أصول الفقه:

«قاعدة غالبها أقوال الفقهاء - مجلدان»، «شمول النصوص للأحكام - مجلد لطيف»، قاعدة في الإجماع وأنه ثلاثة أقسام، جواب في الإجماع وخبر التواتر، قاعدة خبر الواحد يفيد اليقين، قاعدة في كيفية الاستدلال على الأحكام بالنص والإجماع، في الرد على من قال إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين» ثلاث مصنفات، قاعدة في تقرير القياس، قاعدة في الاجتهاد والتقليد في الأحكام - مجلد»، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، قاعدة في الاستحسان، قواعد في أن المخطئ في الاجتهاد لا يأثم» مجلد، تفضيل قواعد مذهب مالك وأهل المدينة، قاعدة في تفضيل الإمام أحمد» مجلد وغيرها كثير».

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ص ٣٨٩/٢.

ب - كتب الفقه:

شرح المحرر في مذهب أحمد، شرح العمدة لموقف الدين «أربع مجلدات، الدرر المضية في فتاوى ابن تيمية، الماردانية، الطرابلسية، قاعدة في المياه والماءات وأحكامها قواعد في الاستجمار وتطهير الأرض بالشمس والريح، مناسك الحجج مجلد، وغيرها كثير جداً، وها هو الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله تعالى يقول في كثرتها:

«وأما فتاویه ونحوه وأجوبته على المسائل، فهي أكثر من أن أقدر على إحصائها، لكن دون بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مجلداً، وهذا ظاهر مشهور، وجمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة، وقل أن وقعت واقعةٌ وسئل عنها، إلا وأجاب فيها بديهية بما بهر واشتهر، وصار ذلك الجواب كالمحض الذي يحتاج فيه غيره إلى زمن طويل ومطالعة كتب، وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله»^(١).

٥ اختياراته الفقهية وأساس اختياره لها:

كان لابن تيمية رحمه الله تعالى آراء فقهية كثيرة لم يلتزم في القول أو الإفتاء بها مذهبًا فقهياً معيناً، ولكن هذه الاختيارات لا تخرج عن أقوال الفقهاء الأربع في مذاهبهم، وذلك لأنه كان

(١) الأعلام العلية: ص ٢٦.

يرى أن الحق في عامة هذه المسائل لا يخرج عنها ولذلك قال في ذلك:

«قول القائل: لا أتقيد بأحد هؤلاء الأئمة الأربع، إن أراد به أنه لا يتقيد بواحد بعينه دون الباقيين، فقد أحسن، بل هو الصواب من القولين، وإن أراد أني لا أتقيد بها كلها بل أخالفها، فهو مخطئ في الغالب قطعاً، إذ الحق لا يخرج عن هذه الأربع في عامة الشريعة».

ولكن تنازع الناس هل يخرج عنها في بعض المسائل؟ على قولين، وقد بسطنا ذلك في موضع آخر^(١).

فهو رحمة الله تعالى لم يكن يتبع إلا ما كان مقتنعاً أنه الأقرب إلى الدليل من القرآن والسنّة، وقد حدد الأستاذ الإمام محمد أبو زهرة رحمة الله الأسس التي بنى عليها شيخ الإسلام اختياراته فقال:

«لقد كان أساس الاختيار كما يبدو يدور حول أقطاب ثلاثة: أولها: القرب من الآثار فهو حريص على لا يختار غرائب الفقه، بل يختار ما له اتصال أو ثق بمصدره.

ثانيها: القرب من حاجات الناس ومؤلفهم وتحقيق مصالحهم والعدالة فيهم، فإنه بعد استئنافه من الاتصال بين الحكم

(١) مختصر الفتاوى المصرية: ص ٦١.

وال المصدر الشرعي من كتاب أو سُنة، يختار الأعدل والذي يلائم العصر ويتفق مع الحاجات.

وثالثها: تحقيق المعاني الشرعية التي شرعت لها الأحكام، فهو على ذلك جد حريص في كل ما يختار ويفتي ويعلن من آراء^(١).

○ نماذج من اختياراته:

جمعت اختياراته العلمية رحمة الله تعالى ضمن مجلد ملحق بالفتاوی الكبیری، وهو المجلد الرابع، وساختار نموذجین أو ثلاثة نماذج، ومن أراد المزيد فسيجد من ذلك شيئاً كثيراً في كتب شیخ الإسلام رحمة الله.

١ - عدم إعطاء الزكاة للعاصي:

قال رحمة الله:

«ولا ينبغي أن تعطى الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله، فإن الله تعالى فرضها عونه على طاعته كمن يحتاج إليها من المؤمنين كالفقراء والغارمين أو لمن يعاون المؤمنين، فمن لا يصلی من أهل الحاجات لا يعطى شيئاً حتى يتوب ويلتزم أداء الصلاة»^(٢).

(١) ابن تيمية: أبو زهرة: ص ٤٠٦.

(٢) الفتاوى الكبیری: ٤/٤٥٦.

٢- إعطاء الزكاة للوالدين:

«ويجوز صرف الزكاة إلى الوالدين وإن علوا، وإلى الولد وإن سفل، إذا كانوا فقراء، وهو عاجز عن نفقتهم، لوجود المقتضى السالم عن المعارض الممانع، وهو أحد القولين في مذهب أحمد»^(١).

٣- خدمة المرأة لزوجها:

«وتجب خدمة زوجها بالمعروف من مثلها لمثله، ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية، وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة، وقاله الجوزجاني من أصحابنا وأبو بكر بن أبي شيبة، ويتخرج من نص الإمام أحمد على أنه يتزوج الأمة لحاجة إلى الخدمة لا إلى الاستمتاع»^(٢).

ولابن تيمية رحمة الله تعالى اختيارات كثيرة تدل على علم غزير، وأفق واسع، وإدراك لمصالح الناس، ومعرفة لمقاصد الشريعة ولبها.

○ مفرداته وغرائبه:

وبما أننا رجحنا كون شيخ الإسلام رحمة الله مجتهداً مطلقاً، يفتى بما أداه إليه اجتهاد، فهو تارة يوافق أئمة المذاهب أو

(١) الفتاوى الكبرى: ٢/٤٥٦-٤٥٧.

(٢) الفتاوى الكبرى: ٢/٥٦١.

بعضهم فيما يختاره ويتبناه، وتارة يخالفهم جمِيعاً أو يخالف المعروض من آرائهم ومذاهبهم، وهذا ما يسمى عند الذين ترجموا له مفرادته وغرائبه.

وقد ذكر بعض من ترجموا له هذه المفردات، أو جملة صالحة منها أسوقها فيما يلي كما أوردوها».

- اختار ارتفاع الحدث بالمياه المعتصرة، كماء الورد ونحوه.
- واختار جواز المسح على النعلين، والقدمين، وكل ما يحتاج في نزعه من الرجل إلى معالجة باليد أو بالرجل الأخرى، فإنه يجوز عنده المسح عليه مع القدمين.
- واختار أن المسح على الخفين لا يتوقف مع الحاجة، كالمسافر على البريد ونحوه، وفعل ذلك في ذهابه إلى الديار المصرية على خيل البريد، ويتوقف على إمكان النزع وتبسيطه.
- واختار المسح على اللفائف ونحوها.
- واختار جواز التيمم لخشية فوات الوقت في حق غير المعذور، كمن أخر الصلاة عمداً حتى تضائق وقتها، وكذا من خشي فوات الجمعة والعيددين وهو محدث، فأما من استيقظ أو ذكر في آخر وقت الصلاة، فإنه يتظاهر بالماء ويفصل، لأن الوقت متسع في حقه.
- واختار أن المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال في البيت، أو شق عليها النزول إلى الحمام وتكرهه، إنها تيمم وتصلي.

- واختار أن لا حَدَّ لأقل الحيض ولا لأكثره، ولا لأقل الطهر بين الحيضتين، ولا لسن الأياس من الحيض، وأن ذلك راجع إلى ما تعرفه كل امرأة من نفسها.

- واختار أن تارك الصلاة عمدًا: لا يجب عليه القضاء، ولا يشرع له، بل يكثر من النوافل، وأن القصر يجوز في قصير السفر وطويله [كما هو مذهب الظاهيرية] وأن سجود التلاوة لا يشترط له طهارة.

- واختار القول بأن البكر لا تستبرأ وإن كانت كبيرة، كما هو قول ابن عمر واختاره البخاري صاحب الصحيح، والقول بأن من أكل في شهر رمضان معتقدًّا أنه ليل وكان نهاراً لا قضاء عليه كما هو الصحيح عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإليه ذهب بعض التابعين وبعض الفقهاء بعدهم.

- والقول بجواز المسابقة بلا محلل وإن أخرج المتسابقان.

- والقول باستبراء المختلفة بحىضة، وكذلك الموطوءة بشبهة والمطلقة آخر ثلث تطليقات.

- والقول بإباحة وطء الوثنيات بملك اليمين.

- والقول بجواز طواف الحائض ولا شيء عليها إذا لم يمكنها أن تطوف طاهراً.

- والقول بجواز بيع الأصل بالعصير كالزيتون بالزيت، والسمسم بالسirج.

- والقول بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره كالخاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً وجعل الزائد في الثمن في مقابلة الصنعة.

- والقول بأن المتمتع يكفيه سعي واحد بين الصفا والمروة، كما هو في حق القارن والمفرد، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهم.

- والقول الذي مال إليه أخيراً بتورث المسلم من الكافر الذمي، وله في ذلك بحث طويل.

- والقول بعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنت، وليس على الحالف حينئذ إلا كفارة اليمين، وقد جرى له بسبب هذا الرأي محن وقلائل معروفة.

- والقول بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة، وهذا الحكم هو الذي كان عليه العمل أيام الرسول وأبى بكر وصداً من خلافة عمر^(١)!

هذه مجموعة من اختيارات شيخ الإسلام وغرائبه ومفاريده التي خالف فيها فقهاء المذاهب الأربع المعروفة، أو خالف على الأقل المشهور من أقوال الفقهاء، وهي تدل على باع طويل في

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٠٦-٤٠٧، شذرات الذهب: ٦/٨٤-٨٥.

الاجتهداد، وعلى شجاعته في الجهر بما يراه حقاً ولو حصل له من
وراءه بلاء ومحن.

○ سبب قلة مقاريده وغرائبه:

ويجيب الشيخ أبو زهرة رحمه الله على هذا التساؤل بقوله:
«لقد جاء ابن تيمية بعد أن اتسع الفقه وكثرت الفتاوى فيه،
وانفتح باب التخريج على مصراعيه، فقد جاء في آخر القرن
السابع وأول القرن الثامن الهجري، وكانت أكثر فتاويه واستنباطاته
واختياراته، واجتهداده في أول القرن الثامن جاء بعد أن لم يترك
الأول لآخر شيئاً، فقد دون قبل عصره فقه الأئمة الأربع
أصحاب المذاهب، كما دون الفقه الظاهري والفقه الشيعي بكل
مذاهبه وفقه الإباضية، وقد كثر المجتهدون والمخرجون في كل
مذهب من المذاهب، يجتهدون على أصول الإمام، أو يخرجون
على أقواله للواقعات التي تقع بين الناس، وللحوادث التي
تحدث، ولم يكتف أصحاب كل مذهب ومعنتقيه بالافتاء في
الحوادث الواقعية بل أفتوا في الحوادث المتوقعة، بل قدروا كل ما
يتصور في العقل وقوعه، بل تجاوزوا في القرن الرابع والخامس
والسادس الحد في التصور والتقدير، فتصوروا ما لا يؤيده الواقع،
وأخذوا يفتون فيه كأنه وقائع ابتدأ بها الناس، فقد اتسع الفقه
التقديرى، حتى أفتوا في المعقول الذي يقع، ثم مما يجري في
الخيال ولا يقع.

وإذا أضيف ذلك إلى الواقع التي تصدوا للإفتاء فيها كانت كثيرة بسبب اختلاف الأزمان. واختلاف الأعراف في البلدان، فقد صارت البلاد الإسلامية تمتد من الصين في الشرق إلى جنوب أوروبا بل ما يقرب من وسط أوروبا في الغرب، ولكل إقليم أحدها، ولكل بلاد عاداتها، ولكل مصر عرفه، وقد تفتقت عقول العلماء تحت سلطان المذاهب التي استتبّت فخر جوا وأفتوا، ويندر أن تكون واقعة في عصر ابن تيمية لم يكن قد وقع مثلها، فيما وراء النهر، أو العراق، أو خراسان، أو فارس، أو مصر والشام، أو المغرب والأندلس، ودونت الفتوى في كتب مذهب من المذاهب الإسلامية أو أكثر من هذه المذاهب.

ويخطئ من يقول أن التابعين لمذهب من المذاهب كانوا يسيرون فيه جامدين، بل أنهم كانوا يحيون المذهب، ويُجددونه في كل عصر من العصور بما جدّ من ألوان فكرية، ويفتون فيما يقع من الحوادث بما يتفق مع الحال، ويصلح المال، وأحياناً كانوا يخالفون إمامهم، ويقولون هذا اختلاف زمان لا اختلاف برهان، ولو كان الإمام في عصرنا لقال مثل قولنا، ألم تر المالكية والشافعية أفتوا في القرن الرابع بميراث ذوي الأرحام، واختاروا طريقة الحنابلة، وخالفوا بذلك إمامين مالكاً والشافعي، وكان وجه المخالفة فساد بيت المال في عصرهم، وأنه لم يعط ذوي الحقوق حقوقهم، فأفتوا بما يتفق مع الحال، ولم يتقيدوا

بالنصوص عن الإمامين الجليلين، وعلموا أن الإمامين لو كانوا في عصرهم لقلاً مثل مقالهم، وقبساً من أقرب المذاهب إلى الأثر وهو مذهب أحمد.

جاء ابن تيمية فوجد تلك الأقوال الكثيرة، وتلك الفتاوي المختلفة في ثمانية مذاهب من المذاهب الإسلامية الكبرى، وهي مذاهب الأربع، والشيعة الإمامية والزيدية والظاهرية والأباضية، وكل مذهب هو في ذاته مجموعة من المناهج، بل المذاهب، فما كان من المعقول أن يأتي بجديد لم يسبق به في أي مذهب أو أي رأي من هذه الآراء المختلفة، فما ترك الأول للآخر شيئاً حتماً وصدقأً، فلا يعييه أنه لا يجتهد في مسألة إلا وجد لقوله نظيراً في فقه الشيعة أو الظاهرية ونحوهم..»^(١).

○ قيمة اختياراته ومفرادته العلمية:

ويجيب على هذه القضية الأستاذ أبو الحسن الندوبي حفظه الله حيث يقول:

«وسبب آخر لمعارضته هو بعض تحقيقاته وترجيحاته التي ينفرد بها، وينشق فيها عن جماعة الأئمة الأربع والمذاهب المشهورة في بعض الأحيان، أن هذه التفردات لا تبعث وحشة واستنكاراً في نفوس من لهم اطلاع واسع على تاريخ الفقه

(١) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٤٤٠ - ٤٤١.

والخلافيات وأقوال الأئمة والمجتهدین ومسائلهم أنهم يعرفون جيداً أن تفردات الأئمة المشهورين والأولیاء المقبولین ومسائلهم الغریبة إذا جمعت تتضائل أمامها هذه التفردات وتبدو لهم كل شيء، ويتضعضع اعتقادهم بالفرد الذي يعتبرونه مصادراً للقبول ومنافياً للحق، ويشرطون لعظمته وولايته أن لا يكون له رأي أو تحقيق يعارض الآراء والتحقيقـات المشهورة.

أما الذين يملكون نظرة واسعة حول الخلافيات أو أنهم يسمحون بالفرد والشذوذ للمتقدمين لكنهم لا يرون في ذلك مندوحة للمعاصرین مهما بلغوا من التفوق والكمال شاؤاً بعيداً، فقد أصبح لهم هذا التفرد أيضاً مبعثاً للمخالفة وفساد العقيدة والضلال، ودليلاً على خرق الإجماع، وما أعدل وأجمل كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني وأبعد من الإفراط والتفريط في هذا الموضوع، أنه يقول:

«فالذی أصاب فیه وہو الأکثر يستفاد منه ویترحم علیه بسیه، والذی أخطأ فیه لا یقلد فیه بل هو معذور»^(۱).

وخلاصة القول أن شیخ الإسلام رحمه الله كان فقیھاً لا یجاری لغزارة علومه، ومجتهدًا مطلقاً یتبع الدلیل ولو خالف فيما یقول المذاہب المعروفة، وجريئاً فی تبني ما یرى أنه الحق والصواب، یصيّب ویخطئ کأی مجتهد من المجتهدین، فهو

(۱) ابن تیمیة للندوی: ص ۱۴۳-۱۴۴.

مأجور على كلا الوجهين، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وهو معذور في خطأه لأنه بذل وسعه في البحث عن القول الصواب، وقد استطاع رحمة الله أن يحرك الرائق من الأمور العلمية في عصره، ويشير حراكاً علمياً لا زلنا نلمس آثاره حتى يومنا هذا، ولو لا أن الرجل كبير في علمه وفهمه وفقهه، لما أثيرت حوله كل هذه الضجة ولما خاصمه من خاصمه، ووافقه من وافقه، لأن الصغير يعيش صغيراً ويموت صغيراً، ولا يحرك من ساكن الأمور في حياته شيئاً، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وعوض المسلمين عنه كل الخير.

الفصل العاشر

ابن تيمية المحدث

علوم الحديث والسنّة

لقد اتفق أهل العلم والفضل من معاصرى شيخ الإسلام، ومن جاء بعدهم على غزاره علومه، وتفوقه في مختلف العلوم والفضل والزهد والورع والخلق، ولقد منح الله تعالى لابن تيمية حافظة واعية ضابطة، وقدرة على الحفظ لا تجاري، وعمقاً في الفهم، وحضور البديهة، والاستقلال الفكري في شخصه، مع صدقه وإخلاصه ومتابعته للحق، وسعيه للوصول إليه، مع تجرد من أهواء النفس، وقدرة بيانية رائعة، وجرأة وشجاعة منقطعة النظير في الصدع بالحق إذا تبين له.

ومن تلك العلوم التي أتقنها شيخ الإسلام رحمة الله وشكلت دعامة أساسية لفقهه وآرائه، العلم بالسنّة الشريفة وعلومها، حتى أصبح ممن يدور عليهم علمها في عصره، وحتى شهد له أهل عصره من الحفاظ والمحدثين بطول الباع فيها، بل وشهدوا له باستيعابها حفظاً ومعرفة، روایة ودرایة.

○ عناته بالحديث ومصنفاته أثناء الطلب:

عني شيخ الإسلام بالحديث، وسمع المستند مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، وما لا يحصى من الكتب والأجزاء، وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء، وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وأول كتاب حفظه في الحديث «الجامع بين الصحيحين» للإمام الحميدي. وقلًّا كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ والإبطاء في النسيان، وقوة الإدراك والفهم، حتى قال عنه غير واحد: أنه لم يكن يحفظ شيئاً فيسناه، وقد لازم السماع سنين، وقرأ الغيلانيات في مجلس، ونسخ وانتقى، وكتب الطباق والإثبات، ونسخ سنن أبي داود رحمة الله^(١).

○ سعة اطلاعه وعلمه بالسُّنَّة:

وفي سعة اطلاعه وعلمه بالسُّنَّة، وقدرته على استحضار نصوصها وأثارها قال الحافظ أبو حفص البزار رحمة الله: «أما معرفته وبصره بسُنَّة رسول الله ﷺ، وأقواله وأفعاله وقضياته، ووقائعه وغزواته، وسرایاه وبعوته، وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته، ومعرفته بصحیح المنقول عنه وسقیمه، وبقية

(١) الذيل على طبقات الحتابلة: ٢/٣٨٧، العقود الدرية: ص ٣، تاريخ ابن الوردي: ١٤٤-١٤٥، الأعلام العلية: ص ١٨، الدرر الكامنة: ١/٤٠٦.

المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خُصوا به من بين الأمة، فإنه كان رضي الله عنه من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريد منه، فإنه قلًّا أن ذكر حديثاً في مصنف، أو فتوى، أو استشهاد به، أو استدلل به، إلا وعزا في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة، وقلًّا أن يُسأل عن أثر إلا وبيان في الحال حاله، وحال أمره، وذاته.

ومن أعجب الأشياء في ذلك، أنه في محتته الأولى بمصر، لما أخذ سجن، وحيل بينه وبين كتبه، صنف عدة كتب صغارةً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم وعوا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقاتلية بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها، وأي موضع هو منها، كُلُّ ذلك بدبيه من حفظه، لأنَّه لم يكن عنده حينئذٍ كتاب يطالعه. ونُقِّبت واختُبِرت واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلَّ ولا تغيير^(١).

ويقول المستشرق هنري لاوست في سعة معرفته بالحديث وعلومه:

«.. أما علوم الحديث فقد تعمق ابن تيمية في تحصيلها

(١) الأعلام العلية: ص ٢١-٢٢.

على اختلاف أشكالها، فهو يعرف علم نقد الرجال، وعلم مصطلح الحديث الذي يتناول دراسة الأحاديث في سندتها ومتناها، وكتب الحديث مألوفة عنده..^(١).

وعن شدة تفاعله مع السنة التي يحفظها، وتأثيرها في منهجه وطريقه تفكيره يقول هنري لاوست: «وكان إعجابه بالحديث قد خلق عنده مقدرة على النقد، فتحدى أحياناً بحرية فكرية متسمة بالتحفظ ولكنها قوية، عن المراجع الراسخة في الإسلام...»^(٢).

○ ثناء العلماء عليه في علمه بالحديث:
لقد أثنى العلماء على شيخ الإسلام ومعرفته بالحديث ثناءً جميلاً ليس عليه من مزيد، ولم ينل مثل هذا الثناء أو يضاهيه كثير من الحفاظ المتقين لهذا الفن، وسأذكر بعض ثناءهم عليه في هذا الباب:

○ قال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله:
«.. ألفيته من أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً... أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روایته»^(٣).

(١) شرائع الإسلام: ١١/٨٣.

(٢) شرائع الإسلام: ١/٨٣.

(٣) العقود الدرية: ص ١٠، الدرر الكامنة: ١/١٥٦، ذيل طبقات الحنابلة: ١/٣٩٠ وغيرها.

وقال: «... أما الحديث فكان حامل رايته، حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاته متضلعاً في ذلك»^(١).

○ الحافظ المزي رحمه الله قال:

«ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله، ولا أتبع لهما منه»^(٢).

○ أما الحافظ الذهبي رحمه الله فقد أثني عليه ثناء حاراً في أكثر من موضع حيث قال:

«وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالی والنازل، وبالصحيح والسوق، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المتنبي في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث»^(٣).

«وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المتنبي، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته، وسوقمه فما يلحق فيه»^(٤).

(١) العقود الدرية: ص ١٢.

(٢) العقود الدرية: ص ٧، الرد الواfir: ص ١٢٩.

(٣) العقود الدرية: ص ٢٠.

(٤) العقود الدرية: ص ٥٣، الشهادة الزكية: ص ٤٠، الرد الواfir: ص ٦٨ - ٦٩.

«.. فإنني ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً لمتون الأحاديث، وعزوها إلى «الصحيح» أو إلى «المسند» أو إلى «السنن» منه، كأن الكتاب والسُّنَّة نصب عينيه، وعلى طرف لسانه»^(١).

«ولما كان معتقلاً بالإسكندرية، التمس منه صاحب «سببة» أن يجيز له مروياته، وينص على أسماء جلة منها، فكتب في عشر ورقات جملة من ذلك بأسانيدها من حفظه، بحيث يعجز أن يعمل بعده أكابر محدث يكُون»^(٢).

«وبيرع في الحديث وحفظه، فقل من يحفظ من الحديث معزولاً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل..»^(٣).

○ العالم الفاضل ابن فضل الله العمري رحمه الله قال:

«... وكان حافظة للحديث، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاته، متضلعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة، وتعليق مفيدة، وفتاوی مشبعة في الفروع والأصول، والحديث، وردة البدع بالكتاب والسُّنَّة»^(٤).

(١) ثلاث تراثم نفيسة: ص ٢٣.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٤١، العقود الدرية ص ٢٤.

(٣) شذرات الذهب: ص ٦ / ٨١ - ٨٢.

(٤) الشهادة الزكية: ص ٥٦، تاريخ ابن الوردي: ٤٠٩ / ٢.

○ الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله قال:

«ولقد كان عجيباً في معرفة علم الحديث، فأما حفظ متون الصحاح، وغالب متون السنن والمسند، فما رأيت من يدانبه في ذلك أصلاً»^(١).

○ الحافظ الصفدي رحمه الله قال:

«كأن السُّنَّةَ عَلَى رَأْسِ لِسَانِهِ، وَعِلْمُ الْأَثَرِ مُسَاقَةً فِي حِوَالِصِّنَاعَةِ، وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ مُجْلَوَةٌ نَصْبَ عِيَانِهِ، لَمْ أَرَ أَنَا وَلَا غَيْرِي مُثْلِهِ إِسْتَحْضَارَهُ، وَلَا مُثْلِ سَبْقِهِ إِلَى الشَّوَاهِدِ وَسُرْعَةِ إِسْتَحْضَارِهِ، وَلَا مُثْلِ عَزْوَهُ الْحَدِيثِ إِلَى أَصْلِهِ الَّذِي فِيهِ نَقْطَةٌ مَدَادَهُ»^(٢).

○ الحافظ ابن الوردي رحمه الله قال:

«وَكَانَتْ لَهُ خَبْرَةٌ تَامَّةٌ بِالرِّجَالِ وَجَرْحَهُمْ وَتَعْدِيلِهِمْ وَطَبِقَاتِهِمْ، وَمَعْرِفَةٌ بِفَنَّوْنَ الْحَدِيثِ، وَبِالْعَالِيِّ وَالنَّازِلِ، وَالصَّحِيحِ وَالسَّقِيمِ، مَعَ حَفْظِهِ لِمَتْوَنِهِ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي إِسْتَحْضَارِهِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحَجَجِ مِنْهُ، وَإِلَيْهِ الْمُتَنَهِّي فِي عَزْوَهِ إِلَى الْكِتَابِ السَّتَّةِ وَالْمَسْنَدِ، بِحِيثُ يَصُدِّقُ عَلَيْهِ أَنْ يَقَالُ: كُلُّ حَدِيثٍ لَا

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩١.

(٢) أعيان العصر عن المنتجد: ص ٤٩.

يعرفه ابن تيمية فليس بحديث. ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فيه من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السوافي»^(١).

○ الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله قال:

«أما معرفته ب الصحيح المنقول و سقيمه، فإنه في ذلك من الجبال التي لا ترقى ذرورتها، ولا يُنال سُنامها، قلَّ أنْ ذُكر له قول إلا وقد أحاط علمه بمبتكره، وذاكره، وناقله، وأثره، أو راوٍ إلا وقد عرف حاله من جرح وتعديل، بإجمال وتفصيل»^(٢).

○ العلامة الحافظ العيني رحمه الله قال:

«كان من العلم والدين والورع على جانب عظيم، وكان ذا فنون كثيرة، ولا سيما علم الحديث، والفقه، والتفسير وغير ذلك»^(٣).

○ الحافظ ابن حجر رحمه الله قال:

«سمع من ابن عبد الدائم، والقاسم الإربلي، والمسلم بن علان، وابن أبي عمر، والفارخر، في آخرين، وقرأ بنفسه، ونسخ سنن أبي داود، وحصل الأجزاء، ونظر في الرجال، والعلل، وتفقه، وتمهر، وتقديم وصنف ودرس وأفتى، وفاق الأقران، وصار

(١) تاريخ ابن الوردي عن المنجد: ص ١٩.

(٢) الأعلام العلية: ص ٣٠.

(٣) الرد الوافر: ص ٢٦٤.

عجبًا في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول، والاطلاع على مذاهب السلف والخلف»^(١).

○ وقال ابن عبد الهادي رحمه الله:

«... وأما الحديث فكان حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيميه، عارفاً برجاته متضلعاً في ذلك»^(٢).

وجاء غير هذا الثناء الكثير على ألسنة أهل العلم وحفظ الزمان الذي عاش فيه شيخ الإسلام، أو الأزمنة التي جاءت بعد ذلك.

○ مكانته بين نقاد الحديث والمتكلمين في الرجال:

لشيخ الإسلام ابن تيمية قدم راسخة في علم الحديث، ونقد الرجال تجريحاً وتعديلأً. وتصححأً للأحاديث وتضعيفاً، وسنلحوظ ذلك في الأمور التي سنذكرها لاحقاً.

أما عن نقاده للرجال، وكلامه فيهم جرحأً وتعديلأً، فقد عده العلماء من المتكلمين في الرجال، فها هو الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى قد عده في الطبقة الثانية والعشرون من المتكلمين في الرجال، ومن يعتمد قوله في الجرح والتعديل^(٣).

(١) الدرر الكامنة: ١/١٤٤-١٤٥.

(٢) العقود الدرية: ص ٣٧٢.

(٣) ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل للذهبي، ضمن أربع رسائل في علوم الحديث: ص ٢١٢.

وعده ابن ناصر الدين الدمشقي في طبقات النقاد الذين يتكلمون في الرجال وذكره في طبقة الحافظ المزي والبرزالي والذهبي وغيرهم رحمهم الله جمِيعاً^(١).

وذكره السخاوي في رسالته «المتكلمون في الرجال» في الطبقة السادسة والعشرون من المتكلمين في الرجال^(٢).

○ منهجه في النقد:

تميز شيخ الإسلام رحمة الله تعالى بميشه إلى نقد المتون، وهذا الفن لم يتمكن منه كثير من أهل العلم. وذلك لصعوبة مسلكه، وقد وجد شيخ الإسلام من نفسه القدرة على اقتحام هذا الميدان، مع اشتغاله بأحوال الرواية ومروياتها، واعتبارها في الشواهد والمتتابعات، ولذلك فإن ما ظهرت نكارته من الأحاديث والمتون، واتضح كذبه لا سيما ما جاء في أكاذيب الشيعة وبعض أهل الأهواء، فإن شيخ الإسلام يكتفي غالباً في نقد متنه دون الرجوع إلى إسناده، لأن كذبه ظاهر.

ومن المعلوم أن الناقد قد يصيّب، وقد يخطئ، ويسهو كما لا يخفى على من مارس هذا الفن.

(١) الرد الوافر: ص ٤٦.

(٢) رسالة المتكلمون في الرجال للسخاوي، ضمن أربع رسائل في علوم الحديث: ص ١٢١.

ومن هنا حكم على بعض الأحاديث بالوضع والضعف والنكارة وقد رأى بعض أهل العلم صحتها أو حسنها.

ومن هنا نقد الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله شيخ الإسلام في رده بعض الأحاديث في أثناء رده على الراضاة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«إنه تحامل في مواضع كثيرة، ورد أحاديث موجودة، وإن كانت ضعيفة بأنها مُختلقة».

وجاء هذا النقد في إطار حديثه عن نقد شيخ الإسلام لأحاديث ابن مطهر الحلي، وتقييم الحافظ ابن حجر لما نقده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «منهاج السنة» وبناءً على كلام الحافظ ابن حجر، عد الشيخ عبد الحي العكتوني شيخ الإسلام ابن تيمية في الطبقة المتشددة من النقاد، وحمل كلام ابن حجر فيه أكثر مما يحتمل، ونسى أن نقد الحافظ كان موجهاً إلى شدة شيخ الإسلام في حكمه على الأحاديث في كتابه «منهاج السنة»، وذلك حين صرخ أن أغلب أحاديث منهاج من قبيل الموضوعات والواهيات، وقد أقره الحافظ الذهبي في المتنقى على ما قال.

وبهذا يتبيّن لنا أن كلام العكتوني رحمه الله ليس دقيقاً حين وصف شيخ الإسلام بالتشدد بناءً على كلام ابن حجر رحمه الله، وذلك لأن كلام ابن حجر خاص بكتاب منهاج السنة، ولا يعمم أو لا يصلح ليكون حجة لتعيم الحكم.

وعند البحث والتدقيق واستقراء الأحكام التي أصدرها شيخ الإسلام رحمة الله على الأحاديث يتبيّن لنا أنه كان يسير على طريقة الإمام أحمد والبخاري وغيرهما من الطبقة المتوسطة، ويكثر من الثناء عليهم في طيات كلامه، ويرجع إلى أقوالهم في الجرح والتعديل.

ويتبين لنا أيضاً أن منهجه رحمة الله كان التوسط والعدل في جميع شؤونه الدينية والدنيوية، والبحث عن أุดار العلماء فيما وقعوا فيه من مخالفة للنصوص، ويعطي كل واحد حقه من مدح، أو ذم، ولا يحب الظلم أبداً.

ثم هناك قضية هامة يجب الالتفات إليها وهي أن الناقد مهما وصف بالتوسط، أو التشدد، أو التساهل فلا يكون على حالة واحدة دائمة في إصدار الأحكام على الرواية ومروياتها وذلك لأسباب مختلفة.

ومع كل هذا فإننا لا نعطي العصمة لشيخ الإسلام، فهو كغيره من العلماء الجهابذة، يعترفهم من الخطأ والنسیان الذي لا يحط من قدرهم ومكانتهم وحفظهم^(١).

○ نماذج من أحكامه على الأحاديث:

ولابد لنا أن نعرض نماذج من أحكامه رحمة الله تعالى

(١) لسان الميزان: ٦/٣١٩، الدرر الكامنة: ٢/٧١.

على الأحاديث، وما أكثر هذه الأحكام، وسأختار مجموعة منها فيما يلي:

١ - «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور».

حكمه: هذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع. (مجموع الفتاوى: ١/٣٥٦).

٢ - «أمر ببريره أن تعتد بثلاث حيض».

حكمه: هذا حديث معلول، فإن عائشة رضي الله عنها قد ثبت عنها من غير وجه أن العدة عندها ثلاثة أطهار، وأنها إذا طعنت في الثلاثة حلت، فكيف تروي عن النبي ﷺ أنه أمرها أن تعتد بثلاث حيض. (مجموع الفتاوى: ٣٢/١١١ - ١١٢).

٣ - «إن الله ينزل عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعلق المشاة».

حكمه: هذا الحديث رواه أهل البدع في الصفات، مما نعلم باليقين القاطع أنه كذب وبهتان، بل كفر شنيع (مجموع الفتاوى: ٣٨٥ - ٣٨٩).

٤ - «أن ركانة طلق امرأته البتة، فقال له النبي ﷺ: الله ما أردت إلا واحدة؟ فقال: أردت بها واحدة، فردها رسول الله ﷺ».

حكمه: ضعفه الأئمة الأكابر كالإمام أحمد بن حنبل، والبخاري، وأبي عبيد. وابن حزم وغيرهم، وإن رواه قوم مجاهيل لم تعرف عدالتهم وضيّعوهم. (مجموع الفتاوى: ١٥/٣٣).

٥ - «كنت نبياً وأدم بين الماء والطين، وكنت نبياً وأدم لا ماء ولا طين».

حكمه: هذا اللفظ كذب باطل ولكن اللفظ المأثور الذي رواه الترمذى وغيره أنه قيل: يا رسول الله! متى كنت نبياً؟ قال: وأدم بين الروح والجسد (الرد على البكري: ٤، ١١، ومجموع الفتاوى: ١٨/٣٧٩).

٦ - «قال لأبي هريرة ألك قميصان؟ يع واحد وكل به بطيخاً أصفر».

حكمه: الأحاديث المتقدمة في البطيخ كلها مختلقة لم يُرُغب النبي ﷺ في أكل البطيخ، وجميع ما يروى من هذا الجنس فهو كذب. (مجموع الفتاوى: ٣٢/٢١٣).

٧ - «سئل عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه قال: سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين أن يتوب عليه، فتاب عليه».

حكمه: هذا الحديث كذب موضوع باتفاق أهل العلم. (منهاج السنة: ٧/١٣٢ - ١٣٠).

٨ - «خلق الله من نور وجه علي سبعين ألف ملك يستغفرون له ولمحبيه إلى يوم القيمة».

حكمه: رواه أخطب خوارزم - كما قال الرافضي، وأخطب خوارزم هذا له مصنف في هذا الباب، فيه من الأحاديث المكذوبة ما لا يخفى كذبه، وليس هو من علماء الحديث، وهذا الحديث من المكذوبات. (منهاج السنة: ٣٦/٥، ٢٤٢).

٩ - «نهى عن صوم رجب».

حكمه: ليس بالقوى. [اقتضاء الصراط المستقيم: ٦٢٥/٢، ٦٢٦].

١٠ - «نية المرء خير من عمله».

حكمه: هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب الأمثال من مراسيل ثابت البناي [الزهد والورع والعبادة: ص ١٨٩].

١١ - «من حج فزار قبرى بعد موته كان كمن زارني في حياتي».

حكمه: هو معروف من حديث حفص بن سليمان القارىء صاحب عاصم، وقد اتفق أهل العلم بالحديث على الطعن في حديث حفص هذا دون قراءته» (الرد على الأخنائي: ص ٢٨).

١٢ - «ليستمتع أحدكم بحله ما استطاع فإنه لا يدرى ما يعرض له في حرمته».

حكمه: رواه أبو كريب وأبو يعلى الموصلي، وقد روى الترمذى وابن ماجه بمثل إسناده لكن أبو سورة ضعفوه» (شرح العدة: ٣٦٦ / ١).

١٣ - «لما نزلت (قل لا أسائلكم عليه أجرأ إلا المودة في القربى) قالوا: يا رسول الله، من قرباتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وابنهاهما».

حكمه: (قاله الرافضي ينسبة إلى مسند أحمد بن حنبل ونحوه في الصحيحين).

قوله: أن أحمد روى هذا في مسنده كذب بين، فإن هذا مسند أحمد موجود، وليس فيه هذا الحديث، وأظهر من ذلك كذباً قوله: إن نحو هذا في الصحيحين، وليس هو في الصحيحين، بل فيهما وفي مسند أحمد ما ينافق ذلك. (منهاج السنة: ٩٥ / ٧ - ١٠٤).

١٤ - «لا يقطع الصلاة شيء».

حكمه: ضعيف. (القواعد النورانية: ٣٣).

١٥ - «لا يبغض العرب إلا منافق».

حكمه: زيد بن جبيرة عندهم منكر الحديث، وهو مدنى، ورواية إسماعيل بن عياش عن غير الشاميين مضطربة. (اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٩٠ / ١ - ٣٩١).

١٦ - «كنت كنزاً لا أُعرف، فأحبيت أن أعرف فخلقت خلقاً، فعرفتهم بي، في عرفوني».

حكمه: ليس هذا من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف (أحاديث القصاص: ص ٥٥ برقم: ٣).

١٧ - «أن أبا محدورة أشد بين يدي النبي ﷺ: قد لسعت حية الھوى كبدى

فلا طيب لها ولا راقي
إلى آخرها.

وتواجد رسول الله ﷺ، ووَقَعَتِ الْبَرْدَةُ عَنْ كَتْفِيهِ، فَتَقَاسَمَهَا فَقَرَاءُ الصَّفَةِ وَجَعَلُوهَا رَقْعاً فِي ثِيَابِهِمْ».

حكمه: هذا كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، لكن قد رواه بعضهم، لكنه من الأكاذيب الموضوعة» (أحاديث القصاص: ٦٠ - ٦١ برقم: ١٣).

١٨ - «من علم أخاه آية من كتاب الله فقد ملك رقه».

حكمه: هذا كذب، ليس في شيء من كتب أهل العلم.
(مجموع الفتاوى: ١٨ / ٣٨١).

١٩ - «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنه مودتي».

حكمه: حصين هذا الذي رواه قد أنكر أكثر الحفاظ أحاديثه. (اقتضاء الصراط المستقيم: ١ / ٣٨٧ - ٣٩٠).

٢٠ - «من أشبع جوعة أو ستر عورة ضمنت له على الله
الجنة». أحاديث

حكمه: هذا لفظ لا يعرف عن النبي ﷺ. القصاص: ص ٧٤ برقم ٣٧

هذه المجموعة من الأحاديث تشكل جزءاً صغيراً من
الأحاديث التي حكم عليها شيخ الإسلام رحمة الله صحة وضعفاً،
ومن يريد المزيد فليرجع إلى مجموع الفتاوى، أحاديث القصاص،
ومنهاج السنة وغيرها من كتب شيخ الإسلام فسيجد فيه الكثير من
الأحكام.

○ نماذج مما نقله الأئمة عنه في التصحيح والتضعيف:

اعتمد كثير من العلماء الذين جاؤوا بعده على أحكامه على
الأحاديث صحة وضعفاً، ونقلوا ذلك في مصنفاته، أذكر منهم
الإمام ابن القيم، والحافظ ابن حجر، والحافظ السخاوي،
والحافظ السيوطي، والعلامة علي القاري، وغير هؤلاء كثير.
وسأذكر نماذج من ذلك عند الإمامين السخاوي في كتاب
المقاصد الحسنة، والعلامة علي القاري في كتابه «المصنوع في
معرفة الحديث الموضوع».

أ- من كتاب المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي:

- حديث: إن لجواب الكتاب حقاً كرد السلام».

قال السخاوي: ولا يثبت رفعه «بل المحفوظ كما قال ابن تيمية: وقفه» (المقاصد: حديث رقم: ٢٢٩ ص ١١٧).

- حديث: «إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك أخذ، وبك أعطي».

قال السخاوي: قال ابن تيمية وتبعه غيره: إنه كذب موضوع باتفاق. انتهى. (المقاصد الحسنة: حديث رقم: ٢٣٣ / ص ١١٨).

- حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

قال السخاوي: وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندي البجلي رضي الله عنه. (المقاصد حديث رقم: ٣٨٢ ص ١٨٢).

- حديث «الشيخ في قومه كالنبي في أمنته».

قال السخاوي: وممن جزم بكونه موضوعاً شيخنا - يعني ابن حجر - ومن قبله التقي ابن تيمية فقال: إنه ليس من كلام النبي ﷺ، وإنما ي قوله بعض أهل العلم، وربما أورده بعضهم بلفظ: الشيخ في جمعته كالنبي في قومه، يتعلمون من علمه، ويتأذبون من أدبه، وكل ذلك باطل. (المقاصد: حديث رقم: ٦٠٩ / ص ٢٥٧).

- حديث «من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد دخل الجنة».

قال السخاوي: قال ابن تيمية إنه موضوع ولم يروه أحد من أهل العلم بالحديث، وكذا قال النووي في آخر الحج من شرح المذهب: هو موضوع لا أصل له. (المقاصد حديث رقم: ١١٢٦ ص ٤١٣).

- حديث «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به».

قال السخاوي: قال ابن تيمية: إنه كذب. (المقاصد برقم: ٨٨٣ ص ٣٤).

وغير هذه النماذج عن السخاوي كثير.

ب - من كتاب (المصنوع في معرفة الحديث الموضوع) للعلامة علي القاري رحمة الله:

- حديث «أكرموا طهوركم».

قال القاري: قال ابن تيمية: موضوع، وفي «الذيل»: هذا كما

قال: (المصنوع: ص ٥٨ برقم ٣٥).

- حديث: «سب أصحابي ذنب لا يغفر».

قال القاري: قال ابن تيمية: هذا كذب موضوع. (المصنوع:

ص ١١٠ - ١١١ / حديث برقم: ١٥١).

- حديث: «القلب بيت الرب».

قال السخاوي: قال الزركشي وغيره: لا أصل له، وقال ابن تيمية: موضوع، وفي الذيل: هو كما قال. (المصنوع: ص ١٣١ برقم: ٢١٧).

- حديث: «كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً عرفتهم بي فعرفوني».

قال القاري: نص الحفاظ كابن تيمية والزركشي والساخاوي على أنه لا أصل له (المصنوع: ص ١٤١ برقم ٢٣٢).

- حديث: «من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد دخل الجنة».

قال القاري؛ قال ابن تيمية: إنه موضوع، وقال التووبي: إنه باطل لا أصل له. (المصنوع: ص ١٨٢ برقم: ٣٣٦).

- حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

قال القاري: قال ابن تيمية: موضوع. (المصنوع: ص ١٨٩ برقم: ٣٤٩).

- حديث «من قدم لأخيه إبريقاً يتوضأ به، فكأنما قدم جواداً».

قال القاري: قال ابن تيمية: موضوع، وفي الذيل: هو كما قال (المصنوع: ص ١٩٠ برقم: ٣٥٣).

- حديث «النظر إلى الوجه الجميل عبادة».

قال القاري: قال ابن تيمية: باطل لا أصل له. (المصنوع: ص ٢٠٢/برقم ٣٨٣).

○ علوم مصطلح الحديث ومصنفاته عند ابن تيمية:
وسأعرض لبعض آرائه في مصطلح الحديث على سبيل

التمثيل، وليس الحصر، ولبعض آرائه في بعض المصنفات
الحديثية.

١— نماذج من آرائه في علوم المصطلح:

١- رأيه في الحديث المرسل:

قال رحمة الله: والمراسيل قد تنازع الناس في قبولها وردها وأصح الأقوال أنَّ منها المقبول، ومنها المردود، ومنها الموقوف، فمن عُلِّمَ من حاله أنه لا يرسل إلا عن ثقة: فُيَلَّ مرسَلُهُ، ومن عُرِفَ أنه يُرْسَلُ عن الثقة وغير الثقة إن كان إرساله روایة عمن لا يعرف حاله، فهذا موقوف، وما كان من المراسيل مخالفًا لما رواه الثقات كان مردودًا، وإذا كان المرسل من وجهين، كلُّ من الروايين أَخَذَ عن شيخ الآخر فهذا يدل على صدقه، فإن مثل ذلك لا يتصور في العادة تماثلُ الخطأ فيه وتعتمدُ الكذب»^(١).

٢- معنى قولهم: حديث لا أصل له:

قال السيوطي رحمة الله: وقولهم هذا الحديث ليس له أصل، أو: لا أصل له، قال ابن تيمية: معناه ليس له إسناد»^(٢).

(١) بحوث الندوة العالمية ص ٢٧٤-٢٧٦.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٤/١١٧.

٣ - إيراد الحادث الواحد من طرق مختلفة:

قال رحمة الله: «إن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة: يُوجب العلم بمضمون المتنقول، لكن هذا يُنفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين، وفي مثل هذا ينفع برواية المجهول، والسيء الحفظ، وبالحديث المرسل، ونحو ذلك، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ويقولون: إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره، قال أحمد: قد أكتب حديث الرجل لأنعتبره»^(١).

٤ - رأيه في الحديث الضعيف والعمل به:

قال رحمة الله: «قولنا: إن الحديث الضعيف خير من الرأي: ليس المراد به الضعف المتروك، لكن المراد به الحسن، ك الحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحديث إبراهيم الهجري، وأمثالهما ممن يحسن الترمذى حديثه.

وكان الحديث في اصطلاح من قبل الترمذى: إما صحيحأوإما ضعيفاً، والضعف نوعان: ضعيف متروك، وضعيف ليس بمتروك، فتكلم أئمة الحديث بذلك الاصطلاح، فجاء من لا يعرف إلا اصطلاح الترمذى فسمع قول بعض الأئمة: «الحديث الضعيف أحب إلى من القياس»، فظن أنـه يحتج بالحديث الذي

(١) تدريب الراوى: النوع الثاني والعشرون: ص ١٩٥

يضعفه مثل الترمذى، وأخذ يرجع طريقة من يرى أنه أتبع للحديث الصحيح، وهو في ذلك من المتناقضين الذين يرجحون الشيء على ما هو أولى بالرجحان منه، إن لم يكن دونه»^(١).

٥- رأيه في الشواهد الضعيفة:

قال رحمه الله: «وقد يروى الإمام أحمد وإسحاق وغيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لاتهام رواتهاسوء الحفظ ونحو ذلك، ليُعتبر بها، ويستشهد بها، فإنه قد يكون لذلك الحديث ما يشهد له أنه محفوظ، وقد يكون له ما يشهد بأنه خطأ وقد يكون صاحبها كذاباً في الباطن ليس مشهوراً بالكذب، بل يروي كثيراً من الصدق، فيروى حديثه وليس كل ما رواه الفاسق يكون كذباً، بل يجب التبيين في خبره كما قال تعالى: ﴿يَتَبَيَّنُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ يَنْبَأُ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٤٩] الآية، فيروى لشأنه الشواهد هل تدل على الصدق أو الكذب»^(٢).

٦- الأحاديث التي يحتج بها للأحكام الفقهية:

قال رحمه الله: «لو تناظر فقيهان في مسألة من مسائل الفروع، لم تقم الحجة على المُناظِر إلا بحديث يُعلمُ أنه مُسندٌ

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٣٠

(٢) منهاج السنة النبوية: ٢/١٩١.

إسناداً تقوم به الحجّة أو يصحّحه من يُرجّع إليه في ذلك، فإذا لم يُعلم إسناده ولا أثبته أئمّة النقل فمن أين يعلم؟^(١).

وأما عن مرجعية تصحيح الأحاديث وتضعيفها فيقول رحمة الله:

«المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب. والمراجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل الحديث، كما يرجع إلى النحاة في النحو، ويرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك، فلكل علم رجال يعرفون به، والعلماء بالحديث أجلّ قدرًا من هؤلاء، وأعظمهم صدقًا، وأعلاهم منزلة، وأكثرهم دينًا»^(٢).

٧ - رأيه في بعض المصطلحات:

○ قولهم: تركه فلان.

قال رحمة الله: «قولهم: تركه شعبة، معناه أنه لم يرو عنه، وترك الرواية قد يكون لشبهة لا توجب الجرح، وهذا معروف في غير واحد، قد خرج له في الصحيح»^(٣).

(١) منهاج السنّة النبوية: ٤/٨١.

(٢) منهاج السنّة النبوية: ٤/١٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٤/٣٤٩.

○ مصطلح: يكتب حديثه ولا يحتاج به:

قال رحمة الله: «قول أبي حاتم: يكتب حديثه ولا يُحتاج به، أبو حاتم يقول مثل هذا في كثير من رجال، «الصحيحين»، وذلك أن شرطه في التعديل صعب.

و (الحججة) في اصطلاحه، ليس هو الحجة في اصطلاح جمهور أهل العلم، وأبو حاتم من أصعب الناس تزكية»^(١).

○ مصطلح: ليس بقوى في الحديث:

قال رحمة الله: «عبارة لينة تقتضي أنه ربما كان في حفظه بعض التغيير، ومثل هذه العبارة لا تقتضي عندهم تعمد الكذب، ولا مبالغة في الغلط»^(٢).

○ مصطلح: لا أعلم أنهم رضوه:

قال رحمة الله: «وهذا يقتضي أنه ليس عندهم من الطبقة العالية، ولهذا لم يخرج البخاري ومسلم له، ولا مثال له، لكن مجرد عدم تخریجهما للشخص لا يوجب رد حديثه، وإذا كان كذلك، فيقال: إذا كان الجارح والمعدل من الأئمة، لم يقبل الجرح إلا مفسراً، فيكون التعديل مقدماً على الجرح المطلق»^(٣).

(١) مجموع الفتاوى: ٣٤٩ / ٢٤ . ٣٥٠

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٥٠ / ٢٤ .

(٣) مجموع الفتاوى: ٣٥١ / ٢٤ .

٥ مصطلح: ضعيف، ليس بالقوي:

قال رحمه الله: «قال فيه الإمام أحمد - يعني عتبة بن حميد الضبي - ضعيف، ليس بالقوي، لكن أحمد يقصد بهذه العبارة (ليس بالقوي) أنه ليس من يصحح حديثه، بل هو من يُحسن حديثه، وقد كانوا يسمون حديث مثل هذا ضعيفاً. ويحتاجون به، لأنه حسن، إذ لم يكن الحديث إذ ذاك مقصوماً إلا إلى صحيح وضعيف»^(١).

٨ - حكم خبر الأحاد:

قال رحمه الله: «وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعى وأحمد، وهو قول أكثر أصحاب الأشعرى كالإسفارائينى وابن فورك، فإنه وإن كان في نفسه لا يفيد إلا الظن، لكن لما اقترن به إجماع أهل العلم بالحديث على تلقىه بالتصديق، كان بمنزلة إجماع أهل العلم بالفقه على حكم مستندين في ذلك إلى ظاهر أو قياس أو خبر واحد، فإن ذلك الحكم يصير قطعياً عند الجمهور وإن كان بدون الإجماع ليس بقطعي، لأن الإجماع معصوم، فأهل العلم بالأحكام الشرعية لا يجمعون على تحليل حرام، ولا تحرير حلال، كذلك أهل العلم بالحديث لا يجمعون

(١) مجمع الفتاوى الكبرى: ٢٤٣/٣.

على التصديق بكذب، ولا التكذيب بصدق، وتارة يكون علم أحدهم لقرائن تختلف بالأخبار توجب لهم العلم، ومن علم ما علموه حصل له من العلم ما حصل لهم^(١).

٩ - الحديث المتواتر:

قال رحمة الله: «وأما المتواتر فالصواب الذي عليه الجمهور: أن المتواتر ليس له عدد محصور، بل إذا حصل العلم عن إخبار المخبرين كان الخبر متواتراً، وكذلك الذي عليه الجمهور أن العلم يختلف باختلاف حال المخبرين به، فرب عدد قليل أفاد خبرهم العلم بما يوجب صدقهم، وأضعافهم لا يفيد خبرهم العلم.

ولهذا كان الصحيح أن خبر الواحد قد يفيد العلم إذا احفلت به قرائن تفيد العلم.

وعلى هذا فكثير من متون الصحيحين متواتر اللفظ عند أهل العلم بالحديث وإن لم يعرف غيرهم أنه متواتر، ولهذا كان أكثر متون الصحيحين مما يعلم علماء الحديث عملاً قطعياً أن النبي ﷺ قاله، تارة لتواته عندهم، وتارة لتلقى الأمة له بالقبول^(٢).

(١) علم الحديث لابن تيمية: ص ٣٤، مجموع الفتاوى: ١٨ / ٤١.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨ / ٤٠ - ٤١.

١٠ - قبول روایة الراوی أوردها:

قال رحمه الله: «الراوی إما أن تقبل روایته مطلقاً أو مقيداً، فاما المقبول إطلاقاً فلا بد أن يكون مأمون الكذب بالمعنة، وشرط ذلك العدالة وخلوه عن الأغراض والعقائد الفاسدة التي يظن معها جواز الوضع.

وأن يكون مأمون السهو بالحفظ والضبط والإتقان، وأما المقيد فيختلف باختلاف القرائن، ولكل حديث ذوق، ويختص بنظر ليس للأخر»^(١).

ب - آراؤه في بعض المصنفات الحديثية:

وفيما يلي أعرض بعض نماذج من آرائه في بعض المصنفات الحديثية، ومرتبتها في القوة والضعف.

١ - كتاب الحلية لأبي نعيم:

«قال رحمه الله: «وأبو نعيم يروي في «الحلية» في فضائل الصحابة وفي الزهد أحاديث غرائب يعلم أنها موضوعة، وكذلك الخطيب وابن الجوزي وابن عساكر وابن ناصر وأمثالهم»^(٢).

وقال «أن أبو نعيم روى كثيراً من الأحاديث التي هي ضعيفة بل موضوعة باتفاق علماء الأحاديث وأهل السنة والشيعة، وهو

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/٤٧.

(٢) الرد على البكري: ص ١٩.

وإن كان حافظاً ثقة كثير الحديث واسع الرواية لكن روى كما هو عادة المحدثين يروون ما في الباب لأجل المعرفة بذلك، وإن كان لا يُحتاج من ذلك إلا ببعضه^(١).

وقال أيضاً: «وما يرويه أبو نعيم في «الحلية» أو في «فضائل الخلفاء»، قد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنَّ فيه كثيراً من الكذب الموضوع، ومجرد كونه رواه لا يدل على صحة الحديث»^(٢).

٢ - كتاب الفردوس للديلمي:

قال رحمة الله: «ابن شيرويه الهمذاني ذكر في كتابه «الفردوس» أحاديث كثيرة صحيحة، وأحاديث حسنة، وأحاديث موضوعة، وإن كان من أهل العلم والدين ولم يكن من يكذب هو، لكنه نقل ما في كتب الناس، والكتب فيها الصدق والكذب»^(٣).

وقال أيضاً: «كتاب الفردوس للديلمي فيه موضوعات كثيرة، أجمع أهل العلم على أن مجرد كونه رواه لا يدل على صحة الحديث»^(٤).

(١) منهاج السنة: ١٥/٤.

(٢) منهاج السنة: ٣٨، ١٠/٤.

(٣) منهاج السنة: ٧٨/٤.

(٤) منهاج السنة: ٣٨/٤.

٣ - رأيه في بعض كتب الفضائل:

قال رحمة الله: «النسائي صنف «خصائص علي» وذكر فيه عدة أحاديث ضعيفة وكذلك «أبو نعيم في الفضائل»، وكذلك الترمذى في جامعه روى أحاديث كثير في فضائل علي كثير منها ضعيف»^(١).

وقال رحمة الله: «من الناس من قصد روایة كل ما روی في الباب من غير تمیز بين صحيح وضیف، كما فعله أبو نعیم، وكذلك غيره من صنف في الفضائل، ومثله ما جمعه أبو الفتح بن أبي الفوارس، وأبو علي الأهوازي وغيرهما في «فضائل معاویة» ومثل ما جمعه النسائي في فضائل علي، وكذلك ما جمعه أبو القاسم بن عساکر في «تاریخه» في فضائل علي وغيره»^(٢).

٤ - رأيه في مصنفو السیر وقصص الأنبياء:

«قال رحمة الله: «جمهور مصنفو السیر والأخبار وقصص الأنبياء: لا يميّز بين الصحيح والضیف، والغث والسمين، كالشعلبي، والواحدي، والمهدوي، والزمخشري، وعبد الجبار بن أحمد، وعلي بن عيسى الرّمانى، وأبي عبد الله ابن الخطيب الرازى، وأبي نصر بن القشىري - وأبي الليث السمرقندى، وأبي

(١) منهاج السنة: ٤/٤٨.

(٢) منهاج السنة: ٤/٨٤.

عبد الرحمن السلمي، والكواشى الموصلى، وأمثالهم من المصنفين في التفسير.

فهؤلاء: لا يعرفون الصحيح من السقيم، ولا لهم خبرة بالمروى المنسوق، ولا لهم خبرة بالنقلة، بل يجمعون فيما يروون بين الصحيح والضعف، ولا يميزون بينهما، لكن منهم من يروي الجميع، ويجعل العهدة على الناقل كالتعلبي وغيره، ومنهم من ينصر قولًا أو جملة إما في الأصول أو التصوف والفقه بما يوافقها من صحيح أو ضعيف، ويرد ما يخالفها من صحيح أو ضعيف»^(١).

٥ - موازنة بين المسند وسنن أبي داود ورأيه في كتاب الفضائل لأحمد:

قال رحمة الله: «صنف أحمد كتاباً في فضائل الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وقد روى في هذا الكتاب ما ليس في مسنده، وليس كل ما رواه أحمد في المسند وغيره يكون حجة عنده، بل يروي ما رواه أهل العلم.

وشرطه في المسند: أن لا يروي عن المعروف بالكذب عنده، وإن كان في ذلك ما هو ضعيف، وشرطه في المسند أمثل من شرط أبي داود في سنته»، وأما في «كتب الفضائل» فروى ما

(١) الرد على البكري: ص ١٥.

سمعه من شيوخه سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً، فإنه لم يقصد أن لا يروي في ذلك إلا ما ثبت عنده، ثم زاد ابنه عبد الله على «مسند أحمد» زيادات، وزاد أبو بكر القطبي زيادات، وفي زيادات القطبي أحاديث كثيرة موضوعة، فظن ذلك الجهال أنه من روایة أحمد، وأنه رواها في المسند، وهذا خطأ قبيح^(١).

وقال رحمة الله: «وكل من عرف العلم يعلم أن ليس كل حديث رواه أحمد في «الفضائل» ونحوه يقول: إنه صحيح، بل ولا كلُّ حديث رواه في مسنده يقول: إنه صحيح، بل أحاديث «مسنده» هي التي رواها الناس عمن هو معروف عند الناس بالنقل ولم يظهر كذبه، وقد يكون في بعضها علة تدل على أنه ضعيف بل باطل، لكن غالبيها وجمهورها أحاديث جيدة يحتج بها، وهي أجود من أحاديث سنن أبي داود.

وأما ما رواه في الفضائل فليس من هذا الباب عنده، والحديث قد يعرف أن محدثه غلط فيه أو كَذَبَهُ من غير علم بحال المحدث، بل بدلائل آخر^(٢).

وقال أيضاً: «وأحمد له «المسند» المشهور، وله كتاب مشهور في فضائل الصحابة، روى فيه أحاديث لا يرويها في

(١) منهاج السنة: ٤/٢٧.

(٢) منهاج السنة: ٤/٦١.

«المسند» لما فيها من الضعف لكونها لا تصلح أن ثروى في المسند، لكونها مراسيل أو ضعافاً بغير الإرسال»^(١).

٦- رأيه في كتب البيهقي رحمه الله:

قال رحمه الله: «... والبيهقي مما أنكر عليه رواية هذا الحديث الكذب، ورآه أهل العلم لا يستوفي الآثار التي لمخالفيه، كما يستوفي الآثار التي له، وأنه يتحجج بآثار لو احتاج بها مخالفوه لأظهر ضعفها وقرح فيها، وإنما أوقعه في هذا - مع علمه ودينه - ما أوقع أمثاله ممن يريد أن يجعل آثار النبي ﷺ موافقة لقول واحد من العلماء دون آخر، فمن سلك هذه السبيل دَحَضَتْ حُجَّجُهُ، وظَهَرَ عَلَيْهِ نُوْعٌ مِّنَ التَّعَصُّبِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»^(٢).

وقال أيضاً: «والبيهقي يعزّو ما رواه إلى الصحيح في الغالب، وهو من أقلهم استدلالاً بالموضوع، لكن يروي في الجهة التي يَنْصُرُها من المراسيل والآثار ما يَصْلُحُ للاعتماد، ولا يَصْلُحُ للاعتماد، ويَتَرَكُ في الجهة التي يَضْعِفُها ما هو أقوى من ذلك الإسناد»^(٣).

(١) منهاج السنة: ٤/٧٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٤/١٥٤.

(٣) الرد على البكري: ص ٢٠.

وقال أيضاً: «والبيهقي يروي في الفضائل أحاديث كثيرة ضعيفة، بل موضوعة كما جرت عادة أمثاله من أهل الحديث»^(١).

٧ - رأيه في كتاب «الكامل في الرجال» لابن عدي:

«قال رحمة الله: «الكامل في أسماء الرجال» لابن عدي، لم يصنف في فنه «مثله»^(٢).

ويقصد احتواء الكتاب وجمعه وتوسيعه في ترجمة الراوي، بذكر بعض أحاديثه التي أنكرت عليه، ولا يعني به سلامته من المأخذ من كل الوجوه، فما سَلِمَ كتابُ صنفه إنسان من مؤاخذه»^(٣).

٥ بعض مصنفاته في الحديث:

صنف شيخ الإسلام رحمة الله في الحديث وعلومه، كما صنف في العلوم الأخرى وقد عد له العلماء ضمن قوائم أسماء مصنفاته حوالي (٤١) كتاباً في الحديث وعلومه، ولعل الكثير منها فقد فيما فقد من مصنفاته رحمة الله، وإن كان قد وصل إلينا بعض الرسائل والأجزاء الصغيرة، وقد جمع الكثير من هذه الرسائل في

(١) منهاج السنة: ٨/٣.

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ص ٩٦، ومجموع الفتاوى: ١/٢٧١.

(٣) الرقع والتكميل: ص ٣٤١ من تعلق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمة الله وأحسن إليه.

مجلد رقم (١٨) من مجموع الفتاوى، وقد كان بينها رسائل في
شرح حديث معين، أو كلام في مسألة في علوم المصطلح.
ومن هذه الرسائل والأجزاء:

- ١ - «الأربعين» التي رواها شيخ الإسلام بالسند إلى
رسول الله ﷺ.
- ٢ - شرح حديث إني حرمت الظلم على نفسي.
- ٣ - شرح حديث عمران بن حصين: «كان الله ولم يكن
شيء قبله».
- ٤ - شرح حديث إنما الأعمال بالنيات.
- ٥ - شرح حديث خطبة الحاجة.
- ٦ - شرح حديث «بدأ الإسلام غريباً».
- ٧ - شرح حديث «المرء مع من أحب».
- ٨ - شرح حديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف».
- ٩ - شرح حديث «من عادى لي ولية».
- ١٠ - شرح حديث التزول.
- ١١ - شرح حديث «فحج آدم موسى».
- ١٢ - شرح حديث «لا يزني الزاني وهو مؤمن».
- ١٣ - شرح حديث «وما تردون عن شيء».
- ١٤ - شرح حديث «لا يرث المسلم الكافر».
- ١٥ - أحاديث القصاص.

وغيرها كثير كما سبق أن ذكرت ذلك في قائمة أسماء مصنفات شيخ الإسلام التي أوردتها.

○ ابن تيمية من أقدم من ألف في الأحاديث المشتهرة على الألسنة:

كانت رسالة شيخ الإسلام (أحاديث القصاص) من أول الرسائل التي أُلفت في الأحاديث المشتهرة على الألسنة والشائعة بين الناس، وذلك بسبب القصاص وتأثيرهم غالباً، وقد كانت هذه الرسالة من أقدم ما وصل إلينا من المؤلفات في هذا النوع.

يقول الدكتور محمد الصباغ حفظه الله في ذلك:

«ولدى دراستي المفصلة لهذه الرسالة تبين لي أنها كانت أصلاً اعتمد عليه السيوطي والساخاوي وغيرهما من ألف في الأحاديث المشتهرة على الألسنة.

لقد أوردت كتب الأحاديث الشائعة، هذه الأحاديث كلها الواردة في هذه الرسالة، ولا تستثنى إلا التزير اليسير، ونقلت عن ابن تيمية كثيراً من عباراته الواردة في هذه الرسالة، ورأيت الساخاوي في أكثر من موضع من المقاصد الحسنة لا يصرح بذكر اسمه، بينما يذكره بصراحة في مواضع أخرى من الكتاب»^(١).

(١) مقدمة رسالة أحاديث القصاص: ص ١٥.

سأذكر فيما يلي أرقام بعض الأحاديث التي صرخ فيها الإمام السخاوي رحمه الله بذكر اسم ابن تيمية والنقل عنه في كتابه «المقاصد الحسنة»:

١٧ ، ٤٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٣٨٤ ، ٧١٤ ، ٦٠٩ ، ٨٣٨ ، ٨٥٦ ، ٨٨٣ ، ٩٩٠ ، ١١٢٦ ، ١٣٥٦.

وقد نقل الحافظ السيوطي رحمه الله كثيراً من عبارات شيخ الإسلام ابن تيمية في ذيله على الموضوعات.

○ خلاصة:

كانت السُّنة المطهرة وعلومها من الأساسيات التي درسها وحفظها شيخ الإسلام، وكان من أكثر الناس استحضاراً لمتونها واستعمالاً لها في ردوده وإجاباته، وكان حافظاً لا يجارى، وعالماً بالسُّنة لا يدرك ولا يلحق، وكان من أبرز علماء عصره فيها رحمه الله.

الفصل الحادي عشر

ابن تيمية مفسراً

لقد علمنا في الفصول الماضية ما أكرم الله به شيخ الإسلام من قوة العقل، وحدة الذكاء، وعظيم الفهم والإدراك، وقوه الحافظة الخارقة، والعشق الشديد للعلم وأبوابه، وخاصة ما كان يتعلق بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، حيث تمكن شيخ الإسلام رحمة الله من حفظ القرآن وهو في مرحلة الصبا، وأتقن العلوم وأحکمها وهو دون العشرين من عمره، وها هو يخبر عن شدة محبته لكتاب الله تعالى وعلومه فيقول:

«ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، و كنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأقول: يا معلم إبراهيم! فهمني»^(١).

وإن الذي يمعن النظر بإنصاف وحيدة كاملة، سيدرك أن كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ قد اختلطت بلحمه ودمه، فما

(١) العقود الدرية: ص ٦٢.

من بحث ولا موضوع تكلم فيه، أو كتب عنه، إلا وهو مشحون بالآيات الكثيرة، والأحاديث الصحيحة، وشرحهما وتفسيرهما.

وقد ازداد تعلقه واهتمامه بالقرآن حين سجن في قلعة دمشق، حيث كان شغله الشاغل قراءة كتاب الله تعالى وتلاوته، والتدبر في آياته، حيث صنف في ذلك الكثير أثناء إقامته في السجن.

وأما عن التلاوة فقد أخبر أخوه زين الدين عبد الرحمن بن تيمية رحمه الله أن شيخ الإسلام رحمه الله قد ختم القرآن ثمانين ختمة في السجن، وخاصة أثناء فترة مرضه رحمه الله⁽¹⁾.

○ سعة علمه بالتفسير:

وقد أثنى عليه أهل عصره - من أهل العلم والفضل والمكانة - وذكروا سعة علمه بتفسير كتاب الله تعالى، وغزاره الفوائد التي كان يستبطها من آياته، ومن ذلك الثناء ما قاله:

- الحافظ الذهبي رحمه الله:

«... وأما التفسير فمسلم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوة عجيبة، وإذا رأه المقرئ تحير فيه، ولفترط إمامته في التفسير وعظمته اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوجه أقوالاً عديدة، وينصر قولًا

(1) البداية والنهاية: ١٤/٣٨.

واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصولين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل: نحواً من أربعة كراريس أو أزيد^(١).

«... ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه» وقال: «كان آية من آيات الله في التفسير والتلويع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين» وقال «.. حكى لي من سمعه يقول: إني وقفت على مائة وعشرين تفسيراً استحضر من الجميع الصحيح الذي فيها»^(٢).

«.. ويرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سينال، وخطاير وقاد إلى مواضع الإشكال مينال، واستنبط منه أشياء لم يُسبق إليها..»^(٣).

- الحافظ البرزالي رحمه الله:

«... وكان إذا ذكر التفسير بُهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضييف والإبطال، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب»^(٤).

(١) العقود الدرية: ص ٢٠، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩١.

(٢) الواقي بالوفيات: ٧/١٥، ١٦.

(٣) شذرات الذهب: ٦/٨١ عن المعجم المختص للمحدثين للذهبي.

(٤) العقود الدرية: ص ١٢-١٣، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٣٩١، الشهادة الزكية: ص ٤٨.

«.. وقلَّ أَنْ يسمع شِيئاً إِلَّا حفظه، ثُمَّ اشتغلَ بالعلوم، وَكَانَ ذِكْيَاً كَثِيرَ الْمَحْفُوظِ، فَصَارَ إِماماً فِي التَّفْسِيرِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ»^(١).

- الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله:

«... إِنْ تَكُلُّمُ فِي التَّفْسِيرِ فَهُوَ حَامِلُ رَأْيِهِ» إِلَى أَنْ قَالَ: «... كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي التَّفْسِيرِ، فَيَحْضُرُ مَجْلِسَهُ الْجَمُّ الْغَفِيرُ، وَيَرْدَدُونَ مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ الْعَذْبِ النَّمِيرَ وَيَرْتَعُونَ مِنْ رَبِيعِ فَضْلِهِ فِي رَوْضَةِ وَغَدِيرٍ»^(٢).

- الحافظ ابن الوردي رحمه الله:

«.. وَأَمَّا التَّفْسِيرُ فَمُسْلِمٌ إِلَيْهِ، وَلَهُ فِي اسْتِحْضَارِ الْآيَاتِ لِلَاسْتِدَالَّ بِهَا قُوَّةٌ عَجِيبَةٌ، وَلِفَرَطِ إِيمَانِهِ فِي التَّفْسِيرِ وَعَظَمَةِ اطْلَاعِهِ يَبْيَنُ خَطْأَ كَثِيرٍ مِنْ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ»^(٣).

- الحافظ الصفدي رحمه الله:

«.. وَأَمَّا التَّفْسِيرُ فِيهِ طَوْلٌ، وَسَرْدُهُ فِيهِ يَجْعَلُ الْعَيُونَ حَوْلِي»^(٤).

(١) الشهادة الزكية: ص ٤٩.

(٢) العقود الدرية: ص ١٠، المعجم المختص بالصحابتين: ٢٥-٢٦، الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٩٠.

(٣) تاريخ ابن الوردي: ٢٨٦/ ٢ وَمَا بَعْدَهَا.

(٤) أعيان العصر عن المنجد: ص ٥٠.

- الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«جلس الشيخ تقي الدين المذكور أيضاً يوم الجمعةعاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هُيأ له لتفسير القرآن العزيز فابتداً من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير، والجم الغفير من كثرة ما يورد من العلوم المتنوعة المحررة»^(١).

- الحافظ البزار رحمه الله:

«أما غزاره علومه فمنها: ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاد بدلائه، وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه، وفتون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحظته، فإنه فيه من الغاية التي يُتنهى إليها، والنهاية التي يُعوَّلُ عليها.

ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته، والدرس يُرمته، وهو في تفسير بعض آية منها، وكان مجلسه في وقت مُقدَّر بقدر ربع النهار، يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ مُعَيَّن، يقرأ له شيئاً معيناً يبيته ليستعد لتفسيره، بل كان من حَضَرَ يقرأ ما تيسر، ويأخذ هو في القول على تفسيره، وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون

(١) البداية والنهاية: ١٣/٣٠٢

أنه لو لا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياءً آخر في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين.

ولقد أملَى في تفسير **﴿فَلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** [الأخلاص: ١] مجلداً كبيراً، قوله تعالى: **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾** [طه: ٥] نحو خمساً وثلاثين كراسة.

ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلداً^(١).

- وترجم له الحافظ شمس الدين محمد بن علي الداودي في كتابه طبقات المفسرين ترجمة حافلة^(٢).

○ تفرغه للتفسير في آخر عمره:

تفرغ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله في آخر عمره حين سجن في قلعة دمشق لتلاؤه كتاب الله تعالى أو تدبر آياته، وحل المشكلات العويصة في فهم بعض الآيات القرآنية، كما ذكر ذلك عنه أخص أصحابه وأكثرهم كتابة لكتابه.

قال الشيخ أبو عبد الله بن رشيق رحمة الله:

«كتب الشيخ رحمة الله نقول السلف مجرد عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت

(١) الأعلام العلية: ص ٢٠-٢١.

(٢) طبقات المفسرين للداودي: ١/٤٦-٥٠ برقم: ٤٢.

له سورةً وأيات يفسرها، ويقول في بعضها: كتبته للتذكرة، ونحو ذلك.

ثم لما حبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن «تفسيرًا مرتبًا» على السور، فكتب يقول: إن القرآن فيه ما هو بين نفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبيّن له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيرًا، ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره.

وإذا تبيّن معنى آية تبيّن معانى نظائرها، وقال: قد فتح الله علىٰ في هذه المرة من معانى القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت علىٰ تضييع أكثر أوقاتي في غير معانى القرآن أو نحو هذا، وأرسل إلينا شيئاً يسيراً مما كتبه في هذا الحبس، وبقي شيءٌ كثير في مسألة الحكم عند الحكم لمن أخرجوا كتبه من عنده، وتوفي وهي عندهم إلىٰ هذا الوقت نحو أربع عشرة رزمة^(١).

وقال ابن رجب رحمة الله نقلًا عن الحافظ الذهبي قوله: «وفي آخر الأمر حبس بقلعة دمشق سنتين وأشهرًا، وبها مات رحمة الله تعالى، وبقي مدة في القلعة يكتب العلم ويصنفه،

(١) العقود الدرية: ص ٢٧-٢٨.

ويرسل إلى أصحاب الرسائل ويذكر ما فتح الله به عليه في هذه المرة من العلوم العظيمة والأحوال الجسيمة وقال: قد فتح الله عليّ في هذا الحصن في هذه المرة، من معاني القرآن ومن أصول العلم، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن.

ثم إنه مُنْعِنُ من الكتابة، ولم يُتَرَكْ عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر»^(١).

○ طريقة ومنهجه في التفسير:

كان شيخ الإسلام رحمة الله في تفسيره يتوجه إلى فهم آيات الكتاب العزيز بإخلاص، مستعيناً في ذلك بالأثار السلفية، والمدلولات اللغوية. وربما طالع الكثير حول الآية الواحدة فلا يهتدي، فيلتجأ إلى رب السموات والأرض بتضرع وخشوع أن يعلمه ويفهمه، ولذلك كان يقول رحمة الله:

«ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، و كنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وسأل الله تعالى وأقول: «(يا معلم إبراهيم فهمني)»^(٢).

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ٢/٤٠١-٤٠٢.

(٢) العقود الدرية: ص ٢٦.

ونستطيع أن نلخص منهجه رحمة الله في التفسير بالنقاط التالية:

١ - تفسير القرآن بالقرآن وهو الأصل الأول في تفسير كلام الله تعالى.

٢ - تفسير القرآن بالسُّنة المطهرة وهي الأصل الثاني لتفسير القرآن الكريم.

وفي ذلك يقول رحمة الله:

«إِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ - يَعْنِي تَفْسِيرَ الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ - فَعَلَيْكَ بِالسُّنْنَةِ، فَإِنَّهَا شَارِحةٌ لِلْقُرْآنِ مَوْضِحَةٌ لَهُ»^(١).

«وَالغَرْضُ أَنْكَ تَطْلُبَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، إِنْ لَمْ تَجِدْ فَمِنَ السُّنْنَةِ»^(٢).

«وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ إِذَا عُرِفَ تَفْسِيرُهِ مِنْ جَهَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ أَهْلِ الْلُّغَةِ»^(٣).

«وَالسُّنْنَةُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ، وَتَبِينُهُ، وَتَدْلِيلُ عَلَيْهِ، وَتَعْبُرُ عَنْهُ»^(٤).

٣ - تفسير القرآن بأقوال الصحابة وهو في المرتبة الثالثة من تفسير القرآن حيث يقول رحمة الله:

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٩٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٩٣.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٣ / ٢٧.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣ / ١٣٨.

«وحيثئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ولا سيما علماؤهم وكبارهم كالأئمة الأربعة، الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين»^(١).

٤ - تفسير القرآن بأقوال التابعين:

وفي ذلك يقول رحمة الله:

«إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاحد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير»^(٢).

ويرى أن ما أجمع عليه التابعون فهو حجة حيث يقول:

«أما إذا أجمعوا على شيء فلا يرتاب في كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»^(٣).

٥ - اتباعه للدليل، وعدم التعصب لأي قول مهما كان قائله حتى ولو كان من أقرب الناس إليه.

(١) مجموع الفتاوى: ١٣ / ٣٦٤، مقدمة في أصول التفسير: ص ٩٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣ / ٣٦٨ - ٣٦٩، مقدمة في أصول التفسير: ص ٩٧.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٣ / ٣٧٠.

٦ - الاستطراد وطول النفس في العرض والتوضيح، فهو يكثر من سرد الأدلة من الكتاب والسنّة أحياناً، ويطيل في مناقشة أكثر القضايا كدأبه دائماً في كتبه ومصنفاته.

٧ - استحضاره للأقوال والأدلة عند تفسيره لآيات الكتاب العزيز حيث يشحّن تفسيره بالآيات، والأحاديث، والأقوال، والألفاظ التي يسردها بنظم عجيب وترتيب دقيق.

٨ - نقله عن الأئمة الكبار في التفسير مع الإشارة إلى ذلك.

٩ - أمانته العلمية، ودقته في النقل وهي سمة غالبة على منهجه رحمة الله في سائر مصنفاته^(١).

٥ رأيه في كتابة تفسير مرتب للقرآن:

وقد طلب إليه أحد تلاميذه وهو في السجن أن يكتب في القرآن كله تفسيراً مرتبًا، بدل أن يكتفي بجمع نقول عن السلف في غير ترتيب، أو من غير تطبيق لها على الآيات فكتب إليه يقول:

«إن القرآن فيه ما هو بين بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبيّن له

(١) استفدنا في منهجه من مقدمة كتاب تفسير آيات أشلاكت: ص ١٠٥ - ١٢٠.
للأستاذ عبد العزيز بن محمد الخليفة حفظه الله.

تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً، ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل، لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها^(١).

لأجل هذا لم يكتب شيخ الإسلام في كل التفسير، لأن بعض الآيات لا يحتاج إلى تفسير، إذ هي تفسر نفسها، وبعضها قد فسره المفسرون وكتبته فيه الكتب، ولكنه عني بما يشتبه أو يخفي، فعني بمحاولة إدراكه ودراسته للوصول إلى الحق في تفسيره، وأثر عنه قوله فيه مكتوبأ، وتلقى تلاميذه بعضه مكتوباً عنه في حياته رحمة الله جمياً^(٢).

٥ ميزات تفسير شيخ الإسلام:

لقد تميز تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى بميزات لم تتوفر للكثير من التفاسير الأخرى، من هذه الميزات:

١ - اخلط تفسيره بعمق النظرة، وسلامة الذوق، من غير أن يطغى النظر على الأثر، ولا يختفي الفكر المستقيم بين مختلف الروايات، وشتم النقول، بل إنك لترى عقله المتفكر المتدبّر يلمع وراء الروايات، وفي مزدحم الآثار^(٣).

(١) العقود الدرية: ص ٢٧-٢٨.

(٢) ابن تيمية: أبو زهرة: ص ٥١٢.

(٣) ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٥١٠-٥١١.

٢ - كان يتسم بارتباطه مع الحياة، حيث أنه يطبق الآيات القرآنية على ما حوله من الحياة والإنسان، ويستعرض الحياة من وجهة نظره، ويتناول معاصريه وطبقات الأمة المختلفة بالاحتساب، ويضع يده على مواطن الانحراف عن هذه الآيات والحقائق ويخبر بنتائج ذلك، إن ميزة الحيوية هذه منحت مؤلفاته حياة طويلة، وتأثيراً عميقاً وروعة عجيبة قد تندر في مؤلفات غيره، وقد تكون مفقودة في مؤلفات غيره^(١).

وهذه الصفة هي التي جعلت من تفسير ابن تيمية رحمة الله مرجعاً للأجيال والشعوب على مر الدهور لحل معضلاتهم، كما يظهر من منهجه أنه داعية إلى الله يخاطب الإنسانية ويوجههم بالعواطف الدينية، حريصاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ - اعتماده المنهج السلفي القويم في تفسيره للقرآن بالقرآن، وبالسُّنَّة النبوية، وأثار السلف ولغة العربية.

٤ - يسوق في تفسيره غريب القرآن ومعانيه ومفرداته، ورأي أهل اللغة والأدب مع أقوال السلف، ويرجح منها ما يوافق أقوال السلف.

٥ - استيعاب المباحث النحوية ويوفي الكلام عليها ببراعة كاملة، ويرجح ما يوافق أسلوب القرآن ومنهجه^(٢).

(١) ابن تيمية للندوي: ص ١١٣.

(٢) الندوة العالمية: ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

٥ القواعد الكلية أو الأساسية لفهم القرآن:

ونظراً للأهمية البالغة لفهم كتاب الله تعالى على الوجه الصحيح والأكمل، فقد بينَ رحمة الله تعالى القواعد الأساسية (أو كليات فهم القرآن)، والتي تحمي الناس من الوقع في التأويل والانحراف عن الفهم الصحيح لكتاب الله، ولأن منهجه كان سلفياً محضًا فقد انسجمت القواعد الأساسية التي ذكرها لفهم القرآن مع هذا المنهج، وقد انطلق في هذه القواعد من المنطلقات التالية:

١ - اعتقاده اعتقاداً جازماً أن النبي ﷺ قد فسر القرآن كله، ولم يترك منه جزءاً يحتاج إلى بيان لم يبينه، أو مُعضاً يحتاج إلى توضيح ولم يوضحه، ولا مجملًا يحتاج إلى تقييد لم يقيده، وهذا.

قال رحمة الله: ويجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّبِينَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميماً^(١).

(١) مجموع الفتاوى: ٣٣١ / ١٣.

٢ - أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يتطلبون القرآن إلا لمعانيه، فهم إذا كانوا حفظوا القرآن، فلا بد أنهم قد حفظوا أيضاً معانيه.

يقول رحمة الله: «ومن المعلوم أن كل كلام المقصود منه فهم معانيه، دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم، كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ونجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم، ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر»^(١).

٣ - ويقرر شيخ الإسلام أن التابعين قد تلقى بعضهم جميع التفسير من الصحابة حيث يقول رحمة الله:

«ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد - رحمة الله - عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها، ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبي به، ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعية والبخاري وغيرها من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره من صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/٣٣٢.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال»^(١).

٤ - ويخلص شيخ الإسلام رحمه الله إلى أن الذي يريد أن يفهم القرآن ومعانيه بطريقة صحيحة فعليه أن لا يعدل عن منهج الصحابة والتابعين في تفسيرهم لكتاب الله تعالى: حيث يقول رحمه الله:

«وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطأه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدله، وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جمياً»^(٢).

وبناءً على هذه المنطلقات فقد بين رحمه الله تعالى أحسن طرق التفسير فقال رحمه الله:

(١) مجمع الفتاوى: ١٣ / ٣٣٣-٣٣٢.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٣ / ٣٦٢-٣٦١.

١ - إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر.

٢ - فإن أعياك ذلك فعليك بالستة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن... والغرض إنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة.

٣ - وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبارهم، كالائمة الأربع الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، مثل عبد الله بن مسعود...، ومنهم الحبر البحري عبد الله بن عباس».

٤ - إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير...، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح.. وغيرهم من التابعين وتابعائهم ومن بعدهم، فتذكرة أقوالهم في الآية فيقع

في عباراتهم تبادر في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً في حكمها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتقطن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة. أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

٥ - فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام.. وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم.. فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به.. ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به.. قال أبو بكر الصديق: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم؟!.

.. فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا

روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَأْنِي بِالنَّاسِ وَلَا تَكُونُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه ألم يُحْمِلَ بِلْجَامَ مِنْ نَارَ»^(١).

٥ من آرائه في كتب التفسير:

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على معرفة واسعة بالتفسير، فقد ذكرت سابقاً أنه ربما اطلع على مئة تفسير من أجل أن يفهم آية واحدة، وهو في الوقت نفسه مفسر قدير ذكر عنه الذهبي رحمه الله أنه جلس يفسر سورة نوح في المسجد الجامع في دمشق أكثر من سنة.

ولشيخ الإسلام رحمه الله آراء صائبة في التفاسير التي سبقت زمانه، يبيّن فيها الجوانب الإيجابية والسلبية لكل تفسير من هذه التفاسير، نورد نماذج منها فيما يلي:

١ - تفسير ابن جرير الطبرى:

قال فيه رحمه الله:

«أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن

(١) هذه المقتطفات في أحسن طرق التفسير من مجموعة الفتاوى: ١٣ / ٣٦٣ - ٣٧٤.

جرير الطبرى، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمن، كمقاتل ابن بكر، والكلبى»^(١).

«وتفسير محمد بن جرير الطبرى، وهو من أجل التفاسير المأثورة، وأعظمها قدرأ»^(٢).

«وأما أهل العلم الكبار: أهل التفسير: مثل محمد بن جرير الطبرى، وبيى بن مخلد، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، وأمثالهم، فلم يذكروا فيها مثل هذه الموضوعات»^(٣).

«وكتب التفسير التي يذكر فيها الإسناد الذى يحتاج به، وإذا كان في بعض كتب التفسير التي ينقل منها الصحيح والضعيف، مثل تفسير الشعابى، والواحدى، والبغوى، بل وابن جرير، وابن أبي حاتم، لم يكن مجرد رواية واحد من هؤلاء دليل على صحته باتفاق أهل العلم، فإنه إذا عرف أن تلك المنقولات فيها صحيح وضعيف، فلا بد من بيان أن هذا المنقول من قسم الصحيح دون الضعيف»^(٤).

(١) مجموع الفتاوى: ٣٨٥/١٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٦١/١٣.

(٣) منهاج السنة: ١٣/٧.

(٤) منهاج السنة: ٢٩٩-٣٠٠.

٢- تفسير ابن أبي حاتم:

قال فيه رحمة الله:

«إن ابن أبي حاتم لم يذكر عن الكذابين مقاتل والكلبي»^(١).

«وابن أبي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير أنه طلب منه إخراج تفسير القرآن مختصراً بأصل الأسانيد، وأنه تحرى إخراجه بأصل الأخبار إسناداً، وأشبعها متناً، وذكر إسناده عن كل من نقل عنه شيئاً»^(٢).

«من أئمة التفسير الذين ينقلونها بالأسانيد المعروفة، كتفسير ابن جريج، وسعيد بن أبي عروبة، وعبد الرزاق، وابن جرير الطبرى، وابن أبي حاتم، وغيرهم من العلماء الأكابر، الذين لهم في الإسلام لسان صدق، وتفاصيلهم متضمنة للمنقولات التي يعتمد عليها في التفسير»^(٣).

٣- تفسير القرطبي:

ذكره شيخ الإسلام تفسير القرطبي في إجابته عن سؤال حول تفسير الزمخشري فقال رحمة الله:

(١) الرد على البكري: ص ١٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠١/١٥.

(٣) منهاج السنة: ١٧٨/٧.

«وتفسير القرطبي خير منه - أي الزمخشري - بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنّة، وأبعد عن البدع، وإن كان كل هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد، لكن يجب العدل بينها، وإعطاء كل ذي حق حقه»^(١).

٤ - تفسير ابن عطية:

قال رحمة الله:

«وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها»^(٢).

«وتفسير ابن عطية وأمثاله: أتبع للسنّة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل تفسير محمد بن جرير الطبرى، وهو من أجل التفاسير المأثورة، وأعظمها قدرأ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف، لا يحكيه بحال، ويدرك ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة، من أهل الكلام، الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنّة من

(١) مجمع الفتاوى: ١٣ / ٣٨٧.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٣ / ٣٨٥.

المعتزلة، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب.

فإن الصحابة، والتابعين، والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقاده، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة، والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة، وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا»^(١).

٥ - تفسير الثعلبي:

قال فيه رحمه الله:

«والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضع، والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية، لكن هو أبعد عن السلامة، واتباع السلف، والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره من الأحاديث الموضوعة، والأراء المبتدعة»^(٢).

«أما ما نقله من تفسير الثعلبي، فقد أجمع أهل العلم بال الحديث أن الثعلبي يروي طائفه من الأحاديث الموضوعة،

(١) مجمع الفتاوى: ٣٦١ / ١٣.

(٢) مجمع الفتاوى: ٣٥٤ / ١٣.

كالحديث الذي يرويه في أول سورة عن أبي أمامة في فضل تلك السورة، وكأمثال ذلك.

ولهذا يقولون: هو كحاطب ليل وهكذا الواهدي تلميذه، وأمثالهما من المفسرين، ينقلون الصحيح والضعيف^(١).

«أمثال هؤلاء ممن في كتابه من الكذب ما لا يحصيه إلا الله، هل يجوز الاعتماد على ما يرويه هؤلاء، أو يكون أرفع من هذا، وإن كان فيها من الصدق ما لا يحصيه إلا الله، كتفسير الثعلبي، والواهدي، والشفا للقاضي عياض، وتفسير أبي الليث، والقشيري مما فيه ضعف كثير، وإن كان الغالب عليه الصحيح»^(٢).

٦ - تفسير الواهدي:

قال رحمة الله:

«أما الواهدي فإنه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع، وإن ذكرها تقليداً لغيره، وتفسيره وتفسير الواهدي البسيط، والوسط، والوجيز، فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها»^(٣).

(١) منهاج السنة: ١٢/٧.

(٢) الرد على البكري: ص ٢٠.

(٣) مجمع الفتاوى: ١٣/٣٨٥.

«إن الواهي كشيخه لا يميز بين الصحيح والضعيف،
والغث والسمين»^(١).

٧- تفسير البغوي:

سئل شيخ الإسلام عن أي التفاسير أقرب إلى الكتاب
والستة الزمخشري، أم القرطبي، أم البغوي، أم غيره؟

فقال رحمة الله: «أما التفاسير الثلاثة المسئولة عنها فأسلمها
من البدعة، والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير
الشعبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة، والبدع التي فيها،
وحذف أشياء غير ذلك»^(٢).

٨- تفسير الزمخشري:

قال رحمة الله:

«وأما الزمخشري فتفسيره محسو بالبدعة، وعلى طريقة
المعتزلة من إنكار الصفات، والرؤوية والقول بخلق القرآن، وأنكر
أن الله مريد للكائنات، وخلق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول
المعتزلة»^(٣).

(١) الرد على البكري: ص ١٤.

(٢) مجمع الفتاوى: ٣٨٦/١٣.

(٣) مجمع الفتاوى: ٣٨٦/١٣.

«وهو من المفسرين الذين يذكرون من الأحاديث ما يعلم
أهل الحديث أنه موضوع»^(١).

«مثل هذا لا يرويه إلا أحد رجلين: رجل لا يميز بين
الصحيح والضعف، والغث والسمين، وهم جمهور مصنفي
السير، والأخبار، وقصص الأنبياء، كالثعلبي، والواحدي،
والمهدوبي، والزمخشري.. فهؤلاء لا يعرفون الصحيح من السقيم،
ولا لهم خبرة بالمروري المنقول، ولا لهم خبرة بالرواية
النقلة..»^(٢).

٩ - تفسير القشيري، وتفسير السمرقندى، وتفسير السلمى:

قال رحمة الله:

«وإذا كان تفسير الثعلبي وصاحبه الواحدى ونحوهما فيها
من الغريب الموضوع في الفضائل، والتفسير ما لم يجز معه
الاعتماد على مجرد عزوه إليها فكيف بغيرها، كتفسير أبي القاسم
القشيري، وأبي الليث السمرقندى، وحقائق التفسير لأبي
عبد الرحمن السلمى الذي ذكر فيه عن جعفر - أى الصادق -
ونحوه ما يعلم أنه من أعظم الكذب»^(٣).

(١) منهاج السنة: ٧/٩١.

(٢) الرد على البكري: ص ١٤.

(٣) الرد على البكري: ص ٧.

«وكتاب حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي يتضمن
ثلاثة أنواع:

أحداها: نقول ضعيفة عمن نقلت عنه، مثل أكثر ما نقله عن
جعفر الصادق، فإن أكثره باطل عنه، وعامتها فيه من موقوف أبي
عبد الرحمن.

وقد تكلم أهل المعرفة في نفس رواية أبي عبد الرحمن،
حتى كان البيهقي إذا حدث عنه يقول: حدثنا من أصل سماعه.

الثاني: أن يكون المنقول صحيحًا، لكن الناقل أخطأ فيما
قال.

الثالث: نقول صحيحة عن قائل مصيّب، فكل معنى يخالف
الكتاب والسنّة، فهو باطل وحجة داحضة وكل ما وافق الكتاب
والسنّة والمراد بالخطاب غيره، إذا فسر به الخطاب فهو خطأ،
وإن ذكر على سبيل الإشارة، والاعتبار، والقياس، فقد يكون حقاً،
وقد يكون باطلاً.

وقد تبيّن بذلك أن من فسر القرآن أو الحديث، وتأوله على
غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله،
ملحد في آيات الله، محرف للكلام عن موضعه، وهذا فتح لباب
الزندة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين
الإسلام»^(١).

(١) مجمع الفتاوى: ٢٤٣/١٣.

وقد أفدنا في عرض هذه الأراء من موضوع «رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في التفاسير المطبوعة» الذي جمعه وعلق عليه بشير جواد القيسي والمنشور ضمن مجلة الحكمة الغراء^(١).

٥ استفادة من جاء بعده من آرائه:

ولعظمة الفوائد القرآنية في كلامه رحمه الله، وغزارة العلوم التي كان يتمتع بها، وكما قبس أهل العلم والفضل واستفادوا من آرائه في شتى العلوم، فقد أفادوا من آرائه في علوم القرآن والدراسات القرآنية، ومن هؤلاء الزركشي في كتابه البرهان، والسيوطني في كتابه الإتقان في علوم القرآن، وكذلك ابن كثير في كتابه التفسير، وابن القيم في موضع مختلفة من كتبه.

فمن ذلك ما قاله ابن القيم رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** [العنكبوت: ٤٥].

«وكان شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية - قدس الله روحه - يقول: وال الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، وما فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر»^(٢).

(١) مجلة الحكمة: عدد ٧/ ص ٢٠٥-٢٣٣.

(٢) التفسير القيم: ص ٤٠٤-٤٠٥.

- ومن ذلك ما نقله ابن كثير رحمة الله في موضوع أن قائل عبارة «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» وإن القائل هي امرأة العزيز حيث قال:

«وهذا القول هو الأشهر والألائق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمة الله فأفرده بتصنيف على حدة»^(١).

وقد أشار السيوطي رحمة الله إلى أنه قد اعتمد على مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية رحمة الله وذلك في مقدمته لكتاب الإتقان^(٢).

○ من آثاره ومصنفاته في التفسير:

لقد كان رحمة الله يتمتع بذهن وقاد، وعلم واطلاع واسعين على التفسير وعلومه، وقد صنف في التفسير مصنفات كثيرة بين كتاب كبير، وأجزاء صغيرة.

ومن تلك المصنفات التي وصلت إلينا أسماؤها أو مادتها ذكر هذه النماذج:

١ - مقدمة في أصول التفسير.

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٣٢٠.

(٢) الاتفاق للسيوطى: ١/٨.

- ٢ - الإكليل في المتشابه والتأويل.
- ٣ - تفسير سورة الإخلاص.
- ٤ - تفسير سورة النور.
- ٥ - تفسير المعوذتين.
- ٦ - دقائق التفسير/قام بجمعه وترتيبه الدكتور محمد الجليند.
- ٧ - تفسير آيات أشكلت.
- ٨ - أقسام القرآن.
- ٩ - رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان.
- ١٠ - قاعدة في تحزيب القرآن وما يتعلق بذلك وما ورد فيه من الآثار.
- ١١ - قاعدة في تفسير أول البقرة.
- ١٢ - فضائل القرآن.
- ١٣ - تفسير سورة الفاتحة.
- ١٤ - تفسير سورة المائدة.
- ١٥ - تفسير سورة (لم يكن الذين كفروا) البينة.

وغير هذا كثير، ذكرته في قائمة مصنفاتشيخ الإسلام رحمة الله.

○ نماذج من آرائه في التفسير وعلومه:

وأسأعرض فيما يلي نماذج من آرائه في التفسير وعلومه،
وكما وردت في مصنفاته رحمه الله تعالى:

١ - أهمية فهم القرآن وتدبره عنده:

قال رحمه الله:

«وكانَ الْبَدْعُ الْأُولَى مثَلَ بَدْعَةِ الْخَوَارِجِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ سُوءِ فَهْمِهِمْ لِلْقُرْآنِ، لَمْ يَقْصُدُوا مَعَارِضَتِهِ، لَكِنْ فَهْمُوا مِنْهُ مَا لَمْ يَدْلِ عَلَيْهِ، فَظَنُّوا أَنَّهُ يُوجَبُ تَكْفِيرُ أَرْبَابِ الذُّنُوبِ إِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ هُوَ الْبَرُ التَّقِيُّ، قَالُوا: فَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِرًا تَقِيًّا فَهُوَ كَافِرٌ، وَهُوَ مَخْلُدٌ فِي النَّارِ، ثُمَّ قَالُوا: وَعُثْمَانٌ وَعَلِيٌّ وَمَنْ وَالاَهْمَّ لَيْسُوا بِمُؤْمِنٍ لِأَنَّهُمْ حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ»^(١).

«وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ الْمُسْلِمُ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ - وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيهِ - فَتَعْلَمُهُ لِمَا يَفْهَمُهُ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تَلَوُّهُ مَا لَا يَفْهَمُ مَعَانِيهِ»^(٢).

٢ - فائدة معرفة أسباب النزول:

قال رحمه الله:

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٣/٥٦.

«ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمبسبب»^(١).

٣ - رأيه في الإسرائيليات:

قال رحمة الله:

«.. ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكت عنده لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكتبه وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي على المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطير التي أحياناً الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلام الله منها

(١) مجموع الفتاوى: ٣٣٩/١٣.

موسى، إلى غير ذلك مما أبهم الله في القرآن مما لا فائدة في تعينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز»^(١).

٤ - السنة لا تنسخ القرآن.

قال رحمة الله:

«.. ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيراً أو غالباً فمن ذا الذي يحيط بأقوال المجتهدين، بخلاف النصوص فإن معرفتها ممكنة متيسرة، وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أولاً، لأن السنة لا تنسخ الكتاب فلا يكون في القرآن شيء منسوخ بالسنة، بل إن كان فهي منسوخ كان في القرآن ناسخه فلا يقدم غير القرآن عليه، ثم إذا لم يجد ذلك طلبه في السنة، ولا يكون في السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسخه، لا ينسخ السنة إجماع ولا غيره، ولا تعارض السنة بإجماع، وأكثر ألفاظ الآثار، فإن لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه في السنة مع أنه فيها، وكذلك في القرآن، فيجوز له إذ لم يجده في القرآن أن يطلبه في السنة، وإذا كان في السنة لم يكن ما في السنة معارضاً لما في القرآن، وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتاباً ولا سنة»^(٢).

(١) مجمع الفتاوى: ١٣ / ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) معارج الوصول: ص ٣٠.

٥ - رأيه في تأويل المتشابهات:

قال رحمة الله:

«وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ مَا يَكُتُبُ لَهُ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَ مُتَشَبِّهَاتٍ﴾ [آل عمران: ٧] في المتشابهات قوله:

أحدهما: أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس.

والثاني: - وهو الصحيح - أن التشابه أمر نسبي، فقد يتتشابه عند هذا ما لا يتتشابه عند غيره، ولكن ثم آيات محكمات لا تتشابه فيها على أحد، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة، بل القول كله محكم، كما قال: (أحکمت آیاته ثم فصلت) وهذا كقوله «الحلال بین والحرام بین، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس» وكذلك قولهم «ان البقر تشابه علينا»^(١).

«ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه، مثل وقت الساعة، ومجيء أشراطها، ومثل كيفية نفسه، وما أعده في الجنة لأوليائه»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/١٤٣-١٤٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٣/١٤٤.

٦ - القراءات السبع

قال رحمة الله:

«والقرآن الذي بين لوحى المصحف متواتر، فإن هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة ونقلوها قرآنًا عن النبي ﷺ، وهي متواترة عن عهد الصحابة، نعلم علمًا ضروريًا أنها ما غيرت، والقراءة المعروفة عن السلف المواقفة للمصحف تجوز القراءة بها بلا نزاع بين الأئمة، ولا فرق عند الأئمة بين قراءة أبي جعفر، ويعقوب وخلف وبين قراءة حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، ونعيم، ولم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها إن القراءة مختصة بالقراء السبعة، فإن هؤلاء جمع قراءاتهم أبو بكر بن مجاهد بعد ثلاثة سنتين من الهجرة، واتبعه الناس في ذلك، وقد أتى أن يتتطلب قراءة سبعة من قراء الأمصار، ولم يقل هو - ولا أحد من الأئمة - إنما خرج عن هذه السبعة فهو باطل، ولا أن قول النبي ﷺ: أتزل القرآن على سبعة أحرف، أريد به قراءة هؤلاء السبعة، ولكن هذه السبعة اشتهرت في أمصار لا يعرفون غيرها، كأرض المغرب - فأولئك لا يقرؤون بغيرها لعدم معرفتهم باشتهرار غيرها.

فأما من اشتهرت عندهم هذه كما اشتهر غيرها، مثل أرض العراق وغيرها فلهم أن يقرأوا بهذا وهذا، والقراءة الشاذة مثل ما خرج عن مصحف عثمان كقراءة من قرأ: (الحي القيام) و (صراط

من أنعمت عليهم) و (إن كان إلا زقية واحدة) (والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، والذكر والأنثى) وأمثال ذلك.

فهذه إذا قرئ بها في الصلاة ففيها قولان مشهوران للعلماء، هما روايتان عن الإمام أحمد.

أحدهما: تصح الصلاة بها، لأن الصحابة الذين قرأوا بها كانوا يقرؤونها في الصلاة، ولا ينكر عليهم.

والثاني: لا؛ لأنها لم تتواءر إلينا، وعلى هذا القول فهل يقال: إنها كانت قرآنًا فنسخ، ولم يعرف من قرأ إلا بالناسخ؛ أو لم تنسخ، ولكن كانت القراءة بها جائزة لمن ثبتت عنده دون من لم ثبتت، أو لغير ذلك، هذا فيه نزاع مبسوط في غير هذا الموضوع. وأما من قرأ بقراءة أبي جعفر ويعقوب ونحوهما: فلا تبطل الصلاة بها باتفاق الأئمة، ولكن بعض المتأخرین من المغاربة ذكر في ذلك كلاماً وافقه عليه بعض من لم يعرف أصل هذه المسألة^(١).

٧ - تأويل آيات الصفات:

قال رحمة الله:

«إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات ليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن

(١) مجموع الفتاوى: ١٢ / ٥٦٩ - ٥٧٠

الصحابة، وما رواه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغرى، أكثر من تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات، أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضها المفهوم المعروف»^(١).

(١) تفسير سورة النور: ص ١٤٥.

الفصل الثاني عشر

ابن تيمية وعلوم العقيدة والمنطق

لقد كان شيخ الإسلام رحمه الله يتمتع بثقافة عالية في مختلف العلوم والمعارف، واطلاعاً واسعاً على شتى علوم أهل عصره، إضافة إلى فرط ذكائه، وسילان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه وبدريته.

وكان لا يشغله عن المطالعة والازدياد في المعرفة شيء حتى عبر عن ذلك الحافظ الذهبي رحمه الله بقوله: «ما رأيته إلا بيطن كتاب»^(١).

و عبر عن إعجابه بغزاره علومه وسعة اطلاعه الحافظ ابن دقيق العيد رحمه الله بقوله: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجالاً العلوم لها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما لا يريد»^(٢).

ومن تلك العلوم التي أتقنها شيخ الإسلام علوم العقيدة، والمنطق وعلم الكلام حتى فاق فيها كبار أئمتها، وأصلح عوارها،

(١) معجم الشیوخ للذهبی: ١/٥٦.

(٢) الرد الوافر: ص ١٠٧.

ويبين مفاسد المنطق وعلم الكلام وأضرارهما على العقيدة الإسلامية وصفاءها.

○ ثناء العلماء عليه في هذا الجانب:

كما أثنى العلماء عليه في الجوانب المختلفة لمعرفته واطلاعه، فقد أثنوا عليه في سعة اطلاعه على علوم الكلام والمنطق، ومعرفته بالمذاهب والنحل والمملل، وكيف وقف للمعوج من أفكارها بالمرصاد، وقام لنصرة السنة المحمدية قياماً تعرضاً في سبيله للأذى، فاحتمل ذلك صابراً محتسباً، ولقي الله راضياً مرضياً.

ومن ذلك الذي قالوه نذكر هذه الأقوال:

– قال الحافظ الذهبي:

«.. ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم، ونبه على خطئهم وحذر منهم، ونصر السنة بأوضح حجج، وأبهر براهين، وأوذى في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنة المحضة حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته، والدعاء له، وكتب أعداءه، وهدى به رجالاً من أهل الملل والنحل»^(١).

(١) الذيل على طبقات الحتابلة: ٢ / ٣٨٩ - ٣٩٠.

وقال: «... وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرًا»^(١).

وقال: «... وإن سمي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدّم الفلسفه فلهم وبخسهم، وهتك أستارهم وكشف عوارهم»^(٢).

- وقال الحافظ ابن سيد الناس رحمه الله:

«.. أو حاضر بالنحل، والممل لم يُرّ أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، برب في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رأه مثله، ولا رأت عيناه مثل نفسه»^(٣).

- وقال الحافظ الصفدي رحمه الله:

«وأما الملل والنحل ومقالات أرباب البدع الأولى، ومعرفة أرباب المذاهب وما خصّوا به من الفتوحات والمواهب، فكان في ذلك بحراً يتموج، وسهماً ينفذ على السواء لا يتعرج»^(٤).

(١) العقود الدرية: ص ١٨-١٩.

(٢) فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٢.

(٣) المعجم المختص بالمحدثين ٢٥-٢٦، العقود: ٩.

(٤) أعيان العصر عن المنجد: ص ٥٠.

- **وقال الحافظ البرزالي رحمه الله:**

«وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرًا»^(١).

- **وقال الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:**

«وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم، وتزيف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية، للشريعة الحنيفية المحمدية، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية، والدلائل النقلية، والتوضيحات العقلية، حتى ينكشف قناع الحق، وبيان بما جمعه في ذلك وألفه الكذب من الصدق حتى لو أن أصحابها أحياء - ووقفوا لغير الشقاء - لأذعنوا له بالتصديق، ودخلوا في الدين العتيق»^(٢).

- **وها هو الحافظ السيوطي رحمه الله يبدي إعجابه بمدى معرفته بالفلسفة والمنطق فيقول:**

«إإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكم والفلسفة وأراء الأوائل، ومجارة العقول، واعتصمت مع ذلك

(١) فوات الرفيات عن المنجد ص ٦٢.

(٢) الأعلام العلية: ٣١-٣٢.

بالكتاب والسنّة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله لا تقاربها^(١).

○ رأيه في علم المنطق:

قال رحمة الله:

«وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان، وإتعاب الأذهان، وكثرة الهذيان ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان، وشغل النفوس بما لا ينفعها بل قد يضلها، عما لا بد لها منه»^(٢).

«إني كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينفع به البليد»^(٣).

○ شدة نقده لعلوم المنطق:

كان قد اشتهر أن علوم المنطق اليوناني قد خدمها وهذبها ونماها أصحاب العقول الكبيرة، حتى أوصلوها إلى درجة الكمال، فوقع الخطأ والزلل فيها نادر، ولذلك فإن توجيه النقد لها لم يكن أمراً مقبولاً عند الكثيرين، ولكن شيخ الإسلام وجه سهام النقد لهم هذا الاعتقاد عند الكثير من أهل العلم حيث يقول رحمة الله:

(١) ابن تيمية ص: ١١٦.

(٢) الرد على المنطقين: ص ٣١.

(٣) المرجع السابق: ص ٣.

«.. فهذه العلوم عقلية محضة ليس فيها تقليد لقائل، وإنما تعلم بمجرد العقل فلا يجوز أن تصحح بالنقل - بل ولا يتكلم فيها إلا بالمعقول المجرد - فإذا دل المعقول الصريح على بطلان الباطل منها لم يجز رده، فإن أهلها لم يدعوا أنها مأخوذة عن يجب تصديقه، بل عن عقل محض، فيجب التحاكم فيها إلى وجوب العقل الصريح»^(١).

٥ أسباب انحراف المنطقين:

ويحدث شيخ الإسلام عن أسباب انحراف المنطقين يقول:

«وسبب ذلك أعراضهم عن الفطرة العقلية، والشريعة النبوية بما ابتدعوا مما أفسدوا بها الفطرة والشريعة، فصاروا يسفطون في العقليات، ويقرّمطون في السمعيات»^(٢).

يقول أيضاً:

«إن ما عند أئمة النظار - أهل الكلام والفلسفة - من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق، وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه، مع تنزهه عن الأغالط

(١) الرد على المنطقين: ص ٢٠٨.

(٢) النبات: ص ١٤٨.

الكبيرة الموجودة عند هؤلاء، فإن خطأهم فيها كثير جداً، ولعل
ضلالهم أكثر من هداهم، وجهلهم أكثر من علمهم»^(١).

وكان شيخ الإسلام رحمه الله يرى أن أولئك الذين يضعون
المقدمات العقلية لتسبيق الدراسة الشرعية، ويجعلون ما في القرآن
يسير على منهاجها، فيؤولون صريحة ليوافقها، إنما يجعلون علم
العقل فوق علم النبوة، حيث يقول:

«يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم، وأن
النظر يوجب العلم وأنه واجب، ويتكلمون في جنس النظر وجنس
الدليل، و الجنس العلم بكلام قد اخترط فيه الحق بالباطل، ثم إذا
صاروا إلى ما هو الأصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث
الأعراض على حدوث الأجسام، وهو دليل مبتدع في الشرع،
و باطل في العقل»^(٢).

ينقد ابن تيمية رحمه الله هؤلاء، لأنهم يقدمون عند
دارستهم لما جاء به النبوة تلك الدراسة العقلية عليها، ثم
يحكمون على الأوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها،
ويوجهونها بتوجيهها، فما يوافقها أقرروه كما ورد، وما لم يوافقها
وجهوه على اتجاهها، وأولوه بتأويلها، ثم هم في هذا السبيل لم

(١) الرد على المنطقين: ٣٢١.

(٢) معارج الوصول: (ص ٦).

يلتفتوا إلى السنة ولم يعلموا أنها شارحة للكتاب، مبينة لكل ما جاء فيه، وأنها الطريق الوحيد لتفسيره.

ينقد ابن تيمية ذلك المسلك، لأنه يجعل الحاكم محكوماً، فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادبة للعقل ممحونة بها، خاضعة لها»^(١).

○ نقضه للمنطق وإخباره أنه يمكن الاستغناء عنه:

يخبر شيخ الإسلام أن علم المنطق من العلوم التي يمكن الاستغناء عنه، وأنه ليس له فائدة عملية ولا نظرية حيث يقول: «.. وأيضاً لا تجد أحداً من أهل الأرض حقاً علمـاً من العلوم وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق، لا من العلوم الدينية ولا غيره فالأطباء والحساب، والكتاب ونحوهم يحققون ما يحققون من علومهم وصناعاتهم بغير صناعة المنطق.

وقد صنف في الإسلام علوم النحو واللغة والعروض والفقه وأصوله والكلام وغير ذلك، وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق، بل عامتهم كانوا قبل أن يعرب هذا المنطق اليوناني.

وأما العلوم الموروثة عن الأنبياء صرفاً، وإن كان الفقه وأصوله متصلةً بذلك فهي أجل وأعظم من أن يظن أن لأهلها

(١) ابن تيمية: أبو زهرة: ص ٢٤٠.

التفات إلى المنطق، إذ ليس في القرون الثلاثة من هذه الأمة - التي هي خير أمة أخرجت للناس - وأفضلها القرون الثلاثة: من كان يلتفت إلى المنطق أو يعرج عليه، مع أنهم في تحقيق العلوم وكمالها بالغاية التي لا يدرك أحد شاؤها، كانوا أعمق الناس علماً، وأقلهم تكلفاً، وأبرهم قلوباً، ولا يوجد لغيرهم كلام فيما تكلموا فيه إلا وجدت بين الكلامين من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق^(١)، بل الذي وجدهناه بالاستقراء أن من المعلوم: أن من الخائضين في العلوم من أهل هذه الصناعة أكثر الناس شكواً واضطرباباً، وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم من تحقيق علم موزون، وإن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم، فذلك لصحة المادة والأدلة التي ينظر فيها، وصحة ذهنه وإدراكه، لأجل المنطق، بل إدخاله صناعة المنطق في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة، ويجعل القريب من العلم بعيداً، واليسير منه عسيراً، ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك، لم يف إلا كثرة العلم والتشقيق، مع قلة العلم والتحقيق^(٢).

(١) الفرق: المقصود به فرق الشعر من الرأس.

(٢) نقض المنطق: ص ١٦٨-١٦٩.

٥ اتجاهه لنقض المنطق من دعائمه التي يقوم عليها:

وابن تيمية - رحمه الله - لا يكتفي في هدم المنطق مبيناً أنه لا جدوى فيه، وأن الناس من غيره يصلون إلى الحقائق في استقامة تفكير وسلامة تعبير، وأن الذين يسلكون مذهبه لا يقصدون إلا تشكيل القول من غير جداء، ويأتي البنيان من قواعده، فيحاول أن يثبت أن الدعائم التي يقوم عليها بناء المنطق دعائم واهية، وأنها في ذاتها غير سليمة^(١).

فيقول رحمه الله:

«اعلم أنهم بنوا المنطق على الكلام في الحد ونوعه، والقياس البرهاني ونوعه، قالوا لأن العلم أما تصور وإما تصديق، فالطريق الذي ينال به التصور هو الحد، والطريق الذي ينال به التصديق هو القياس، فنقول الكلام في أربعة مقامات، مقامين سالبين، ومقامين موجبين، فال الأولان في قولهم أن التصور المطلوب لا ينال إلا بالحد، والثاني أن التصديق المطلوب لا ينال إلا بالقياس، والآخران أن الحد يفيد العلم بالتصورات، وأن البرهان الموصوف يفيد العلم بالتصديقات، فالمقامان السالبان ينفيان الطرق التي يسلكها غير المناطق في التوصيل إلى التصور والتصديق، والمقامان الموجبان يثبتان أن طريفي المناطقة هما

(١) ابن تيمية: لأبي زهرة: ص ٢٤٩.

ووحدهما يؤديان إلى التصور والتصديق»^(١).

ويخلص رحمة الله إلى القول:

«هذا ملخص ما قالوه: وكل هذه الدعاوى كذب في النفي والإثبات فلا ما نفوه من طرق غيرهم كلها باطل، ولا ما أثبتوه من طرقوهم كلها حق على الوجه الذي ادعوا فيه، وإن كان في طرقوهم ما هو حقه كما أن في طرق غيرهم ما هو باطل، فما من أحد منهم ولا من غيرهم يصنف كلاماً إلا ولا بد أن يتضمن ما هو حق»^(٢).

○ ترجيحه للاستقراء على القياس:

يذكر العلامة السيد سليمان التدويني رحمة الله في تقاديمه لكتاب الرد على المنطقين ما نصه:

«إنك إذا تقرأ هذا الكتاب بإمعان وروية تجد منه عدة من قضايا المنطق ومسائل الفلسفة التي اخترعها شيخ الإسلام لأول مرة، وهي تطابق آراء فلاسفة الغرب ونظرياتهم مطابقة تامة، وعلى سبيل المثال نرى أن علماء المنطق من المسلمين كانوا يقلدون أرسطو في قوله: إن كليات المنطق أساس العلم، وبالتالي رجحوا البرهانيات والمقاييس على الاستقراء وهونوا أمره، ولأجل

(١) صون المنطق والكلام: ص ٢٠٢.

(٢) صون المنطق والكلام: ص ٢٧٨، ابن تيمية لأبي زهرة: ص ٢٥٠.

هذا ادعى بعض علماء الغرب أن (مل) (Mill) هو أول من رتب أصول الاستقراء، وأسس قواعد المنطق الجديد، والحال أن شيخ الإسلام سبقه بقرون إلى بيان أهمية الاستقراء والاستفادة منه.

وهكذا قدم حلولاً ناجحة للمسائل العويصة والمعقدة في هذا الفن بالأدلة القطعية مما يشهد باجتهاده وذكائه، إن ما قاله شيخ الإسلام في مسألة العلة واللزوم هو نفس ما أثبته الفلسفي الشهير هيوم (Hume) في مؤلفاته، وزلت فيها أقدام فحول العلماء، وضل بسببيها الملاحدة والطبيعيون، ويوجد في كتابه الرد على المنطقين تحقیقات جديدة، ونظريات حديثة، وهي تدل على جلاله علمه وذكائه الغريب^(١).

○ لماذا درس ابن تيمية المنطق:

وبعد أن عرفنا رأيه الصريح في المنطق، فإنه يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو لماذا درس ابن تيمية المنطق إذن.

إن ابن تيمية رحمة الله إنما تعلم المنطق والفلسفة ليهدمها، وكان يقرؤها ويفهمها، وهو في غير محيطها، ولم ينغممر في غمارها، وشدد النكير على الغزالي في منهاجه، وأخذ يتتبع هفواته ويتقصى هناته.

(١) الندوة العالمية: ص ١٩١-١٩٢.

وقد درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها، لأنه رآها داء قد أصاب فكر المسلمين، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين، وأنها سرت إلى العقل الإسلامي فسيطرت على مساربه، ويرى أنه قبل أن يخوض في بيان العقيدة الإسلامية وموافقتها لصرح العقول لا بد من إبعاد العناصر الفلسفية التي هي أخيلة وأوهام، كما يبعد عن الجسم الإنساني الأخلاط الضارة لتم سلامته^(١).

فهدفه إذن هدم الفلسفة وعلم المنطق من أسسه ودعائمه، من أجل تنقية العقيدة الإسلامية مما شاب جمالها الناصع من أخيلة وأوهام المتفلسفين، وإعادة الصفاء إلى هذه العقيدة بعيداً عن علوم اليونان التي لم تؤلف أو تكتب إلا ضمن إطار العقيدة الوثنية للليونانيين، ولذلك يقول رحمة الله:

«لما كان بيان مراد الرسول في هذه الأبواب لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء، بينما في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به، فإذا كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي ناقصه، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول، وقدحاً فيمن استدل بكلامه، وصار هذا بمتزلة المريض الذي تكون به أخلاط

(١) ابن تيمية، لأبي زهرة: ٢٣٦، ٢٣٩.

فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء، فلا ينفعه مع وجود هذه الأخلط الفاسدة التي تفسد الغذاء، فكذلك القلب الذي اعتقاد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات أو بعضها، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه، أو امتناع المعاد أو غير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنّة، إلا مع بيان فساد المعارض، وفساد المعارض قد يعلم جملة وتفصيلاً^(١).

٥ هل كان ابن تيمية عدواً للعقل:

لم يكن ابن تيمية رحمة الله عدواً للعقل كما يحلو للبعض أن يصوّره، وإنما كان عدواً للفلسفة التي ألهت فكر أرسطو وأفلاطون، وجعلت في فكرهما الحق فقط، وبررت على السنّة المتكلّسين ذلك التناقض بين الفلسفة الأرسطية وبين الفلسفة الأفلاطونية وذلك بتلمس الوجوه التي ترفع هذا التناقض بينهما، وتزيل ما بينهما من خلاف تلمسه بداعه الفكر الأولى.

لقد جعل بعض الناس من مفهوم كلمة «العقل» ومفهوم كلمة «الفلسفة» شيئاً واحداً، أو جعلوا الفلسفة مرادفة لكلمة العقل، ولذلك جعلوا ممن يعادي الفلسفة مُعادياً للعقل، ولكن ابن تيمية وهو يسعى إلى الحق يؤمن بأن صريح العقل موافق لصحيح النقل، ويؤمن بأن هذه الفلسفة ليست ثمرة عقل صحيح

(١) موافقه صريح المعقول لصحيح المقاول: ١/٩٨.

سليم، بل ثمرة عقل فيه لوثة من فساد، وعلة من مرض، يؤمن بأنها ثمرة عقل حاد عن الطريق الأقوم، فحاول استمداد الهدى من دوحة الضلال.

كيف يعادى ابن تيمية العقل وهو الذي أطلق العقل ودعى إلى تحريره من أسر التقليد، وعانيا في سبيل ذلك وتعرض لمحن كثيرة مختلفة، وقد كان مؤمناً بأن فطرة العقل الصحيح موافقة للعقل الصحيح، على أن لا يحيف الفكر على أقدس الدين الحق، أو يضع قيماً للتدين والأخلاق غير ما جاء به رسول الله ﷺ، فهنا لا تكون حرية، بل عبودية لفلسفة ضال ملحد».

وكيف يتهم ابن تيمية بعداوته للعقل وما قامت دعوته إلا على أساس إطلاق العقل من ريبة التقليد، حتى يهتدى بأنوار الحقيقة العليا من كتاب الله تعالى وهدي رسوله ﷺ^(١).

○ لماذا أكثر من التأليف في علوم العقيدة؟

وفي الرد على هذا التساؤل ذكر لنا الحافظ أبو حفص البزار رحمة الله أنه وجه إليه مثل هذا السؤال فقال:

«ولقد أكثر، رضي الله عنه، التصنيف في الأصول فضلاً عن بقية العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمس منه تأليف نص في

(١) مواقفه صريح المعقول صحيح المنقول مقدمة: ١/٤٩-٥١ بتصريف.

الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته، ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه:..

الفروع أمرها قريب، ومن قلد - المسلم - فيها أحد العلماء المقلّدين، جاز له العمل بقوله، مالم يتيقن خطأه، وأما الأصول: فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء: كالمتفلسفة، والباطنية، والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية والقدرية، والنصيرية، والجهمية، والحلولية، والمعطلة، والمجسمة، والمشبهة، والراوندية، والكلابية، والسليمية، وغيرهم من أهل البدع، قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبيان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة العلية على كل دين، وأن جمهورهم وقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنَّة، مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده.

فلما رأيت الأمر على ذلك بأن لي: أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيف دلائلهم، ذبَا عن الملة الحنفية، والسنَّة الصحيحة الجلية.

ولا والله ما رأيت فيهم أحداً من صنف في هذا الشأن، وادعى علو المقام، إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام.

وبسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم: حِكَمَيَّاتٍ، وعُقْلَيَّاتٍ، وإنما هي: جهالات، وضلالات، وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً، فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم، فتختبط حتى خبط فيها عشوأ، ولم يفرق بين الحق والباطل، وإنما الله أعظم لطفاً بعباده أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته، ويُبْطِل الباطل وينفيه، لكن عَدَمَ التوفيق وَغَلَبةُ الْهُوَى أَوْقَعَ مَنْ أَوْقَعَ فِي الضلال، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يَرِدُّ بِهِ الْعَبْدَ الْوَارِدَاتِ فَيُفْرَقُ بِهِ بَيْنَ مَا هُوَ مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ، وَمَا هُوَ مِنْ قَبْلِ الْبَاطِلِ وَلَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ الرَّسُولُ إِلَّا إِلَى ذُوِّ الْعُقْلِ، وَلَمْ يَقْعُ التَّكْلِيفُ إِلَّا مَعَ وُجُودِهِ، فَكَيْفَ يَقُولُ: إِنَّهُ مُخَالِفٌ لِبَعْضِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُولُ الْكَرَامُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؟ هَذَا بَاطِلٌ قَطْعَانٌ، يَشَهِّدُ لَهُ كُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ، لَكِنْ ﴿وَنَّ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال الإمام الشیخ قدس الله روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنني صرَفتُ جُلَّ همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها، بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية^(١).

(١) الأعلام العلية: ٣٣-٣٥.

○ جودة كلامه في أمور العقيدة:

وفي ذلك يقول الحافظ أبو حفص البزار رحمه الله:

«حدثني غير واحدٍ من العلماء الفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقوال المتكلمين لإصابة الثواب، وتمييز القشر من اللّباب:

أن كلاًّ منهم لم يزل حائراً في تجاذب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم، وأنه لم يستقر في قلبه منها قولٌ، ولم يَبِنْ له من مضمونها حقّاً، بل رأها كلها موقعةً في الحيرة والتضليل، وجُلّها مُمعنٌ بتتكلف الأدلة والتعليل، وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقع بسيبها في التشكيك والتعطيل، حتى مَنْ الله تعالى عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام، أحمد بن تيمية شيخ الإسلام، وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النّظام، فما هو إلّا أن وقف عليها وفهمها، فرأها موافقةً للعقل السليم وعلمها، حتى انجلى ما كان قد غشىء من أقوال المتكلمين من الكلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام.

ومن أراد اختبار صحة ما قلته فليقف بعين الإنصاف، العربية عن الحسد والانحراف، إن شاء - على مختصراته في هذا الشأن، كشرح الأصبهانية ونحوها، وإن شاء على مطولاًاته كتلخيص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقة بين العقل والنقل، ومنهاج

الاستقامة والاعتدال، فإنه والله يظفر بالحق والبيان، ويستمسك بأوضح برهان أو يزن حيئته في ذلك بأوضح ميزان.

وقد أبان بحمد الله تعالى، فيما ألف فيها لكل بصير، الحق من الباطل، وأعانه بتوفيقه حتى رد عليهم - أهل البدع والمذاهب والفرق - بدعهم وأراءهم، وخدعهم وأهواءهم، مع الدلائل العقلية بالطريقة العقلية، حتى يجيز عن كل شبهة من شبههم بعدة أجوبة جلية واضحة، يعقلها كل ذي عقل صحيح، ويشهد لصحتها كل عاقل رجيع^(١).

○ بعض مؤلفاته في العقيدة:

كتب ابن تيمية رحمه الله في العقيدة كثيراً من المصنفات، بل لعلها أغزر ما كتب مادة، وأكثرها فوائد، وقد ذكرت في قائمة مؤلفاته كثيراً من اسمائها التي وصلت إلينا، وفيما يلي أسماء أشهرها في هذا الباب:

- ١ - الإيمان.
- ٢ - الاستقامة.
- ٣ - اقتضاء الصراط المستقيم.
- ٤ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
- ٥ - شرح الأصبهانية.

(١) الأعلام العلية: ٣٣، ٣٥.

- ٦ - الرسالة الحموية.
- ٧ - الرسالة التدمرية.
- ٨ - الرسالة الواسطية.
- ٩ - رسالة الاحتجاج بالقضاء والقدر.
- ١٠ - قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.
- ١١ - منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.
- ١٢ - رسالة مراتب الإرادة.
- ١٣ - الرسائل البعلبكية، والكيلانية، والبغدادية، والأزهرية.
- ١٤ - معارج الوصول.
- ١٥ - نقض المنطق.
- ١٦ - الرد على المنطقين.
- ١٧ - موافقة صحيح المتن قول صريح المعقول.
- ١٨ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / في الرد على عقائد المسيحية وغيرها الكثير.

وقد اتسمت بعضها بمظاهر الجدال العقلي، وبعضها الآخر جمع بين المناقشة المخصبة المتجة، والعلم الصحيح العميق فهي مرجع في بابها، وحقائق علمية صادقة وعميقة، وجدل ومناظرة جيدة محكمة وعميقة.

○ من أين نأخذ عقيدة ابن تيمية:

وعن هذا التساؤل يجيب الباحث محمد السيد الجليند في كتابة الممتع (الإمام ابن تيمية و موقفه من التأويل) فيقول: «والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: إذا أراد الباحث أن يعثر على رأي ابن تيمية وعقيدته التي يدين بها، فهل من الصواب في ذلك أن نبحث عنها خلال نقاشه للخصوم ببيان تهافت حججهم ومناقشتهم بعضهم بعضاً، أم الصواب أن نتلقاها عنه بما يعتقده و يدين به صراحة بلا لبس ولا التواء؟.

أرى أن من الأجدى، أن نتلقي رأي بن تيمية - في جميع المسائل التي تعرض لها. عنه ما صرخ به، وليس من الصواب أن نذهب في متابعة لهؤلاء وهؤلاء، وندعى أن معارضته لهذا الرأي أو ذاك يدل على قبوله لنقضه، كما ألزمته خصومه وهو لم يترك موقفاً تعرض له إلا أولى فيه برأيه صراحة مدعوماً بالأدلة العقلية الصريحة والنقلية الصحيحة.

وإذا كان هذا رأينا فابن تيمية قد وضع رسائل عدّة في بيان العقيدة الصحيحة التي عليها سلف الأمة، كالعقيدة الواسطية، والحموية، وتعرض لها كذلك في مواطن عدّة من كتبه الأخرى، كالفرقان بين الحق والباطل، ومذهب أهل السنة، وعرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات، وغير ذلك من كتبه^(١).

(١) الإمام ابن تيمية و موقفه من التأويل: ص ٤١١.

٥ مجلل عقيلة ابن تيمية كما جاءت في مصنفاته:

وحين زيد الحديث عن عقيدة ابن تيمية رحمه الله تعالى فلا بد أن نستقيها من كلامه الصريح الجريء، لا أن نلتقط عبارة من هنا، وعبارة من هناك في أثناء دفعه ومناقشته للمذاهب الكلامية، ودحض حجج بعضها بالبعض الآخرين، ظانين إننا بذلك نلزمه بما لم يلزم به نفسه، وحين يجد البعض مثل هذه العبارات الموهمة يطير بها فرحاً، ويظن أنه بذلك نال بغيته التي يكرس جهوده كلها للوصول إليه وهي النيل من عقيدةشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، والحكم عليه ظلماً وبهتاناً بالضلال والزيغ والكفر، فهل هذا هو الإنفاق والحياء العلمية.

والعجب أن هذا البعض إذا أخبرته وبينت له خطأ ما ذهب إليه، قال لك: إنه ولو لم يكن هو القائل، فإن مجرد نقله له يدل على أنه يعتقد، فهل هذا منطق سديد أم أنه ضرب من المماحكة على طريقة المثل القائل - عنزة ولو طارت -

وأسوق فيما يلي مجموعة من النصوص الصريحة الجريئة التي عبر عنها شيخ الإسلام بمنتهى الجرأة والصراحة المعروفة عنه، يوضح فيها وبين عقيدته رحمه الله:

- أبرز شيخ الإسلام عقيدته وبينها أنها ثابتة لا تتغير ولا تحول في هذه الأبيات الشعرية المعروفة - باللامية - حيث قال:

يا سائلني عَنْ مذهبِي وعقيدتي
 رُزِقَ الْهَدَى مَنْ لِلْهَدَايَةِ يَسْأَلُ
 إِنْسَمْعْ كَلَامَ مُحَقِّقٍ فِي قَوْلِهِ
 لَا يَنْتَزِي عَنْهُ وَلَا يَتَبَدَّلُ
 حُبُّ الصَّحَابَةِ كُلُّهُمْ لِي مَذْهَبٌ
 وَمَوَدَّةُ الْقَرْبَى بِهَا أَتَوَسَّلُ
 وَأَقُولُ فِي الْقُرْآنِ مَا جَاءَتْ بِهِ
 آيَاتُهُ فَهُوَ الْقَدِيمُ^(١) الْمَنْزَلُ
 وَأَقُولُ: قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالَهُ
 وَالْمَصْطَفَى الْهَادِي وَلَا أَتَأْوِلُ
 وَجْمِيعَ آيَاتِ الصَّفَاتِ أُمْرُهَا
 حَقًا كَمَا نَقْلَ الْطَّرَازَ الْأَوَّلَ
 وَأَرَدَ عَهْدَتِهَا إِلَى ثُقَالَهَا
 وَأَصْوَنَهَا عَنْ كُلِّ مَا يُتَخَيلُ
 قَبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الْقُرْآنَ وَرَاءَهُ
 وَإِذَا اسْتَدَلَ يَقُولُ: قَالَ الْأَخْطَلُ
 وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًا رَبِّهِمْ
 وَإِلَى السَّمَاءِ بِغَيْرِ كِيفٍ يَنْزَلُ

(١) قال المعلق على القصيدة: لم أُعثِرُ فيما أطلعت عليه أن ابن الإمام ابن تيمية يعبر بالقديم» وإنما يعبر بأنه غير مخلوق إلا إذا كان من باب الأخبار كالشاهد هنا.

وأقر بالميزان والحوض الذي
 أرجو بآني منه ريا أنهل
 وكذا الصراط يمتد فوق جهنم
 فمسلم ناج وأخر مهملا
 والنار يصلاها الشقي بحكمة
 وكذا التقي إلى الجنان سيدخل
 ولكل حي عاقل في قبره
 عمل يقارنه هناك ويُسأل
 هذا اعتقاد الشافعي ومالك
 وأبي حنيفة ثم أحمد ينقل
 فإن اتبعت سبيلهم فموفق
 وإن ابتعدت فما عليك معول^(١)

ومن ذلك ما قاله في العقيدة الواسطية:

«ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه، ووصفه به
 رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.. فاتفق
 السلف على أن الكيف غير معلوم.. وكذلك التمثيل منفي بالنص

(١) العقيدة السلفية: د. سعيد عبد العزيز الشبلبي: ٢٩٨ - ٣٠٠، وتعليقه عليها، جلاء العينين للآلوزي: ص ٥٨، وشرح الرسالة أحمد بن عبد الله المرداوي وطبعها في الرياض عام ١٣٥٨ هـ.

والإجماع مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكثيف إذ كنه الباري غير معلوم للبشر»^(١).

وما قاله في الفتوى الحموية:

«ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن وال الحديث».

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن وال الحديث».

ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحرير ولا تعطيل، ومن غير تكثيف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأنصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد.

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما يتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات

(١) مجموعة الرسائل الكبرى: ١/١٩٣-١٩٤.

حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاتاته، ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزه عنه حقيقة، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه، واستلزم الحدوث، سابقة العدم، ولا فتقار المحدث إلى محدث ولو جوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى.

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فيعطليون أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويحددون في أسماء الله وآياته^(١).

○ وفي حديثه عن استواء الله على عرشه قال رحمة الله:

«والقول الفاصل: هو ما عليه الأمة الوسط، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء علیم، وعلى كل شيء قادر، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي كعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه

(١) الفتوى الحموية: ص ٢٧٢.

فوق العرش ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولو ازماها.

واعلم أن ليس في العقل الصريح، ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة على الحق، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها فذلك سهل ويسير»^(١).

○ وفي حديثه عن علو الله على خلقه، قال رحمة الله:

«ثم من توهם أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب - إن نقله عن غيره - وضال - إن اعتقده في ريه - وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله: «إن الله في السماء» أن السماء تحويه، ليادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا»^(٢).

وهناك الكثير من النصوص التي تكلم بها، وصرح بقوتها وجرأة عن عقيدته في جميع المسائل المطروحة، وبين أنه يدور مع منهج الكتاب والسنّة وطريق السلف في فهم أمور العقيدة، لا يخرج عنها ولا يغيرها ولا يبدلها مع مرور الأزمان، وأما الذين

(١) الفتوى الحموية: ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) الفتوى الحموية: ص ٥٢٤-٥٢٣، مجموع الفتاوى: ١٠٦/٥.

يريدون الخصومة فيدورون مع الكلام الموهم ابتغاء الفتنة،
وابتغاء تأويله، ورجاء الوصول إلى مآربهم في عدائهم لهذا الإمام
وفكره رحمة الله.

○ دحض شبه وافتراءات موجهة إليه:

حيكت حول ابن تيمية رحمة الله الكثير من المؤامرات،
ورماه أعداؤه بالكفر والإلحاد ووضعت الكثير من الكتب للنيل
منه، ووجهت إليه اتهامات كاذبة، وافتراءات ظالمة كانت بالنسبة
لحياة هذا الإمام الواضحة تشكل مجرد فقاعات سرعان ما تنفجر
فلا ترك خلفها أثراً، لأن أصحابها ما أرادوا منها وجه الله تعالى،
 وإنما أرادوا إشباع رغباتهم وأهوائهم في النيل منه حتى ولو كان
ما يقولونه كذباً محضاً، وزوراً وظلماً فرجل مثل ابن تيمية
رحمه الله في صراحته وجرأته، وصدقه بما يراه حقاً، لن يسلم من
الحاقدين والشائين الذين رأوا أن مجدهم سرعان ما بدأ يتوجه
إلى أفول أمام حملات ابن تيمية في الكشف عن الزيف والخداع
الذى كانوا يمارسونه، فاستحلوا ما حرم الله في توجيه الاتهامات
الكاذبة لإلصاق تهمة الضلال والزيغ به، وما رؤي داءً كالحسد
يفتك في دين المرء وإيمانه، وما عُلمَ كاتباع الهوى في الفتك
بصدق الناس ومرءوتهم، فللهم الأمر من قبل ومن بعد.

وسأعرض فيما يلي بعض هذه الاتهامات والافتراءات، ثم
أُسلط عليها أقوال ابن تيمية وتصريحاته التي تكشف زيفها،

وتفضح عوارها، فتنقض عليها كالشهاب الثاقب، فتركتها أثراً بعد عين، أما مجموع هذه الاتهامات ونقضها فسيكون لي حديث مفصل عنها في بحث خاص خارج هذا الكتاب.

١ - اتهامه بأنه قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزوبي هذا، ونزل درجة من درجات المنبر.

الرد: هذه من التهم الكاذبة التي ألصقت به زوراً وبهتاناً، ونقلها ابن بطوطة في رحلته المشهورة، هي تهمة تحمل في طياتها عوامل هدمها، ولكن قبل أن أبين عوامل هدمها من داخلها، أسوق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك:

«والذي يجب القطع به أن الله ليس كمثله شيء في جميع ما يصف به نفسه، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين في شيء من الأشياء، فهو مخطئ قطعاً، كمن قال: إنه ينزل فيتحرك وينتقل كما الإنسان من السطح إلى أسفل الدار، وكقول من يقول: إنه يخلو منه العرش، فيكون نزوله تفريغاً لمكان وشغلاً لآخر، فهذا باطل يجب تزويه الرب عنه»^(١).

وقال رحمه الله:

«وكذلك إنَّ جعل صفات الله مثل صفات المخلوقين، واستواء الله كاستواء المخلوق، أو نزوله كنزول المخلوق، ونحو

(١) مجمع الفتاوى: ٥٧٨/٥.

ذلك، فهو مبتدع ضالٌّ^(١).

وقد رد علام الشام محمد بهجة البيطار هذه التهمة بقوله:

أن ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به، إذ وصل دمشق وكان الشيخ رحمة الله في سجنه بقلعة دمشق عام ٧٢٦هـ، ولبث فيه إلى وفاته رحمة الله، فكيف رأه وهو يخطب على منبر.

ثم إن رحلة ابن بطوطة مليئة بالروايات والحكايات الغربية كمثل قوله: وفي وسط المسجد (أي الأموي) قبر زكريا عليه السلام !!.

ثم إن ابن تيمية لم يكن يعظ الناس على منبر الجمعة كما زعم ابن بطوطة، وقد بين الذهبي والبرزالي أن ابن تيمية كان مدرساً وواعظاً ولم يكن خطيباً، وكان يلقي الدرس غالباً على كرسي، ولم يصعد المنبر!! وكان خطيب المسجد الأموي عند دخول ابن بطوطة دمشق قاضي القضاة القزويني !!.

ثم إن الباحث لا يجد في جميع ما كتبه الإمام ابن تيمية في حدوث النزول إلا إثبات النزول على وجه يليق به تعالى، ولم يذكر مرة واحدة أن نزوله تعالى يشبه نزول أي أحد من خلقه^(٢).

(١) مجمع الفتاوى: ٥٦٢/٥.

(٢) حياة شيخ الإسلام: ص ٤٣ وما بعدها.

والأعجب أن بعض من تعودوا أن يدفعوا التهم عن أنفسهم أو مذاهبهم، يتقنون فن الجرح والتعديل خاصة إذا كان الكلام في حقهم، ويضعفون ويذكرون لأقل شبهة، لكنهم ينسون فن الجرح التعديل ويقبلون حتى الأكاذيب والافتراءات ويستهدون بها، ويجعلوها أساساً لاتهاماتهم مع علمهم اليقيني أنها محض كذب وافتراء، وأن من تكلموا بها ليسوا إلا مفترين فيما يقولون.

وبهذا نعلم أن هذه التهمة الموجهة لشيخ الإسلام ليست إلا فرية عارية عن الصحة تاريخاً، وعقلاً، ونقلأً كما سبق أن ذكرنا.

٢ - اتهامه بالقول بفناء النار:

الرد: قال شيخ الإسلام رحمة الله:

«.. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار، والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام والمبتدئين كالجهنم بن صفوان، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول يخالف كتاب الله، وسنّة رسوله ﷺ، وإجماع سلف الأمة وأئمتها»^(١).

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/٣٠٧.

«... فقال الجهم بن صفوان: إن لمعلومات الله ومقدوراته
غاية ونهاية، ولأفعاله آخر، وأن الجنة والنار تفنيان، ويفنى أهلها،
حتى يكون الله آخرًا لا شيء معه، كما كان أولاً لا شيء معه.

وقال أهل الإسلام جمِيعاً: ليس للجنة والنار آخر، وأنهما لا
تزالان باقيتين، وكذلك أهل الجنة لا يزالون في الجنة يتنعمون،
وأهل النار في النار يعذبون، ليس لذلك آخر، ولا لمعلومات الله
ومقدوراته غاية ولا نهاية»^(١).

وفي ذكره لأقوال الناس في وجود ما لا ينتهي في الماضي
والمستقبل، ذكر ما يلي:

«أحدها: امتناع وجود ما لا ينتهي في الماضي والمستقبل،
وهذا قول أبي الهذيل والجهم بن صفوان، وعن هذا الأصل قال
الجهم بفناء الجنة والنار، واشتد إنكار سلف الأمة عليه بذلك»^(٢).

وقال رحمة الله في مجموع الفتاوى وقد سئل عن حديث
أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة لا
تموت ولا تفني ولا تذوق الفناء: النار وسكناتها، واللوح، والقلم،
والكرسي، والعرش» فهل هذا حديث صحيح أم لا؟.

فأجاب «هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي ﷺ»

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٣٥٨/٢، بيان تلبيس الجهمية: ١/١٥٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٨/٣٤٥.

وإنما هو من كلام بعض العلماء، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفني بالكلية، كالجنة والنار، والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله، وسُنة رسوله، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، كما في ذلك من الدلاله على بقاء الجنة وأهلها، وبقاء غير ذلك مما لا تتسع هذه الورقة لذكره، وقد استدل طوائف من أهل الكلام والمتفلسفة على امتناع فناء جميع المخلوقات بأدلة عقلية، والله أعلم»^(١).

إضافة إلى هذه النصوص الواضحة التي تكشف زيف هذه التهمة الباطلة، فإن شيخ الإسلام قد أفرد هذه المسألة بكتاب أسماه «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» وقد حققه الدكتور محمد السمهري.

٣ - اتهامه بالقول بقدم العالم النوعي:

الرد: وهذه فرية أخرى مكشوفة فضحها شيخ الإسلام بأقواله الكثيرة التي يكفر بها القائلين بقدم العالم.

قال رحمة الله:

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/٣٠٧.

«فالذى جاء به القرآن والتوراة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع أئمة أهل الكتاب: أن هذا العالم خلقه الله وأحدثه من مادة كانت مخلوقة قبله كما أخبر في القرآن أنه «استوى إلى السماء وهي دخان» أي بخار: «فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ أَنْتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» [فصلت: ١١] وقد كان قبل ذلك مخلوق غيره كالعرش والماء، كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» [هود: ٧].

وهذا مذهب جماهير الفلاسفة الذين يقولون: إن هذا العالم مخلوق محدث، وله مادة متقدمة عليه، لكن حكى عن بعضهم أن تلك المادة المعنية قديمة أزلية، وهذا أيضاً باطل، كما قد بسط في غير هذا الموضوع^(١).

وقال رحمة الله:

«فالذى يفهمه الناس من هذا الكلام أن كل ما سوى الله مخلوق، حادث، كائن، بعد أن لم يكن، وأن الله وحده هو القديم الأزلية، ليس معه شيء قديم تقدمه، بل كل ما سواه كائن بعد أن لم يكن، فهو المختص بالقدم، كما اختص بالخلق والإبداع، والإلهية والربوبية، وكل ما سواه محدث مخلوق مربوب عبد له، وهذا المعنى هو المعروف عن الأنبياء وأتباع الأنبياء من المسلمين

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١/١٢٣.

واليهود والنصارى، وهو مذهب أشر الناس غير أهل الملل من
الفلسفه وغيرهم^(١).

وقال رحمة الله:

«... وهذا مما يستدل على أن كل ما سوى الله حادث كائن
بعد أن لم يكن»^(٢).

وقال رحمة الله في رده على ابن عربي الذي يقول بقدم
العالم:

«ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل
صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب
«الفتوحات المكية» و«الفصوص» وأشباه ذلك يمدح الكفار مثل
قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، ويتقصّ الأنبياء: كنوح وإبراهيم
وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند
ال المسلمين: كالجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري،
ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه، كما ذكره في
تجلياته الخيالية الشيطانية، فإن الجنيد - قدس الله روحه - كان من
أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد فقال: «التوحيد إفراد الحدوث عن
القدم، فيبيّن أن التوحيد أن تميز بين القديم والمحدث، وبين
الخالق والمخلوق، وصاحب الفصوص أنكر هذا، وقال في

(١) المرجع السابق: ١٢٥/١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٩/٢٨٠-٢٨٢.

مخاطبته الخيالية الشيطانية له: يا جنيد! هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما؟ فخطأ الجنيد في قوله: «أفراد الحدوث عن القدم، لأن قوله هو! أن وجود المحدث هو عين وجود القديم»^(١).

وممن برأه من هذه التهمة الإمام الألوسي في كتابه جلاء العينين حيث قال:

«ومن جملة ما يبرأ به الشيخ ابن تيمية عن القول بقدم العالم، سواء كان القول بالذات أو النوع، أنه قد صرخ بکفر ابن سينا وأضرابه لقولهم بقدم العالم»^(٢).

وها هو تلميذه النجيب ابن القيم يقول في نونيته:
والله كان وليس شيء غيره

سبحانه جل العظيم الشأن
لسنا نقول كما يقول الملحد الز

نديق صاحب منطق اليونان

بدوام هذا العالم المشهود والـ
أرواح في أزلٍ وليس بفان
وبعد هذا كله يتبين لنا بطلان هذه الفرية وكذبها، وأن شيخ
الإسلام بريء منها كما هو بريء من غيرها.

(١) مجموع الفتاوى: ١١ / ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) جلاء العينين: ص ٣٣٣.

٤ - اتهامه بالقول بالحد والمكان والجهة فالتحيز لله تعالى».

يقول رحمة الله تعالى:

«من توهם أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب - إن نقله عن غيره - وضال - إن اعتقده في ربه - وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله «أن الله في السماء» أن السماء تحويه، لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لم يخطر ببالنا، بل عند المسلمين أن الله في السماء كما نص القرآن والسنّة وهو على العرش واحد، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل»^(١).

وقال رحمة الله:

«إن لفظ التشبيه في كلام الناس لفظ مجمل فإن أريد ببني التشبيه ما نفاه القرآن فهذا حق، وإن أريد بالتشبيه أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فيلزم ألا يقال له: حي، علیم، قدیر لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك في كلامه وسمعه وبصره ورؤيته وغير ذلك، ولا يقال حينئذ إن هذا تشبيه يجب نفيه»^(٢).

ويدفع الإمام ابن تيمية رحمة الله شبه الجهة بقوله:

(١) الفتوى الحموية: ص ٥٢٣ - ٥٢٤، مجموع الفتاوى: ١٠٦ / ٥.

(٢) منهاج السنّة: ٢ / ٨٠.

«قد يراد بالجهة شيء موجود وهو الأمر الوجودي غير الله فيكون مخلوقاً كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السموات.

وقد يراد به ما ليس بموجود وهو الأمر العدمي غير الله تعالى كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم.

ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه كما فيه إثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك، وقد عُلِمَ أن ما ظُمِّرَ موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق سبحانه وتعالى مبادر للمخلوق، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته.

فيقال لمن نفى: أتريد بالجهة أنها شيء مخلوق موجود؟ فالله ليس داخلاً في المخلوقات.

أم تريدين بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن الله فوق العالم. وكذلك يقال لمن أثبت وقال إن الله في جهة: أتريد أن الله فوق العالم أو تريدين به أن الله داخل في شيء من المخلوقات فإن أردت الأولى فهو حق، وإن أردت الثانية فهو باطل...»^(١).

وقال رحمة الله:

«وهكذا التحيز يحتمل معنيين::

(١) العقيدة التدميرية: ص ٤٥، شرح حديث التزول: ص ٧١.

إن أريد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر، لأنه وسع كرسيه السموات والأرض، وإن أريد به أنه مباین للمخلوقات منفصل عنها ليس حالاً في شيء منها فهذا صحيح وهو قول السلف وأئمۃ الستة حيث ذهبوا إلى أن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه^(١).

هذا كلام واضح جلي ينفي هذه الشبهة والتهمة الباطلة ويدفعها، صَدَرَ من شيخ الإسلام ابن تيمية وهو كلام صريح لا غموض فيه، فالعلو ثابت لله تعالى، واللازم باطلة، لأن علو الله سبحانه وتعالى وفوقيته ليست مثل فوقية الشر، حتى تستلزم الحِيَز الجهة، وأن القول بأن العلو يستلزم هذه المعانى إنما نشأ من قياس الخالق على المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وليس معنى كون الله في السماء أن السماء تحتويه أو تحيط به، بل هو سبحانه فوق كل شيء ومحيط بكل شيء ووسع كرسيه السموات والأرض.

وأسوق فيما يلي مناقشة لطيفة لهذه التهمة قدمها الدكتور عوض منصور حفظه الله حيث يقول:

هذه التهمة باطلة في حق الإمام ابن تيمية من وجوه:

- ١ - إن اصطلاحي المكان والجهة مما اصطلاحان بشريان لم يرد بهما كتاب ولا سُنّة فيما يتعلّق بعلو الله سبحانه وتعالى

(١) التدميرية: ص ٤٤.

واستوائه على عرشه، فاصطلح أهل الكلام على أن (المكان) هو ما أحاطت به الجهات، وقالوا عنه (مخلوق) و (محدود) و (محصور)، ولا يمكن أن يكون الله في (مكان)، وكذلك قالوا بالنسبة إلى (الجهة والحد) شيئاً مسالها، فكل ما يتعين (بالجهة) فهو محدود، والمحدود مخلوق وهذا مستحيل في حقه سبحانه.

والرد على هذا الفهم هو: أن المخلوق يتحدد بالمكان والجهة، والمخلوق يحتاج لكي يكون موجوداً إلى مكان وجهاً وجود، أما الله عز وجل، (فليس كمثله شيء) فلا يحتاج لوجوده مكاناً، إذ كان ولا مكان، ولكن لما اقتضت إرادته سبحانه حدوث الكون، اقتضت أن يكون للكون مكان، وأن يكون في جهة السفل والتحت لكونه مربوباً ومخلوقاً، وأن يكون الله عز وجل فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار وحدانيته سبحانه، إذ لا توصف ذاته بفوق أو تحت، ولكن إذا نسبت إلى المخلوقات والكون المخلوق (من جهة المخلوق) لا من جهة سبحانه، فهو سبحانه فوق العرش فوق السماء السابعة، والكون تحته سبحانه، ولا يجوز إطلاق ما يطلق على المخلوق عليه سبحانه !!.

٢ - لقد نطق الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام الأعلام بعلو مكانه سبحانه تصريراً، وابن تيمية واحد من هؤلاء الأعلام، ولم ينفرد بهذا الوصف وحده، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

قول شيخ المفسرين الإمام الطبرى في (جامع البيان م ٣/ ج ٣/ ص ٩):

«وهو العلي على خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه...».

وقال الإمام الدارمي في (النقض على بشر المرىسي ١/ ٩٦):

«قد أينا له مكاناً واحداً، أعلى مكان، وأظهر مكان، وأشرف مكان، عرشه العظيم المقدس المجيد، فوق السماء السابعة العليا..».

وقال الإمام عبد القادر الجيلاني في كتابه (الغنية) عن مجموع الفتاوى (٥/٨٣ - ٨٤) «وهو تعالى بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء».

وقال ابن رشد المالكي في (الكشف عن مناهج الأدلة) ص ٦٦:

«وأما هذه الصفة (يعني القول بالجهة)، فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها حتى نفتها المعتزلة ومتذمرون الأشاعرة.. فقد ظهر أن إثبات الجهة واجب شرعاً وعقلاً».

وقال الإمام القرطبي صاحب التفسير المشهور (٧/٢١٩): «وقد كان السلف الأول، رضي الله عنهم، لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى. كما نطق كتابه، وأخبرت رسليه..) وسنجد أن سلف الأئمة، منذ

عهد النبي ﷺ وحتى أيامنا هذه مجتمعون على إثبات الفوقيه له سبحانه، والتحتية لمخلوقاته..»^(١).

وأمر آخر يجب الانتباه إليه وهو أنه بالتحقيق والاستقراء لا يستطيع قائل أن يثبت أن الإمام ابن تيمية صرّح بالجهة، وإنما يؤخذ عليه أن ذلك لازم لمذهب، فهل لازم المذهب يعتبر مذهبًا؟.

إن العلماء المحققين وتنبيهات السلفيين والخلفيين على أن لازم المذهب ليس بمذهب.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ولازم المذهب ليس بمذهب، ولم يزل المذكور - يعني ابن تيمية - داعية إلى الإيمان بالله تعالى طول عمره»^(٢).

ويقول العز بن عبد السلام في قواعده الكبرى مبيناً أن لازم المذهب ليس بمذهب: «فإن قيل: يلزم من الاختلاف في كونه سبحانه في جهة أن يكون حادثاً قلنا: لازم المذهب ليس بمذهب، لأن المجمسة جازمون بأنه في جهة وجازمون بأنه قديم أزلي ليس بمحدث، فلا يجوز أن ينسب إلى مذهب من يُصرّح بخلافه وإن كان لازماً من قوله»^(٣).

(١) الرحمن على العرش استوى: د. عوض منصور: ٣٠-٣١.

(٢) الرد الوافر: ص ٢٨٣.

(٣) جلاء العينين لآل توسى: ٤٠٩.

والثابت أن الإمام ابن تيمية قال بالعلو والفوقيـة، وهذا ثابت بالنص، أما الفوقيـة فالثابت أنه فسرها بالأمر الوجودي وبالأمر العدمي، ثم أبطل تفسيرها بالمعنى الوجودي وهو الفوقيـة التي يراد بها شيء موجود غير الله فيكون مخلوقاً وقديراً وما ليس بموجود غير الله تعالى، وهو معناها العدمي كما إذا أراد ما فوق العالـي، وقد عـلـم أن ما هناك موجود إلا الخالـق والمخلوق، والخالـق سبحانه مغـاير للمخلوق، فإن أراد بالفوقيـة؛ أنها شيء مخلوق موجود، فالله تعالى ليس داخـلاً في المخلوقـات، وبهذا بطل المعنى الوجودي للفوقيـة^(١).

ومن هنا فالإمام ابن تيمية أثبتـ ما أثـبـتهـ الشـرـعـ منـ أنـ اللهـ تعالىـ فيـ السـمـاءـ وـتـرـجـ المـلـائـكـةـ إـلـيـهـ، وـهـوـ حـيـنـ يـثـبـتـ الـعـلـوـ وـالـفـوـقـيـةـ يـثـبـتـ عـلـوـاـ لـائـقـاـ بـذـاتـهـ لـاـ يـشـبـهـ عـلـوـ الـخـلـائقـ، وـكـذـلـكـ الفـوـقـيـةـ، وـيـنـفـيـ المـشـابـهـةـ وـيـسـتـدـلـ بـقـوـلـهـ تـعـالـىـ: «لـيـسـ كـمـثـلـهـ، شـتـّـ وـهـوـ السـمـيعـ الـبـصـيرـ» [الـشـورـىـ: ١١ـ]، وـيـمـنـعـ قـيـاسـ الغـائـبـ عـلـىـ الشـاهـدـ، وـهـوـ فـيـ هـذـاـ لـمـ يـخـرـجـ عـمـاـ قـالـهـ السـلـفـ بـلـ لـمـ يـخـرـجـ عـمـاـ وـرـدـ فـيـ الـكـتـبـ الـتـيـ يـطـعـنـهـ بـهـاـ الطـاعـنـونـ مـثـلـ كـتـابـ «إـتـحـافـ الـكـائـنـاتـ بـبـيـانـ مـذـهـبـ السـلـفـ وـالـخـلـفـ مـنـ الـمـتـشـابـهـاتـ» للـعـلـامـ السـبـكـيـ رـحـمـهـ اللهـ.

(١) العقيدة السلفية ص ٣٨٤-٣٨٥.

فالسبكي رحمة الله حين يسوق الآية الكريمة من قوله تعالى: «إِنَّمَا تُنَزَّلُ مِنْ فِي السَّمَاءِ» [الملك: ١٦] يقول: «نؤمن بها على المعنى الذي أراده الله سبحانه وتعالى مع كمال التنزيه عن صفات الحوادث والحلول»^(١).

ثم يسوق مذهب الإمام السلفي ابن كثير الذي يسلك مذهب السلف الصالح كالأمام مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين من أن مذهبهم: إماراتها (أي آيات الصفات) كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل»^(٢).

ثم يسوق مذهب الإمام نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رحمة الله: قال: «من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه».

فمن أثبت الله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ونفي عن الله تعالى التفاصيل فقد سلك سبيل الهدى»^(٣).

(١) إتحاف الكائنات للسبكي: ص ٥.

(٢) إتحاف الكائنات للسبكي ص ٦، تفسير ابن كثير: ٣/٤٨٨.

(٣) إتحاف الكائنات: ص ٦.

والإمام ابن تيمية رحمه الله لم يخرج عما قاله الإمام أحمد بن حنبل حين قيل له: الله فوق السماء السابعة على عرشه باطن عن خلقه؟ قال: نعم هو على عرشه لا يخلو شيء من علمه.

فابن تيمية رحمه الله أثبت العلو والفوقية بناءً على ما أثبتته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، وقد ذكرنا مجموعة من النصوص عن أئمة السلف وأكابر العلماء في ذلك.

فإن كان الإثبات يستلزم الجهة، وأنه لم يصرح به، ويمكن الإثبات بدون اللوازم، وكما هو معلوم أن لازم المذهب ليس بلازم، فقد أثبت الإمام أحمد بن حنبل الرؤية بدون لوازمه، وكذلك بعض الأشاعرة يثبتون الرؤية بدون لوازمه من الجهة والحيز والمكان، كما هو المفهوم من مذهبهم^(١)، فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للإمام ابن تيمية في إثباته للعلو والفوقية بدون اللوازم من الجهة والحيز والمكان^(٢).

٥ - اتهامه بالقول بحلول الحوادث في الذات الإلهية:

إن الذي يطلع على ما كتبه الإمام ابن تيمية في سائر كتبه

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي: ص ١٧٣، مقالات إسلاميين: ١/٢٦٥.
مناهج الأدلة لابن رشد في المقدمة للدكتور محمود قاسم، الأصول الخمسة:
ص ٣٣٢، نهاية الإقدام: ص ٣٥٦.

(٢) العقيدة السلفية: ٣٨٨-٣٩١ بتصريف.

وبخاصة كتابه «درء تعارض العقل والنقل» يجده عندما يناقش أهل الكلام، لا يعطي جواباً لأية مسألة كلامية قبل أن يتبيّن ما هو المراد بمصطلحات وضعها الكلاميون، وما هو المقصود منها وما هي مدلولاتها (لأن هذه المصطلحات في رأيه - كالعرض والجوهر والحوادث وغيرها - لم تكن على عهد رسول الله ﷺ، ولم ينزل بها شرع محكم)، ومما قاله في ذلك:

«وإذا كانت هذه الألفاظ [أي المصطلحات الكلامية] مجملة - كما ذكر - فالمحاطب لهم إما أن يفصل ويقول: ما تريدون بهذه الألفاظ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن قبلت، وإن فسروها بخلاف ذلك ردت».

ثم قال:

«إما أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً، فإن امتنع عن التكلم بها معهم فقد ينسبونه إلى العجز والانقطاع، وإن تكلم بما معهم نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً، وأوهموا الجهال باصطلاحهم.. فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا دعوة الناس إلى ذلك، ولو قدر أن ذلك المعنى حق».

وقال أيضاً:

«... وهذا لأن الناس لا يفصل بينهم التزاع إلا كتاب منزل من السماء (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله)، وإذا رُدوا

إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل»^(١).
وطبقاً لقاعدته هذه التي وضعها لنفسه رحمة الله قال في
رده على المتكلمين:

«فمن قال: ليس الرب تعالى مهلاً للحوادث، نقول له: إن
هذا لفظ مجمل لا يقبل على إطلاقه، بل يفسر ويفصل كالتالي:
فإن أريد بهذا النفي المجمل أن الله تعالى ليس مهلاً
للحوادث، أي ليس داخل ذاته المقدسة شيءٌ من المخلوقات
المحدثة فهذا حق.

أو أريد بذلك نفي تجدد وحدوث صفات ذاته فهو أيضاً
حق، لأن صفاته تعالى قديمة أزلية إذ هي صفات كمال، وفقدتها
عيوب، ونقص لا يليق بالإله جل جلاله.

وإن أريد بهذا النفي المجمل - وهو مراد النفا (لما وصف
الله به نفسه ورسوله) نفي وإنكار ما وصف الله تعالى به نفسه، وما
وصفه به رسوله ﷺ، فهو نفي مردود على قائله، لأن المؤمن لا
يخطر بباله أن الله تعالى قد يصف نفسه أو يصفه أعلم الخلق بالله
وهو الرسول ﷺ بكلام يكون ظاهر كفراً يجب تأويلاً ذلك، بل
جميع ما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ، صفات
كمال، ظواهرها التي تليق بجلال الله تعالى تختلف عن الظواهر

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٢٢٩/١.

المشاهدة عند المخلوق كما تختلف ذواته عن ذواتهم»^(١).

وقال رحمة الله:

«فلما حدث هذا القول، وقالت به المعتزلة، وقالوا: لا تحل به الأعراض والحواث، وأرادوا بذلك أن لا تقوم به صفة كالعلم والقدرة، ولا فعل كالخلق والاستواء (والإحياء والإماتة وسائر الأفعال) أنكر أئمة السلف ذلك عليهم كما هو متواتر معروف وهذا لازم لجميع الطوائف التي أنكرته»^(٢).

ولهذا قال الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» [الرحمن: ٢٩] وقوله تعالى: «لَعَلَّ اللَّهَ يُحِدُّ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُراً» [الطلاق: ١]، بأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَسَيْمُ الْبَصِيرُ» [الشوري: ١١]^(٣).

فليس كذاته ذات، وليس كصفاته صفات، وليس كأفعاله أفعال: استواة ونزاولاً الخ^(٤).

من كل هذا يتبين لنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله بريء مما وجهه إليه خصومه وحساده من التهم والافتراءات،

(١) مجموع الفتاوى: ٦/٢٧٣.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٤/٢٤.

(٣) فتح الباري: ١٣/٤٩٦.

(٤) الرحمن على العرش استوى: ٢٨-٣٠.

وهذا الذي ذكرت بعض نماذج لهذه التهم وما أكثر ما يطلق
الحساد من التهم، فما هذه التهم إلا كسحابة صيف سرعان ما
تنقشع أمام أنوار الحقيقة الساطعة، ومن أجمل ما رُد به على التهم
الموجهة لشيخ الإسلام رحمة الله ما قاله ابن فضيل الله لعمري
رحمه الله شرعاً حيث قال:

ولم يكن مثله بعد الصحابة في
علم عظيم وزهد ماله خطأ
يا عالماً بنقول الفقه أجمعها
أعنك تحفظ لاراتٍ كما ذكروا
كم من فتى جاهل غرّ أبنت له
رُشد المقال فزال الجهل والغرر
قالوا بأنك قد أخطأت واحدة
وقد يكون فهلاً منك تُغتفر
ومن يكون على التحقيق مجتهداً
له الشواب على الحالين لا الوزر
عليك في البحث أن تبدي غواضه
وما عليك إذ لم تفهم البقر
قدّفت الله ما قدّمت من عملٍ
وما عليك بهم ذموك أو شكرها^(١)

(١) الشهادة الزكية: ص ٦٧-٦٨.

٥ الخطأ في الاجتهاد في مسائل العقيدة:

قد يظن البعض أنه لا يمكن وقوع الاجتهاد في مسائل العقيدة، وأن من أخطأ في مسألة من مسائل العقيدة فإنه لا يتصور أن يكون معذوراً أو مأجوراً، لأن حديث أجر المجتهد المخطئ لا ينطبق إلا على من اجتهد في مسائل الفقه العملية.

إن هذا التصور في الحقيقة ليس له سند شرعي وأنه لا فرق في العذر والأجر في كل مجتهد ممن هو معذود في العلماء الذين اجتهدوا في مسائل الدين فأخطأوا قبل أن يظهر لهم الحق فيها، وقد أكد شيخ الإسلام عدم الفرق هذا في موضع عدة:

ـ فقال رحمة الله في كلامه على اختلاف اجتهادات الصحابة في المسائل الشرعية:

ـ «وتنازعوا في مسائل علمية اعتقادية، كسماع الميت صوت الحي، وتعذيب الميت ببكاء أهله، ورؤيه محمد صلوات الله عليه ربه قبل الموت، مع بقاء الجماعة والألفة.

ـ وهذه المسائل منها ما أحد القولين خطأً قطعاً، ومنها ما المصيب في نفس الأمر واحد عند الجمهور اتباع السلف والآخر مؤد لما وجب عليه بحسب قوة إدراكه»^(١).

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/١٢٣.

- وقال في كلامه على الاجتهاد في المسائل الأصولية العلمية وغيرها ناقلاً مذاهب المختلفين فيها:

«والقول المحكى عن عبيد الله بن الحسن العنبري هذا معناه: أنه كان لا يؤمن المخطئ من المجتهدين من هذه الأمة لا في الأصول ولا في الفروع، وأنكر جمهور الطائفتين من أهل الكلام والرأي على عبيد الله هذا القول، وأما غير هؤلاء فيقول: هذا قول السلف وأئمة الفتوى كأبي حنيفة والشافعي، والثوري، وداود بن علي وغيرهم، لا يؤمنون مجتهداً مخطئاً في المسائل الأصولية ولا في الفروع، كما ذكر ذلك عنهم ابن حزم وغيره، ولهذا كان أبو حنيفة والشافعي وغيرهما يقبلون شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية ويصححون الصلاة خلفهم.

والكافر لا تقبل شهادته على المسلمين ولا يصلى خلفه، وقالوا هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين أنهم لا يكفرون ولا يفسقون ولا يؤمنون أحداً من المجتهدين المخطئين، لا في مسألة عملية ولا علمية، قالوا: والفرق بين مسائل الفروع والأصول إنما هو من أقوال أهل البدع من أهل الكلام والمعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم، وانتقل هذا القول إلى أقوال تكلموا بذلك في أصول الفقه، ولم يعرفوا حقيقة هذا القول ولا غيره.

قالوا: والفرق بين ذلك في مسائل الأصول والفروع، كما

أنها محدثة في الإسلام لم يدل عليها كتاب ولا سُنة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف الأئمة»^(١).

- ثم يؤكد شيخ الإسلام ما ذهب إليه بقوله:

«وهذا فصل الخطاب في هذا الباب، فالمجتهد المستدل من إمامٍ وحاكمٍ وعالمٍ ونازِرٍ ومفتِّ وغیر ذلك إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه، وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا أتقاه ما استطاع، ولا يعاقبه الله البتة خلافاً للجهمية المجبرة، وهو مصيبة، بمعنى أنه مطيع لله، لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه، خلافاً للقدرية والمعزلة في قولهم: كل من استفرغ وُسْعَه علم الحق، فإن هذا باطل كما تقدم، بل كل من استفرغ وُسْعَه استحق الثواب»^(٢).

- ثم يضرب شيخ الإسلام الأمثلة والنماذج على قوله حيث ذكر رحمة الله:

«والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية كما بسط في غير هذا الموضوع، كمن اعتقد ثبوت شيءٍ لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه:

(١) مجموع الفتاوى: ١٩ / ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٩ / ٢١٦-٢١٧.

مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق لحديث اعتقاد ثبوته.

«أو اعتقد أن الله لا يرى، لقوله: ﴿وَلَمْ مَا سَكَن﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِشَرِّيْ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَجِيْهًا أَوْ مِنْ وَرَائِيْ حِجَاب﴾ [الشورى: ٥١]، كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وإنما يدلان بطريق العموم.

وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرى، وفسروا قوله: ﴿رُؤْجُوْهُ يَوْمَئِذٍ تَأْسِرُهُ * إِلَى رَبِّهَا تَأْطِرُهُ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] بأنها تنتظر ثواب ربها، كما نقل ذلك عن مجاهد وأبي صالح.

أو من اعتقد أن الميت لا يعذب ببكاء الحي، لاعتقاد أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدُ وَازِرَةً وَزِدَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨] يدل على ذلك، وأن ذلك يقدم على رواية الراوي لأن السمع يغلط، كما اعتقد ذلك طائفة من السلف والخلف.

«أو اعتقد أن الميت لا يسمع خطاب الحي، لاعتقاده أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُشْعِعُ الْمَوْقَنَ﴾ [النمل: ٨٠] يدل على ذلك.

أو اعتقد أن الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح، لاعتقاده، أن العجب إنما يكون من جهل السبب، والله منزه عن الجهل.

أو اعتقد أن علياً أفضل الصحابة لاعتقاده صحة حديث الطير، وأن النبي ﷺ قال: «اللهم إثني بأحباب الخلق إليك، يأكل معي من هذا الطائر».

أو اعتقد أن من جَس للعدو وعلمهم بغزو النبي ﷺ فهو منافق، كما اعتقد ذلك عمر في حاطب وقال: دعني اضرب عنق هذا المنافق.

أو اعتقد أن من غضب بعض المنافقين غضبة فهو منافق، كما اعتقد ذلك اسيد بن حضير في سعد بن عبادة، وقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين.

أو اعتقد أن بعض الكلمات أو الآيات أنها ليست من القرآن، لأن ذلك لم يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنهم أنكروا ألفاظاً من القرآن، وإنكار بعضهم: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾** [الإسراء: ٢٣] وقال: إنما هي «ووصى ربك»، وأنكر بعضهم قوله: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَرِّينَ﴾** [آل عمران: ٨١]، وقال: إنما هو ميثاق بني إسرائيل، وكذلك هي في قراءة عبد الله، وإنكار بعضهم: **﴿أَفَلَمْ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ أَمْنَوْا﴾** [الرعد: ٣١] إنما هي: **﴿أَوْ لَمْ يَتَبَيَّنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**، وكما أنكر عمر على هشام بن الحكم، لما رأه يقرأ سورة الفرقان على غير ما قرأها، كما أنكر طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتى جمعهم عثمان على المصحف الجامع..»^(١).

(١) مجمع الفتاوى: ٢٠ / ٣٣-٣٦.

○ نماذج من أحكامه على الفرق والمذاهب الموجودة في عصره:

اتسمت أحكام ابن تيمية رحمة الله على الأشخاص، والمذاهب والفرق، بالعدالة والإنصاف، والتجدد من الهوى، والموازنة بين الحسنات والسيئات، وصدر هذه الأحكام عن علم بأحوال من يتكلم فيهم، ثم التماس الأعذار للمخطئين منهم، ولكنه لا يبخل عليهم بما يجب عليه من القيام بالدعوة والإصلاح، وما لا شك فيه أن هناك تباينً ودرج كبير في الخطأ والانحراف عند الأمة، يبدأ من حافة الكفر ثم يتدرج درجات ليصل إلى درجات الخير والتقوى والصلاح.

وقد ذكرت في فصل أخلاق وسجايا في الحديث عن إنصافه وعدله مع خصومه كلاماً لا يحتاج إلى إعادته في هذا الوطن، ولكن سأذكر نصوصاً واضحة تشهد على عدالته في هذه الأحكام.

وقد وضع شيخ الإسلام رحمة الله ضابطاً في تكفير الفرق - بناءً عليه حكم على بعضها بالكفر وعلى بعضها بعدم الكفر، مع أن جميع الفرق قد يصدر عنها أقوال كفرية - وهو ارتباط الظاهر بالباطن - فمن عُلمَ من هذه الفرق أن باطن مذهب الكفر، ومعاندة الرسول ﷺ حكم عليه بالكفر، ويعلم ذلك من معرفة مقصود مذهبهم.

وهذا يتبيّن من خلال أقوالهم، ومن سبب نشوء فرقتهم، فنجد أنّه كفرٌ لِلفرق التي حقيقة مذهبها تعطيل الصانع، أو إبطال الاحتجاج بالشريعة أو إبطال التكاليف.

أما الفرق التي لا تكون كذلك، أخطأت في عقيدتها فلا تكفر.

- ولذلك فمن ضمن الفرق التي لا يكفرها الخارج، الشيعة المفضلة، والمرجئة، والقدريّة، والمعتزلة، والكلابيّة، والأشاعرة.

- ومن ضمن الفرق التي يكفرها: الفلاسفة، الجهميّة، الباطنية، القدريّة المكفرة، باطنية الشيعة، وباطنية الصوفية أصحاب وحدة الوجود، الإسماعيلية، والرافضة الإمامية الإثني عشرية، والنصيرية أهل الجبل^(١).

ووفقاً لهذا الضابط الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه فإنه يرى أن الشنتين والسبعين فرقة لا تكفر، بل هي في جملة المسلمين، مع تضليلهم وتبعيدهم، وأن الوعيد الوارد فيهم كالوعيد الوارد في أصحاب الكبائر:

(١) التفصيل في بيان هذا طويل وقد أحسن عرضه وذكر نصوص شيخ الإسلام في ذلك الدكتور عبد المجيد بن سالم بن عبد الله الشعبي حفظه الله وزاده علماً وفضلاً في كتابه الماتع (منهج ابن تيمية في مسألة التكفير) فقد عرض فيه المنهج والأدلة بطريقة جيدة فجزاه الله خيراً.

قال رحمة الله في كلامه على أهل البدع:

«وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كُفَّارًا لَمْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ، فَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا قَالَ الْمُؤْمِنُ: رَبِّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْرَانَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ يَقْصِدُ كُلَّ مِنْ سَبَقَهُ مِنْ قَرْوَنَ الْأُمَّةِ بِالْإِيمَانِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَخْطَأَ فِي تَأْوِيلِ تَأْوِلِهِ فَخَالِفُ الْسُّنْنَةَ، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَإِنَّهُ مِنْ إِخْرَانِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ بِالْإِيمَانِ، فَيُدْخَلُ فِي الْعُمُومِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الشَّتَّانِ وَالسَّبْعِينَ فَرْقَةً، فَإِنَّهُ مَا مِنْ فَرْقَةٍ إِلَّا وَفِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ لَيْسُوا كُفَّارًا، بَلْ مُؤْمِنُونَ فِيهِمْ ضَلَالٌ وَذَنْبٌ يَسْتَحْقُونَ بِهِ الْوَعِيدَ كَمَا يَسْتَحْقُهُ عَصَاهُ الْمُؤْمِنِينَ.

والنبي ﷺ لم يخرجهم من الإسلام، بل جعلهم من أمته، ولم يقل: إنهم يخلدون في النار، فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته^(١).

وفي كلامه عن الخوارج قال رحمة الله «.... وَمَعَ هَذَا فَالصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَالْتَّابِعُونَ لَهُمْ بِالْإِحْسَانِ لَمْ يَكْفُرُوهُمْ وَلَا جَعَلُوهُمْ مُرْتَدِينَ، وَلَا اعْتَدُوا عَلَيْهِمْ بِقُولٍ وَلَا فَعْلٍ، بَلْ اتَّقُوا اللَّهَ فِيهِمْ، وَسَارُوا فِيهِمِ السِّيرَةِ الْعَادِلَةِ.

وهكذا سائر فرق أهل البدع والأهواء من الشيعة والمعتزلة وغيرهم، فمن كفَرَ الشَّتَّانِ وَالسَّبْعِينَ فَرْقَةً كُلَّهُمْ فَقَدْ خَالَفَ الْكِتَابَ

(١) منهاج السنة: ٥/٢٤٠-٢٤١.

والسُّنَّة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، مع أن حديث الشتتين والسبعين فرقة ليس في الصحيحين، وقد ضعفه ابن حزم وغيره، لكن حسنها غيره أو صحتها كما صححتها الحاكم وقد رواه أهل السنن وروي من طرق.

وليس قوله: «ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة» بأعظم من قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَبَقُلُونَ سَعِيرًا» [النساء: ١٠]، و قوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُونًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ تُصْلَيْهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» [النساء: ٣٠]، وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار»^(١).

و ضمناً لاعتبار مقياس القرب من المنهج الصحيح ضمن الأمة المسلمة الواحدة يؤكّد شيخ الإسلام اعتبار القرب إلى السُّنَّة كميزان للحكم على الفرق فيقول رحمة الله في كلامه على الروافض:

«ومنهم ظهرت إمهات الزندقة والنفاق، كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم، ولا ريب أنّهم أبعد طوائف المبتدةعة عن الكتاب والسُّنَّة، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسُّنَّة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السنّي إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم أنا سني فإنما معناه لست رافضياً.

(١) منهاج السُّنَّة: ٥/٢٤٧-٢٤٩.

ولا ريب أنهم شر من الخوارج، لكن الخوارج كان لهم في مبدأ الإسلام سيف على أهل الجماعة، وموالاتهم (أي الروافض) الكفار أعظم من سيف الخوارج، فإن القرامطة والإسماعيلية ونحوهم من أهل المحاربة لأهل الجماعة، وهم متسببون إليهم، وأما الخوارج فهم معروفون بالصدق، والروافض معروفون بالكذب، والخوارج مرقوا من الإسلام وهم نابذوا الإسلام.

وأما القدرية المحضرية فهم خير من هؤلاء بكثير وأقرب إلى الكتاب والسنّة، لكن المعتزلة وغيرهم من القدرية هم جهمية أيضاً، وقد يكفرون من خالفهم ويستحلون دماء المسلمين فيقربون من أولئك.

وأما المرجئة فليسوا من هذه البدع المعطلة، بل قد دخل في قولهم طوائف من أهل الفقه والعبادة، وما كانوا يعدون إلا من أهل السنّة، حتى تغليظ أمرهم بما زادوه من الأقوال المغلوطة.

ولما كان قد نسب إلى الإرجاء والتفضيل قوم مشاهير متبعون: تكلم أئمة السنّة المشاهير في ذم المرجئة المفضلة تنفيراً من مقالتهم، كقول سفيان الشوري: من قدم علياً على أبي بكر والشيفيين فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وما أرى يصعد له إلى الله عمل مع ذلك، أو نحو هذا القول، قاله لما نسب إلى تقديم علي بعض أئمة الكوفيين.

وكذلك قول أئب السختياني: من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار قاله لما بلغه ذلك عن بعض أئمة الكوفيين، وقد روى أنه رجع عن ذلك.

وكذلك قول الشوري ومالك والشافعي وغيرهم في ذم المرجئة لما نسب إلى الإرجاء بعض المشهورين.

وكلام الإمام أحمد في هذا الباب جار على كلام من تقدم من أئمة الهدى، ليس له قول ابتدعه ولكنه أظهر السنة وبيئها وذب عنها وبين حال مخالفيها وجاحدتها، وصبر على الأذى فيها لما أظهرت الأهواء والبدع، وقد قال الله تعالى: ﴿وَحَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَنَةً يَهْدُونَ بِأَيْمَنِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا يُغَيِّرُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فالصبر واليقين بهما تناول الإمامة في الدين، فلما قام بذلك قرنت باسمه من الإمامة في السنة ما شهر به وصار متبوعاً لمن بعده، كما كان تابعاً لمن قبله»^(١).

وقال رحمة الله:

«والنجرانية والضرارية وغيرهم يقربون من جهنم في مسائل القدر والإيمان مع مقاربتهم له أيضاً في نفي الصفات، والكلابية والأشعرية خير من هؤلاء في باب الصفات، فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية، وأنتمهم يثبتون الصفات الخبرية

(١) مجمع الفتاوى: ٣٥٦-٣٥٧.

في الجملة، كما فصلت أقوالهم في غير هذا الموضع، وفي باب
القدر ومسائل الأسماء والأحكام.

والكلابية هم أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب،
الذى سلك الأشعري خطته.

وأصحاب ابن كلاب كالحارث المحاسبي، وأبي العباس
القلانسي ونحوهما، خير من الأشعرية في هذا وهذا، فكلما كان
الرجل إلى السلف أقرب كان قوله أعلى وأفضل»^(١).

(١) مجموع الفتاوى: ٣ / ١٠٢-١٠٣.

الفصل الثالث عشر

«ابن تيمية والعلوم الأخرى»

وُصفَّ شيخ الإسلام رحمه الله بالتوسيع في الاطلاع والمعرفة، وتحصيل أغلب ما عرف في عصره من الثقافات والعلوم المتنوعة، وقد ذكرنا سابقاً فصولاً من معرفته لعلوم الفقه وأصوله، والحديث، والتفسير، وعلوم العقيدة والكلام والمنطق، وإمامته في هذه العلوم، ولم تكن هذه العلوم فقط هي كل ما حصل، ولكنه كان واسع الاطلاع أيضاً على علوم أخرى مثل العربية، والتاريخ، وعلوم التربية والسلوك، وسأحاول أن أذكر طرفاً من هذا الاطلاع على هذه العلوم بشيء من الإجمال في هذا الفصل.

أ- ابن تيمية وعلوم العربية:

اعتنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعلوم العربية، فهماً ودرأية، لما تؤديه من عون في معرفة تفسير القرآن وبيان أحكامه، وقد أثني عليه العلماء في هذا الباب ومن ذلك الثناء ما قاله:

الحافظ الذهبي رحمه الله:

«واتقن العربية أصولاً وفروعاً، وتعليلاً واحتلافاً»^(١).

وقال أيضاً: «وله يد طولى في معرفة العربية والصرف والنحو»^(٢).

وقال الحافظ البرزالي رحمه الله:

«ويدرى جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً»^(٣).

وقال ابن الوردي رحمه الله:

«وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي، ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه، ويرع في النحو»^(٤).

○ مدحه لكتاب سيبويه في النحو:

قرأ شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كتاب سيبويه في النحو حتى فهمه، وأثنى عليه ثناءً حاراً حيث قال رحمه الله:

«وليس في العالم مثل كتابه وفي حكمة لسان العرب»^(٥).

(١) شذرات الذهب: ٦ / ٨٢-٨١.

(٢) فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٢.

(٣) فوات الوفيات عن المنجد: ص ٦٢.

(٤) تاريخ ابن الوردي: ٤٠٨ / ٢.

(٥) نقض المنطق: ص ١٧٥.

○ انتقاده على سيبويه:

ورغم إعجابه الشديد بكتاب سيبويه في النحو، وثناءه عليه، إلا أن نظرة الثناء هذه لم تمنعه أن يكشف عما وقع فيه من لبس أو خطأ، وأن يوجه سهام النقد له لما يعتقد أنه أخطأ في، فقد كان لا تأخذ في الحق لومة لائم، وليس عنده مداهنة، وكان مادحه وذامه في الحق عنده سواء.

ولأجل نقده هذا نافره أبو حيان بعدها مدحًا شديداً، وقطعه بسيبه، ثم عاد ذاماً له وصير ذلك ذنباً لا يغفر.

وأبيات أبي حيان قيل فيها: أنه لم يقل أبياتاً خير منها ولا أفحلاً^(١).

وقصة أبي حيان مع ابن تيمية رحمة الله ذكرها الحافظ العلامة ابن كثير رحمة الله حيث قال: «إن أبي حيان تكلّم مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، في مسألة في النحو فقطعه ابن تيمية فيها، وألزمها الحُجَّة، فذكر أبو حيان كلام سيبويه، فقال ابن تيمية: يُفْسُر سيبويه: أسيبويه نبي النحو، أرسله الله به حتى يكون معصوماً؟ سيبويه أخطأ في القرآن في ثمانين موضعًا، لا تفهمها أنت ولا هو»^(٢).

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٩٢/٢.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٣٢، الدرر الكامنة: ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

٥ خصائص مذهبة في النحو والعربية:

وكما هو معروف من شخصية ابن تيمية رحمه الله، واستقلالية تفكيره، ولطول باعه في العلوم كان له منهاجاً خاصاً يتباعه، فمن خصائص منهجه ومذهبه في علوم العربية ما يلي:

١- التعليل والنقد للنصوص اللغوية.

٢ - توجيه معاني القرآن والنظر بدقة في المسائل الخلافية،
مما يدفعه لتمحص آراء المتقدمين وفهم كتبهم ونقدتها، فما وجد
فيها مما يخالف عرف القرآن ومعهوده نقه حتى لو صدر عنمن
أعجب به من النهاة.

٥- استفادة ابن القيم رحمة الله من شيخه في العربية:

تفقه ابن القيم على شيخه ابن تيمية، وأخذ عنه جملة من العلوم، لا بد أن تكون العربية منها، ومن استقراء آثار ابن القيم نلمس ما يفيد أن الرجل قد استفاد من شيخه في جوانب متعددة من علوم العربية:

ومن المسائل التي صرَّحَ بأنَّه سأَلَ شِيخَه أَبْنَ تِيمَةَ عَنْهَا،
وأَخْذَ بِرَأْيِه وَفَضْلَه عَلَى غَيْرِهِ:

- حديثه عن معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٥٠] قال ابن القيم رحمة الله: .

«وسمعت شيخ الإسلام يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن يحكموا بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجة ها هنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق» وذكر نصوصاً بين فيها معنى الحجة وقال: «إذا كانت الحجة اسماً يتحج به من حق أو باطل صح استثناء حجة الظالمين من قوله: «الثلا يكون للناس عليكم حجة» وأبدى ابن القيم إعجابه بهذا التوضيح فقال: «وهذا في غاية التحقيق»^(١).

- وفي تفسير قوله تعالى: **﴿فَسَيِّئَ أَسْمَ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾** [الواقعة: ٧٤] قال ابن القيم: «و عبر لي شيخنا عن هذا المعنى بعبارة وجيبة فقال: المعنى سبع ناطقاً باسم ربك متكلماً به، وكذا: **﴿سَيِّئَ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾** [الأعلى: ١] المعنى: سبع ربك ذاكراً اسمه» وعقب على هذه الفائدة فقال: «وهذه الفائدة تساوي رحلة، لكن لمن يعرف قدرها»^(٢).

ومن المسائل التي انتفع بها حديث ابن تيمية عن معاني الأدوات والحرف، حيث ذكر في تفسير لام العاقبة، قال: «سمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية يقول: «يستحيل دخول لام العاقبة في فعل الله، فإنها حيث وردت في الكلام فهي لجهل الفاعل لعاقبة فعله، كالتقاط آل فرعون لموسى، فإنهم لم يعلموا

(١) بداع الفوائد: ٤/١٧٣.

(٢) البدائع: ١/٩١.

عاقبته، أو العجز عن دفع العاقبة نحو: لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا
لِلْخَرَابِ.

ثم قال: فأما في فعل من لا يعزُّ عنه مثقالُ ذرة، ومن هو
على كل شيء قادر، فلا تكون قط إلا لام كي وهي لام
التعليل^(١).

○ نماذج من آرائه في النحو:

ومن آرائه الكثيرة في النحو وسائل العربية اخترت بعض
هذه النماذج:

- قوله أنه لا يذكر في القرآن لفظ زائد إلا لمعنى زائد حيث
قال رحمة الله:

- فليس في القرآن من هذا شيء، ولا يذكر فيه لفظاً زائداً
لمعنى زائد، وإن كان ضمن ذلك التوكيد، وما يجيء من زيادة
اللفظ في مثل قوله: «فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ» [آل عمران: ١٥٩]
وقوله: «قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيَصِحُّنَّ تَلَمِينَ» [المؤمنون: ٤٠]
وقوله: «قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» [الأعراف: ٣] وقوة اللفظ لقوة
المعنى..^(٢).

(١) ابن القيم وآراؤه النحوية: ص ٩٨ - ١٠٠.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٦/٥٣٧.

وفي قوله تعالى: **﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوفٍ وَسِكْمٌ﴾** [المائدة: ٦] وقول البعض أن الباء زائدة قال رحمة الله: «إذا قيل امسح برأسك ورجلك لم يقتضي إصالة الماء إلى العضو، وهذا يبين أن الباء حرف لمعنى لا زائدة كما يظنه بعض الناس، وهذا خلاف قوله:

معاوي إننا بشر فاسجع

فلسنا بالجبال ولا الحديدا

فإن الباء هنا مؤكدة، لو حذفت لم يختل المعنى، والباء في آية الطهارة إذا حذفت اختل المعنى»^(١).

- الاحتجاج بالحديث النبوي والقياس عليه:

قال رحمة الله في مسألة التوكيد اللغطي:

«قلت: هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ وإن كان كلام العرب وغير العرب، فإن جميع الأمم يؤكدون، إما في الطلب، وإما في الخبر، بتكرار الكلام، ومنه قول النبي ﷺ: «والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم قال: إن شاء الله، ثم لم يغزوهم»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ١٢٩/٢١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٥٣٧/١٦.

- حمل النص القرآني وغيره على الظاهر الذي يوافق المعنى:
يدعو شيخ الإسلام إلى حمل النص على الظاهر وهجر
التكلف والتحمل اللذين يبعدان النص عما يجب أن يكون عليه،
والظاهر عنده هو:

«أما إن أراد بآجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في
عرف سلف الأمة، لا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يلحد في
أسماء الله تعالى، ولا يُقرأ القرآن والحديث بما يخالف تفسير
سلف الأمة وأهل السنة، بل يجري ذلك على ما اقتضته
النصوص، وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف
الأمة، فهذا مصيبة في ذلك وهو الحق»^(١).

ولهذا رد على الذين يقولون بالتقديم والتأخير بأن هذا
خلاف الأصل، لأن الأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا
تغير ترتيبه كما في تفسيرهم لقوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ حَانِشَةٌ *
عَالِمَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةٌ» [الغاشية ٢ - ٤] هو: وجوه خائفة
عاملة يومئذ تصلى ناراً حامية، وعلى أن الظرف (يومئذ) يتعلق
بـ «تصلى» و «خائفة» صفة للوجوه، فيكون قد فصل بين الصفة
وال موضوع»^(٢).

ومن المسائل النحوية التي كان له فيها قصب السبق:

(١) مجمع الفتاوى: ١٣ / ٣٨٠.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٦ / ٢١٨-٢١٧، الحكمة ١٤ / ١٧٥-١٧٤.

- أن الميم المشددة في اللهم: زيدت للتعظيم والتغفيم:

إن الميم هنا بمنزلة الواو الدالة على الجمع فهي من مخرجها حيث قال ابن تيمية: «وجاءت الميم في مثل (اللهم) (إشعاراً) بجميع الأسماء، وذلك لأن حرف الشفة مما كان جاماً للقوة من مبدأ مخارج الحروف إلى منتهاها بمنزلة الخاتم الآخر الذي حوى ما في المتقدم وزيادة كان جاماً لقوى الحروف»^(١).

- أن لو يجوز فيها أن تقع حرفًا مصدرياً:

أجاز شيخ الإسلام أن يُسبك من (لو) وما في حيزها مصدر مؤول، وهي مسألة لم يذكرها أكثر النحويين، وممن أجازها ابن مالك وأبو علي الفارسي والفراء والتبريزي وأبو البقاء العكيري، ولعل أكثر وقوعها حرفًا مصدرياً مقيد بكون (ود) أو (يود) عاملاً في المصدر المؤول منها ومما في حيزها^(٢).

○ ابن تيمية والشعر:

لم يعرف شيخ الإسلام كشاعر، لكنه قال الشعر وبرع فيه، ولم يتهجّه أسلوبياً في كلامه، وأجوبته إلا إذا اضطر لذلك، ولم يُعرف كنحوي لكنه ناقش النحويين وصاحبهم وأفحمهم وتفوق

(١) الحكمة: ١٤/١٩٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/٣٤٩، الحكمة: ١٤/١٩٧-١٩٨.

عليهم، فهو كما قال فيه ابن دقين العيد: «رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه، يأخذ منها ما شاء، ويترك ما شاء».

○ قيمة شعره العلمية:

قال فيه الحافظ الذهبي رحمه الله: «وله نظم قليل وسط»^(١).

○ نماذج من استشهاده بالشعر:

كان شيخ الإسلام يكثر من الاستشهاد بالشعر في المناسبات المختلفة فمن ذلك: أنه كان يتمثل كثيراً بهذا البيت:
أنا المُكَدَّى وَيَنِ الْمُكَدَّى

وهكذا كان أبي وجدي^(٢)

ومن ذلك أنه كان كثيراً ما ينشد:

تَمَوْتُ التَّنْفُوس بِأَوْصَابِهَا

ولم تشک عوادها ما بها

وَمَا أَنْصَفَتْ مَهْجَةً تَشْتَكِي

هواها إلى غير أحبابها^(٣)

وكان يتمثل أيضاً بقول الشاعر:

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٣٩٦/٢.

(٢) مدارج السالكين: ٢٢/٧.

(٣) الراقي بالوفيات: ٥٢٤/١.

وأخرج من بين البيوتِ لعَلَّني
أحدُث عنكِ النَّفْسَ فِي السُّرِّ خالِي^(١)

وكان يتمثل بقول الشاعر:
مَنْ لِي بِمَثِيلِ سَيِّرِكَ الْمُدَلِّلِ
تَمَشِي رُوَيْنِدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ^(٢)

٥ نماذج من نظمه الشعر:

ذكرت في طيات الفصول السابقة نماذج من نظمه للشعر، وذلك في رده على سؤال حول القدر، ومنظومة حول عقيدته، ومنظومة في التضرع والابتهاج إلى الله تعالى، وسأذكر هنا نموذجين آخرين:

- أبيات منظومة في باب الفقه: «أيها أَفْضَلُ الْحَجَّ نَافِلَةُ أَمِ الْصَّدَقَةِ..»، فقد سُئلَ شِيخُ الْإِسْلَامِ
ما ذَيْقَلُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي رَجُلٍ
أَتَاهُ ذُو الْعَرْشِ مَالًا حَجَّ واعْتَمَرا
فَهَزَّ الشَّوْقُ نَحْوَ الْمُصْطَفَى طَرَبَا
الْحَجَّ أَفْضَلُ أَمْ إِيْشَارَةُ الْفَقَرَا
أَمْ حَجَّةُ عَنْ أَبِيهِ ذَاكَ أَفْضَلُ أَمِ
مَاذَا الَّذِي يَا سَادَتِي ظَهَرَا

(١) الرد الواقف: ص ٦٩.

(٢) الرد الواقف: ص ٨٥.

فَأَفْتُوا مُحِبًا لَكُمْ قَذْرَامَ فِذِيَتُكُمْ
وَذِكْرُكُمْ دَائِهٌ إِنْ عَابَ أَوْ حَضَرَا

فأجاب نظماً:

نَقُولُ فِيهِ: بِأَنَّ الْحَجَّ أَفْضَلُ مِنْ
فِغْلِ التَّصَدُّقِ وَالْإِعْطَاءِ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْحَجَّ عَنْ وَالِدِيهِ فِيهِ بِرَهْمَةٌ
وَالْأُمُّ أَسْبَقُ فِي الْبَرِّ الَّذِي ذُكِرَ
لَكُنْ إِذَا الْغَرْضُ خُصَّ الْأَبُّ كَانَ إِذَا
هُوَ الْمُقَدَّمُ فِيمَا يَمْنَعُ الْفَسَرَا
كَمَا إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى صِلَةٍ
وَأَمَّهُ قَذْ كَفَاهَا مَنْ بَرَى الْبَشَرَا
هَذَا جَوَابُكَ يَا هَذَا مُوازَنَةٌ

(١) وَلِيَسْ مُفْتِيكَ مَعْدُودًا مِنَ الشُّعُرَا

- وله نظم في قوله ﷺ: ثلاثة منجيات وثلاث مهلكات،

حيث قال رحمة الله:
عَلَيْكَ بِخَوْفِ اللَّهِ فِي السُّرِّ وَالْجَهَرِ
وَبِالْقَصْدِ لِلْإِنْفَاقِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
وَبِالْعَدْلِ إِنْ تَغْضِبْ إِنْ تَكُ رَاضِيًّا
فَهُنَّ ثَلَاثُ مَنْجِيَاتٍ مِنَ الشَّرِّ

(١) الصحيح من النظم الفصيح: ص ٥٤-٥٥.

وَإِيَّاكَ وَالشَّخْصَ الْمَطَاعَ وَلَا تَكُنْ
 يُمْتَئِنُ بِأَهْوَاءِ فَتَرْجِعُ بِالْخُسْرِ
 وَعَدْ عَنِ الْإِعْجَابِ بِالْأَنْفُسِ إِنَّ
 حِتَّامُ الْثَلَاثِ الْمُهَلِّكَاتِ لَدَى الْحَشْرِ^(١)

ب - علمه بالتاريخ والسير:

إن التاريخ لم يكن من اختصاص ابن تيمية، ولم يتوفر على دراسته كتوفره على درسة العلوم الدينية، ولكن الحافظ الذهبي رحمه الله الذي كان من مؤرخي الإسلام المتبرسين في التاريخ والنقدin له يتحدث عن معرفته بالتاريخ فيقول:

«وَأَمَّا معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب»^(٢).

وقد نقل تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية حادثاً مدهشاً عن علمه بالتاريخ وسعة نظره وحضور ذهنه في كتابه «زاد المعاد» أنه قال:

«ولما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السنة وأعلامها، أظهر طائفة منهم - يعني من اليهود - كتاباً قد عَتَّقُوهُ وزوَّرُوهُ، وفيه: أن النبي ﷺ أَسْقَطَ عن يهود خير الجزية، وفيه:

(١) تذكير النبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب (٢/١٨٧)، الصحيح من النظم الفصيح: ٧٠-٧١.

(٢) العقود الذرية: ص ٢٣.

شهادة علي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، فراج ذلك على مَنْ جَهَلَ سُنَّةَ رسول الله ﷺ ومخازي وسَيِّره، وتوهَّمُوا، بل ظنوا صِحَّته، فَجَرُوا على حُكْمِ هذا الكتاب المزود، حتى أَلْقَيْتُهُ إلى شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - وطلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعِينَ عَلَى تَنْفِيذِهِ، وَالْعَمَلِ عَلَيْهِ، فَبَصَّرَهُ عَلَيْهِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى كَذَبِهِ بِعَشْرَةِ أُوْجَهٍ:

منها: أَنْ فِيهِ شَهَادَةً سَعْدَ بْنَ مَعَاذَ وَسَعْدَ تَوْفِيَ قَبْلَ خَيْرٍ قُطْعَانًا.

ومنها: أَنْ فِي الْكِتَابِ أَنَّهُ أَسْقَطَ عَنْهُمُ الْجُزِيَّةَ، وَالْجُزِيَّةَ لَمْ تَكُنْ نَزَّلَتْ بَعْدَهُ، وَلَا يَعْرِفُهَا الصَّحَّابَةُ حِينَئِذٍ، فَإِنْ نَزَّلَهَا كَانَ عَامَ تَبُوكَ بَعْدَ خَيْرٍ بِثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ.

ومنها: أَنَّهُ أَسْقَطَ عَنْهُمُ الْكُلْفَ وَالسُّخْرَ، وَهَذَا مُحَالٌ، فَلَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ كُلْفٌ وَلَا سُخْرٌ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ، وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ أَعْذَّهُ اللَّهُ، وَأَعْذَّ أَصْحَابَهُ مِنْ أَخْذِ الْكُلْفِ وَالسُّخْرِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ وَضْعِ الْمُلُوكِ الظَّلْمَةِ، وَاسْتَمْرَ الأَمْرُ عَلَيْهَا.

ومنها: أَنَّهُ أَسْقَطَ عَنْهُمُ الْجُزِيَّةَ وَالْجُزِيَّةَ لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ، فَلَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغَازِيِّ وَالسِّيرِ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْفَقَهِ وَالْإِفْتَاءِ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، وَلَا أَظْهَرُوهُ فِي زَمَانِ السَّلْفِ، لَعْنَهُمْ

أنهم إن زَوَّروا مثل ذلك، عرفوا كذبه وبُطْلَانَه، فلما استخفُوا بعض الدول في وقت فتنةٍ وخفاءٍ بعضُ السُّنة، زَوَّروا ذلك، وعَتَّقوه وأَظْهَرُوه، وساعدهم على ذلك طَمْعٌ بعضاً الخائنين لله ولرسوله، ولم يستمرَّ لهم ذلك حتى كشف الله أمره، وبين خلفاء الرسل بطلانه وكذبه^(١).

ج - ابن تيمية وعلم السلوك والتربية:

كان ابن تيمية رحمه الله أحد فرسان الوعظ والإرشاد، وأحد السباقين في ميدان التربية والسلوك والتزكية، فهو عالم متبحر في خفايا النفس وشُؤونها، ومراميها وخبایاها، وأمراضها وعللها.

وهو طبيب معالج يضع الدواء المناسب للداء المناسب، ويصف البَلَسْم الشافي للمرض العضال، ويحذر من الأمراض قبل الوقوع بها، وينبه إلى ضرورة الوقاية وأخذ الحِيَة والحذر قبل التردي في مهاري الْهَلْكَة والفساد.

ويعرض ابن تيمية رحمه الله هذه الأمور بأسلوب جميل أخاذ، مستعيناً بالبراهين الدامغة، والحجج القوية، والأدلة المقنعة معتمداً في أسلوب عرضه على الاستشهاد بالأيات القرآنية،

(١) زاد المعاد: ١٥٣/٣، ابن تيمية للندوي: ١٢٢-١٢٣.

والآحاديث النبوية الواردة في الموضوع، مكثراً منها وشارحاً بعضها، وذاكراً لأقوال السلف الصالح في مواضعها لزيادة وضوح الفكرة وجلائها، ومعلقاً على أفكار الموضوع ومركزاً على ما ترمي إليه الفكرة مع المناقشة والبيان والتوضيح والشرح، وسلطاناً سيف النقد على أهل البدع والضلال، وراداً على أفكارهم ومعتقداتهم، ولا يترك فرصة تناول منهم، وتبيّن زيف دعواهم إلا نقشها وبين القول الفصل فيها.

○ مختارات من آرائه التربوية والمسلكية:

والذى يستعرض تراث شيخ الإسلام رحمه الله سيدجده له آراء كثيرة في التربية، وتهذيب النفس وتزكيتها، وعلاج علل القلوب ومعرفة أسبابها، مما يضعه في مصاف كبار المربين، ولمن يحب أن يتعرف على المزيد من آرائه التربوية فليراجع كتبه التي جمعها في هذا الباب مثل التحفة العراقية، أمراض القلوب وشفاؤها، الاستقامة، والرسائل التي عالج فيها كثيراً من هذه الموضوعات الموجودة ضمن المجلد العاشر من مجموع الفتاوى، وجامع الرسائل والمسائل وفيها الكثير الذي يلغي الصورة المرسومة في أذهان البعض عن شدته في آرائه، وسيجد فيها ثروة كبيرة في هذا الباب، ومن تلك الأراء التربوية والمسلكية تسوق هذه النماذج.

١ - القلب هو الأصل:

«القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى لك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلل البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب».

وقال أبو هريرة: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده.

وقول أبي هريرة تقرير، وقول النبي ﷺ أحسن بياناً، فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيار قد يعصون ملوكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ: «إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد».

إذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قليلاً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، لهذا قال من قال من

الصحابة عن المصلي العابث لو خشع قلب هذا الخشت
جوارحه.

فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله
ورسوله أحب إليه مما سواهما^(١).

٢- المحبة وعوامل صلاح القلب:

«القلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يلتذ، ولا يسر، ولا
يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه،
ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم
يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبد ومحبوب
ومطلوب، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة
والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل له إلا بِإعانة الله له، لا يقدر
على تحصيل ذلك له إلا الله... ولو سعى في هذا المطلوب ولم
يكن مستعيناً بالله، متوكلاً عليه، مفتقرأً إليه في حصوله لم يحصل
له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من
حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبد، ومن حيث هو
المؤول المستعان به المتوكل عليه، فهو إِلَهٌ لَّا إِلَهَ لَهُ غَيره، وهو
رب لا رب له سواه»^(٢).

(١) مجمع الفتاوى: ٧ / ١٨٦-١٨٧.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٠ / ١٩٤-١٩٥.

٣- بناء الخير وأصله:

«بناء الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قوله: ﴿فَأَعْبُدُهُ وَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وفي قوله: ﴿عَبَدْتُكُمْ وَإِلَيْهِ أُسْبِبُ﴾ [هود: ٨٨] وفي قوله: ﴿فَأَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَأَعْبُدُهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم، أو عملاً لأجلهم، ويجعل همه ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك، والعلم له بكل محبوب، ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك»^(١).

٤- مفهوم التقوى:

«التقوى أن يعمل الرجل بطاعة الله، على نور من الله، يرجو رحمة الله، وأن يترك معصية الله على نور من الله، يخاف عذاب الله.

ولا يتقرب إلى الله إلا بأداء فرائضه، ثم بأداء نوافله قال تعالى: «وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» كما جاء في الحديث الصحيح الإلهي الذي رواه البخاري^(٢).

(١) مجمع الفتاوى: ١٠ / ٦٥٩ - ٦٦٠.

(٢) مجمع الفتاوى: ١٠ / ٤٣٣.

«والتقوى: هي الاحتماء عما يضر بفعل ما ينفع، فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمال الضار، فلا يكون صاحبه من المتقين».

وأما ترك استعمال النافع والضار - وهذا لا يكون - فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان متغذياً بما معه من المواد التي ت慈悲ه حتى يهلك، ولهذا كانت العاقبة للتقوى والمتقين، لأنهم المحتمون بما يضرهم، فعاقبهم الإسلام والكرامة، وإن وجدوا ألمًا في ابتداء متناول الدواء والاحتماء كفيل الأعمال الصالحة والمكرورة، قال تعالى: «كُتُبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُثُرٌ لَّكُمْ» [البقرة: ٢١٦]، ولا بد لكل مؤمن في أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به، فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يلزم بها قلبه، ويحدث بها نفسه، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله^(١).

٥ - حلاوة الإيمان:

«فالإيمان إذا باشر القلب وحالته بشاشته لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس

(١) مكارم الأخلاق: ٤٣-٤٤.

متفاوتون في ذوقه، والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه وإذا خالطت القلب لم يسخنه، قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَفْضِلِ اللَّهُ وَرَبَّهُتِهِ فَإِنَّكَ فَلَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يوحنا: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَا تَنَاهُمُ الْكَتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزَلَ إِلَيْكُمْ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنَكِّرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزَلَتْ سُورَةٌ فَيَنْهَمُ مَنْ يَشْوُلُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَإِنَّمَا الَّذِينَ مَأْمُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُنَّ يَسْتَبِشُونَ﴾ [التوبه: ١٢٤] فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشر هو الفرح والسرور، وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

واللذة أبداً تتبع المحبة، فمن أحب شيئاً ونال ما أحبه وجد اللذة به، فالذوق هو إدراك المحبوب، واللذة الظاهرة كالأكل مثلاً: حال الإنسان فيها أنها يشتهي الطعام ويحبه، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حيثيته لذته وحلاؤته، وكذلك النكاح وأمثال ذلك. وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تتبع لمحبته، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام - إنما يُحب لأجل الله، ويُطاع لأجل الله، ويُتبع لأجل الله»^(١).

(١) مجمع الفتاوى: ١٠ / ٦٤٨ - ٦٤٩.

٦ - الافتقار إلى الله:

«العبد مفتقر دائمًا إلى التوكل على الله والاستعانة به، كما هو مفتقر إلى عبادته فلا بد أن يشهد دائمًا فقره إلى الله، و حاجته في أن يكون معبوداً له، وأن يكون معيناً له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجاً من الله إلا إليه»^(١).

«العبد كلما كان أذل الله وأعظم افتقاراً إليه وخصوصاً له، كان أقرب إليه وأعز له، وأعظم لقدره، فأعظم الخلق أعظمهم عبودية الله.

وأما المخلوق فكما قيل: احتاج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره..

فأعظم ما يكون العبد قدرأً، وحرمة عند الخلق إذا لم يبحج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم، كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به.

ولهذا قال حاتم الأصم: لما سئل: فيم السلام من الناس؟ قال: أن يكون شيفك لهم مبذولاً، وتكون من شيفهم آيساً»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ١/٥٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ١/٣٩.

٧ - أَنْفَعُ شَيْءٍ لِلْعَامَةِ وَالخَاصَّةِ:

«أَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ: الْعِلْمُ بِمَا يُخْلِصُ النُّفُوسَ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَاتِ، وَهُوَ إِتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ، وَالْحَسَنَاتِ مَا نَدْبَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ: مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالصَّفَاتِ، وَمَا يَزِيلُ مَوْجِبَ الذُّنُوبِ: الْمُصَاصَبُ الْمُكَفَّرَةُ، وَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ مِنْ: هُمْ، أَوْ حَزْنٌ، أَوْ أَذْى، فِي مَالٍ، أَوْ عَرْضٍ، أَوْ جَسْدٍ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ، لَكِنْ لَيْسُ هَذَا مِنْ فَعْلِ الْعَبْدِ»^(١).

٨ - جَمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ:

«وَجَمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصُلَّ مِنْ قَطْعَكَ بِالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالْاسْتَغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالْزِيَارَةِ لَهُ، وَتَعْطِي مِنْ حَرْمَكَ مِنْ: الْتَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ، وَتَعْفُو عَنْ ظُلْمِكَ: فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عَرْضٍ، وَبَعْضُ هَذَا وَاجِبٌ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحِبٌ.

وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وُصِّفَ بِهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ مَطْلُقاً، هَكُذا قَالَ مُجَاهِدُ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: (كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنُ)، وَحَقِيقَتُهُ الْمُبَادِرَةُ إِلَى امْتِثَالِ مَا يُحِبِّهُ اللَّهُ تَعَالَى - بَطِيبُ نَفْسٍ وَانْشَرَاحُ صَدْرٍ)^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: ٦٥٧/١٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٦٥٨/١٠.

٩ - الصبر الجميل:

«والصبر الجميل صبر بلا شكوى، قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَيْتِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبَرْ جَيِّلٌ وَاللَّهُ أَمْسَتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث وعليك التكلاّن» ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، اللهم إلى من تكلني؛ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليٌ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل عليٌ غضبك، لك العتبى حتى ترضى».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَيْتِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف، بخلاف الشكوى إلى المخلوق، قرئ على الإمام أحمد في مرض موطه أن طاوساً كره أنيين المريض، وقال: إنه شكوى، فما أَنْ حتى مات، وذلك أن المستكى طالب بلسان الحال، إما إزالة ما يضره، أو حصول ما

ينفعه، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَأَنْصَبْ﴾ [الشرح: ٦ - ٧] وقال عليه السلام
لابن عباس: «إذ سألت فاسأله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور، وترك
المحظور، وصبره على ما يصبه من القضاء المقدور، فال الأول: هو
القوى، والثاني: هو الصبر^(١).

١٠ - أصول العبادة:

«العبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان: أحدهما: ألا يعبد
إلا الله.

والثاني: ألا يعبد بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع،
قال تعالى: ﴿فَنَّ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلَ عَهْلًا صَنِيلَحًا وَلَا يُشْرِكُ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَهَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿بَلَّ مَنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزُنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا فَمَنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَأَتَبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَأَنَّهُ أَلَّهُ إِبْرَاهِيمَ
حَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

(١) مجمع الفتاوى: ١٠ / ٦٦٦ - ٦٦٧.

فالعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، والحسنات هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، فما كان من البدع في الدين التي ليست مشروعة فإن الله لا يحبها ولا رسوله، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح، كما أن من يعمل ما لا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات، ولا من العمل الصالح.

وأما قوله: «ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» قوله: «أسلم وجهه لله» فهو إخلاص الدين لله وحده، وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وقال الفضيل بن عياض في قوله: «لبيلكم أيكم أحسن عملاً» [تبارك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»^(١).

١١ - الزهد النافع المشروع:

«الزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله، هو الزهد

(١) مجمع الفتاوى: ١٧٢ - ١٧٤ / ١٠.

فيما لا ينفع في الآخرة، فاما مَا ينفع في الآخرة، وما يستعن به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنما يراد لأنَّه زهد فيما يضرُّ، أو زهد فيما لا ينفع، فاما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز».

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله، وكل ما صده عن ذلك، فإنه ضار لا نافع، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة الله وطاعة له، وإن أدى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة، فقد فعل ما ينفعه، وما لا ينفعه ولا يضره^(١).

١٢ - الفتن النفسية والاحتراز منها:

«وكذلك ما يؤذى الإنسان به في فعله للطاعات كالصلوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم من المصائب، فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتي به بدون ذلك، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات: من رئاسة، وأخذ مال، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك، فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما.

فإن في «العلم» و «الإمارة» و «الجهاد» و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و «الصلوة» و «الحج» و «الصوم» و «الزكاة»

(١) مجموع الفتاوى: ٥١١/١٠.

من الفتنة النفسية وغيرها ما ليس في غيرها، ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه، كما تطمع مع القدرة، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة، بخلاف حالها بدون القدرة، فإن الصبر مع القدرة جهاد، بل هو من أفضل الجهاد، وأكمل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب.

الثاني: أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك.

الثالث: أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني، كمن خرج لصلاة، أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل إليه من ذلك، فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور، وترك المحظور، بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح، ولهذا كان يونس بن عبيد يوصي بثلاث يقول: لا تدخل على سلطان - وإن قلت: أمره بطاعة الله - ولا تدخل على امرأة - وإن قلت: أعلمها كتاب الله ولا تضع أذنك إلى صاحب بدعة - وإن قلت: أرد عليه. فأمره بالاحتراز من أسباب الفتنة، فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن، ولا يسلم⁽¹⁾.

(1) مجمع الفتاوى: ١٠ / ٥٧٥ - ٥٧٧.

٥ نماذج من أحكامه على بعض كتب السلوك:

فقد سئل رحمة الله عن «إحياء علوم الدين» و «قوت القلوب» الخ...

فأجاب:

«أما «كتاب قوت القلوب» و «كتاب الإحياء» تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر والشكر، والحب والتوكل، والتوحيد ونحو ذلك، وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقاً، وأبعد عن البدعة مع أن في «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في «الإحياء» من الكلام في «المهلكات» مثل الكلام على الكبر، والعجب والرياء، والحسد، ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارت المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه.

و «الإحياء» فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين أليسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على «أبي حامد» هذا في كتبه، وقالوا: مرضه «الشفاء» يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة.

وفيه أحاديث وأثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم.

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب المواقف للكتاب والسنّة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنّة، ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف في اجتهاد الناس وتنازعوا فيه^(١).

○ ابن تيمية وتطبيقه لقواعد السلوك الإسلامي على نفسه:

كان الشيخ رحمة الله متسامحاً، مطبقاً لأخلاقيات الإسلام في العفو وتصفية قلبه من الأحقاد والضغائن، ومن ذلك عفوه عن العلماء الذين آذوه حين أرادوا قتلهم، ودفاعه عنهم بقوله: «إذا قتلت هؤلاء، لا تجد بعدهم مثلهم، وحين ذكره السلطان بأنهم سبق لهم أن آذوه، وأرادوا قتله مراراً أجاب «من آذاني فهو في حل»^(٢).

ولم يتمالك أحد خصومه الألداء الشيخ ابن مخلوف رحمة الله قاضي المالكية نفسه من الاعتراف بأنه لم ير مثل ابن تيمية، لأنه حرض عليه فلم يقدر عليه، فلما قدر عليهم جميعاً صفح عنهم وحاجج عنهم^(٣).

(١) مجموع الفتاوى: ١ / ٥٥٢-٥٥١.

(٢) البداية والنهاية: ١٤ / ٥٤.

(٣) البداية والنهاية: ١٤ / ٥٤.

وهذا صحيح لأننا لو عقدنا مقارنة بين حديث هذا القاضي بعد أن زال عنه الصولجان ووصف ابن تيمية له في السجن، لظاهر الفرق بين الرجلين، إذ يقول عنه:

«ابن مخلوف ولو عمل مهما عمل - والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه.. فإني أعلم أن الشيطان ينزع بين المؤمنين، ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين»^(١).

إذا ما انتقل من هذه العلاقة الخاصة مع خصمه القاضي ونظر إلى المسلمين بعامة، فإنه يدعو لهم بالخير في دينهم ودنياهم، ويحب أن يراهم وقد اختفت من بينهم بذور الفتنة والخلاف، فلن «ينقطع الدور وتزول الحيرة، إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبية، وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجاً منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

وكذلك فهو يعلن أنه لا يهدف إلى تحقيق عرض دنيوي، ولا يطمع في تحقيق منصب، أو جاه، أو الحصول على أموال، فإنه، لم يقبل من أحد شيئاً «من النفقات السلطانية، ولا من الكسوة، ولا من الإدارات ولا غيرها، ولا تدنس بشيء من ذلك»^(٣) فهو يسعى إلى تحقيق ما يحبه الله ورسوله، فإذا ما قابلته

(١) محنة الشيخ: ص ٥٩.

(٢) محنة الشيخ: ص ٥٩.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/٤٣.

بعض الخصومات، فإنه لا ينظر إليها نظرة شخصية خاصة، وإنما يتحمل كل الصعاب في سبيل هدفه العام الذي عاش من أجله ولذلك يقول:

«نحن إنما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون، ليس لنا غرض مع أحد، بل نجزي بالسيئة الحسنة، وننفع وننفر»^(١).

ويقول أيضاً محدثاً في نفسه: «إِنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ أَنِّي مِنْ أَطْوَلِ النَّاسِ رُوحاً وَأَصْبَرْ عَلَى مِنْ الْكَلَامِ، وَأَعْظَمُ النَّاسَ عَدْلًا فِي الْمُخَاطَبَةِ لِأَقْلَلِ النَّاسِ»^(٢).

وكان حياة الشيخ برهاناً على صدق قوله، واقتaran العلم بالعمل، فحين تمكن من خصومه كما بینا لم يصبهم بأذى، وحين سجنه السلطان الناصر أصبح ذلك دليلاً على أنه لم يحاول أن يستمد قوته من السلطان، بل كان يعلن ما يراه حقاً، ولو كان يستمدتها من الناصر ما ألقاه في غيابة السجن، فكان هذا هو الدليل القاطع على أنه متبع لا تابع، وحر سيد نفسه، وليس نفسه ولا فكره ملكاً لأحد»^(٣).

(١) محدثة الشيخ: ص ٥٨.

(٢) محدثة الشيخ: ص ٤٤.

(٣) محمد أبو زهرة: التعريف بابن تيمية ص ٦٩٠ من كتاب أسبوع الفقه الإسلامي.

وبهذا يتبيّن أنّ شيخ الإسلام رحمه الله كان مطبقاً لقواعد السلوك الإسلامية التي عالجها بالبحث والدراسة^(١).

○ - من عباراته وأقواله الجامعية:

إن الله عزّ وجلّ حين يؤتي الحكمة من يشاء من عباده، ويجمع له من العلوم والمعارف ما لم يجتمع لسواه، وتنسّع دائرة معرفته لتشمل ما كان متعارفاً عليه من ثقافة عصره وعلومه، ومن كان حاله الانشغال بالعلم والعبادة والزهادة والجهاد والعطاء، سيوفّقه الله تعالى ويسدد لسانه فينطق ببيان الحكمة، والعبارات الجامعية المعبرة عن المراد، والتي تستحق أن تخطّ وتكتب بماء الذهب كما يقولون، وتوضع نصب أعين الناس للعمل بها فمن تلك العبارات المشهورة عنه قوله: «ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جئي وبيستاني في صدري^(٢)، إن رحت فهني معي لا تفارقني! إنّ حبّسي خلوة، وقتلني شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة» المحبوس من حبس قلبه عن ربّه تعالى، والمأسور من أسره هواه^(٣).

(١) ابن تيمية والتصوّف: الدكتور مصطفى حلمي: ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) إيمانه وعلمه.

(٣) الوابل الصيب: ٧٠.

وقد اخترت مجموعة من عباراته وأقواله الجامعة في ثلاثة أبواب، هي: العلم، والعبادة والزهد والسلوك، والتوحيد ومعرفة الله تعالى، وهذه العبارات تستحق كل الاهتمام والتقدير.

١ - عبارات جامعة في باب العلم:

قال رحمة الله:

- «العلم إما نقلٌ مصدق، وإما استدلالٌ محقق»^(١).
- «الإمامنة في الدين موروثة عن الصبر واليقين»^(٢).
- «العلم إما نقلٌ مصدق عن معصوم، وإما قولٌ عليه دليلٌ معلوم، وما سوى هذا فإما زيفٌ مردود، وإما موقوفٌ لا يعلم أنه بَهَرْجٌ ولا مَنْقُود»^(٣).
- «لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، وللذة التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان به»^(٤).
- «من فارق الدليل ضلٌّ السبيل، ولا دليلٌ إلا بما جاء به الرسول»^(٥).

(١) مجموع الفتاوى: ٣٤٤ / ١٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٨ / ١٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٣٢٩ / ٣١ - ٣٣٠.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٤ / ١٦٢.

(٥) مفتاح دار السعادة: ١ / ٣٠٤.

- «حصل العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم، فالجسم يحس بالطعام والشراب وكذلك القلوب تحس بما يتنزل إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابها»^(١).
- «لا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر»^(٢).

٢ - عبارات جامعة في العبادة والزهد والسلوك:

قال رحمة الله:

- «العبد دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفاء، وكل من هذين من الأمور الالزمه للعبد دائمًا، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وألائه، لا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفاء»^(٣).
- «الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل: هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه»^(٤).
- «أولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور»^(٥).

(١) مجموع الفتاوى: ٤١ / ٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤٠ / ١٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٨٨ / ١٠.

(٤) مدارج السالكين: ٢ / ١٦٠.

(٥) مجموع الفتاوى: ١ / ٨٥.

- «العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب»^(١).
- «فالقلب لا يصلح، ولا يُفلح، ولا يلتذ، ولا يُسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه، وحبه، والإناية إليه»^(٢).
- «الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس»^(٣).
- «إن في الدنيا جنة^(٤) من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»^(٥).
- «من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية»^(٦).
- «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»^(٧).
- «العبادة مبنها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابداع»^(٨).

(١) مدارج السالكين: ١/٥٢٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٠/١٩٤.

(٣) نقض المنطق: ص ١٨٦.

(٤) يعني جنة الإيمان.

(٥) الوابل الصيب: ٩، المدارج: ٢/١٢٢.

(٦) المدارج: ١/٥٣١.

(٧) المدارج: ٢/١٠٥، مجموع الفتاوى: ١٠/٢٩.

(٨) مجموع الفتاوى: ١/٨٠.

- «الذنوب سبب للضر، والاستغفار يزيل أسبابه»^(١).
- «شهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر»^(٢).
- «نفسك تطلب منك الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة»^(٣).
- «الإنسان في الدنيا يجد في قلبه بذكر الله، وذكر محامده وألائه وعبادته من اللذة ما لا يجده في شيء آخر»^(٤).
- «المقصود بالزهد: ترك ما يضر العبد في الآخرة، وبالعبادة: فعل ما ينفع في الآخرة، فإذا ترك الإنسان ما ينفعه في دينه، وينفعه في آخرته، فعل من العبادة ما يضر فقد اعتدى وأسرف، وإن ظن ذلك زهداً نافعاً، وعبادة نافعة»^(٥).
- «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها، فلا ينصح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائها، ويدفعها بصلابته، وإن فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقرأ للشبهات»^(٦).

(١) مجموع الفتاوى: ٢٥٥ / ١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٥٦ / ١٠.

(٣) مدارج السالكين: ٣١٣ - ٣١٤ / ٢.

(٤) منهاج السنة: ٣٨٩ / ٥.

(٥) المدارج: ١٠ / ٢، مجموع الفتاوى: ٤٥٨ / ١٤.

(٦) مفتاح دار السعادة: ٤٤٣ / ١.

٣ - عبارات جامعة في التوحيد ومعرفة الله تعالى:

قال رحمة الله:

- «كمال التوحيد: أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً، بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء، يحب من أحب وما أحب، ويبغض من يبغض وما أبغض ويوالى من والى، ويعادي من عادى، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه»^(١).
- «الرب سبحانه يريده لك، ولم ينفعك بك، لا ليتسع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضره، فتدبر هذا»^(٢).
- «الرب يحب أن يحب»^(٣).
- «المحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم، وعدل العاذل بل ذلك يغريه بملازمة المحبة»^(٤).
- «الرضا والتوكيل يكتنفان المقدور، التوكيل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية»^(٥).

(١) المدارج: ٤٨٥/٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١/٣٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ١/٥٤.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٠/٦١.

(٥) مجموع الفتاوى: ١٠/٣٧.

- «كل نعمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل»^(١).
- «كلما قويت محبة العبد لمولاه، صغرت عنده المحبوبات وقلّت) وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت»^(٢).
- «لن يخاف الرجل غير الله، إلا لمرض في قلبه»^(٣).
- «لا تكون عبادة إلا بحب المعبدود، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود، وهو سبحانه المعبدود المحمود»^(٤).
- «تحقيق قول «لا إله إلا الله» هو إثبات تأليه القلب لله جنباً خالصاً، وذلاً صادقاً، ومنع تأليهه لغير الله، وبغض ذلك وكراهته، فلا يعبد إلا الله، ويحب أن يعبد، ويبغض عبادة غيره، ويحب التوكل عليه وخشيته ودعاه، ويبغض التوكل على غيره، وخشيته ودعاه»^(٥).

وغير هذه العبارات كثير في مصنفاته رحمة الله، وهذا هو نهاية المطاف مع علوم ابن تيمية بالنسبة لنا، وليس نهاية بالنسبة له فقد كان كنزًا لا نظير له رحمة الله.

(١) مجموع الفتاوى: ١٠ / ٨٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ١ / ٩٤.

(٣) الأعلام العلية: ص ٧٤.

(٤) منهاج الاستقامة: ٥ / ٤٠٤.

(٥) مجموع الفتاوى: ١٤ / ٢٨٠.

الفصل الرابع عشر

كيف نتعامل مع أهل العلم

إن لأهل العلم والأمراء بالمعروف، وأهل الفضل مكانة خاصة، فقد أثني الله تعالى على أهل العلم ورفعهم مكاناً علياً، وجعلهم في مرتبة بعد مرتبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء، والمبليغين عنهم ما أنزل الله إليهم، والمؤتمنون على الرسالة المنزلة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأكرمهم بأن جعل الملائكة في السماء، وأهل الأرض والسموات يستغفرون لهم لتعليمهم الناس الخير والمكارم.

لأجل هذا كله فلا بد لطالب العلم، والساubi إلى تهذيب نفسه بالخير، أن يتعلم بعض الضوابط التي لا بد منها لتحسين التعامل مع أهل العلم، فلا يسيء إلى نفسه حين يسيء الأدب مع أهل العلم، الذين كان لهم سابقة في الخير والفضل والصلاح، فخصائص الطين في ابن آدم هي التي تجعله مرتكباً للأخطاء، وممترضاً للزلل، وأهل العلم والعلماء بشر لا بد لهم أن يقعوا في الأخطاء أو الذنوب، بقصد أو بغير قصد، ولكن لمكانتهم التي اختصهم الله تعالى بها، فإن هناك مجموعة من الضوابط والموازين

التي لا بد لطالب العلم أن يعرفها ويلتزم بها عند نظره إلى أخطاء العلماء.

أ- طالب العلم بحاجة إلى توعية وتنبيه:

إن طالب العلم أحوج ما يحتاج إلى التوعية والتنبيه بمخاطر الطريق، حتى يتقي مصادر ومنعطفات قد تودي به إلى الهاك، من حيث يظن أنه يحسن وهو يسيء، وحتى لا يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْجُذُوا عِبَادِي مِنْ دُرُّرِي أَوْلَيَّةً إِنَّا أَعْنَدَنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ تُرْلَا * قُلْ هَلْ نُنَتِّشُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْنَلَا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَخْسِبُونَ صُنْعَاهُ» [الكهف: ١٠٢ - ١٠٤]، فطالب العلم سائر في طريق الآخرة، فعليه أن يحسن العمل حتى يرى النتيجة الحسنة، يقول الإمام ابن القيم رحمة الله:

«السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين، قوة علمية، وقوة عملية، فالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويتجنب أسباب الهاك، ومواطن العطب، وطرق المهاك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد، والمتألف، ويعثر به من الأحجار والشوك، وغيره، ويبصر بذلك

النور أيضاً، أعلام الطريق. وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين، أعلام الطريق ومعاطبها.

والقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، إن السير هو عمل المسافر وكذلك السائر إلى ربه، إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر الغابر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح..»^(١).

ب - ضوابط وموازين للتعامل مع العلماء:

ومن أجل توعية وتنبيه طالب العلم، والساير في درب الآخرة، أسوق هذه الضوابط والموازين التي تحكم تعامله مع أهل العلم، وتوجه مساره التوجيه الصحيح، حتى يعرف خطوات سيره بوضوح، فلا يتغىّر في سيره، ولا يكتو به جواد هواه، لأن طالب العلم يجب أن يكون على الهمة، وخير ما يرفعه ويتحقق له المأمول ما جاء في قول أحد الصالحين.

«لا يتحقق كمال الإنسان إلا بهمة ترقيه، وعلم يبصره وبهديه، فبهما تتحقق مراتب السعادة والفلاح».

فهمة طالب العلم لا ترضى بالدون من الأمور، وإنما تقتصر في بعض الأوقات، فإذا حثت سارت، ومتى رأى من نفسه عجزاً

(١) طريق الهجرتين: ٢٣١.

فليسأل المنعم، أو كسلاً فليسأل الموفق، فلن ينال خيراً إلا بطاعته.

ولأجل المحافظة على الهمة عالية، والقلب نظيفاً طيباً، كانت هذه الضوابط والموازين ولذلك فتدبرها بعين قلبك قبل أن تراها بعين رأسك، واقرأها فإن وجدت خيراً فاعمل به، ولكن تأني في الحكم عليها سلباً لثلا تفقد خيراً لو تمهلت قليلاً لناته.

١ - الكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق. وإن لم تترك فيها، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تقوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الإسلام والظلم.

ذلك أن العدل نظام كل شيء، وإذا أقيمت أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن صاحبها من أهل الدين، من خلاف، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم. وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»^(١).

(١) مجلة الحكمة: عدد ٩ / ص ٢٨

وقال رحمة الله: «ومعلوم أننا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل لا بظلم وجهل، وإن العدل واجب لكل أحد، وعلى كل أحد في كل حال، والظلم محرماً مطلقاً لا يباح بحال قط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُنَّكُمْ شَنَاعاً قَوْمٌ عَلَىٰ أَلَا تَقْدِلُوا أَعْدَلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَأَنَّقُوا﴾ [المائدة: ٨] وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف بمن يبغض مسلماً بتأويل وشبهة أو بهوى نفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه»^(١).

- والعبرة عند الذهبي رحمة الله كثرة المحسن، وذلك حين لاحظ أن الغلاة في كل مذهب يفتقدون ميزان العدل في التعامل مع الآخرين، فهو يرى أن العدل هو ميزان الشريعة يجب أن يتبعى هذا الميزان حتى لأهل البدع والأهواء، ما داموا موحدين من أهل القبلة، فيجب أن يعدل في الحديث عنهم بذكر خيرهم، ويندموا بما عليه من الشر فقال رحمة الله:

«قد ماجت بهم الدنيا وكثروا، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبياً إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع

(١) منهاج السنة: ١٢٦/٥.

والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائع، وإنما العبرة كثرة المحاسن...»^(١).

٢ - التجرد من الهوى:

كان التجرد من الهوى وسيبقى من الأسباب التي تجعل الحكم صائباً، أو قريباً من الصواب، وقد حذر الله تعالى في كتابه من اتباع الهوى لأنه يضل عن سبيله تعالى، ولو كان من كان، وحين يقع الإنسان أسير الهوى، فإن الموازين تقلب وتتغير المفاهيم، فيصبح الحق باطلأ، والباطل حقاً بمجرد فساد القلب وانتكاس الفطرة.

وإلى هذه النقطة أشار شيخ الإسلام حيث قال:

«ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين، أو محبة المواقفين لا يدل على صحة القول ولا فساده، إلا إذا كان بهدى من الله، بل الاستدلال بذلك الاستدلال، اتباع للهوى بغير ما أنزل الله».

ومتبوع الهوى لا بد أن يقوده هواه إلى الظلم والعدوان، بحسب القدرة والاستطاعة لمن خالقه ولم يوافقه، وربما يعادى من له علم ودعوة إلى الله، ويقف في وجهه صاداً عن الحق، كما كان اليهود يفعلون ذلك، ثم تجده يرمي من خالقه بالألقاب المنفرة التي تخالف أمر الله ورسوله، لينفر الناس عن قبول كلامه وسماع

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٥-٤٦.

نصائحه، وإن كان يدعو إلى **السنة** ويرغب فيها، يفعل ذلك ابتغاء الفتنة والتفرقة، ويزعم في ذلك أنه مصلح وفي سبيل المصلحة المohoومة، وإن في ذلك دفع الفساد عن الناس ويريد لهم الخير، كما قال فرعون لقومه: **﴿ذَرْنَّنِي أَقْتُلُ مُوسَىٰ وَلَيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾** [غافر: ٢٦]، وهكذا تقلب الموازين والقيم، ويصبح المفسد في نظر الناس مصلحاً، والمصلح للدين مفسداً، فيقع شر عريض، وبلاء مستطير.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«صاحب الهوى يعميه الهوى ويصممه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه ولا يرضى لرضى الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه وبهواه، ويغضب إذا ما حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك منه شبهة دين: إن الذي يرضى له ويغضب له أنه **السنة** وأنه الحق وأنه الدين، وإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحسن دين الإسلام، ولم يكن مقصدته أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه أو طائفته أو الرياء، ليعظم هو وبشى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً، أو لغرض من الدنيا لم يكن الله ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، فكيف إذا كان الذي يرى الحق وال**سنة** هو كنظيره معه حق وباطل و**سنة** وبدعة، ومع خصمه حق وباطل و**سنة** وبدعة».

ولأجل اتباع الهوى نشأت الفتن والخلافات بين الناس،
وفي بيان ذلك يقول رحمة الله:

«فإن أكثرهم - أصحاب المقالات الفاسدة - قد صار لهم
هوى في ذلك، أن يتصرّ جاههم أو رياستهم، وما ينسب إليهم لا
يقصد أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله الله، بل
ينصبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معدوراً لا يغضّب الله
عليه، ويرضون عنمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيء القصد ليس له
علم أو حسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده
الله ورسوله، ولا يذموا من ذم الله ورسوله، وتصير مواطتهم
ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»^(١).

٣ - الخطأ سُنة البشر:

ولأن العلماء والفقهاء من البشر، فلا بد من وقوعهم في
الأخطاء أيضاً، ولا تزال سُنة الله جارية في ذلك، وما من فقيه إلا
وله فتاوى شاذة يعجب المرء منه، وكأن الله تعالى شاءت قدرته
ذلك يستدل البشر على أن العصمة لله وحده، فلذلك ينبغي أن لا
يقلد العالم في خطأه وزله، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمة الله:
«أما العالم فلا ينبغي أن يقلد فيما زل فيه، إذ أن الدين لا
يؤخذ بالخطأ».

(١) مجلة الحكمة: عدد ٢٩/٩ .٣٢، ٣٢، ٣١، ٣٠.

وأن العالم قد ينزل ولا بد، إذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة المعصوم.^(١).

○ لا يترك العالم لزلته:

ولما كان كل ابن آدم خطاء، وأن ليس بمعصوم إلا من عصم الله من أنبيائه، لذا كان من المعلوم في أبواب العلم، وأقوال السلف أنه ما من إمام إلا وله زلات واضحة، أرادها الله تعالى حيث يثبت الصواب من جهة أخرى، ولهذا كرر شيخ الإسلام الذهبي هذه القاعدة عند إيراد الجرح والتعديل لكتير من الأئمة، ومنها ذكره لقول أبي موسى المديني:

«أشار بهذا إلى أنه قل إمام إلا وله زلة، فإذا ترك لأجل زلة ترك كثير من الأئمة، هذا لا ينبغي أن يفعل»^(٢).

كما أن وجود الزلة لأي عالم لكي يتواضع، لأنه يعتقد أنه مهما بلغ من العلم والفضل فسوف يقع في الخطأ، وهذا من حكمة الخالق عز وجل، وحتى لا يؤخذ العلم من شخص واحد معين، أو أن يقدس شخص ما، مهما بلغ من العلم والزهد، وأن يتوجه المسلمون دوماً نحو المنبع الصافي، والمورد العذب، وأن يكون استسقاء العلم في كل زمان ومكان من القرآن الكريم والستة

(١) أعلام الموقعين: ٢/١٧٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠/٨٨.

المطهرة، كما أن الاقتداء لا يكون إلا بالمصطفى ﷺ حتى يكون الخير مستمراً في أمتة حتى قيام الساعة^(١).

○ لا يسلم من الخطأ أحد منبني آدم:

ولما كان الخطأ صفة لاصفة فيبني الإنسان، ولا ينجو منها أحد مهما بلغ مرتبة من العلم والدين، ولو نجا منها أحد لنجا منها أصحاب رسول الله ﷺ الكرام، وهم خير القرون على وجه الأرض، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الخطأ والوقوع فيه بتأويل أو بغير تأويل.

والسيد كما قيل من عدت هفواته وسقطاته، فهذا أقرب من غيره إلى الصواب.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«فأما الصديقون والشهداء والصالحون، فليسوا بمعصومين وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيّبون وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطأوا فلهم أجر على اجتهادهم وخطئهم مغفور لهم».

وبعض المبتدعة يرى أن الخطأ والإثم والذنب أمران متلازمان، فإذا أخطأ المجتهد ولو بتأويل سائغ، فإنه آثم، ولكن أهل السنة والجماعة يرون أن المجتهد مأجور، والقول قد يكون

(١) مسافر على طريق الدعوة: ص ١٤٠.

مخالفاً للنص الصريح وفاعله معذور، لأن المخالفة بالتأويل لم يسلم منها أحد من أهل العلم، يقول النبي ﷺ. إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر».

وهنا يبيّن ابن تيمية رحمه الله قاعدة شريفة يجب التنبه لها:..

«وهو أن ما يصدر من بعض من له علم ودين من الشطحات والأقوال المخالفة للشرع، قد يكون مسلوب العقل أو مجتهداً مخططاً اجتهاداً قولياً أو عملياً، فلا ينفع والحالة هذه ولا يتابع عليها فيما هو مخالف لشرع الله، يقول:

«وهذا فيما يعلم من الأقوال والأفعال أنه مخالف للشرع بلا سبب، كالشطحات المأثورة لبعض المشايخ، كقول ابن هود: إذا كان يوم القيمة نصبت خيمتي على جهنم، وكان الشبلي يحلق لحيته، ويمزق ثيابه حتى أدخلوه المارستان مرتين».

ثم قال: «جماع هذا أن هذه الأمور تعطى حقها من الكتاب والسنّة في الخبر والأمر والنهي ووجب اتباعه ولم يلتفت إلى من خالفه كائن من كان، ولم يجز اتباع أحد خلاف ذلك، كما دل عليه الكتاب والسنّة وإن جماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته، وأن الرجل الذي صدر منه ذلك يعطى عذرها حيث عذرته الشريعة، بأن يكون مسلوب العقل، أو ساقط التمييز، أو مجتهداً، أو مخططاً اجتهاداً قولياً أو عملياً، أو مغلوباً على ذلك، الفعل أو الترك، بحيث لا يمكنه رد ما هو فيه من الفعل المنكر بلا ذنب فعله، ولا

يمكّنه أداء ذلك الواجب بلا ذنب فعله، ويكون في هذا الباب نوعه محفوظاً، بحيث لا يتبع ما خالف الكتاب والسنّة، ولا يجعل ذلك شرعاً ولا منهاجاً، بل لا سبيل إلى الله ولا شرعة إلا بما جاء به الرسول ﷺ.

وأما الأشخاص الذين خالفوا بعض ذلك على الوجه المتقدمة فيغذرون، ولا يذمون ولا يعاقبون، فإن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله وأفعاله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

ويفرق شيخ الإسلام بين المخالف للمسائل الاعتقادية المعلومة من الدين بالضرورة فهو لا ونحوهم يبيّن لهم الحق، فإن أعرضوا عنه وجب الإنكار عليهم بحسب ما جاءت به الشريعة من اليد واللسان والقلب، وبين المخالف للمسائل الفرعية التي هي موارد الاجتهاد، والتي تنازع فيها أهل الإيمان والعلم، فهذه قد تكون قطعية عند بعض من تبيّن له الحق فيها، لكن لا يلزم الناس بما بان له، ولم يبيّن لهم، فهذا قد يسلم له ويكون صاحبه معذوراً، وقد لا يسلم له حاله فلا يكون معذوراً، بل آثماً، فقد تكون هذه المسائل اجتهادية، فهذا تسلیم لكل مجتهد بذلك وسعه في الوصول إلى الحق، ومن قلده في ذلك وتابعه على طريقته لا ينكر ذلك عليه^(١).

(١) مجلة الحكمة: ٩ / ٣٧ - ٣٩.

○ رب العزة يتجاوز عن الخطأ:

إن الله عزّ وجلّ قد تجاوز عن خطأ المجتهد سواء في المسائل العلمية أو العملية، لعلمه بأن الخطأ جار على البشر، والتهديد بالعقاب يعطل عملية الاجتهاد التي لا بد منها لأمور المعاش والمعاد ولذلك جرت المسامحة لكل مجتهد.

«ولو كان قد أخطأ خطأً مخالفًا للكتاب والسنّة، ولو عوقب هذا لعوقب جميع المسلمين، فإنه ما منهم من أحد إلا وله أقوال اجتهاد فيها، أو قلد فيها وهو مخطئ فيها، فلو عاقب الله المخطئ لعاقب جميع الخلق، بل قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ..﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيات، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أنَّ الله استجاب هذا الدعاء»، ولما قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنَّنَا سَيِّئَاتٍ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال تعالى: «قد فعلت»، وكذلك في سائر الدعاء، وقال النبي ﷺ: «إنَّ الله تجاوز لأمتِي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».

فالمفتي والجندي والعامي إذا تكلموا بالشيء بحسب اجتهادهم، اجتهاداً أو تقليداً قاصدين لاتباع الرسول بمبلغ علمهم لا يستحقون العقوبة بإجماع المسلمين، وإن كانوا قد أخطأوا خطأً مجمعاً عليه..»^(١).

(١) مجموع الفتاوى: ٣٧٨/٣٥.

٤ - أعرف الحق تعرف أهله:

إن العاقل ينظر دائماً إلى الحق، ثم ينظر بعد ذلك إلى القول نفسه، فإن كان حقاً قبله ورضيه لنفسه سواءً كان فاعله مبطلاً أو محقاً، ويحرص على انتزاع الحق ولو من لسان إبليس، فإن الحكمة ضالة المؤمن ينشدتها من كل أحد، فإن وجدها فهو أحق بها.

وبناءً على هذا الكلام فإن أقدار الرجال تقادس بمقدار الاقتراب أو الابتعاد عن المبادئ والشريعة باعتبارها عقيدة التوحيد البعيدة كل البعد عن الشرك، أما أن تقادس المبادئ بالرجال، فذلك من أفكار أهل الجاهلية، وأصحاب المبادئ الأرضية، أما أهل التوحيد فقد قالوا على لسان سيد العقلاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«أعرف الحق تعرف أهله» «أعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال» وبناءً عليه فإن هذه القاعدة ستبقى هي الأساس التي يقادس عليها الناس، والأصل الذي يرجعون إليه، ومن الظلم بل من التجني أن نجعل أقوال رجال وأحواله هي الميزان الذي نقيس عليه الشرع، فما وافق أقواله من نصوص الشرع قبلناه وإلا فلا.

يقول ابن القيم رحمه الله:

«اتخاذ أحوال رجال بعينه بمنزلة نصوص الشارع، ولا

يلتفت إلى أقوال من سواه، بل ولا إلى نصوص الشرع إلا إذا وافقت نصوص قوله، فهذا والله هو الذي اجتمعت الأمة على أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة».

ولذلك من العدل والإنصاف أن نقبل الحق من أي كان، طالما أنه متطابق وموافق لما جاءت به الشريعة الغراء في الكتاب والسنّة، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمة الله:

«والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني - فضلاً عن الروافض - قوله فيه حق أن نتركه، بل نرد ما فيه من باطل، دون ما فيه من الحق».

ويقول أيضاً رحمة الله:

«وليس مما أمر الله به رسوله، ولا مما يرتضيه عاقل أن نقابل الحجج القوية، بالمعاندة والجحود، بل قول الصدق والتزام العقل لازم عند جميع العقلاة، وأهل الإسلام أحق بذلك من غيرهم، إذ هم - والله الحمد - أكمل الناس عقولاً، وأتمهم إدراكاً، وأصحهم ديناً، وأشرفهم كتاباً، وأفضلهم نبياً، وأحسنهم شريعة»⁽¹⁾.

(1) مجلة الحكمة: ٣٥/٩، ٤٠-٤١.

٥ - خلاف العلماء فيما بينهم لا يذهب بالآلفة والمحبة:

إن التنازع بين أهل العلم والفضل أمر جار، ولا يخرجهم عن الفضل لأسباب كثيرة، ولم يسلم من النزاع حتى صحابة رسول الله ﷺ، ولكن خلافهم وتنازعهم في أمور الشرع لم يقدّهم إلى الخصومة، ولا أدى بهم إلى الكراهة، ولكنهم حافظوا على الآلفة والمحبة بينهم، لأن مقصدهم جمیعاً كان تبیان الحق، والوصول إلى الخیر، مع النیة الخالصة لله تعالى.

وفي ذلك يقول شیخ الإسلام ابن تیمیة رحمة الله:

«وقد كان العلماء من الصحابة والتابعین ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَزَّلُمُ فِي شَيْءٍ فَرِدُواهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُلُّمُ تُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحَسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وكانوا يتنازرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، معبقاء الآلفة والعصمة، وأخوة الدين، نعم من خالف الكتاب المستعين، والسنّة المستفیضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع»^(١).

وقال ابن القیم رحمة الله:

«إن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان، وقد تنازع الصحابة في كثير من

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/١٧٢.

مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيماناً» فإذا كان الصحابة قد جرى بينهم تنازع في الأحكام ولم يخرجهم عن الألفة والمحبة، فما جرى بين بقية علماء الأمة أكثر، فالأصل أن لا يخرج التنازع في الأحكام القلوب إلى مرحلة من الكراهة والقطيعة ما نرى في أيامنا هذه».

ذلك ما قاله الليث بن سعد في رسالته إلى الإمام مالك رحمة الله تعالى حيث قال: «وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيّب على ربيعة من ذلك، فكتبتما من المواقفين، فيما أنكرت تكرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بلي، وفضل مستعين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة..»^(١).

٦ - إياك والتعصب والتقليد في الخطأ، فإن عوّقه وخيمة:

«وطالما أننا عرفنا أن العلماء يتنازعون، ويخطئون، فعلى طالب العلم أن لا يقلد العالم في خطئه، ولا يتّعصب لذلك الخطأ فيغلق على عقله وسائل التفكير الصحيح، فيحرم بذلك خيراً كثيراً، ولينا بنفسه عما جرى بين الأئمة والعلماء من خلاف وتنازع، لأنّه إن شغل نفسه بذلك أضاع جهده، وصرف وقته دون طائل، وضيّع على نفسه سبل الاستفادة.

(١) أعلام الموقعين: ٣/١٠٩.

وفي ذلك يقول العلامة السبكي رحمه الله:
«وينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع
الأئمة الماضين، وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا
أتي ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وحسن الظن
فدونك، وإنما فاضرب صفحًا عما جرى بينهم، فإنك لم تخلق
لهذا، فاشتغل بما يعنك، ودع ما لا يعنك».

ولا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى
بين السلف الماضين، ويقضي لبعضهم على بعض»⁽¹⁾.
وهذا هو الأصل في تصرف طالب العلم مع علماء الأمة،
فالغاية هي أن يستغل بما يعنيه، ويستغني عما لا يعنيه ففي ذلك
الأجر والثواب، وفي عكسه الفتنة والبلاء.

فإن لم يلتزم طالب العلم بهذا، وأقحم نفسه في ميدان
الانتصار لهذا أو لهذا من العلماء، ونصب نفسه قاضياً يقضي
لأحدهم على الآخر دون أن تتوفر فيه مؤهلات ذلك، فإن ذلك
سيسوقه إلى أن يهضم الآخرين حقوقهم، ويرى محاسنهم
مساوية، ويصبح همه الوحيد التقاط الأخطاء، وتتبع القبائح،
والانتصار للذات، وبذلك يكون قد أقحم نفسه في ميدان تمزيق
الأمة، وتفتيت وحدتها، وتفريق كلمتها، وما أروع ما قاله الإمام
الشاطبي رحمه الله في هذه المسألة حيث قال:

(1) طبقات الشافعية لابن السبكي: ٣٩/٢، قاعدة في الجرح والتعديل: ٦١-٦٢.

فيينا نحن نتبع المحسن صرنا نتبع القبائح، فإن النفوس مجبرة على الانتصار لنفسها ومذاهبتها وسائر ما يتعلق بها، فمن غض من جانب صاحبه، غض صاحبه من جانبه، فكان المرجع لمذهبه في هذا الوجه غاضباً من جانب مذهب، فإنه تسبب في ذلك، كما في الحديث: «إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه.. يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه» فهذا من ذلك، وقد منع الله أشياء من الجائزات لافتقارها إلى الممنوع.. فالترجح بما يؤدي إلى افتراق الكلمة وحدوثبغضاء ممنوع..»^(١).

ومما يزيد البلاء، ويقطع سبل الإصلاح ورجوع المودة، ما يقوم به المتعصبو من طلبة العلم طعنهم وتعقبهم لرأي الخصم الذي نصبووا أنفسهم لعدائه، والانتصار لخصمه، مما يزيد الانحراف ويوسع شقة الخلاف، فيصعب على العلماء المتلطفين إصلاح ما انفتح نتيجة للجهل والتعصب، وفي ذلك يقول الغزالي رحمة الله:

«أكثر الجهالة إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق، حين أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقر والازدراء، فثارت في بواطفهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في

(١) المواقفات: ٣٦٤ / ٤

قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها».

٧- كيف نتعامل مع خطأ العالم أو زلته:

على طالب العلم أن يلزم الحذر أمام زلة العالم، وأن يتحوط كثيراً في التعامل مع أخطائه، فقد علمنا أن الزلة والخطأ من طبيعة البشر، ولذلك فعلينا كطلبة علم أن نحسن الظن، ونضبط انفعالاتنا تجاه أخطاء العلماء، فلا نجعل من الأخطاء والنقائص والعيوب مجالاً للاقتداء، ولتحقيق هذا الحذر علينا أن نتعامل معها على النحو التالي:

○ الخطأ لا يوجب التنقيص:

إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، لا سيما المكثرين منهم. وما يشغب بهذا ويفرح به للتنقيص إلا متعالماً «يريد أن يُطِّبَ زُكاماً، فَيُحِدِّثُ به جذاماً».

نعم ينبه على خطأ، أو وهم وقع لإمام عمر في بحر علمه وفضله، لكن لا يثير الرهج عليه بالتنقص منه، والحط عليه فيفتر به من هو مثله»^(١).

(١) حلية طالب العلم: بكر أبو زيد: ص ٥٨.

فالخطأ يعرف إذن للتصويب لا للتنقيص، وللتوجيه والتنبيه لا للعيب والتشويه.

○ لا تقلد العالم في زلته:

إن زلة العالم ليست موضع الاقتداء، لأن مواطن الخير وموافقة الشرع هي موطن القدوة. والأصل في طالب العلم إذا عرف زلة العالم أن يتبع القاعدة التالية وهي:

«زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليداً له.. كما أنه لا ينبغي أن يُنسبُ صاحبها إلى التقصير أي: إذا بذل غاية وسعه واجتهاده - ولا أن يشنع عليه، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفه بحثاً، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين»^(١).

وهذا هو الصواب عند السلف رحمهم الله في التعامل مع أهل العلم، فتمسك به أخي طالب العلم، وغض عليه بالنواخذ.

○ تعامل مع الخطأ بعدل وإنصاف:

وقد ذكرت ضمن قاعدة الكلام في أهل العلم يجب أن يكون بعلم وعدل، وأن تُعرف لهم مكانتهم وفضلهم وسابقتهم، وأن لا تُضيع حسناتهم، وأن لا يبخسوا أشياءهم ولنعلم «أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه

(١) المواقف للشاطبي: ٤/١٧٠.

يتحمل له ما لا يتحمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث... وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم، إن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى أنه ليختلج داعي عقوبته على إساءاته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة، ما قيل:

إذا الحبيب أتى بذنب واحد

جاءت محسنه بآلف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً

فأفعاله اللاتي سررن كثير^(١)

٨ - التماس الأعذار بالأسباب:

يتعرض الإنسان - ومنذ طفولته - إلى تركيبة متشابكة من العوامل والمؤثرات التي تؤدي إلى تكوين مجمل خصائصه الذاتية، ومن هذه العوامل مجموعة من الخصائص الفطرية كالذكاء والموهبة، وقابلية الذاكرة، والاستيعاب اللغوي، وسرعة الإدراك، والقدرة العددية، ونظائرها، وكذلك مجمل الخصائص والقدرات

(١) مفتاح دار السعادة: ١/١٧٦.

الأالية كدقة التحكم، وتوقيت رد الفعل، وسرعة الاستجابة وأشباه ذلك، ومجمل الخصائص الإبداعية كالتفكير التباعدي، والتقويم والإدراك، وأشباه ذلك.

ويضاف إلى الخصائص الفطرية مجموعة العوامل البيئية كالحضارة والبداوة، وحياة المدينة والريف، والغنى والفقير، والعلم والجهل، وطريقة تربية الوالدين.

ثم يأتي دور العوامل الاجتماعية كنمط الحياة، والعزلة والخلطة، وهل للشخص أشقاء أم لا، وطبيعة أساتذة كل مادة خلال حياته الدراسية، ثم بعد ذلك المجموعة المتشابكة من العوامل المكتسبة من تأثيره بالمحيط والأفراد والأجواء والعائلة، والثقافة الذاتية ونوعها وكميتها، ثم طوارئ الحياة كالفتنة والزواج والطلاق والمشاكل السياسية وطبيعة البلد، وغير ذلك مما يشكل إحصاءً صعبه واضحة، والإنسان بعد ذلك كله نتيجة لمثل هذه المؤثرات في خصائصه وصفاته وقدراته.

إن إدراك هذه الحقيقة يجعل المنصف يعذر أخطاء، وعيوب أهل الفضل والأكابر، كما أنه لا يبالغ في مدحهم والثناء على عبقريتهم، فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجد كل هذه الأسباب ليختص الإنسان بخصائص ومميزات وموهاب معينة، ولا بد للناظر لميزات كل إنسان أن يسارع إلى التماس العذر له عند رؤية بعض النقائص، لأن المنظور إليه إنسان قد تعرض لأسباب

النقص، فكم من قائد ملهم يفقد الخطابة والكتابة لعجز فطري، وغير ذلك مما يمكن القياس عليه، ويعذر به عن النقص عند أهل الفضل والمعروف، رغم أن هذا ليس تبريراً يمنع أهل المعروف من الاستزادة من الخير، والصعود في سلم المعروف، والارتقاء في المعالي، ودفع النقائص، وقبول النصائح، ولكنها حقيقة حياتية يجب أن لا تهمل في النظر إلى الناس^(١).

٩- الأئمة الثقات لا يقبل فيهم أقوال الجارحين:

واعلم أخي طالب العلم أنار الله بصيرتي وبصيرتك باتباع الحق، أن الأئمة الثقات لا يقبل فيهم جرح الجارحين، وتعامل معهم على أساس عدالتهم، وعلى هذا كانت أقوال العلماء الثقات العاملين، ولا يغرنك أن بعضهم قد خرج عن هذه القاعدة، فلا تتبعه على خطأ، فالमبدأ هو المعامل به وليس أفعال الأشخاص:

وفي ذلك يقول ابن عبد البر رحمه الله تعالى:

الصحيح في هذا الباب أن من ثبتت عدالته، وصحت في العلم إمامته، وبيان ثقته وبالعلم عناته، لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببيان عادلة، تصح بها جرحته على طريق الشهادات^(٢).

(١) مسافر على طريق الدعوة: ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) قاعدة في الجرح والتعديل: ص ١٣-١٤.

○ قال السبكي رحمه الله:

«الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته، وكثير مادحوه ومزكوه، ونَدَرَ جارحوه، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه، من تعصب مذهبي أو غيره، فإنما لا نلتفت إلى الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة، وإنما فلو فتحنا هذا الباب، وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه، لما سلم لنا أحد من الأئمة، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعون، وهلك فيه هالكون»^(١).

وقال رحمه الله:

«.. أن الجارح لا يُقبلُ منه الجرح، وإن فسّره في حق من غالبٍ طاعاته على معاصيه، ومادحوه على ذاميه، ومزكوه على جارحيه، إذا كانت هناك قرينة يشهد العقل بأنَّ مثلها حاملٌ على الورقة في الذي جرَحَه من تعصُّبٍ مذهبِي، أو منافسة دنيوية، كما يكون بين النظَرَاءِ، أو غير ذلك»^(٢).

وقال ابن جرير الطبرى رحمه الله تعالى:

«لو كان كُلُّ من أُدْعِيَ عليه مذهب من المذاهب الرديئة، ثبَّتَ عليه ما أُدْعِيَ عليه، وسقَّطَتْ عدالتُه، وبطَّلَتْ شهادتُه بذلك، للزم تَرْكُ أكثر مُحَدِّثي الأمصار، لَأَنَّه ما منهم - أحدٌ - إلا وقد

(١) قاعدة في الجرح والتعديل: ص ٩-١٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣.

نسبة قوم إلى ما يُرَغَّبُ به عنه، ومن ثبتت عدالتُه لم يقبل فيه الجرح، وما تُسقط العدالة بالظن»^(١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

«كُلُّ رَجُلٍ ثَبَّتَ عَدَالَتُهُ، لَمْ يُقْبَلْ فِيهِ تَجْرِيْخُ أَحَدٍ، حَتَّى يُبَيِّنَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِأَمْرٍ لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَ جَرْحِهِ»^(٢).

١٠ - خذ من العلماء صوابهم واترك خطأهم:

ولما كانت غايتك أخي طالب العلم أن تصل إلى الحق، وتنجو به في عرصات القيامة، فلا يضرك أنه تأخذه من أي من العلماء المرشدين، فإن كل إنسان محاسب يوم القيمة عما يقوم به وما يقوله في الدنيا، ولن يضره أخطاء الآخرين إذا نجى بنفسه يوم القيمة، فعليك أخي طالب العلم أن تستفيد من العلماء بمقدار ما ينفعك في آخرتك، وما يضرك عيب الأئمة الكبار إذا أرشدوك إلى الحق والخير، وما يضرك ما فيهم من نقص إذا أبعداوك عن الشر، فأنت حينئذ مثل من (... يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه، لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سبع النار بالجهل بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع، فالحكمة ضالة

(١) هدي الساري: ١٥٢-١٥١.

(٢) تهذيب التهذيب: ٧/٢٧٣.

المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ويقتلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان..)^(١) :

١١- لا تشم بآخطاء العلماء فتفتضح ويشمت الناس بك:

إن طالب العلم لا يفرح بأخطاء أهل العلم، فالسابقون كانوا يقولون حين سئلوا عن آداب المناقضة، ولم لا ينتظرون مع غيرهم، فقال قائلهم: كان أحدهنا إذ تناظر مع صاحبه، يدعو الله تعالى أن ينطق صاحبه بالحق، فإذا فعل فرح له مناظره» أما الخلف الذين جاؤوا بعدهم فإن أحدهم أشد ما يكون فرحاً إذا أخطأ صاحبه، فيشمت به ويظهر عيوبه ومثاليه.

فطالب العلم حين يعرف نفسه وما عنده من جوانب
القصور الكثيرة سينشغل بها عن غيره، فمن العيب بل من العار
أن يرى القشة في عين صاحبه، ولا يرى جذع الشجرة في عينه،
وإن من رأى عمله عرضة لكل آفة ونقص رأى تفوق غيره عليه،
وخشى على نفسه.

«ولا يكمل هذا المعنى إلا بأن تربأ بنفسك عن تعبير المقصرين، فلعل تعيرك لأخيك بذنبه أعظم ذنبًا من ذنبه، وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كسرته

١) إحياء علوم الدين: ٥٠ / ١

بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإذراء على نفسه، والخلص من مرض الدعوى والكبير والعجب، ووقفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، أفعى له وخير من صولة طاعتك، وتكثر بها، والاعتداد بها والمنة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله، وما أقرب هذا المدل من مقت الله، فذنب تذل به لديه أحب من طاعة تدل بها عليه، وأنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله عز وجل من زجل المسبحين المدللين، ولعل الله أسفاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر..»^(١).

ج- كيف تكون نظرة الخصوم إلى العلماء:

إن أي عالم من العلماء، وخاصة الأئمة الكبار والعلماء الذين يؤثرون في واقعهم سوا جهون تعاملأً خاطئاً معهم في أقوالهم وأفعالهم، فمن متغصب لهم إلى درجة تكاد تصل بهم أو بمناهجهم إلى العصمة، ولهذا يأخذ هذا المتغصب كل كلامهم على أنه حقائق مسلمة، ويدعيات لا تقبل المناقشة، ومنهم متغصب ضدهم، فهو معرض في الحديث عنهم، متهم في نيته

(١) تهذيب مدارج السالكين: ص ١٢٠.

ضدhem، يقبل على مؤلفاتهم وبحوثهم بهدف تصيد الأخطاء وتضليلها واتهامهم نتيجة لذلك في عقائدهم ودينهم ودنياتهم وأفكارهم وحياتهم.

وكلتا النظرتين لا تصدر عن منهج إسلامي سديد، بل النظرة التي تتفق مع منهج الإسلام الأصيل في النظر والتقويم، هي النظرة التي تزن الأمور بمنهج عادل متزن، فلا إفراط ولا تفريط، ولا شطط فيها ولا تقصير، يقدر أصحابها كلام العلماء ولا يقدسونه، ويعرضون كلامهم على الحق بما وافقه أخذوا به وتبينوه، وما خالفه تركوه مع احترام صاحبه وتوقيره، ودون أن يكبروا الأخطاء إلى درجة التغطية على الصواب الكثير.

ومن أهم الأخطاء التي وقع بها بعض المسلمين في تعاملهم مع كلام العلماء والنظرة إليه، والتي قادتهم وبالتالي إلى سلسلة من الأخطاء الأخرى من سوء الفهم والتأويل، والاتهام والتنقيص، وإثارة الشبهات والاتهامات حول بعض القضايا التي يجدون فيها أو في تأويل أو تفسير يتوافق مع أهوائهم، وبالتالي جعلتهم يخرجون بنتائج خاطئة، أو يصدرون أحكاماً خاطئة، لأن ما بني على الخطأ فهو خطأ، ما يلي:

١ - النظر إلى كلام العلماء - أو العالم - بمنظار أسود بهدف التقاط الأخطاء أو تسجيل العيوب والماخذ:

ولا شك أن الذي ينظر بهذا الشكل إلى كلام العلماء - أو

العالم أياً كان - له دلالة على نفسيته غير السوية أولاً، كما يدل على افتراض سوء النية عنده ثانياً، فهو بهذه النظرة يعمد إلى إخفاء الحسنات والفضائل والمزايا على كثرتها، ويركز على المآخذ على قلتها؟ فهل هذا هو أدب الإسلام وسماحته؟ وهل يتقرب من يفعل هذا إلى الله بالإساءة إلى جنوده وعباده؟ أم أن من يفعل ذلك يتفق في فعله هذا مع أعداء الدين، ويلتقي معهم على تشويه فكر المسلمين وعلومهم بالإساءة إلى رجاله وتنقيص رواده؟ إن لم يكن بعض من يفعل هذا من منفذي خطط الأعداء ومكرهم ومؤامراتهم!!!.

٢ - سوء التصنيف للأخطاء، بجعلها في درجة واحدة:

حيث يعتبر خصوم العلماء - أو العالم أياً كان - أن جميع الأخطاء بدرجة واحدة فهم لا يفرقون بين خطأ في المنهج والأساس والهدف والباعث، وبين خطأ آخر في بعض الجزئيات والتفاصيل، فاعتبار هذين الخطأين على درجة واحدة ظلم كبير للعالم الذي يتناولونه.

والأخطاء ثلاثة:

- خطأ في الباعث والمقصد حيث تكون النية سيئة، والمقصد خبيث، والباعث على دراسة هذا الدين العداء والحدق، فهذا يكفي لإساءة الظن بكل كلام، وعدم اعتبار لرأيه، فهذا الخطأ يقع فيه الذين يتحدثون عن الإسلام من أعدائه من

المستشرقين، أو الشيوعيين، أو الصليبيين، أو اليهود أو غيرهم، فهؤلاء متهمون في نياتهم وبراعتهم.

- خطأ في المنهج والخطة مع سلامة في المقصود وحسن النية ونبل البايع، وهذا يقع صاحبه في أخطاء كثيرة، لأن للمنهج أهمية كبيرة في صحة المضمون، فصاحب هذا الخطأ لا بد أن يشار إلى أخطائه الناتجة عن منهجه - وهي كثيرة - كذلك لا بد أن يشار إلى إصاباته - وهي قليلة - مع التسليم بسلامة مقصده، وهؤلاء مثل المعتزلة والخوارج، فمقاصدهم طيبة، ونياتهم حسنة، ومع ذلك منهجهم خاطئ، ومنطلقهم مشوه.

- خطأ في بعض خطوات الطريق، وفي عرض بعض الأفكار، وفي التعبير عن بعض المعاني. والخروج ببعض النتائج، مع حسن النية وسلامة المقصود أولاً، ومع صحة المنهج وصوابية المنطلق واستقامة الطريق ثانياً، فهذا الخطأ العرضي لا يضر صاحبه، ولا ينعكس على فكره ونتاجه، ولا يأخذ أكبر من حجمه الطبيعي، وهو من سمات البشر وينطبق على صاحبه قول الله عز وجل: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكُنْ مَا تَعَمَّدْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا» [الأحزاب: 5].

وعلى هذا تتحمل أخطاء علماء المسلمين، ورواده في مختلف العلوم الإسلامية، وينطبق عليهم المثل القائل (كفى بالمرء ببلأً أن تعد معاييره).

٣ - الخطأ في الحكم الناتج عن سوء التصنيف للأخطاء الجانبية الموجودة في مصنفات العلماء:

فإذا اكتشف الذي يبحث بهذه النظرة خطأ، أو مأخذًا عند أحد العلماء، فإنه يصدر حكمًا جائزًا بالدعوة إلى ترك ذلك الكتاب أو المصنف الذي وجده فيه، ولا يكتفي بهذا بل يبادر بإصدار الحكم الظالم بتجهيل صاحبه واتهامه في نيته ومقصده، وفي إيمانه وعقيدته، وفي أفكاره وأرائه، وما هكذا يتعامل أهل العلم وطلبة الحقيقة مع أفكار وأراء العلماء، ولا هكذا يتم التعامل مع مؤلفاتهم أو إصدار الأحكام عليها.

فالباحث العادل الذي ينطلق من توجيهات القرآن ومبادئه الإسلام وأسس المنهج العلمي الموضوعي الإسلامي، يعتمد الكلام الصحيح للعالم الذي يدرس، ويترك الكلام الخاطئ مع الاحترام والتوقير، إن وقوع العالم في خطأ - غير مقصود وناتج عن الاجتهاد - لا يعني ترك نتاج وعلم هذا العالم كله، بل يعني رفض الخطأ وحده وأخذ باقي علمه وكلامه.

وقد بيّنت في الضوابط السابقة كيفية التعامل مع زلات العلماء وهفواتهم بما فيه الكفاية.

٤ - محاكمة كلام العالم إلى صورة معينة في ذهن الباحث:

كأن يحاكم كلام ذلك العالم بناءً على مذهب كلامي أو فقهي معين، أو مدرسة خاصة، مع أن ذلك العالم لا يخضع لذلك

المذهب، ولذلك فإن الذي يفعل ذلك فإن حكمه صادر سلفاً على أن ذلك الكلام خطأ، وأن ذلك العالم الذي قاله مخطئ!!!.

الذي يفعل ذلك يجعل من فهم أصحاب الفرق الإسلامية - مثلاً - أصلاً تحاكم إليه نصوص القرآن ودلائلها وإيماءاتها، بدل أن يحاكم ذلك الفهم إلى تلك النصوص.

وفي هذا يقول الدكتور عدنان زرزور حفظه الله: «إن آراء رجال المذاهب الكلامية ليست أصلاً تفسر في ضوئه نصوص القرآن، وليس مقرراتهم الفكرية المسبقية مقدمات ضرورية لفهم القرآن، علمًا بأن هذه المقررات ليست إلا فهماً مجزئاً للنص القرآني! إن الأصل عندنا لا يصير فرعًا، والفرع لا ينقلب أصلًا..»^(١).

وحتى لا يقع الباحث في خطأ عند نظرته إلى أي عالم وفهم أفكاره وأرائه، وحتى لا يحاكمه إلى آراء ومقررات أصحاب الفرق الإسلامية، فعليه أن يتعرف على منهجه في فهم القرآن الكري姆، والستة المطهرة، وعلى طريقته في استخراج الأحكام والمسائل منها سواء كانت اعتقادية أو حكمية، وأن يحاكمه بناءً على تقريرات القرآن ذاته، وتفسيرات رسول الله ﷺ، وتصورات الصحابة والتابعين.

(١) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ص ٤٣٠.

٥ - عدم جمع كلام العالم المتفرق في كتبه حول الموضوع الواحد:

إن العالم قد يكرر الحديث عن الموضوع الواحد مرات عديدة في مصنفاته، ويفرقه في مواطن مختلفة، وقد يغير في طريقة العرض بزيادة أو نقصان في المادة المعروضة حسب السياق الذي يعرض فيه ذلك الموضوع، وقد يختلف رأيه ويتجدد في بعض المسائل حسب نظراته المتتجدة، وعلمه المتتجدد المتتطور.

فإذا وقف الباحث على رأي ما للعالم حول موضوع معين، فإنه لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو الرأي الأخير الذي استقر عليه ذلك العالم، إلا بعد الاطلاع على كلامه حول هذا الموضوع في مواطن المتفرقة، ثم يجمعه وينظر فيه مجتمعاً، ثم يخضعه لأسس البحث والترجيح عند التعارض حتى لا يظلم ذلك العالم أو يقوله ما لم يقل، أو ينسب له رأياً تراجع عنه في وقت لاحق!!!.

ولذلك يحتاج طالب العلم المنصف الذي يضع طلب الحق نصب عينيه، ويريد أن يعرف رأي العالم في أي موضوع من الموضوعات أن يجمع كلامه المتفرق حول ذلك الموضوع، ثم ينظر فيه بعد ذلك، وهذا الجمع يحتاج إلى آناء وجلد واطلاع

واسع على مصنفات ذلك العالم، ولكن لا بد من ذلك حتى لا يظلم ذلك العالم في الحكم له أو عليه.

إن الكثير من العلماء يديرون النظر في آرائهم وأفكارهم حسب ما يكتسبه من علوم جديدة. ناتجة عن كثرة نظره في العلوم والمعارف التي يطلع عليها، فيعدل في نظرته إلى بعض المواضيع والمسائل، ويصوب آراءه فيها، ويعرف - بالنص الصريح - على خطئه في فهمه السابق، وأن الصحيح هو هذا الرأي الجديد.

٦- إغفال المنهج الإسلامي في النظر في أقوال العالم، وبخاصة عند تعارضها:

إن هذا المنهج - كما بينه علماء الأصول - يقوم على أربع مراحل متدرجة:

أ- الجمع بين النصوص المتعارضة، والاجتهاد في التوفيق بالطرق الصحيحة للتوفيق.

ب- إذا لم يمكن التوفيق بينها فالترجيح، بأن يرجح أحدها على الباقي بإحدى طرق الترجيح.

ج- وإذا لم يمكن الترجيح يلجأ إلى القول بالنسخ، حيث ينسخ المتأخر المتقدم، واللاحق السابق.

د- وإذا لم يمكن هذا أيضاً يسقط اعتبار هذه النصوص، ويتوقف عن العمل بها أو اعتمادها.

وفي هذا يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: «إذا تعارض النصان ظاهراً، وجب البحث والاجتهاد في الجمع والتوفيق بينهما بطريق صحيح من طرق الجمع والتوفيق، فإن لم يمكن وجب البحث والاجتهاد في ترجيح أحدهما بطريق من طرق الترجيح، فإن لم يمكن هذا ولا ذاك، وعلم تاريخ ورودهما كان اللاحق منهم ناسخاً للسابق، وإن لم يعلم تاريخ ورودهما توقف عن العمل بهما».

وإذا تعارض قياسان أو دليلان من غير النصوص ولم يمكن ترجيح أحدهما عدل عن الاستدلال بهما^(١).

وطرق الترجيح في المرحلة الثانية من مراحل النظر في النصوص المتعارضة هي: ترجيح دلالة العبارة على دلالة الإشارة، وترجح المنطق الصربي على المنطق غير الصربي، وترجح المنطق الصربي على المفهوم، وترجح المفسر على الظاهر^(٢). ومن مظاهر هذا الخطأ - مظهر آخر خطير وهو تطبيق «مفهوم المخالفة» على كلام العالم، الذي لم يجمع كاملاً أولاً، ولم يوفق بينه ثانياً، حيث يقرأ الذي يفعل هذا العبارة ويقف عندها، ولا يكلف نفسه أن يجمع معها مثيلاتها - إذ قد يخرج بذلك المجموع برأي صائب - بل يستنطق هذه العبارة، ويُقُولُها ما

(١) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف: ص ٢٢٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٣٢-٢٣١.

ليس فيها، ومن ثم ينسب إلى صاحبها رأياً لم يقله، أو لم يخطر على باله، ويلزمه بأشياء لا تلزمها، وذلك بسبب تطبيق مفهوم المخالفة عليها.

إذ أن هناك خلافاً بين الأصوليين في الأخذ بمفهوم المخالفة، والراجح عندهم أنه لا يحتاج به، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمة الله: (النص الشرعي لا دلالة له على حكم في مفهوم المخالفة)، وبين المعنى الإجمالي لهذه القاعدة فيقول:

«إن النص الشرعي لا دلالة له على حكم ما في المفهوم المخالف لمنطقه، لأنه ليس من مدلولاته بطريق من طرق الدلالة الأربع (وهي العبارة والإشارة والدلالة والاقتضاء) بل يعرف حكم المفهوم المخالف المسكون عنه بأي دليل آخر من الأدلة الشرعية التي منها الإباحة الأصلية»^(١).

ويعض الباحثين - أو طلبة العلم - يحرصون ويصررون على تطبيق مفهوم المخالفة على كلام العلماء الذين يتقصدونهم بالدراسة في مسألة ما، ثم يعممون هذا الرأي على ما يخالفها. ويقرر الدكتور عدنان زرزور حفظه الله أن هذا الأسلوب من أكبر الأخطاء في التعامل مع آراء العلماء والأخذ عنهم، حيث أن طلبة العلم لو طرحوا في اعتمادهم لفهم كلام العلماء مفهوم

(١) المرجع السابق: ١٥٣-١٥٤.

المخالفة من نظرتهم، لانتهت أكثر المشاكل من أذهان أصحابها
والله أعلم^(١).

ثم إن اعتماد هذا البعض لمفهوم المخالفة، وتطبيقه على
آراء العالم - أو العلماء - وأفكاره جعلهم ينسبون إليه أقوالاً لم
يقلها، وأحكاماً لم يصدرها، وآراء لم ينص عليها، فقد ألم به
بلوازم لا تلزمه لأنه قد يكون صرخ في مواطن أخرى بنقضها
ونفيها، فإذا كان لازم المذهب ليس بمذهب، فكيف نلزم صاحب
المذهب به؟ وإذا كان صرخ بنفيه فكيف نسبه إليه؟.

إن لازم المذهب ليس بمذهب فإذا لم يلتزمه صاحبه،
وبخاصة إذا أنكره، ولذلك يكون إلزامه به ونسبته إليه كذباً وافتراء
عليه، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء.

وفي مقدمة هؤلاء الإمام ابن تيمية رحمه الله، فقد سئل: هل
لازم المذهب مذهب أم لا؟.

فأجاب: والصواب أن مذهب الإنسان ليس بمذهب له إذا
لم يلتزمه، فإنه إذا كان قد أنكره ونفاه كانت إضافته إليه كذباً
عليه، بل ذلك يدل على فساد قوله وتناقضه في المقال، غير
التزامه للوازم التي يظهر أنها من قبيل الكفر والمحال مما هو
أكثر، فالذين قالوا بأقوال يلزمها أقوال يعلم أنه لم يلتزمها:

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٢٨.

ويورد مثلاً لهذه القاعدة فيقول: (ولو كان لازم المذهب مذهبًا للزم تكفير كل من قال عن الاستواء أو غيره من الصفات أنه مجاز ليس بحقيقة، فإن لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون شيء من أسمائه وصفاته حقيقة^(١)).

هذه هي أهم أخطاء الذين ينظرون إلى العلماء نظرة خصومة، مما أدى بهم إلى أن يصلوا إلى نتائج خاطئة، واستخرجوا من كتب العلماء أحكاماً خاطئة، وآراء خاطئة، ومذاهب خاطئة، وأصدروا لهم أو عليهم أحكاماً خاطئة، ولا غرابة في ذلك فإن ما بني على الخطأ فهو خطأ^(٢).

د - النظرة الصحيحة إلى آراء العالم الواحد:

أما الطريقة الصحيحة والموضوعية المنهجية والعلمية والموضوعية والأصولية للتعامل مع الأقوال المتعارضة للعالم الواحد، والتي دل عليها الدكتور الأصولي الشهيد أستاذى وشيخى عبد الله عزام رحمه الله ورفع درجته حيث أخبر عن هذه الطريقة وأنها تمثل فيما يلي:

١ - أن ثبت نسبة النصوص محل الاتهام إلى قائلها أو كاتبها.

(١) مجموع الفتاوى: ٢١٧/٢٠.

(٢) قد استفادت هذه الأنکار من كتاب في ظلال القرآن في الميزان للدكتور صلاح الخالدي حفظه الله، وتصرفت فيها اختصاراً حسب الحال: انظر ص: ٣٧-٢١.

٢ - أن يجمع بين النصوص، فيحمل المجمل على المبين المفصل، والمبهم على الواضح.

٣ - أن يُلْجأ إلى النسخ التاريخي، فيعتمد بالنص المتأخر، وينسخ به القول المتقدم.

٤ - أن يرجح بين النصوص المتعارضة بطريقة الترجيح المعروفة في الفقه والأصول، فترجح عبارة النص على إشارة النص، ويرجح المنطق الصريح على المنطق غير الصريح أو يلْجأ إلى إسقاط العبارتين المتعارضتين إذا لم يتوصل إلى ترجيح إحداهما.

٥ - الأصل هو إحسان الظن فيما يقوله المسلم، ويحمل على المحمّل الحسن، وأن يفسر التفسير السليم المتفق مع عقيدة السلف، ولنا في ضنّي سلفنا الصالح قدوة في إحسان ظن بعضهم البعض، وفي حمل كلام بعضهم على الحسن والحسن في فهمه وتفسيره - وإن كان موهمًا - على المعنى الطيب، والعقيدة الصحيحة، والقول الحسن.

ومن ذلك ما نراه من دفاع الإمام ابن القيم رحمه الله عن الإمام الهروي في كتابه «منازل السائرين إلى الحق» حين دفع عنه تهمة الفناء ووحدة الوجود حين يقرأ عبارته عن الفناء والتي تقول: «هو أضمحلال ما دون الحق علمًا، ثم مجدًا، ثم حقًا، وهو على ثلات درجات: «الدرجة الأولى فناء المعرفة في المعروف

وهو الفناء علماً، وفناه العيان في المعاين وهو الفناء جحداً، وفناه
الطلب في الوجود وهو الفناء حقاً.

والدرجة الثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه، وفناه شهود
المعرفة لإسقاطها، وفناه شهود العيان لإسقاطه.

والدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء وهو الفناء
حقاً...»^(١).

ولكن الإمام ابن القيم - السلفي البصير المتزن - يدافع
بحرارة عن الhero عندهما شرح كلامه في «مدارج السالكين»
الذي شرح به كتاب الhero «منازل السائرین».

قال: «وحاشا شيخ الإسلام - الhero - من إلحاد أهل
الإلحاد، وإن كانت عبارة موهمة، بل مفهمة ذلك»^(٢).

ويتابع رحمة الله وهو يدافع عن الhero، ويرد على من
يتهمه بقوله بوحدة الوجود بقوله:

«وهذا كذب على شيخ الإسلام، وليس مراده: فناء شهود
العيان، فيفني عن مشاهدة المعاينة، ويغيب بمعاينته عن معاينته،

(١) منازل السائرین للhero: ٧٥.

(٢) مدارج السالكين: ١٤٩/١.

وليس مراده: انتفاء التعدد والتغاير بين المعاين والمعاين، وإنما مراده: انتفاء الحاجب عن درجة الشهود، لا عن حقيقة الوجود.

وفرق بين إسقاط الشيء عن درجة الوجود العلمي الشهودي، وإسقاطه عن رتبة الوجود العيني الخارجي، فشيخ الإسلام - بل مشايخ القوم المتكلمين بلسان الفناء - هذا مرادهم^(١).

ويقول بعبارة صريحة مدافعاً عن الhero وغيره فيقول:

«وليس مرادهم فناء موجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم، فحقيقة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيابه عن شهوده ونفسه...»^(٢).

ويقول الإمام ابن تيمية رحمة الله حول هذا المعنى:

«إذا قال أحد المشايخ ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله ونحو ذلك، فمرادهم بذلك: ما أرى ربياً غيره، ولا خالقاً ولا مدبراً غيره، ولا إلهآ لي غيره.. ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفاً منه أو رجاء له..»^(٣).

(١) مدارج السالكين: ١٥١/١.

(٢) المصدر السابق: ١٥٥/١.

(٣) العبودية لابن تيمية: ص ١٥١.

هذه هي أهم القواعد المتبعة في النظرة الموضوعية
الصحيحة لأراء العالم الواحد، وخاصة عند تعارض أقواله^(١).

هـ- ابن تيمية بشر يخطيء ويصيب:

وشيخ الإسلام ابن يمية رحمة الله من كبار علماء الإسلام والمسلمين، وقد كان صاحب عطاء علمي متجدد في عصره، ولم يعرف لأحد التبحر في شتى العلوم والمعارف كما عرف له رحمة الله، ولم يعرف لأحد من علماء الإسلام من العطاء العلمي والتصانيف كما عرف له ولقلة من العلماء الآخرين، ولكنه سيبقى بشرأً من البشر يصيب ويخطيء، ولا يُدعى له العصمة فهو لم يدعها لنفسه، وما أخطأ فيه وهو قليل مغمور في بحر علمه وفضله وهو كثير غزير، ولا ينظر إليه إلا وفقاً للمنهج الصحيح والضوابط التي أسلفت في التعامل مع العلماء، فعلى طلبة العلم أن لا يغمطوا الرجل حقه، فقد كان كنزاً لا نظير له، وبحر من العلم لا ساحل له، إذا تكلم في فن من فنون العلم ظن سامعه أنه لا يحسن إلا ذلك الفن، وقد ألان الله له العلوم كما ألان الحديد لداود عليه السلام كما قال ابن الزمل堪اني رحمة الله، وكان رجلاً جمع العلوم بين عينيه يأخذ منها ما يشاء ويترك ما يشاء كما قال

(١) مجلة المجتمع عدد ٥٢٦، تاريخ: ٢٣ جمادى الآخرة: ١٤٠١، صفحة ٢٣-٢٥،
والعدادان التاليان: ٥٢٧ صفحة ٢٣-٢٥، ورقم ٥٢٨: صفحات ٣٤-٣٢، وانظر
في ظلال القرآن في الميزان: ٨٣، ٨٤، ٨٩، ٩٠.

ابن دقيق العيد رحمه الله، وبناءً على هذه النظرة الصحيحة - الموضوعية كيف نظر إليه مترجموه، وساورد فيما يلي بعضاً من آفواهم.

○ قال الحافظ الذهبي رحمه الله فيه:

«... وقد انفرد بفتاوي نيل من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه، فالله تعالى يسامحه، ويرضى عنه، فمارأيْتُ مثله، وكلُّ أحدٍ من الأئمَّةِ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتَرَكُ، فَكَانَ مَاذَا؟»^(١).

«وانفرد بمسائل، فنيل من عرضه لأجلها، وهو بشر له ذنوبٌ، وخطأ، ومع هذا فوالله ما مقلَّت عيني مثلهُ، ولا رأي هو مثل نفسيه.

كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سَيَّال الفَهْمِ، كثير المحسن، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملابس والجماع، لا لذَّةَ له في غير نشرِ العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه»^(٢).

«وأنا لا أعتقد فيه عصمة، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين: بشراً من البشر، تعتريه حِدَّةٌ في

(١) تذكرة الحفاظ: ١٤٩٦ / ٤.

(٢) المعجم المختص بالمحدثين: ص ٢٥.

البحث وغضب وشطط للخصم تزرع له عداوة في النفوس، وإلا لو لاطف خصومه لكان عليه كلمة إجماع، فإنَّ كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بتفوقه، مُقرّرون بُندورة خطته، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، ولكن يتقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك - سوى رسول الله ﷺ - ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجيهه^(١).

«.. وهو بشر من البشر، له ذنوب، فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته، فإنه كان ربانِي الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأساً في العلم..»^(٢).

«.. ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فله أجر على أخطائه، وأجران على إصاباته»^(٣).

○ وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«... وبالجملة كان - رحمه الله - من كبار العلماء، ومن يخطيء ويصيب، ولكنه خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطئه أيضاً مغفور له، كما في «صحيح البخاري»:

(١) الدرر الكامنة: ١/١٦١، ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٤.

(٢) العقود الدرية: ص ٢٤.

(٣) الدرر الكامنة: ١/١٦١، الوافي بالوفيات عن المنجد: ص ٢٩.

إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(١) فهو مأجور، وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر عليه السلام، والله سبحانه وتعالى أعلم»^(٢).

○ وقال الحافظ بن فضل الله، العمري رحمه الله شعراً في رثائه كان منه:

يا عالماً بنقول الفقه أجمعها
أعنك تحفظ زلات كما ذكروا
كم مِنْ فتى جاهل غَرَّ أبنتَ له
رُشد المقاله فزاَنَ الجهل والغررُ
ما أنكروا منك إلا أنهم جهلوها .
عظيم قدرك لكن ساعد القدرُ
قالوا بأنك قد أخطأت واحدة
وقد يكون، فهلا منك ثُغَّافِرُ
ومن يكون على التحقيق مجتهداً
له الشواب على الحالين لا الوزرُ

(١) أخرجه البخاري: ٣١٧/١٣ بالفتح، ومسلم برقم: ١٧١٦ من حديث عمرو بن العاص.

(٢) البداية والنهاية: ١٤٠/١٤، الرد الواfir: ١٦٧-١٦٦، الشهادة الزكية: ص ٦٤.

ألم تكن بأحاديث النبي إذا
 سُئلتَ تعرف ما تأتي وما تَذَرُ
 حاشاك من شَبَهٍ ومن شَبَهٍ
 كلامها منك لا يبقى له أثرٌ^(١)

○ وقال الحافظ ابن حجر رحمة الله:

«... وهذه تصانيفه طافحة بالرَّدِّ على من يقول: بالتجسيم والتبري منه، ومع ذلك فهو بشر يخطئ ويصيب، فالذى أصاب فيه - وهو الأكثر - يستفاد منه، ويُتَرَحَّمُ عليه بسيبه، والذى أخطأ فيه لا يقلد فيه، بل هو معدور لأنَّ أئمَّةَ عصره شهدوا له بأنَّ أدوات الاجتِهاد اجتَمَعَتْ فيه، حتى كان أشد المتعصِّبين عليه، والقائمين في إيصال الشر إليه، وهو الشيخ كمال الدين الزملکانی شهد له بذلك، وكذلك الشيخ صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره.

فالواجب على من تلبس بالعلم، وكان له عقلٌ أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة، أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل، فيفرد من ذلك ما ينكر، فيحذر منه على قصد النصح، ويثنى عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك، كدَأْبٍ غيره من العلماء...»^(٢).

(١) العقود الدرية: ص ٥٣٠، الشهادة الزكية: ٦٧-٦٨.

(٢) الشهادة الزكية: ٧٤-٧٣، الرد الوافر: ٢٤٧-٢٤٨.

○ وقال شيخ الإسلام البليقيني رحمه الله:

«.. قد نسب الشيخ، تقي الدين ابن تيمية - رحمه الله - لأشياء أنكرها عليه معاصره، وانتصب للرد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في مسألتي الزيارة والطلاق، وأنفرد كلاماً منه بتصنيف، وليس في ذلك ما يقتضي شينه أصلاً، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله، ويترك، إلا صاحب هذا القبر - يعني النبي ﷺ - والسعيد من عُدَّت غلطاته، وانحصرت سقطاته^(١).»

○ وقال الإمام العلامة بدر الدين العيني رحمه الله:

«... وقد سارت تصانيفه في الآفاق، وليس فيها شيء مما يدل على الزيف والشقاق، ولم يكن بحثه فيما صدر عنه في مسألة الزيارة والطلاق. إلا عن اجتهاد سائغ بالاتفاق، والمجتهد في الحالتين مأجور ومثاب، وليس فيه شيء مما يلام ويعب، لكن حملهم على ذلك حسدهم الظاهر وكيدهم الباهر، وكفى للحاسد ذماً آخر سورة الفلق في احتراقه بالقلق^(٢).»

○ وقال الحافظ السخاوي رحمه الله:

«وكذا من حصل من بعض الناس منهم نُفرةٌ، وتحامٌ عن الانتفاع بعلمهم، مع جلالتهم علماء، وورعاً، وزهداً، لإطلاق

(١) الشهادة الزكية: ٨٦-٨٥، الرد الواfir: ص ٢٥٠.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٧٧-٧٦، الرد الواfir: ص ٢٦٢.

لسانهم وعدم مداراتهم، بحيث يتكلمون بما فيه مبالغة، كابن حزم وابن تيمية، وهما ممن امتحن وأؤذى وكل أحد من الأمة يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ^(١).

٥ و قال الشيخ حسين مخلوف رحمه الله تعالى:

«وللإمام ابن تيمية موافقاً ومخالفاً فضل عظيم ويد طولى على العلم والعلماء، والقضاة والمفتين وسائل الباحثين في سائر العصور، حيث أثار هذه المسائل والبحوث التي اختلفت فيها الأنوار وتجاذبها البحث بين النظار، وقصد كل إصابة الحق والصواب، ولكل مجتهد نصيب، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر الاجتهد، وعلى الله قصد السبيل والتوفيق الحق والصواب»^(٢).

و - ندرة خطأه وقلته بالنسبة لصوابه:

٦ وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي رحمه الله:

«... وإلا لو لاطف خصومه لكان عليه كلمة إجماع، فإنّ كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بتفوّقه، مُقرّونَ بِنُدوّرَةِ خطّه، وأنه بحر لا ساحل له، وكتز لا نظير له...»^(٣).

(١) الإعلان بالتوبیخ للسخاوي: ٤٧٨ - ٤٧٩.

(٢) دیوان لشیخ‌الاسلام ابن‌تیمیة: ص ٤٥.

(٣) الدرر الكامنة: ١/١٦١، ثلاث ترجم نفیسة: ص ٢٤.

○ ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«.. ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي..»^(١).

○ وقال الإمام الحافظ ابن المحب الصامت رحمه الله:

«... وحسب شيخنا مع اتساعه في كل العلوم إلى الغاية والنهاية، سمعاً وعaculaً ونقلأً وبيحناً، أن يكون نادر الغلط، كما كان أخوه أبو محمد ابن تيمية فيما بلغني عنه يقول: أخي نادر الغلط، وكان أبو محمد من الناقدين حديثاً وفقهاً وعربية»^(٢).

ز - آراءه ليست قائمة على التشهي:

○ قال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«... لا يؤتى من سوء فهم، فإن له من الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنه بحر زخار، ولا كان متلاعباً بالدين، ولا ينفرد بمسائله بالتشهي، ولا يطلق لسانه بما اتفق، بل يحتاج بالقرآن والحديث والقياس ويرهن وينظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فله أجر على أخطائه، وأجران على إصابته..»^(٣).

(١) البداية والنهاية: ١٤٠ / ١٤٠. الرد الواfir: ١٦٦، الشهادة الزكية: ص ٦٤.

(٢) الرد الواfir: ص ٩٦.

(٣) الدرر الكامنة: ١ / ١٦١، ثلاث تراجم نفيسة: ص ٢٥ - ٢٦، الوافي بالوفيات عن المنجد: ص ٢٩.

○ وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«... والمسائل التي أنكرت عليه، ما كان يقولها
بالتشهي...»^(١).

○ وقال شيخ الإسلام البليقيني رحمه الله:

«ثم إنَّ الظنَّ بالشيخ تقي الدين: أنه لم يصدر منه ذلك
تهوراً وعدواناً - حاشا الله - بل لعله لرأي رأه، وأقام عليه برهاناً،
ولم نقف إلى الآن - بعد التتبع والفحص - على شيء من كلامه
يقتضي كُفَرَةً، ولا زندقة إنما نقف على رَدَّه على أهل البدع،
والأهواء، وغير ذلك، مما يدل على براءته، وعلو مرتبته في العلم
والدين.

وتوقير العلماء والكتاب، وأهل الفضل متعين»^(٢).

ح - أكثر ما أخذ عليه:

وأكثر ما أخذ عليه ما قاله الحافظ الذهبي رحمه الله:

«وكان فيه قلة مداراة وعدم تؤدة غالباً، ولم يكن من رجال
الدول، ولا يسلك معهم بتلك التواميس، وأعان أعداءه على نفسه
بدخوله في مسائل كبار! لا يحتملها عقول أبناء زماننا ولا

(١) الشهادة الزكية: ص ٧٣، الرد الوافر: ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) الشهادة الزكية: ص ٨٦، الرد الوافر: ٢٥٠.

علومهم، كمسألة التكفير في الحلف بالطلاق، ومسألة أن الطلاق بالثلاث لا يقع إلا واحدة، وأن الطلاق في الحيض لا يقع..^(١).

وما قاله الصفدي رحمه الله:

«إلا أنه انفرد بمسائل غريبة، ورجم فيها أقوالاً ضعيفة عند الجمهور معيبة، كاد منها يقع في هُوَة، ويسلمُ منها لما عنده من النية المرجوة، والله يعلم قصده وما يترجح من الأدلة عنده. وما دمر عليه شيءٌ كمسألة الزيارة، ولا شُنَّ عليه مثلها إغارة، دخل منها إلى القلعة معتقلًا، وجفاه صاحبه وقلاه، وما خرج منها إلا على الآلة الحدباء، ولا رجع منها إلا إلى البقعة الجدباء، والتحق باللطيف الخبير، وولى والثناء عليه كنشر العبير»^(٢).

فأما مسألة الزيارة التي شنع عليه فيها وحرف كلامه بأنه منع من زيارة القبور، فهذه كتبه، وفتاويمه، ومناسكه مصريحة باستحباب زيارة قبور المسلمين، فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام - بل صرح بجواز زيارة قبور الكفار، نعم، حتى خلافاً للعلماء: فيما إذا سافر لمجرد زيارة القبور.

فمنهم من قال بالجواز: وهو مذهب الجمهور، ومنهم من قال: بالكرابة.

(١) تاريخ ابن الوردي: ٤١١/٢.

(٢) أعيان العصر للصفدي: عن المنجد: ص ٥٠.

ومنهم من قال: بالتحريم، واختار هذا القول: ابن بطة، وابن عقيل - إماما الحنابلة - والإمام أبو محمد الجوني - إمام الشافعية - وهو اختيار القاضي عياض في إكماله وهو إمام المالكية، ومال إلى هذا القول: شيخ الإسلام ابن تيمية.

والحججة في ذلك: الحديث الصحيح وهو قوله - عليه السلام: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..) الحديث.

وقد انتصب للرد على «السبكي»: «ابن عبد الهادي» في مجلد كبير سماه (الصارم المنكي في الرد على السبكي»^(١).

وقد تبعت أقواله في ذلك فلم أجده ما نسب إليه بأنه قد حرم الزيارة للقبور، وإنما كان ميله إلى تحريم شد الرحال إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين، فالزيارة من غير شد الرحال والقصد مستحبة، وبالشد تحرم للحديث.

يقول رحمة الله: «قد ذكرت فيما كتبته من المناسب أن السفر إلى مسجده وزيارة قبره كما يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج عمل صالح مستحب.. والصلة تقصير في هذا السفر المستحب باتفاق أئمة المسلمين، لم يقل أحد من أئمة المسلمين إن هذا السفر لا تُقصَرُ فيه الصلاة، ولا نهى أحد عن السفر إلى مسجده، وإن كان المسافر إلى مسجده يزور قبره بِسْمِ اللَّهِ».

(١) الشهادة الزكية: ٩٠-٩١

بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة، ولا في شيء من كلامي، وكلام غيري نهى عن ذلك، ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور، بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور... وأما غيره - يعني النبي ﷺ فليس عنده مسجد فيستحب السفر إليه كما يستحب السفر إلى مسجده، وإنما يشرع أن يزار قبره كما شرعت زيارة القبور، وأما هو ﷺ فيشرع السفر إلى مسجده وينهى عمما يوهم أنه سفر إلى غير المساجد الثلاثة.

ويجب الفرق بين الزيارة الشرعية التي سنه رسول الله ﷺ، وبين الزيارة البدعية التي لم يشرعها بل نهى عنها، مثل اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، والصلاحة إلى القبر، واتخاذه وثنا، وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ المسجد الحرام ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى..).^(١)

○ وأما «مسألة الطلاق» فإن ابن تيمية رحمه الله يقول: إن الطلاق الثلاث دفعة واحدة لا يقع إلا واحدة»:

فهو لم ينفرد بهذا القول بل هو المنقول عن علي بن أبي

(١) الجواب الباهر في زوار المقابر لابن تيمية: ١٤-١٥، وانظر مواطن كثيرة من هذه الرسالة.

طالب، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود،
وابن عباس وغيرهم من الصحابة.

ومن التابعين عطاء، وطاووس، وعمرو بن دينار، وسعيد بن
جبير، وأبو الشعثاء، ومحمد بن إسحاق، والحجاج بن أرطأة.

وهو قول داود الظاهري وأكثر أصحابه، ومذهب أبي
جعفر محمد الباقر بن علي بن الحسين، وابنه جعفر الصادق،
ومحمد بن عبد السلام الخشنى القرطبي فقيه عصره، وأصبح بن
الحباب، واختار هذا الإمام أبو حيان في تفسيره «النهر»، والإمام
ابن القيم، وتكلم عليه في أربعين ورقة، وإليه ذهب ابن تيمية
رحمه الله.

فلينكر على هؤلاء من ينكر على ابن تيمية، لا سيما وقد
صرح العلماء إن مذهب الأئمة قاطبة: أنه يجوز للمجتهد أن يقلد،
بل يجب عليه العمل بما رأه اجتهاده، وابن تيمية كان مجتهداً،
بشهادة علماء عصره، فلا وجه للإنكار عليه إلا مجرد العصبية،
والحمية الجاهلية..^(١).

وعلى افتراض أنه اجتهد فأخطأ فهو مأجور على اجتهاده،
ومع ذلك فإن المحاكم الشرعية في أيامنا تأخذ بفتواه هذه وتطبقها
في قوانين الأحوال الشخصية في كثير من بلاد العالم الإسلامي،

(١) الشهادة الزكية: ص ٩٠-٩١، بحوث الندوة العالمية: ص ٣٠٨.

وما رأيت عجباً كمثل المحاولات التي بذلت لمنعه من الإفتاء في هاتين المسألتين، واستخدام التفوذ لدى السلطة لمنعه من ذلك بالرغم أنه لم يعقد له أي مجلس ليناقش في هاتين المسألتين. فهل يصل الحجر على عقول العلماء لمنعهم من الإفتاء بما يرون أنه الحق كمثل هذا الذي يحصل.

ط - مواقف الناس تجاه ابن تيمية رحمه الله:

وقد ذكر الحافظ الذهبي رحمه الله ذلك بقوله:

«.. وكان قوله بالحق، نهاية عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة الأغيار، ومن خالطه وعَرَفَهُ قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومن نابذه وخالفه ينسبني إلى التغالي فيه، وليس الأمر كذلك.

مع أنني لا أعتقد فيه العصمة، كلا فإنه مع سعة علمه، وف्रط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين، يُشَرِّ من البشر تعترى به حِلَّةً في البحث، وغضب، وشظف للخصم، يزرع له عداوة في النفوس، ونفوراً عنه، وإلا والله فلو لاطف الخصوم، ورفق بهم وَلَزِمَ الْمُجَامِلَةَ، وَحَسَنَ الْمُكَالِمَةَ، لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشغوفه وذكائه، مُقْرِّرُونَ بِنُدُورِ خَطِّيهِ.

○ موقف الخصوم منه:

لست أعني بعض العلماء الذين شعارهم وهجّير ابراهيم الاستخفاف به، والإزدراء بفضلة، والمقت له، حتى استجهلوه وكفروه، ونالوا منه من غير أن ينظروا في تصانيفه، ولا فهموا كلامه، ولا لهم حظٌ تامٌ من التوسيع في المعاشر، والعالمُ منهم قد ينصفه ويرد عليه بعلم، وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران، رحم الله الجميع.

○ رحم الله امرءاً تكلم بعلم:

وأنا أقل من أن ينبه على قدره كلامي، أو أن يوضح نبأه قلبي، فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه، مقررون بسرعة فهمه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، وأن جوده حاتمي، وشجاعته خالدية، ولكن قد ينقمون عليه أخلاقاً، وأفعالاً، منصفهم فيها مأجور، ومقتصدهم فيها معدور، وظالمهم فيها مأذور، وغالبهم مغزور، وإلى الله ترجع الأمور، وكل يؤخذ من قوله ويترك، والكمال للرسل، والحجّة في الإجماع. فرحم الله امرءاً تكلم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضائق أفاوٍ لهم بتؤدة وفهم، ثم استغفر لهم، ووَسَعَ نطاق المعدنة.

وإلا فهو لا يدرى، ولا يدرى أنه لا يدرى، وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته، فقد أقررت على نفسك بالهوى، وعدم الإنفاق، وإن

قلت لا أعتذر لأنه كافر، عدو الله تعالى ورسوله، قال لك خلق من أهل العلم والدين: ما علمناه والله إلا مؤمناً، محافظاً على الصلاة، والوضوء، وصوم رمضان، معظمًا للشريعة ظاهراً وباطناً، لا يؤتى من سوء فهم، بل له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنه بحر زخار، بصير بالكتاب والسنّة، عديم النظير في ذلك.

○ مجتهد معدور غير متلاعب بالدين:

ولا هو بمتلاعب بالدين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتى بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتاج لها بالقرآن وبالحديث أو بالقياس، ويبرهنها ويناظرُ عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها فله أجر المجتهد من العلماء، وإن أصاب فله أجران، وإنما الذم والمقت لأحد رجلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبد حجّةً، ورجل تكلم في مسألة بلا خَمِيرَةٍ من علم، ولا توسع في نقل، فنعود بالله من الهوى والجهل.

○ العبرة بكلام أهل التقوى والورع:

ولا ريب أنه لا اعتبار بذم أعداء العالم، فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف، والقيام عليه.

ولا اعتبار بمدح خواصه، والغلة فيه، فإن الحب يحملهم على تغطية هنأته، بل قد يعودوها له محسن.

وإنما العبرة بأهل الورع والتقوى من الطرفين، الذين يتكلمون بالقسط ويقومون لله ولو على أنفسهم وأبائهم.

○ كلام العارف المنصف:

فهذا الرجل لا أرجو على ما قلته فيه دُنيا، ولا مالاً، ولا جاماً بوجه أصلاً، مع خبرتي التامة به، ولكن لا يسعني في ديني ولا عقلي أن أكتم محسنه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوبًا له مغفورة في سعة كرم الله تعالى، وصفحة مغمورة في بحر علمه وجوده، فالله يغفر له، ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه، مع أنني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، قد أبديت آنفًا أن خطأ فيها مغفور، بل قد يشبه الله تعالى فيها على حسن قصده، وينذر وسنه، والله الموعود، مع أنني قد أؤذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده، فحسبي الله.

... وقد تعبت بين الفريقين، فأنا عند مجبه مُقصّر، وعند عدوه مُشرف مكثر، كلا والله^(١).

وقول الإمام الشوكاني رحمة الله:

(١) ثلات تراث نفيسة: ٢٣-٢٧.

«... والناس قسمان في شأنه، فبعض منهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعض آخر يبالغ في وصفه ويتجاوز به الحد، ويتعصب له، كما يتعصب أهل القسم الأول عليه».

وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسنّة، فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون، ويقع له معهم محنّة، ثم يكون أمره الأعلى قوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين. ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره، وهكذا كان حال هذا الإمام، فإنه بعد موته عرف الناس مقداره، واتفقت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يعتد به، وطارت مصنفاته واشتهرت مقالاته^(١).

ي - مسك الختام في موقف شيخ الإسلام من خصومه:

ويحدث رحمة الله عن نفسه و موقفه من خصومه فيقول: «هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تدعى حدود الله في بتکفیر، أو تفسیق، أو افتراء أو عصبية جاهلية: فأنا لا أتعذر حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله، وأفعله، وأزنـه بمیزان العدل، وأجعله مؤتمـاً بالكتاب الذي أنزلـه الله، وجعلـه هـدى للناس، حاكـماً فيما اختلفـوا فيه، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً

(١) النـاج المـکـلـل لـصـدـيق حـسـن خـان: صـ ٤٢٤.

وَجَدَهُ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِيَحُكُّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا أَخْلَقُوا فِيهِ» [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: «فَإِنْ تَنْزَعُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولَّ أَنَّاسٌ بِالْقِسْطِ» [الحديد: ٢٥].

وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله
فيه: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ أَنْقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: «وَإِنْ تَسْرِفُوا وَتَنْقُوا لَا يَفْرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بُحِيطٌ» [آل عمران: ١٢٠]^(١).

جزى الله شيخ الإسلام خيراً عن أمته، ودينه، ونفع الناس
بعلومه الغزيرة، وغفر الله له ولأهل العلم جمياً، وجمعهم يوم
القيمة في مستقر رحمته إخواناً على سرر متقابلين، ونفعنا
بعلومهم، وأعاد علينا من بركات هذه العلوم خيراً كثيراً.

(١) مجمع الفتاوى: ٣ / ٢٤٥

الخاتمة

هذه صفحات ممتعة من حياة شيخ الإسلام، تحدثت عن أحواله، وأقواله، وأفعاله وأخلاقه، وعلومه، ومنهجه في الإصلاح والدعوة، لعلها تصادف قلوبًا زكية، وعقولًا ذكية، وهمامًا ت يريد اللحاق بركب العلماء والصالحين، وعبادًا نذروا أنفسهم، وفقاً لحمل راية الإسلام، ينطبق على كل واحد منهم قول ابن القيم رحمه الله.

«لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواها، ملبسه ما تهيا، وأمكاله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان وووجهه خالياً، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، فواهًا له، ما أغر به بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنيته وسكونه إليه! والله المستعان»^(١).

(١) مدارج السالكين: ١/٩٠ باختصار.

«هذا هوا بن تيمية شيخ الإسلام وإمام أهل الهدى والعرفان، نادرة الزمان وأعجوبة الدهر في القرنين السابع والثامن الهجري.

وهذه هي مواهبه الفطرية، ومقدراته الفكرية، وقوة عارضته، وسعة مداركه، وشدة ذكائه وفهمه وحصافة رأيه.

وهذا هو علو نفسه، وعظم همته، ويُعدُّ غايتها، وسمو قصده، ومبلغ إحاطته بزمنه وأحوال أهله، وبمختلف العلوم درساً وتحصيلاً، وتدريساً وتتأليفاً، حتى بلغ رتبة الاجتهد في الفقه، وتسمى ذرورة الإمامة في كل فن مارسه، ويز فيه فطاحل العلماء وفاق فيه الأعيان والنظراء.

وهذه شهادة جمهرة من أئمة العلم والحديث والتاريخ عاصروه، أو كانوا على مقربة من عصره.

وناهيك بالحافظ الذهبي، والإمام ابن الوردي، والحافظ اليعمرى، والإمام ابن دقيق العيد، والحافظ المزى، والتقى السبكي، والإمام ابن الزملكانى، والعماد الواسطي، وابن رجب الحنبلى، وابن فضل الله العمرى، وسراج الدين أبي حفص، وابن الألوسي في جلاء العينين، وصاحب شذرات الذهب، وصاحب فوات الوفيات، وغيرهم من أقطاب العلم والتاريخ في ذلك العصر.

وما نظن أحداً تحدث عنه معاصره ومن قربوا من عصره من الثقات الأعلام كما تحدث هؤلاء الأئمة عن ابن تيمية وبلغه مرتبة الإمامة في كل فن: في التفسير والحديث والفقه، وفي العربية والأصول والكلام، وفي المنطق، والفلسفة، وفي التصوف وفي الملل والنحل والفرق، مع التصوف والعفاف والزهادة والعزوف عن الدنيا، وعلو الهمة، والتعبد والإنابة إلى الله، والاعتصام بالله في كل أمر، والشجاعة والإقدام على اقتحام الخطوب لنصرة الإسلام ضد الطغاة المغيرين على البلاد، لا جبأ في رياسة، ولا طمعاً في مغنم، كل ذلك مع اتباع هدي الكتاب والسنّة في كل شأن، والوقوف عند حدودها في كل حال، والذود عن حياضهما بقوة خارقة، وعزيمة صادقة مخلصة وشجاعة وإقدام وثقة بالله تعالى وإيمان.

وقد أجمع مؤرخو ابن تيمية على أنه كان في عصره أمة وحدة، توافرت له شروط الاجتهداد، فكان في الدين مجتهداً، وبلغ رتبة الإمامة في كل فن مارسه، فكان في العلوم إماماً متبعاً، وكان أتبع الناس للكتاب والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين المقتفيين آثار النبوة، فكان سلفي العقيدة والمنهج، مقتدياً.

وكان شجاعاً جريئاً لا يرهب قوة، ولا يخشى بطشأ من ذي سلطان، فكان قائداً موفقاً.

وكان صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة في رأيه ومناظراته وفتواه، ومؤلفاته، مع حدة في الطبع، وعنف في الرد على معارضيه إلى حد أرثَ بينه وبينهم العداوة وأورث الكراهية - كما قاله الذهبي - وإن كان بعضهم قد أنصفه.

وكان علي الهمة، عزيز النفس أبياً عivoأ، لا يذل ولا يستخذلي، ولا يجاري ولا يماري، ولا يرى لأحد عليه يداً يغضبي لها حين يغضب، وقد وهب الله العلم وأعزه به، فلم يعتز بسواه، ولم يقف بباب حاكم ولا أمير، طامعاً في رفده، آملاً في جاهه، وتلك سُنة السلف الصالح من أئمة الإسلام.

وكان يمتحن بالمحن والشدائد فلا يفل له عزم، ولا تهن منه قوة، واثقاً بالله متذرعاً بالصبر والرضا، محتسباً أجر جهاده عند الله الذي يجزي الصابرين ولا يضيع أجر المحسنين.

ولقد كان له أسوة حسنة في رسول الله ﷺ وفي أصحابه المجاهدين وأئمة المسلمين، وفي إماماً أهل السنة والجماعة، أحمد بن حنبل الذي قام مقام صدق، صابراً على البلاء والمحنة، رضي الله عنهم أجمعين^(١).

ولقد كان رحمة الله تعالى علمًا حاز الفضائل، وكاد أن يلحق بالأوائل، وأحبي من معالم الدين ما كان دارساً، وجدد للأمة

(١) من ترجمة الإمام الشيخ محمد حسنين مخلوف لابن تيمية رحمة الله: انظر ديوان

شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٩-٤٢.

ارتباطها بالكتاب والسنّة بعد أن كادت العرى أن تقطع، وقد لخص الشيخ ولی الله الدهلوی بعبارات موجزة جامعة تلك المزايا التي جمعها شیخ الإسلام، وبين تلك الأوصاف التي جعلت منه مجددًا لمعالم الدين، محييًا للكتاب والسنّة فقال: رحمة الله:

«على هذا الأصل اعتقدنا في شیخ الإسلام ابن تیمية رحمة الله تعالى، فإننا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانیه اللغوية والشرعية، وحافظ لسنّة رسول الله ﷺ وأثار السلف، عارف لمعانیهما اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرر لمذهب الحنابلة وفروعه وأصوله، فائق في الذکاء، ذو لسان وبلاحة في الذب عن عقيدة أهل السنّة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها، وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنّة، فمثل هذا الشیخ عزيز الوجود في العلم، أو من يطبق أن يلحق شاؤه في تحریره وحدیثه، والذین ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى، وإن كان تضییقه ذلك عن اجتہاد، ومشاجرة في مثل ذلك ما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله عنهم فيما بينهم، والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخیر»^(۱).

(۱) جلاء العینین في محاکمة الأحمدین: (ص ۴۶).

وبالجملة فإن ابن تيمية رحمة الله كان إماماً فاق أهل زمانه في العلم والفضل، وحاز من العلم ما لم يعرف لأحد في عصره بل من أزمان عديدة، ولم يأت بعده مثله في الجمع بين العلم والعمل، والتبصر في العلوم والمعارف، قد شهد له أهل عصره من الأئمة والحفاظ، وترك من بنات أفكاره من المصنفات ما لم يستطع أحد أن يترك مثله، رغم ما تعرض له من البلاء والمحن، ورغم اهتمامه بقضايا المسلمين العامة، وقيامه لنصرة دين الله حين قعد الذين حاربوه وعادوه بعد ذلك، لم يخلف ديناراً ولا درهماً ولكنه خلف علمًا وفضلاً، وحركة تجديديه أحدثت تغييرًا شاملًا في طرائق التفكير، وحرك من أمور العلم ما كان راكداً، وسواء وافقه البعض أو خالفه، فإن قسماً من خالفوه قد عرفوا من فضله وعلمه ما لم يستطعوا معه إلا أن يقروا له بالإمامية في الدين، وأنصفوه كالتقيي السبكي رحمة الله وغيره، وقسم اتبع الهوى ونظر إليه نظرة الخصومة والكراهية، فحاول أن يتبع السقطات والزلات، وسلك في ذلك طرقاً لا يتعامل بها أهل العلم الأفضل من التدليس والكذب، وافتراء التهم والأباطيل ليصلقوها بهذا الإمام، فالله تعالى يتولى السرائر، ويعفو ويصفح عنهم جميعاً، فقد أناخوا جميعاً ركائبهم في رحابه تعالى، وخير ما نقول في حقهم جميعاً كما قال تعالى على لسان أهل الإيمان حيث قالوا: ﴿رَبَّا

أَغْفِرْ لَنَا وَلَا حَوْنَا أَلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلَّا
لِلَّذِينَ أَمَّنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [الحشر: ١٠].

والله نسأل أن يجمع بين أهل العلم والفضل في جنات الرضوان إخواناً على سرر متقابلين، وقد نزع الله من القلوب الضغينة والإحن، فما منهم إلا إمام قد جمع في نفسه من العلم والخير شيء الكثير، وما من إنسان إلا ويصيّب ويخطأ.

وقد انتفت العصمة إلا عن النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وجمعنا الله تعالى بهم في مستقر رحمته، ونفعنا بعلوّهم، وأسبل علينا وعليهم من ستره وفضله ما يبلغنا به جنته ورضوانه.

وختاماً فإنّ أحسنت فذلك من فضل الله تعالى وكرمه، وإن أخطأت فقد بذلت وصعي في الوصول إلى المبتغى، وحسبي أنني لم أتمد الخطأ، فأسأل الله أن يكتب لي الأجر، ويعفو عن الزلة، إنه سميع مجيب، وأآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عمان/الأردن

في يوم الإثنين: ١٣/٩/١٤١٩هـ

١٩٩٩/٣/١م

المَرَاجِع

- ١ - ابن تيمية عبد الرحمن النحلاوي / دار الفكر.
- ٢ - ابن تيمية د. محمد يوسف موسى / المؤسسة المصرية للكتاب.
- ٣ - ابن تيمية والتصوف / د. مصطفى حلمي / دار الدعوة.
- ٤ - ابن تيمية السلفي / د. محمد خليل هراس / دار الكتب العلمية.
- ٥ - ابن تيمية العالم الجريء / عبد المنعم الهاشمي / دار ابن كثير - دمشق.
- ٦ - ابن تيمية المجتهد / د. عمر فروخ / دار لبنان.
- ٧ - أحاديث القصاص/ ابن تيمية/ تحقيق محمد لطفي الصباغ / المكتب الإسلامي.
- ٨ - الاستقامة / لشيخ الإسلام ابن تيمية / محمد رشاد سالم.
- ٩ - استمرارية الدعوة / د. محمد السيد الوكيل / دار المجتمع للنشر والتوزيع.
- ١٠ - الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية / أبو حفص البزار / تحقيق: زهير الشاويش / المكتب الإسلامي.
- ١١ - إعلام الموقعين عن رب العالمين / لابن القيم.
- ١٢ - الإعلان بالتوبیخ لمن ذم التاريخ / لأبی عبد الرحمن السخاوى / تحقيق: روزنثال.
- ١٣ - الإکلیل فی المتشابه والتاویل / لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ١٤ - الإمام ابن تيمية و موقفه من قضية التاویل / محمد السيد الجلینید /

١٥ - أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية: للأستاذ محمد إبراهيم الشيباني / مكتبة ابن تيمية الكويت.

١٦ - البداية والنهاية / ابن كثير الدمشقي.

١٧ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: للشوكتاني. مطبعة السعادة.

١٨ - بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ابن تيمية/دار الصميدي.

١٩ - تذكرة الحفاظ / الحافظ الذهبي.

٢٠ - منكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم / ابن جماعة الكناني / دار المعالي.

٢١ - تفسير ابن كثير / دار المعرفة بيروت.

٢٢ - تفسير آيات أشكلت / لشيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق: عبد العزيز الخليفة / مكتبة الرشد.

٢٣ - تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية إبراهيم عقيلي / المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٤ - التقريب لفقه ابن القيم/بكر عبد الله أبو زيد / الرياض.

٢٥ - تلخيص الاستفادة (الرد على البكري) بن تيمية / تحقيق: أبو عبد الرحمن محمد بن عجال / مكتبة الغرباء.

٢٦ - ثلاث رسائل في الجهاد/ لشيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق: إبراهيم العلي ومحمد أبو صعيديك / دار النفائس / عمان.

٢٧ - جامع الرسائل والمسائل / لشيخ الإسلام ابن تيمية / محمد رشاد سالم.

٢٨ - جلاء العينين في محاكمة الأحمديين/نعمان الألوسي / مطبعة المدنى بالقاهرة.

٢٩ - الجواب الباهر في زوار المقابر / لابن تيمية / تحقيق: سليمان الضبيع / نشرها قصي الخطيب.

٣٠ - الحافظ ابن تيمية / أبو الحسن الندوى / دار القلم / الكويت.

٣١ - حياة شيخ الإسلام ابن تيمية / للشيخ محمد بهجة البيطار / المكتب الإسلامي.

٣٢ - درء تعارض العقل والنقل / لشيخ الإسلام ابن تيمية / محمد رشاد سالم / جامعة الإمام محمد بن سعود.

٣٣ - الدرر الكاملة في أعيان المائة الثامنة / الحافظ ابن حجر العسقلاني.

٣٤ - دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية / صلاح الدين مقبول / دار ابن الأثير.

٣٥ - نقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية / الجلبيين /.

٣٦ - نيوان شيخ الإسلام ابن تيمية / جمعه محمد عبد الرحيم / دار الجيل.

٣٧ - ذيل العبر / للحافظ الذهبي.

٣٨ - الذيل على طبقات الحنابلة / لابن رجب الحنبلي.

٣٩ - الرد على الأخنائي / لشيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق المعلمي اليماني / دار الإقتساء الرياض.

٤٠ - الرحمن على العرش استوى / د. عوض منصور.

٤١ - الرد على البكري / لشيخ الإسلام ابن تيمية / المطبعة السلفية.

٤٢ - الرد على المنطقيين / لشيخ الإسلام ابن تيمية /.

٤٣ - الرد الواffer / لابن ناصر الدين الدمشقي / تحقيق: زهير الشاويش / المكتب الإسلامي.

٤٤ - رسالة الألفة بين المسلمين / لابن تيمية / تحقيق عبد الفتاح أبو غدة / مكتبة المطبوعات الإسلامية.

٤٥ - الرسالة التمرية: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٤٦ - رفع الملام عن الآئمة الأعلام / لابن تيمية / نشرها قصي محب الدين الخطيب.

٤٧ - سنن ابن ماجة / طبعة فؤاد عبد الباقي.

٤٨ - سنن أبي داود / طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤٩ - سنن النسائي / طبعة: عبد الفتاح أبو غدة.

٥٠ - سير أعلام النبلاء/الحافظ الذهبي / مؤسسة الرسالة.

٥١ - شذرات الذهب/لابن العماد الحنبلي/دار الفكر.

٥٢ - شرائع الإسلام في منهج ابن تيمية/هنري لاوست / ترجمة: محمد عبد العظيم علي/دار الدعوة.

٥٣ - الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية: مرعي بن يوسف الكريم / دار الفرقان.

٥٤ - شيخ الإسلام ابن تيمية والعمل الجماعي/عبد الرحمن عبد الخالق / جمعية إحياء التراث الإسلامي.

٥٥ - شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره/صلاح الدين المنجد/دار الكتاب الجديد.

٥٦ - صحيح البخاري مع فتح الباري الطبعة السلفية.

٥٧ - صحيح مسلم / طبعة: فؤاد عبد الباقي.

٥٨ - الصفية/لشيخ الإسلام ابن تيمية/محمد رشد سالم.

٥٩ - طبقات الحفاظ/جلال الدين السيوطي.

٦٠ - طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي.

٦١ - طبقات المفسرين/للداودي.

٦٢ - العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية/لابن عبد الهادي.

٦٣ - العقيدة السلفية بين أحمد بن حنبل وابن تيمية/د. عبد العزيز شبلی/دار المنار.

٦٤ - العقيدة الواسطية/لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٦٥ - علم الحديث/ابن تيمية/دار الكتب العلمية.

٦٦ - العلماء العزاب/عبد الفتاح أبو غدة/مكتب المطبوعات الإسلامية حلب / الطبعة الرابعة.

٦٧ - علو الهمة/محمد أحمد المقدم / دار العقيدة للتراث/الإسكندرية.

٦٨ - الفتاوي الكبرى لابن تيمية/دار المعرفة.

٦٩ - الفتوى الحموية الكبرى/تحقيق: حمود التويجري/دار الصمعي.

٧٠ - فوات الوفيات/لابن شاكر الكتبى/تحقيق إحسان عباس/دار صادر/ بيروت.

٧١ - قاعدة في الجرح والتعديل/لتاج الدين السبكي/طبعة: عبد الفتاح أبو غدة.

٧٢ - القواعد النورانية الفقهية/لابن تيمية/تحقيق محمد حامد الفقي/دار المعرفة.

٧٣ - مجلة الحكمة/أعداد مختلفة.

٧٤ - مجلة الوعي الإسلامي.

٧٥ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية/١٢٧.

٧٦ - مجموعة الرسائل الكبرى/لابن تيمية/دار الفكر.

٧٧ - مدارج السالكين/ابن قيم الجوزية/تحقيق: أحمد الرفاعي/دار الجليل/دار عمار.

٧٨ - مسند الإمام أحمد بن حنبل/طبعة: بيت الأفكار الدولية.

٧٩ - معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول/ابن تيمية/نشرها قصي الخطيب.

٨٠ - المعجم الكبير (شيخ الذهبي)/الحافظ الذهبي.

٨١ - المعجم المختص بالصحابتين/الحافظ الذهبي.

٨٢ - مكارم الأخلاق/لابن تيمية/جمع وتعليق عبد الحميد بدران/محمد عمر الحاجي/دار الخير.

٨٣ - فقه الأولويات في الإسلام/د. مجدي الهلالي/دار التوزيع والنشر الإسلامية/مصر.

٨٤ - المنار المنيف في الصحيح والضعيف/لابن القيم/طبعة: عبد الفتاح أبو غدة.

٨٥ - منهاج السنة النبوية/لشيخ الإسلام ابن تيمية/أكثر من طبعة.

٨٦ - منهاج ابن تيمية في مسألة التكفير/ وعبد المجيد الشعيبى/ أصوات السلف.

٨٧ - موافقة صحيح المنقول صريح المعقول/ لابن تيمية/ مكتبة السنة المحمدية.

٨٨ - ناحية من حياة شيخ الإسلام/ بقلم خادمه إبراهيم بن أحمد الغيانى / محب الدين الخطيب.

٨٩ - الوابل الصبيب من الكلم الطيب/ لابن القيم/ دار الكتب العلمية.

٩٠ - الواقى بالوقايات/ الصدقى.

٩١ - الوصية الصغرى/ لابن تيمية/ تحقيق صبرى بن سلافعه شاهين/ دار الكتاب والسنّة.

الفهرس

٥	هذا الرجل
٩	المقدمة
٢١	تمهيد: عصر ابن تيمية
٢٢	الحالة السياسية
٢٨	الحالة الاجتماعية
٢٩	الحالة العلمية
٣٥	الفصل الأول: مولده وأسرته
٣٥	اسمها ونسبه
٣٧	مكان وتاريخ ولادته
٣٨	حليته وأوصافه الخلقية
٣٩	آثار حليته على تصرفاته
٣٩	تلقيه بشيخ الإسلام
٤٣	أسرته ومن اشتهر منهم بالعلم
٥٩	الفصل الثاني: نشأته وطلبه للعلم
٦٢	١ - مرحلة الهجرة والاستقرار

٦٤	٢ - مرحلة طلب العلم والتلقي
٦٦	أ - اشتهره بالحفظ
٧٥	ب - العلوم التي تعلمها
٨٤	ج - عدم شبعه من العلم والمطالعة
٨٩	٣ - مرحلة بداية العطاء العلمي:
٩١	- الإذن له بالفتوى
٩٢	- وفاة والده وقيامه بالتدريس مكانه
٩٨	- صفات دروسه
١٠٢	- اشتهر علمه في الآفاق
١٠٥	- إجماع أهل عصره في الثناء عليه
١٠٧	الفصل الثالث: شيوخه وتلاميذه:
١٠٩	١ - شيوخه
١٠٩	● مصدر تلقي العلم في عصره
١١٢	● شيوخه وثبت بأسمائهم
١٢٩	● الكتب التي قرأها
١٢٤	٢ - تلاميذه
١٣٩	أشهر تلاميذه
١٤٥	الفصل الرابع: أخلاق وسجايا:
١٤٨	١ - قوة إيمانه
١٥١	٢ - الإخلاص في طلب الحق، والتخلص من أدران الهوى
١٥٦	٣ - ورعه وزهده وفراغه عن الدنيا وأسبابها
١٦١	٤ - كثرة عبادته وابتهاله وتعظيمه لحرمات الله

١٧٠	٥ - تواضعه وحلمه وعفوه عن الآخرين وصفحة
١٧٥	٦ - ثباته وجرأته في قول الحق، وعدم مداهنته
١٨١	٧ - موضوعيته وإنصافه
١٨٩	٨ - شجاعته المفرطة مع قوة الصبر والاحتمال
١٩٥	٩ - هيبته
١٩٨	١٠ - كرمه وجوده
٢٠٣	١١ - قوته فراسته
٢٠٨	١٢ - تعظيمه للسنة ونصرته لها

الفصل الخامس: ابن تيمية ومنهجه في الدعوة والإصلاح بين

٢١٧	النظريّة والتطبيقيّ
٢١٩	أ - أسس المنهج الدعوي عند ابن تيمية
٢٢٠	١ - التمسك بالكتاب والسنة
	٢ - حرصه على وحدة الأمة واجتماع الكلمة واتلاف
٢٢٢	القلوب
٢٢٧	٣ - مراعاته لفقة الأولويات والتدرج في التربية
٢٣٨	٤ - شمولية منهجه الدعوي والإصلاحي
	ب - العمل الجماعي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٥٣	موقعهما في منهجه الإصلاحي
٢٦٧	ج - مواصفات الداعية الناجح ومدى انطباقها عليه
٢٨١	د - مجالات عمل دعوة ابن تيمية
	ه - عقبات في طريق منهجه الإصلاحي ووسائله في التغلب
٢٩٠	عليها:
٢٩١	١ - الإيذاء

٢٩٢	٢ - وقوف بعض العلماء ضده
٢٩٦	٣ - السجن والاعتقال
٢٩٨	٤ - إزال الأذى بتلاميذه ومحبيه
٣٠٠	٥ - مصادرة ما لديه من كتب:
٣٠١	● وسائله في مواجهة العقبات:
٣٠٤	- اللجوء إلى الله والصبر ..
٣٠٦	- إقباله على قراءة القرآن ..
٣٠٦	- عفوه عن ظلمه ..
٣٠٧	و - بعض آرائه في فقه الدعوة ..
الفصل السادس: مرضه ووفاته:		
٣١٥	- مرض شيخ الإسلام ..
٣١٥	- تاريخ وفاته ..
٣١٦	- ردة فعل الناس على وفاته ..
٣١٦	- هيبة جنازته ..
الفصل السابع: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:		
٣٢٥	- مكانته العلمية ..
٣٢٥	أولاً: ثناء معاصريه وأكابر العلماء عليه وتبجيلهم له
٣٣٩	ثانياً: ثناء أقرانه وتلاميذه عليه ..
٣٥٠	ثالثاً: ثناء الأكابر الآخرين ..
الفصل الثامن: مؤلفات شيخ الإسلام ..		
٣٥٧	- قيمه مصنفاته العلمية ..

٣٦٠	- منهجه في مؤلفاته
٣٦٤	- أسباب غزارة عطائه العلمي
٣٦٤	١ - البدء بالتأليف في سن مبكرة
٣٦٥	٢ - غزارة علومه و المعارف
٣٦٨	٣ - سرعته في الكتابة والتأليف
٣٧١	٤ - دخوله في مجادلة أهل العلم في زمانه
٣٧١	٥ - خلوه عن المناصب والوظائف
٣٧٢	- عدد مصنفاته رحمه الله
٣٧٧	- أسماء أشهر مصنفاته
 الفصل التاسع: ابن تيمية فقيهاً		
٣٨١	- الأذن له بالفتوى
٣٨٢	- غزارة علومه بالفقه وأصوله و اختلافاته
٣٨٣	- إفتاؤه على غير مذهب معين
٣٨٨	- اجتماع شروط الاجتهداد فيه
٣٩٠	- من كتبه في الأصول والفقه
٣٩٤	- اختياراته الفقهية وأسس هذه الاختيارات
٣٩٥	- نماذج من اختياراته
٣٩٧	- غرائبه ومفرداته
٣٩٨	- قيمة اختياراته ومفرداته العلمية
٤٠٤	 الفصل العاشر: ابن تيمية المحدث
٤٠٧	- عنایته بالحديث ومصنفاته
٤٠٨	- سعة اطلاعه وعلمه بالسُّنَّة

٤١٠	- ثناء العلماء عليه في علمه بالحديث
٤١٥	- مكانته بين نقاد الحديث والمتكلمين في الرجال
٤١٦	- منهجه في النقد
٤١٨	- نماذج من أحكامه على الأحاديث
٤٢٤	- نماذج مما نقله الأئمة عنه في التصحيف والتضعيف
٤٢٧	- علوم المصطلح ومصنفاته عند ابن تيمية
٤٢٨	أ - من آرائه في علوم المصطلح
٤٣٥	ب - من آرائه في بعض المصنفات الحدبية
٤٤١	- بعض مصنفاته في الحديث
٤٤٣	- كونه من أقدم من ألف في الأحاديث المشتهرة
٤٤٥	الفصل الحادي عشر: ابن تيمية مفسراً
٤٤٦	- سعة علمه بالتفسير
٤٥٠	- تفرغه للتفسير في آخر عمره
٤٥٢	- طريقته ومنهجه في التفسير
٤٥٥	- رأيه في كتابة تفسير مرتب للقرآن
٤٥٦	- ميزات تفسير شيخ الإسلام
٤٥٨	- القواعد الكلية لفهم القرآن
٤٦٣	- من آرائه في كتب التفسير
٤٧٢	- استفادة من جاء بعده من آرائه
٤٧٣	- من آثاره ومصنفاته في التفسير
٤٧٥	- نماذج من آرائه في التفسير وعلومه

الفصل الثاني عشر: ابن تيمية وعلوم المنطق والعقيدة	٤٨٣
- ثناء العلماء عليه في هذا الجانب	٤٨٤
- رأيه في علم المنطق	٤٨٧
- شدة نقده لعلوم المنطق	٤٨٧
- أسباب انحراف المنطقين	٤٨٨
- نقشه للمنطق من دعائمه الأساسية	٤٩٢
- لماذا درس المنطق	٤٩٤
- هل كان ابن تيمية عدواً للعقل	٤٩٦
- لماذا أكثر من التأليف في العقيدة	٤٩٧
- جودة كلامه في أمور العقيدة	٥٠٠
- أسماء بعض مؤلفاته في العقيدة	٥٠١
- من أين نأخذ عقيدة ابن تيمية	٥٠٣
- مجمل عقidiته كما جاءت في مصنفاته	٥٠٤
- دحض شبه وافتراضات موجهة إليه	٥١٠
- الخطأ في الاجتهاد في فروع العقيدة	٥٣٢
- نماذج من أحکامه على الفرق والمذاهب	٥٣٧
 الفصل الثالث عشر: ابن تيمية والعلوم الأخرى	٥٤٥
أ - ابن تيمية وعلوم العربية	٥٤٥
- انتقاده على سيبويه	٥٤٧
- خصائص مذهبة في النحو والعربية	٥٤٨
- استفادة بن القيم من شيخه في العربية	٥٤٨
- الاحتجاج بالحديث النبوي والقياس عليه	٥٥١

٥٥٢	- مسائل نحوية سبق إليها
٥٥٣	- ابن تيمية والشعر
٥٥٤	- نماذج من استشهاده بالشعر
٥٥٥	- نماذج من نظمه الشعر
٥٥٧	ب - علمه بالتاريخ والسير
٥٥٩	ج - ابن تيمية وعلم السلوك والتربية
٥٦٠	- مختارات من آرائه التربوية والسلوكية
٥٧٣	- نماذج من أحكامه على بعض كتب السلوك
٥٧٤	- ابن تيمية وتطبيقه لقواعد السلوك الإسلامي على نفسه ..
٥٧٧	- من عباراته وأقواله الجامحة
٥٧٨	- عبارات جامحة في العلم
٥٧٩	- عبارات جامحة في العبادة والزهد والسلوك
٥٨٢	- عبارات جامحة في التوحيد ومعرفة الله تعالى
٥٨٥	الفصل الرابع عشر: كيف تعامل مع أهل العلم
٥٨٦	أ - طالب العلم يحتاج إلى توعية وتنبيه ..
٥٨٧	ب - ضوابط وموازين للتعامل مع العلماء
٦١٢	ج - كيف تكون نظرة الخصوم إلى العلماء
٦٢٢	د - النظرة الصحيحة إلى آراء العالم الواحد
٦٢٧	ه - ابن تيمية بشر يخطيء ويصيب ..
٦٣٣	و - ندرة أخطائه وقلتها بالنسبة لصوابه ..
٦٣٤	ز - آراؤه ليست قائمة على التشهي
٦٣٥	ح - ما أخذ عليه ..

٦٤٠ ط - مواقف الناس تجاه ابن تيمية
٦٤٤ ي - مسک الختام في موقف ابن تيمية من خصومه
٦٤٧ الخاتمة
٦٥٥ المراجع
٦٦١ الفهرس

كتاب المؤلف^٧

- ١ - صفحات مضيئة من عبادة السلف - مكتبة المنار/ الزرقاء - الأردن.
- ٢ - علي بن المديني/ سلسلة إعلام المسلمين - دار القلم/ دمشق.
- ٣ - حذيفة بن اليمان/ سلسلة إعلام المسلمين - دار القلم/ دمشق.
- ٤ - الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء/ دار القلم/ دمشق.
- ٥ - صفحات مضيئة من مواقف السابقين/ ١ - ٢/ دار القلم - دمشق.
- ٦ - صحيح السيرة النبوية/ دار النفائس/ عمان.
- ٧ - من نبوءات الرسول/ حديث الخلافة والأمراء/ دار القلم - دمشق.
- ٨ - تفسير سورة الأنعام/ بالمشاركة - دار النفائس/ عمان.
- ٩ - الأرض المقدسة بين الماضي والحاضر والمستقبل/ دراسة حديثية تحليلية/ منشورات فلسطين المسلمة.

١٠ - صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام / دار النفائس / عمان.

١١ - شيخ الإسلام ابن تيمية / سلسلة أعلام المسلمين / دار القلم / دمشق.

الكتب المحققة:

١٢ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين / تحرير وتعليق / دار الجيل - دار عمار.

١٣ - كتاب الرؤية للدارقطني - تحقيق بالمشاركة / مكتبة المنار / عمان.

١٤ - كتاب مختصر قيام الليل للمرزوقي - تحقيق بالمشاركة / مكتبة المنار / عمان.

١٥ - كتاب مختصر قيام رمضان للمرزوقي - تحقيق بالمشاركة / مكتبة المنار / عمان.

١٦ - كتاب مختصر صلاة الوتر للمرزوقي - تحقيق بالمشاركة / مكتبة المنار / عمان.

١٧ - ثلاث رسائل في الجهاد / لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق بالمشاركة / دار النفائس / عمان.

١٨ - رسالتان في حياة الأنبياء للبيهقي - السيوطي - تحقيق بالمشاركة / دار النفائس عمان.

١٩ - تحرير أحاديث تقريب الطبرى / ١ - ٧ / دار القلم - دمشق.